المركز القومى للترجمة



المشروع القومى للترجمة

ريمون ستامبولى

مفاتيح أورشليم القدس

حملتان صليبيتان على مصر

(١٢٠٠ - ١٢٥٠)

الطبعة الثانية

2/ 619

ترجمة: عايدة الباجورى

مراجعة وتقديم: إسحاق عبيد

مفاتيح أورشليم القدس

حملتان صليبيتان على مصر

(١٢٠٠ ـ ١٢٥٠)

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٦١٩ / ٢
- مفاتيح أورشليم القدس: حملتان صليبيتان على مصر (١٢٠٠ – ١٢٥٠)
- ريمون ستامبولى
- عايدة الباجورى
- إسحاق عبيد
- الطبعة الثانية ٢٠٠٩

هذه ترجمة كتاب:

Les Clefs de Jérusalem
Deux Croisades Francaises en Egypte
(1200 – 1250)
Raymond Stambouli

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

مفاتيح أورشليم القدس

حملتان صليبيتان على مصر

(١٢٠٠ ـ ١٢٥٠)

تأليـــــــف: ريمون ستامبولى

ترجمــــــــة: عايدة الباجورى

مراجعة وتقديم: إسحــاق عبيــد



٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ستامبولى؛ ريمون
مفاتيح أورشليم القدس: حملتان صليبيتان على مصر(١٢٠٠-١٢٥٠)/ تأليف: ريمون ستامبولى؛ ترجمة: عايدة الباجورى؛ مراجعة وتقديم: إسحاق عبيد.
ط٢_ القاهرة، المركز القومى للترجمة، ٢٠٠٩
٣٩٢ ص_ ٢٤سم
١- الحروب الصليبية فى مصر
أ- الباجورى؛ عايدة (مترجم)
ب- عبيد؛ إسحاق (مراجع ومقدم)
ج- العنوان ٩٥٣،٧٣٩٣

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٩٣٥٩
الترقيم الدولى: 5- 199- 479- 977- 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

ثانيًا : الحملة الصليبية المسالمة

ثالثًا : الحملة الصليبية الفرنسية (شجرة الدر)

مقدمة المراجع

تمثل الحروب الصليبية نقطة سوداء فى تاريخ العلاقات بين الغرب الأوروبى المسيحى والشرق الإسلامى فى العصور الوسطى. فلقد هاجم مفلسو القلاع الإقطاعية وقطاع الطرق وأرباب السجون والقتلة، بل ونفر من بنات الهوى من كل نجوع أوروبا الإفرنجية شعوب الشرق الأدنى الآمنين للنهب والسلب والتدمير والقتل ، وذلك بتحريض من البابا أوربان الثانى سنة ١٠٩٥م فى مؤتمر كليرمونت بفرنسا. فلقد استنفر البابا جمهوره المتحفز لسفك الدماء، للزحف قبالة المشرق والأراضى المقدسة حيث تفيض الأنهار عسلا ولبنا ، بعيدا عن المجاعات والأوبئة والتناحر الإقطاعى "ولكى يسيل البابا لعاب الغوغائية الدينية، راح يدغدغ مشاعر الخاصة والعامة بشحنة من الهوس الدينى والتعصب الأعمى الممقوت ، فى عبارات أبعد ما تكون عن رسالة السيد المسيح عن السلام على الأرض ؛ وبذلك أساءت البابوية والصليبيون إلى المسيح والمسيحية أيما إساءة .

ومن يقلّب صفحات الكتابات الإفرنجية المعاصرة يطالع أحداثا يندى لها الجبين، من مذابح جماعية ونهب واغتصاب للنساء، الأمر الذى يجعلنا نقرر – فى موضوعية تامة – أنّ هؤلاء الصليبيين كانوا "برابرة" بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معان. وجدير بالملاحظة فى هذا السياق أن سلوك رجال الدين الذين وفدوا مع الفرسان الإقطاعيين والدهماء كان سلوكا فخريا، وذلك باعتراف البعض من كتابهم من أمثال وليم الصورى على سبيل المثال لا الحصر؛ فلقد انقضّ رجال الدين الكاثوليك على آثار وأيقونات الأراضى المقدسة يسرقونها لبيعها بعد عودتهم إلى بلادهم بأغلى الأسعار.

ويستوى فى هذا المسلك المتبربر القادة العلمانيون من أمثال جودفرى دى بويون وشقيقه قاطع الطريق بلدوين، وبوهمند النورماندى وابن شقيقته الرهيب تانكرد، وصولا إلى لويس التاسع ملك فرنسا، الذى كان رجلا متهوسا ومعقدا، كما تشى بذلك سجلات سيرته الذاتية.

ولعل الشخصية الوحيدة التى نبذت هذا التعصب الدينى المجنون فى أوروبا العصور الوسطى هوالملك الألمانى فردريك الثانى ، الذى كان قد تربى فى كنف الحضارة العربية الإسلامية فى جزيرة صقلية، فتشرب من المثل العليا لهذه الحضارة الإنسانية، وراح يتكلم بلسان عربى فصيح ويقيم علاقات متميزة مع السلاطين الأيوبيين فى مصر والشام. ولا عجب أن سارعت البابوية وحملة مباخرها إلى الترويج لهذا الرجل بأنه "مارق" ثم وصموه بصفة "الزنديق الأكبر"!

أيضا، لا بد من إيضاح أن العدوان الصليبى لم يكن موجها فقط ضد الإسلام والمسلمين، وإنما أيضا ضد المسيحيين الشرقيين بمختلف طوائفهم، لأنهم – من وجهة النظر الإفرنجية – قد ترددوا فى الهرطقة.

وتسجل صفحات التاريخ كيف أنه فى سنة ١٢٠٤م هجم الصليبيون على مدينة القسطنطينية المسيحية – بمباركة البابا إينوسنت الثالث – وراح الصليبيون فى النهب والسلب، ثم اقتحموا كنيسة أياصوفيا بخيولهم، وفى نهاية اليوم أجلسوا راقصة بروفنسالية متهتكة على عرش البطريرك البيزنطى لتغنى لهم أغانيها الفاحشة، وهم سكارى! ناهيك عن نبش قبور الأباطرة لنهب الذهب من الأكفان.

وجدير بالتسجيل فى ختام هذه الكلمة أن نبين أن البابا الحالى جون بول الثانى قد وقف فى شجاعة نادرة منذ بضع سنين يندد علانية بالحركة الصليبية وعدوانها من الألف إلى الياء. وهذا أمر يحسب للرجل.

* * *

مقدمـــة

هذا الكتـاب قصـة تاريخية فرنسية – عربية تروى البداية العاصفة للعلاقات المباشرة بين فرنسا ومصر فى نهاية القرن الثانى عشر والثالث عشر حين شعرت مملكة الفرنجة بأهمية مصر إبان الحروب الصليبية، وبعد فشل الملوك فيليب أغسطس وريتشارد قلب الأسد وفردريك بربروسا الأول فى القيام بالحملة الصليبية الثالثة، حيث لم تستطع الاستيلاء على القدس وتحريرها من قبضة صلاح الدين الأيوبى. وبدا من الواضح أن صلاح الدين لن يسحب قواته من القدس التى كانت بمثابة قلب إمبراطوريته فى مصر، فشعر الصليبيون أنه من أجل إعادة الاستيلاء على فلسطين التى كانت المملكة اللاتينية للقدس ، فلا بد من ضرب قوة الأيوبيين فى قلبها أى فى مصر ذاتها ، وعلى ذلك فإن مفاتيح أورشليم القدس كانت دوما فى القاهرة!

وخلال ما يقرب من نصف قرن، ومنذ عام ١٢٠٠ وحتى عام ١٢٥٠ تتابعت الحروب والمهادنات. ولم تكن نظرة كل من فرنسا والعالم العربى – خاصة فى مصر – إلى هذه الأحداث نظرة واحدة، حيث كان يجرى فى هذا الوقت العديد من الأحداث التاريخية المتزامنة سواء على الصعيد العربى أوالأوروبى ، ويبدو الأمر مختلفا تماما عندما يتعلق بمحاولة ترجمة مفهوم أوآثار هذه الأحداث ؛ فمثلا هذا " الانتصار " الذى زعمه أحدهم لا يعنى بالضرورة " هزيمة " من وجهة نظر الآخر كما أن الإيمان بالإسلام لم يكن أقل من إيمان الصليبيين بالمسيحية.

ويهدف هذا الكتاب إلى محاولة توضيح كيف أن المصريين خاصة والعرب فى منطقة الشرق الأوسط بصفة عامة أدركوا المعنى الحقيقى لتوجه جموع من الفرنجة

نحوهم متخذة من الصليب شعارا ، وإذا كانت قوة وبأس جوانقيل وج. ساراسين اللذين رافقا لويس التاسع إلى مصر ساعدت فى تعزيز ودعم شرح وجهة نظر الفرنجة، فإنه فى الوقت نفسه لم يكن لدى المؤرخين العرب الحساسية نفسها تجاه قصص الورع التى أحاطت وما زالت تحيط "بملك ملوك فرنسا " كما يسمونه ، والذى أصبح فيما بعد يعرف فى فرنسا بالقديس لويس.

وتوضح المواجهة بين كل من جان دى بريان وفرنسوا داسى وفردريك الثانى (المحروم كنسيا) ولويس التاسع الملك القديس بفرنسا من جهة وبين السلاطين الأيوبيين من " العادل " و" الكامل " إلى " الصالح " ثم " شجرة الدر " وهى المرأة الوحيدة التى حكمت مصر الإسلامية ثم المملوك بيبرس الذى يعد من أعظم القادة العسكريين ، جميع هؤلاء أظهروا الصورة الحقيقية لما حدث فى تلك الفترة.

وفى خضم هذه الأحداث جميعها اكتشفت فرنسا مصر واكتشف المصريون فرنسا.

ولعل هذه القصة التاريخية الإفرنجية – العربية تساعد على فهم أعمق للصراعات المأساوية التى تدمى الشرق الأوسط بأكمله!...

وقد كتب هذا الكتاب قبل وقوع ما نطلق عليه على استحياء " أزمة الخليج " ليكون انعكاسا للأحداث الجارية. ففى القرن الثالث عشر لم يكن الدافع الرئيسى للحروب هوالحصول على البترول ولكنه كان الوصول إلى طريق التوابل وسلب تجارة الشرق لتكوين ثروات طائلة ، ولم يكن القتال لنيل " الحقوق " بل يمكن القول إنه كان فى سبيل الله بالإضافة إلى أن الدين كان أساسا لشرائع الحكم . وهنا نتساءل هل فى هذا اختلاف عما نراه اليوم ؟

" فعلى كل تاجرٍ اختار له الله الحضورَ إلى مملكتنا التأكد من أن قرار الله هو لصالحه ، فهو يأتى إلى بلدٍ لا يحتاج فيها أحدٌ الى مؤَنٍ لأنها جنةُ عدْنٍ لمن يسكنها ، وهى أيضا تعويضٌ لمن هو بعيدٌ عن وطنه. فعلى تجار اليمن والهند والصين والسند والأماكن الأخرى الذين سيصل إليهم مرسومُنا هذا أن يشدوا رحالهم لبدء الطريق إلينا وسيجدون أن الحقيقة تفوق كثيرا كلماتنا والأشياء الجميلة التى تنتظرهم تفوق وعودنا "

(خطاب مرسل من سلطان مصر لتجار آسيا - القرن الثانى عشر)[*] .

(*) من كتاب ألفية القاهرة ، صفحة ٢٠ (وزارة الثقافة ، القاهرة ، ١٩٦٩)

القاهرة عام ١٢٠٠

فى عام ١٢٠٠، كانت " القاهرة " شابة عجوزًا عمرها ثلاثة آلاف عام، وكان الفراعنة قد اختاروا لها الموقع بين جبال المقطم الحمراء وساحة الأهرامات حين يهرب النيل إليها من الوادى لتكوين الدلتا، وكانت الحياة تدب فى هذا الموقع دوما.

وكانت ممفيس الفراعنة تقع إلى الشمال فى ذلك الوقت ، حيث أقام الرومان فى نهاية القرن الأول إبان حكم الإمبراطور " تراجان " قلعة مهمة أطلق عليها "بابيلون". هذه القلعة أصبحت فيما بعد قلب الحى الحضرى؛ وبهذا استمر المظهر الملكى الفرعونى لمفيس. وكان الطريق المحاذى لمنحنى تلال المقطم الذى يقود إلى هليوبوليس المدينة المقدسة لإله الشمس يشكل محور التطور للمدن المختلفة التى تعاقبت بعد ذلك لتصبح القاهرة فى فجر القرن الثالث عشر، وهى بابيلون عند الرومان والفسطاط عند العرب (أم البلاد من عام ٦٤٠) ثم القاهرة عند الفاطميين الشيعة فى القرن العاشر؛ فهى إذن المدينة المتطورة للأبد والتى دائما ما يتغير اسمها دون أن تتغير روحها ، وفى ذلك الوقت كانت هناك نزعة للابتعاد عن النيل لتجنب المستنقعات والطمى والتغيرات المتقلبة غير المفهومة لمجرى النهر.

وقد شيد الخلفاء الفاطميون مدينتهم "القاهرة المنصورة" على أساس عمرانى طبقا لتخطيط إنشائى محكم. وقد حور التجار الإيطاليون الاسم إلى "كايرو" وكان محورها الأوسط هوالطريق الملكى الذى يطلق عليه "القصبة".

وكانت تحد المدينة ثلاثة مساجد ضخمة مثل الكاتدرائيات، يقع إلى الشمال منها مسجد الخليفة الحاكم بأمر الله أما فى الوسط فيقع مسجد الأزهر، وينتهى المحور فى الجنوب بالمسجد الذى بناه ابن طولون فى القرن السابق ، وكان النيل قريبا جدا من هذا

المكان فى ذلك الوقت حيث تبدأ قناة (الخليج) التى كانت بمثابة التأكيد للعلاقة بين النيل والبحر الأحمر زمن الفراعنة.

أما محور الوسط الموازى للخليج والشوارع المتقاطعة والتى تسمح بالدخول إليه فقد شيد فيه الخلفاء الفاطميون قصرين شامخين كانا محل إعجاب الجميع ، فقد كان هذا هوعصر السلطة والحكومة. وكان يتعين على جميع الأعيان إقامة أبنية فاخرة تقع على طول القصبة، أوعلى المستنقعات التى يتركها النيل عند انحساره .

وكانت القاهرة دوما محصنة، حيث شكل الخليج خندقا طبيعيا لها . فأصبحت محاطة بأسوار ضخمة وبوابات محصنة، إلاّ أنّ المدينة سرعان ما تخطت هذه الأسوار فتم هدمها وبناؤها فى أماكن أبعد كما عدلت بوابات لتصبح أكثر صلابة وقوة.

وفى عام ١٢٠٠ أصبحت القاهرة أكبر المدن الإفريقية وتفوقت على كلٍ من المدن الأوروبية ومدن حوض البحر المتوسط فى المساحة ، ولكن أحدا لم يفكر فى إحصاء عدد سكانها المقدر بالآلاف ، كما لم يفكر أحد فى أن يحصى آلاف الأشخاص الذين أجبروا على المبيت خارج أسوار المدينة بسبب قلة عدد منازل الإيواء.

وكان من الصعب إحصاء عدد المساجد وأماكن العبادة الأخرى فى القاهرة ، هل هى مائة أو ألف أو عشرة آلاف أو أكثر من ذلك ؟ وكم كان عدد الأفراد الذين يحملون سائل الحياة فى قرب من جلد الماعز والذين يطلق عليهم السقاة هل هم ١٠,٠٠٠ أو ٣٠,٠٠٠ أم أكثر؟ وأيضا مؤجرو الدواب من الحمير إلى الجمال هل هم ٣٠,٠٠٠ أو ٥٠,٠٠٠ أو أكثر؟ ويذكر الرحالة هنا أرقاما وهمية حيث لم يقم أحد فعلا بإحصاء هؤلاء الأشخاص أوالحيوانات ، وقد ساهم فى ذلك أيضا نزعة المصريين المعروفة للمبالغة فى ذكر الأرقام لتأثيرها على المستمعين والجمهور.

وكانت سحب طيور الحدأة تطوف بدون توقف فى السماء لتساعد المدينة على التخلص من جبال النفايات وذلك عندما لا تكون هناك جثث مهملة.

ومع حلول المساء كان يتم إغلاق البوابات بشكل صورى ؛ لأن القاهرة ترفض أن تكون محصورة فى حيز ضيق ، فكانت تتوسع دائما وبدون توقف ؛ ولهذا قام السكان

ببناء بوابات فى مداخل كل حى وعينوا حارسا يحمل زمزمية ومصباحا يقوم بالسهر على إغلاق وفتح البوابة .

كما كان حر الصيف الحارق يتطلب شوارع مستقيمة وقبابا عالية لجلب الهواء الرطب، كما استلزم أيضا تحديد مواقع واجهات المنازل بالإضافة إلى الحدائق الداخلية وخرير مياه النافورات الذى يساهم فى التلطيف من سخونة الجو .

أما شوارع القاهرة العديدة فكانت تكتظ بحشود من جميع أنحاء العالم من الأتراك والإيرانيين ، ومن القارة السمراء من السودان والحبشة وسكان جزر الجنوب (إندونيسيا) ومن السند ، وكذلك التجار من الصين بالإضافة إلى المصريين والعرب. إنها مدينة حرة ، الكل يعيش فيها حسب قوانينه ويتكلم لغته، ولكن اللغة العربية ظلت هى اللغة السائدة ، ولا عجب فى ذلك فهى لغة القرآن وهى اللغة التى يستخدمها النصارى واليهود فى تعاليمهم . وقد كانت هذه هى إحدى ملامح الوحدة بين هذه الأجناس التى تكون منها العالم الإسلامى .

وكانت الدواب والملابس هى التى تفرق بين هذه الأجناس ؛ خاصة أن المسلمين فقط هم الذين كان يحق لهم التنقل بالجياد أما الباقون فكانوا يستخدمون البغال والحمير. وفى ذلك الوقت كانت العمامة هى التى تحدد أهمية الشخص ، وكلما طالت العمامة دل ذلك على زيادة أهميته ، كما كان الثوب المصرى عالى الجودة وهوسمة الشخصية الأكثر أهمية أيضا.

وقد دأبت النساء على المشى فى الشوارع بأعداد كبيرة ، ولم يكن لبس الحجاب شرطا للظهور على الملأ ، ولكن بالرغم من ذلك كان الحجاب دليلا على الرقى ، ولذلك لم يكن للجوارى والطبقة الفقيرة الحق فى لبسه . وكانت الحشمة تتطلب تغطية الشعر والجزء الأسفل من الوجه. ومع هذا كان الحجاب رقيقا لا يمنع المرأة من الدلال ورفعه أوإنزاله حسبما يتطلب الموقف أو الجو السائد فى هذه اللحظة.أما النساء غير المسلمات من اليهوديات والنصارى فكن غير محجبات . إلا أن زوجات الرجال المهمين كن يؤكدن أهمية أزواجهن بوضع الحجاب على وجوههن بالكامل ويغطين أجسامهن من الرأس حتى القدمين وفى بعض الأحيان كن يلبسن عدة أثواب من الأقمشة الناعمة الثمينة.

وكانت الشوارع تمتلئ أيضا بالجرحى والعجزة والشحاذين الذين يطلبون المساعدة دائما باسم الدين بالإضافة إلى مجموعات الأطفال بأصواتهم الصاخبة وهم مستعدون دائما لطلب قطعة من النقود أوالحلوى .

وفى عام ١٢٠٠ قليلا ما كان يتم طهى الطعام بالمنازل فى القاهرة،، بل كان يوجد حوالى ٢٠,٠٠٠ مطبخٍ عامٍّ ومخبزٍ يتم فيها فرم اللحم إلى قطع صغيرة متساوية توضع في أسياخ ثم تشوى على نار الحطب، وفى بعض الأحيان كان يتم طهى الخروف كاملا ، وكان يوجد رجل مسئول عن نقله فى وعاء كبير يضعه على رأسه بتوازن ويطوف فى الشوارع ليبيع القطع الصغيرة حسب الطلب لمن يرغب فى الشراء .

وكان سكان القاهرة يعشقون الأعياد ، فلا يمر شهر بدون احتفالات شعبية إلى جانب عيد الفطر وعيد الأضحى بالطبع. فهناك مثلا الاحتفال بالمولد النبوى (مولد الرسول ﷺ) ثم الاحتفال بإرسال كسوة الكعبة إلى مكة كل عام ، وأخيراً الاحتفال بعيد الربيع والتتويج الجماعى وعيد وفاء النيل حين يصل فيه مقياس الروضة إلى ١٨، وعندئذ تفتح البوابات ويترك ماء النهر لينساب فى الخليج وسط صخب الفرحة التى لا توصف. وكانت الاحتفالات تمتد أحيانا لمدة سبعة أيام بلياليها. ولا ننسى أيضا الاحتفال بالأعياد الخاصة بالحاكم مثل عيد ميلاده أوعيد جلوسه على العرش أوذكرى انتصاراته العسكرية. وهكذا كان سكان القاهرة يمضون أوقاتهم فى الاستعداد للاحتفالات أكثر بكثير مما يمضونه فى العمل. " فقد أظهر الله رحمته على مصر بمنحها الأرض الخصبة والماء والشمس فعلى سكانها التعبير عن امتنانهم بإقامة هذه الاحتفالات فى القاهرة أم الدنيا".

وضع السلطان صلاح الدين الأيوبى - قاهر الصليبيين - نهاية لحكم الخلفاء الفاطميين الشيعة عام ١١٧٦ وطردهم من عاصمتهم القاهرة التى أصبحت فيما بعد قلب الإمبراطورية الأيوبية. ولأول مرة منذ قرنين استعادت مصر المنهج السنى وسارت على نهج الإمام الشافعى . ومع أن أغلب السكان لم يعتنقوا المذهب الإسلامى الشيعى إلا أن تأثير الشيعة ظل حيا وشق طريقه فى الثقافة وخاصة عند أتباع الإمام على

وابنه الحسين وابنته السيدة زينب ثم السيدة نفيسة . وكان إنشـاء مسـجد الحاكم بأمر الله والجامع الأزهر خير شاهدين على انتشار المذهب الشيعي.

ولم يشأ صلاح الدين أن ينشئ مدينة حول قصر الحاكم مثلما فعل الفاطميون ولكنه أراد أن يؤسس فعلا مدينة محصنة تحميها القلعة التي شيدها والتي كان مصيرها أن تتحول إلى سور يدل على قوة الحكومة. وهكذا بدأ صلاح الدين في بناء سور جديد أكبر من الأول حول المدينة متجاوزا حدودها ، وترك لأمرائه القصرين الفاخرين اللذين قام ببنائهما الفاطميون ورفض هوالإقامة فيهما. وبالطبع كان لا بد من مرور قرون من السلب والنهب ليتحول هذان القصران المفعمان بالبهجة لمثل هذا الدمار والخراب.

وبسبب تأثر صلاح الدين بالقلاع الصليبية التي عاني كثيرا في اقتحامها فقد استوحى منها فكرة بناء قلعته لتصبح قصرا منيعا يقوم بحماية المدينة. وكان القصر يحتاج إلى مواد غاية في الصلابة وكانت الأهرامات تقع بالقرب منه ، ورغم أن أحجارها لم تكن مثالية تماما لبناء القلعة، إلا أن وزيره بهاء الدين قراقوش الذي خلد القصاصون الشعبيون غباءه وقسوته بطريقة هزلية فكر في أن يأمر بهدم الأهرامات. ولحسن الحظ لم يحتج إلى وقت طويل ليدرك أن هدم الأهرامات سيتكلف أكثر بكثير من قطع وإحضار أحجار جديدة ، رغم أنها سوف تكون أقل صلابة وأقل قيمة ، لذلك لجأ إلى هدم الأهرامات الصغيرة التي تقع في الصحراء جنوب أهرامات الجيزة والتي كانت من الطوب اللبن ومغطاة بالجير.

وقد بدأت الأحياء الجديدة في الظهور في أثناء بناء القلعة ، فأقيم حي الموسكي الذي أصبح سوقا يضم محلات وورش الحرفيين الأيوبيين ، وتم تخصيص جزء منه لليهود. هذا ولم يثق الخلفاء الفاطميون الله في المسلمين السنيين وانحازوا إلى الأقباط واليهود ، وكذلك الزعماء الجدد من الأيوبيين، وقد كانت هذه فرصة ذهبية لليهود ، ولهذا سمي الحي الجديد بحارة اليهود ، وظل هذا الحي شاهدا على هروبهم من القاهرة القديمة (الفسطاط) التي أحرقت قبل سنوات لوقف وباء انتشر فيها في تلك الفترة.

كان ابن الميمون الذى يسكن فى فناء قلعة صلاح الدين هوالطبيب الخاص به ووزيره فى الوقت نفسه ، وقد انتقل إلى الحى الجديد أيضا وكان يكتب فى الفلسفة والطب باللغة العربية ولكن بحروف عبرية . أما الحى المجاور لحارة اليهود فكان حى الصاغة الذى كان يضم ورش الفنيين المشتغلين فى الذهب والمعادن النفيسة ، وقد أصبح هذا الحى الجزء المكمل لقلب الحى التجارى بالمدينة الذى كان مفتوحا أيضا على الموسكى والغورية.

وساعد جمال الجو فى القاهرة على استمرار هذه الأنشطة وانتظامها ، وكانت أصوات المؤذنين للنداء للصلاة تنطلق من منارات الجوامع. أما النزهات الخاصة فقد كان مجالها الجزر المنتشرة فى وسط النهر مثل جزيرة الروضة التى تزدان بعدد من الحدائق الجميلة والتى كانت دوما إحدى الأماكن المفضلة للقاهريين.

وهكذا أصبحت القاهرة سوقا عالمية بهذا الخليط الكبيرمن الأجناس ، حيث كان يتم تبادل البضائع الواردة من الشرق الأقصى مع الأوروبيين الذين كان يطلق عليهم الفرنجة. وفى الحقيقة كانت مصر تمثل مركزا مهما وحيويا، ومخزنا لا يمكن إبدال غيره به . فقد كان محظوراً على الأوربيين الإبحار فى البحر الأحمر ؛ وبالتالى لم يكن فى مقدورهم الوصول إلى الشرق بتوابله الخرافية إلا بالالتفاف حول إفريقيا ، وهى رحلة تفوق طاقتهم ، وكان التجار الإيطاليون يأتون من جنوة والبندقية إلى مصر بحثا عن كنوز الشرق ويرسون فى دمياط أو الإسكندرية ومنها يبحرون إلى موانئ أوروبا فى البحر المتوسط ، وكانت التوابل التى تصنع من نباتات عطرية هى البضائع النفيسة التى كانوا يبحثون عنها والتى كان مصدرها آسيا وتستخدم غالبا فى إعطاء مذاق جميل للحوم الفاسدة والمياه غير النقية ، إلا أن صعوبة الإبحار وخطورة الطريق الذى يبدو وكأنه لا نهاية له جعلهم يبالغون فى الأسعار بطريقة جنونية ، حتى إنها كانت تتضاعف مرتين أوثلاث أوعشر مرات من مرحلة إلى أخرى فمثلا تجد أنه فى سوق البندقية كان ثمن الفلفل يصل إلى ثلاثين ضعف ثمنه فى الهند ، وأيضا كان سعر الجنزبيل فى الإسكندرية ثلاثة أضعاف سعره فى كالكاتا ، ويستمر فى التضاعف حتى يصل إلى جنوة .

أما المسلمون فكانوا يشترون القرفة من سيلان والقرنفل وجوزة الطيب من جزيرة مولوك ، أما الفلفل فمن بومباى أوكلكتا ، وكانوا يبيعون هذه التوابل للتجار الأوروبيين بأسعار مرتفعة ، وبالطبع يفعلون الشيء نفسه مع العقاقير والأعشاب الطبية ، وكان التجار بدورهم يقومون ببيعها فى بلادهم بأسعار تجعل المريض يفكر ، هل تساوى صحته هذا الثمن الباهظ ؟

وعلى الجانب الآخر كان الإيطاليون يقايضون المصريين من مسلمين وأقباط ويهود بما يوجد فى أوروبا ويمكن تقديمه لهم أو بما تحمله السفن من حديد، أو خشب أو منسوجات أو أسلحة ثقيلة أوفضة... إلخ ، وكان عدد هذه السفن التى تجوب البحر المتوسط والبحار الأخرى البعيدة يزداد دوما. إلى أن اكتشف الأوروبيون أن العالم لا يقتصر على البحر المتوسط فقط وأنه منذ قرون عدة كان هناك أناس يعتنقون ديانات متعددة أخرى اكتشفوا مصادر أخرى لكل هذه السلع التى كانت تحلم بها أوروبا.

وكانت فنادق القاهرة من أجمل فنادق العالم ، وكان يطلق عليها فندق أووكالة أوخان ، وكانت توفر للمسافرين من أوروبا أو آسيا كل احتياجاتهم خلال فترة إقامتهم بها. وأما العزاب والعائلات بجميع أفرادها والحريم أيضا فلهم أماكن خاصة بهم كما كانت هناك محلات ومخازن وبورصات للتجارة ، وباختصار يمكنك أن تجد كل ما يباع ويشترى فى هذا المبنى الشاهق حيث يمكن للأجانب الإقامة والاتجار فى أمان تام ، وبعد ذلك يكون فى إمكانهم الذهاب إلى الحمام بعد عناء اليوم حيث يتولى السايس رعاية خيولهم أو جمالهم.

وكان الدينار الذهب أوالدرهم الفضة – وهى النقود الإسلامية فى ذلك الوقت – أساس التعاملات التجارية ، وكانت مقبولة فى جميع أنحاء العالم فى الوقت الذى لم يكن فى مقدور أى ملك أوروبى صك نقود ذهبية مقبولة.

وقد أنشئت جوامع جديدة لتتنافس مع جمال وسعة الجوامع العديدة التى بناها الفاطميون ، فمثلا قبة جامع الإمام الشافعى زينت بصور ورسومات هندسية أبهرت الجميع ، كما قام صلاح الدين بمضاعفة المدارس التابعة للجوامع والتى شارك فيها

الصوفيون من خلال نشر أفكارهم الدينية . والصوفيون هم ورثة الشيعة الإيرانيين الذين لم يتشبهوا برهبان الغرب. كما أضيفت إلى مدارس الجوامع أيضا أماكن عبادة عرفت بالخانقاه أوالزاوية. وقد عاش الصوفيون فى كنف السلطان معززين مكرمين، .فكان الأطباء من مختلف التخصصات يسهرون على صحتهم ، وكذلك الحلاقون والمدلكون كانوا رهن إشارتهم ، فلا يجوز أن يعكر صفوهم أحد . وكانوا يعمدون إلى فصل العزاب من الرجال عن المتزوجين وزوجاتهم.

وكان لكل أمير الحق فى تقليد السلطان وإنشاء الزاوية الخاصة به ، وبذلك يجد الفقراء مأوى وغطاء لهم ، وفى المقابل يستجيبون لعقيدة مشابهة لعقيدة الشيعة.

وقد أقيمت القرافة تحت أقدام المقطم ، وهى مقابر القاهرة أومدينة الموتى والتى تمتد وتنتهى عند الصحراء ، وقد كان المصريون يحبون بناء حوش صغير محاط بحائط حول المقبرة ليكون مكانا للاستراحة من الشمس الحارقة بعد طول الطريق ، فيأتى القاهريون مع زوجاتهم وأولادهم فى الأعياد والمناسبات ويطوفون فى مواكب حول المقابر الأكثر شهرة. أما ليلة النصف من شعبان فلها أهمية كبيرة فى عقيدة الشعب حيث كانت زيارة المقابر فرضا فى هذه الليلة ، وقد ساد الاعتقاد بأنه فى هذه الليلة تسقط أوراق أشجار الجنة المسجل عليها أسماء جميع الأحياء ، وكذلك أسماء من سوف يموتون خلال العام التالى لذلك كان يجب زيارة المقابر والصلاة للتوسل والدعاء.

أما ضريح السيدة زينب أخت الحسين بن الإمام على بن أبى طالب إمام الشيعة وأيضا مسجد السيدة فاطمة (النبوية) وكذلك المشهد الحسينى فهوأكبر تجمع كان يمارس فيه الشيعيون فرائضهم ، وما زال لهذا المسجد شعبيته حتى الآن ، وكان الحسين قد قتل عام ٦٨١ فى كربلاء بالعراق مع كل عائلته ، ويحتفل الشيعة دائما بهذه المأساة فى العاشر من محرم من كل عام.

وقد كان اسم السيدة زينب بنت الإمام على بن أبى طالب وشقيقة الشهيد الحسين مصدراً لاسم حى كامل بالقاهرة ، وظل الوفاء لها كما هوبالرغم من سيطرة السنية متمثلة فى السيدة نفيسة ، وهى أيضا من سلالة الإمام على وقد توفيت

عام ٨٢٣ . وقد شيد الفاطميون ضريحا لها ما زال محتفظا برونقه حتى الآن ، وهومزار يحج إليه جميع نساء مصر.

وقد مجد ابن خلدون العرب فى التاريخ وقال إن الخيال دائما يتعدى الحقيقة . وفى هذا لم يجد إلا استثناء واحدا، وكان هذا الاستثناء هو القاهرة، وما كان يعنيه هوأن هذه المدينة قد فاقت كل ما يمكن أن نتخيله.

بعد صلاح الدين

مات صلاح الدين فى دمشق ليلة ٣ أو ٤ مارس ١١٩٣ بعد مرض قصير. مات صلاح الدين قاهر الصليبيين فى حطين ، ومحرر القدس وحامى حمى المسلمين الذى وضع نهاية لحكم الشيعة فى مصر ، ووحد المسلمين من صحراء ليبيا حتى الحدود الشمالية للشام ، وحتى حدود إيران فى الشرق تحت كلمة واحدة.

وقد تمتع صلاح الدين بنفوذ كبير واشتهر بأدب الفرسان ، وكان متسامحا مع الذين لا يشتركون معه فى عقيدته من نصارى ويهود ، وقد وضع الأسس لحكم غير تقليدى للبلاد باستخدام أساليب مثل الدبلوماسية والمفاوضات على أساس من المساواة بين الأطراف المتعاهدة ، مع الاستعداد فى الوقت نفسه لاستخدام القوة العسكرية إذا لزم الأمر. وقد ترك ١٧ من الأبناء وعدداً كبيراً أيضا من الإخوة وأبناء الإخوة ، ومع ذلك لم يكن من السهولة إيجاد خليفة له ، إلا أن الإقطاعيات المحلية نجحت بسهولة فى السيطرة على الأمور المركزية فور زوال الخطر الخارجى الذى تعرضت له البلاد.

حرص صلاح الدين على تقسيم السلطة أثناء حياته بين أبنائه المفضلين ، بغض النظر عن إمكانياتهم لتولى الحكم ، فمثلا قام بتعين ابنه الأكبر " الأفضل " واليا على دمشق وسواحل الشام وفلسطين وبيت المقدس المحرر من الصليبيين ، وعين ابنه "العزيز " واليا على مصر ، وكان يشغل منصب نائب الملك أثناء حياة والده ، لذلك أصبح بطبيعة الحال السلطان بعد وفاة صلاح الدين.

وكان لدى صلاح الدين أخ أصغر منه وهو" العادل " الذى كان رفيقه وأقرب معاونيه إليه خلال سنوات عديدة من المعارك والمفاوضات الصعبة، وكان دبلوماسيا ماهرا أيضا ، ولكن إمكانياته وطموحاته أثارت مخاوف صلاح الدين الذى وصفه بالمتحدث الجيد والمجامل الكريم تجاه الغرب. وقد بذل صلاح الدين جهدا لإبعاده عن

مصر التى هى مركز السلطة ، فأسند إليه الحصون التى بناها الصليبيون فى الشام والأردن والتى شيدها رينودى شاتيون (إرناط) لمراقبة طريق القوافل من مصر إلى الشام والأراضى المقدسة ، كذلك ولاه على الجزيرة وديار بكر(جزء من العراق حاليا) ، ولكن "العادل" كانت له طموحات أخرى. أليس هوالذى أقام علاقة صداقة مع ريتشارد قلب الأسد حتى يزوجه من شقيقته الملكة جوانا ملكة إنجلترا وأرملة ملك صقلية؟ وكان ريتشارد قد منح شقيقته جان الجزء الذى غزاه من فلسطين وهوعكا وأرسوف ويافا وعسقلان ، ومن جهة أخرى كان صلاح الدين قد ولى شقيقه جزءا من الساحل الفلسطينى الذى كان لا يزال يحتفظ به وقتها ، وبالتالى فإن الزوجين سوف يحكمان سويا ساحل الشام بالإضافة إلى أورشليم القدس ، وهذا الحكم يعنى بكل تأكيد أن المدينة سوف تظل مسلمة ، وفى الوقت نفسه يستطيع المسيحيون زيارتها فى حرية لأداء الحج ، ولكن على شريطة أن يكون ذلك بدون حمل سلاح. وقد أعلن صلاح الدين موافقته على ذلك ، ولكن المشروع لم يتم.

وكان " العادل " يرى فى ذلك أمرا طبيعيا، ألم يكن الأكبر سنا والأكثر خبرة ، وأيضا قائد الأسرة الأيوبية؟ إلا أن شقيقه الأكبر صلاح الدين كان له رأى آخر فى ذلك الوقت ، ولم يكن باستطاعة العادل سوى الطاعة وقبول الأمر الواقع.

كان صلاح الدين قد أعلن وقتها أن ابنه الأكبر " الأفضل " سوف تكون له السلطة المطلقة على إخوته وأعمامه وأبناء أعمامه والأمراء الأيوبيين الآخرين حكام الأقاليم والمقاطعات ، أما دمشق فسوف تظل العاصمة الأيوبية . وعندما مات صلاح الدين كان " الأفضل " يبلغ من العمر ٢٣ عاما ، وكانت شخصيته يعوزها الاتزان والحكمة ، كما أنه كان يفضل مرافقة الموسيقيين والراقصات على مرافقة وزرائه.

وبعد عام من وفاة صلاح الدين جاء " العزيز " سلطان مصر على رأس جيشه لمحاصرة شقيقه الأكبر فى دمشق ، فسارع "الأفضل" بطلب تدخل عمه " العادل " ، وكان هذا الأخير صاحب حنكة ودبلوماسية سلسة ، فنجح فى التوفيق بين الشقيقين وزوج إحدى بناته " للعزيز " وأرسلها معه إلى مصر.وأصبح " العادل " فيما بعد هوالحكم فى البيت الأيوبى " القديم " الذى سنعود إليه فيما بعد.

وبعد مرور عامين أى فى يونيو ١١٩٦ ارتكب " الأفضل " مرة أخرى الكثير من الأخطاء الناجمة عن سوء التقدير، فجاء "العادل"و" العزيز " على رأس جيش من عدة مجموعات وحاصرا " الأفضل " فى دمشق واعتقلا الشاب الطائش ونفياه إلى إحدى الولايات البعيدة ، وحل محله " العادل " الذى أصبح منذ ذلك الحين صاحب دمشق وسواحل الشام وفلسطين ، وترك لابن أخيه وزوج ابنته " العزيز " اللقب الشرفى وهو " السلطان الأعظم " ، ولم يبق " للعادل " الماكر إلا مصر حتى يستعيد الجزء الأكبر من إمبراطورية شقيقه الأكبر صلاح الدين.

وما لبثت أن جاءته الفرصة بدون تأخير، ففى ٢٩ نوفمبر ١١٩٨ خرج السلطان " العزيز " لصيد الثعالب بجانب الأهرامات، فسقط من على جواده ومات بعد فترة قصيرة ، وكان عمره ٢٧ عاما. وكان يتمتع بشعبية كبيرة وأقيمت له جنازة ضخمة. ولكن وريثه الشرعى وهوابنه " المنصور " كان عمره تسع سنوات فقط. مما أقلق وزراء ومستشارى السلطان المتوفى ، فاقترحوا تعيين عمه " الأفضل" وصيا عليه لحين بلوغه سن الرشد.

وجاءت الفرصة من جديد للقائد الحقيقى للبيت الأيوبى " العادل "، وهى الفرصة التى طال انتظاره لها للتدخل فى حكم مصر مرة أخرى، فقام " العادل " الداهية بالطعن فى أحقية ابن أخيه " الأفضل " فى العرش بسبب تصرفاته وعدم اتزانه ، وبعد محاولة باسلة للمقاومة العسكرية تم تجريد " الأفضل " من كل سلطاته ونفيه من جديد إلى الحدود العراقية ، ولم يكن قد حكم باسم ابن أخيه الأصغر سوى عام و٣٨ يومًا. وجلس " العادل " على عرش مصر فى ٥ فبراير ١٢٠٠، وبذلك أعيد بناء الإمبراطورية الأيوبية من جديد من خلال الأخ الأصغر لصلاح الدين.

كان الأيوبيون يتبعون قاعدة عامة فى الحكم ، وهى تحاشى إسالة دماء العائلة. أما الفاطميون الخمسة عشر الذين حكموا مصر قبل صلاح الدين فلم تكن لديهم هذه النظرة ، حيث لم ينج منهم إلا واحد فقط، فقد مات كل الآخرين بطرق مختلفة إمّا شنقا أو بطعنة خنجر أوبالصلب أوبالسم أوالإدانة بدون محاكمة ، وهناك واحد منهم تم قتله على يد ابنه بالتبنى ، والآخر قتله أبوه " شاور " ، ومثل بجثث كل عائلته من خلفه واستولى على ذهبه ومجوهراته وقصوره وكل ما يمثل أى قيمة فى نظره.

كان حكم مصر – البلد الغنية بثرواتها– دائما مطمع الجميع، ولكن طريق الوصول إليها لم يكن سهلا ومفروشا بالورود والرياحين.

وطوال فترة حكم " العادل " كان همه الأكبر هوتأكيد شرعيته، فقد كان يحكم باسم حفيد أخيه الأكبر " المنصور " وهووضع لا يتفق مع طموحاته ولذلك جمع الأمراء فى العام التالى وقال لهم:

" ليس من الكرامة لى أولسنى أن أكون وصيا على طفل لا يعرف أحد ماذا سيكون ، فلنعطه لمرب جيد ثم نحكم بعد ذلك على كفاءته ، فالملك الذى يؤخذ بالإرث سيسقط أمام الغزاة "

وكانت تلك رسالة جريئة تتعارض مع شرعيــة الحكم، ولكنها جعلت الآخرين لا يجرءون على المعارضة فى استيلائه على الحكم ، وفوزه بالعرش وجلوسه على كرسى السلطة من جديد.

لقد نجح " العادل " فى تنفيذ مخططه لأن السلطة كانت مركزة فى يد رجل ذكى لديه طاقة قوية ، ويتمتع بالدبلوماسية ، كما أنه رجل دولة محنك يهابه مستشاروه ويحترمونه فى الوقت نفسه ، وكان رفيقا لصلاح الدين ويؤمن أنه فى إمكانه تحقيق حلم أخيه ، وهو السلام عن طريق التسامح واحترام المصالح الشرعية لكل طرف ، كما كان يؤمن أيضا بأهمية التجارة قبل الحرب ، وكانت سياسته فى ذلك هى أن الكلمة مع الحليف والمكر واستخدام الذكاء والدهاء خيرٌ من الحرب.

إلا أن العام الذى تولى فيه السلطان " العادل " عرش مصر كانت البلاد تمر بظروف سيئة اضطرته لعقد اجتماع مع مستشاريه، الذين كانوا عاجزين عن تفسير وتبرير علامات كثيرة بدأت تظهر فى البلاد ولا تبشر بخير.

ففى هذا العام ، ١٢٠٠ (طبقا لتقويمنا) قيل إنه ولد فى القاهرة صبى بوجهين، فى كل وجه عينان وأذنان وأنف ، وولد آخر بخصلة شعر حصان، ووضعت سيدة طفلا بشعر أبيض مثل رجل عجوز ، وتم ذبح نعجة كأضحية ولكنها كانت تحمل فى أحشائها خرافات برأس وجسد يشبه رأس وجسد رجل بأظافر آدمية.

ولكن الأدهى من ذلك هوعدم رضاء نهر النيل عنهم ، ففى هذا العام ولمدة ثلاث سنوات متتالية كان فيضان النيل ضعيفا جدا ، وقلت المحاصيل وارتفعت الأسعار بصورة رهيبة ، وهجر الآلاف مصر إلى الشام بدون مؤن ، وكانوا يموتون فى الطريق من الجوع وتساقط الأغنياء والفقراء بالآلاف ، ووصل الأمر إلى الحد الذى كانوا يأكلون فيه الكلاب ، بل واضطروا أيضا إلى التهام الجثث ، حتى رأينا آباء يأكلون أطفالهم. وأقوياء يقتلون الضعفاء حتى يخلو لهم الجو ويجدوا ما يأكلون ، والأطباء كانوا يجرون المرضى ثم يذبحونهم ويلتهمونهم .

وقد خلت القاهرة فى ذلك الوقت من سكانها ، ولم يجد الموتى أحدا لدفنهم ، وتم هجر الأراضى الزراعية ، وكان الآباء والأمهات يشوون أجساد أبنائهم الموتى ، وقد عثر فى عربات تسوق النساء على بقايا أطفال ، أما الحكام فقد حاولوا معاقبة البعض لردع هذه الأفعال ولكن دون جدوى ، فلم يكن هناك قمح أو لحوم ، فالحبوب التهمها الجفاف حتى وصل سعر إردب القمح إلى ثمانية دينارات من الذهب ، ووصل سعر الشعير والفول إلى ستة دينارات ، وانعدمت الطيور ، وعندما نجح تاجر سورى فى جلبها كان يبيع الدجاجة الواحدة بمائة درهم فضة أى ما يعادل خمسة دينارات ذهبا .

أما الفلاحون فكانوا يموتون بالجملة معلقين فى سواقيهم التى كانت تدور فى أرض جافة جدباء ، ووصل عدد الموتى من المجاعة خلال هذا العام إلى ٢٢٠,٠٠٠ .

وقد استمر هذا الحال لمدة ثلاث سنوات، ثم عاد الفيضان بعد ذلك بقوة وعادت الحياة إلى طبيعتها وطوى النسيان أحداث المجاعة.

أطلق على " العادل " لقب السلطان الأعظم ، وقد مارس سلطاته على أبناء صلاح الدين وأبناء إخوته وكذلك على إخوته الآخرين أيضا.، وكان " الحاكم الأعظم " من نهر النيل حتى الفرات بل وحتى شمال الشام التى كان يبدأ عندها حكم الروم أسياد القسطنطينية.

بدأ " العادل " أخيرا فى الاهتمام بالسياسة الخارجية ، وكانت هذه هى مجال اهتمامه المفضل لوجود علاقات وطيدة بينه وبين الوافدين الأوروبيين خاصة من

البندقيـة، لكنهـا بدأت تتـوتر أعـوام (١٢٠٢ - ١٢٠٣). حين أرسل البـابا إينوسنت الثالث رسولا له - إيمارودى كوربيزى - يناشد " شعور العـادل " لإعادة مـا يخص المسيحيين ، وكـان يعـنـى بـذلك بيـت المقـدس والأراضى المقدسـة التى كـان صـلاح الديـن قد غزاهـا ، وفى حـالة رفضه فسيضطر المسيحيون إلى حشد جيوشهم لاستعادة ما يخصهم. وكان دوق البندقية " داندلو" قد كتب استفسارات للسلطان مؤكدا له أن البندقية لن تقوم بإرسال تجارتها إلى أراضى السلطان فى مصر أوالشام أوإلى أية جماعات معادية. وفى الوقت نفسه نما إلى علم السلطان "العادل" أن الدوق " داندلو" قد وقع عقدا لنقل ٣٠,٠٠٠ مقاتل مسيحى بعتادهم وأسلحتهم إلى الشام . وقد رد الحاكم الماكر " داندلو" فى شرح سريع، بأنه لم يتلق أية نقود (ولا حتى دينارا واحدا) من قيمة هذا العقد ، وأضاف أن هذا العقد ليس له أى قيمة، وأنه ليس فى نيته نقض المعاهدات التى بينه وبين السلطان.

وبالطبع كان يمكن لكل العالم مشاهدة الجنود محتشدين فى البندقية.

فهل كان السلطان " العادل " - الذى كان فى مكر ودهاء الدوق « اندلو » نفسه - " داندلو" قد أوحى له باختيار القسطنطينية ملاذا أخيراً لرحلة الصليبيين؟ هذا ما لا نعلمه ، ولكن الحقيقة أن الاثنين كانا يمارسان اللعبة نفسها ، فقد كان لكل منهما ما يربحه. وكان يمكن لكل من الفرنجة والروم القتال دون أن يؤثر هذا على التجارة مع مصر ، بل على العكس ، كانت البندقية تتوقع - وهى مركز تمويل الصليبيين - أن تحقق أرباحا كثيرة من وراء الغنائم التى سيأتى بها جنود الله.

استولى الصليبيون على " زارا " المدينة المسيحية فى دلماشيا ، والمحتلة من قبل مملكة المجر ، وذلك بمؤازرة من " داندلو" ، وسددوا أيضا الديون المستحقة للبندقية ، ثم اتجهوا بعد ذلك إلى القسطنطينية ، وكان الهدف المعلن هوضم البندقية للتاج، إلا أن إينوسنت الثالث اتهمهم بالكفر لعدم ذهابهم إلى الأراضى المقدسة أولا، ولكن دون نتيجة ، فاضطر إلى فصلهم من الكنيسة ، وقد تم احتلال القسطنطينية فى هجوم من قبل الصليبيين عام ١٢٠٤ ، وتمت السيطرة على الإمبراطورية البيزنطية القوية ،

وتشريد رجال الدين الأرثوذوكس ثم فرضت العقيدة اللاتينية ، وقام الصليبيون بأكبر عمليات السلب التى سجلها التاريخ ، وبالطبع حصلت البندقية على نصيب الأسد ، وتظل الجياد الموجودة فى ميدان سان مارك شاهداً على ذلك. أما المسلمون فلم يصدقوا أنفسهم أمام هذا الانتصار الكبير غير المتوقع وقد كتب إينوسنت الثالث إلى الكاهن اللاتينى فى الشرق يقول:

" نقل السلطة الإمبراطورية من اليونانيين إلى اللاتينيين فى القسطنطينية هوقدر من عند الله وهذا مذهل فى أعيننا"(١) .

وأصبح إينوسنت الثالث بذلك على رأس الكنيسة بعد إعادة وحدتها وضم كنيستى الغرب والشرق.

وكانت أى حرب صليبية حتى وإن كانت موجهة ضد المسلمين غير مفهومة بالنسبة للأرثوذكس ؛ فالحروب الكثيرة التى شنها البيزنطيون على إيران والعرب لم تأخذ طابع " الحرب الدينية ". كان الأرثوذكس يرفضون دوما أن يحمل رجال الدين السلاح ، بل ويغضبون عندما يرون رجال الدين اللاتينى يحملون السلاح ويشاركون فى المعارك. ألم يقل المسيح إن من يحملون السيوف سيهلكون بالسيوف ؟ (إنجيل القديس متى).

ويقول " ف. بروديل " إن اللاتينيين لم يدركوا مدى غباء الأفعال التى ارتكبوها ضد القساوسة اليونان والتى تسببت فى إثارة غضبهم ، فقد تبنى رجال الدين الكاثوليك الذين يمتلكون الأراضى فى البندقية أسلوبا متعاليا معهم ، وكان من ضمن أخطائهم أنهم لم يحاولوا قط التخلى عن العنف أونبذه، سواء كانت عقيدتهم تجبرهم أوتمنعهم من ذلك ، وذلك بدعوى طرد اللغة اليونانية من الكنيسة!

فضل اليونانيون أن يكونوا مع الأتراك عن وضعهم تحت العقيدة الكاثوليكية ، وهذا ما فعلوه ضد الفينيقيين وضد الصليبيين والقبارصة أيضا ، فقد كانوا دوما

(١) من كتاب The Papacy and the Levant - K.M. Setton، الجزء الأول ، الفصل الأول ، فيلاديلفيا (الولايات المتحدة الأمريكية)، ١٩٧٦ .

حلفاء للأتراك وهذا لأن الأتراك كانوا بطبيعتهم متسامحين ولم يحاولوا أبدا التدخل فى شئونهم كما لم يضايقوهم فى ممارسة عقيدتهم الأرثوذكسية ، وعادة كان رجال الدين اليونانيون دائما موجودين فى صفوف الأعداء الأكثر عداوة فى فينيسيا (البندقية) وفى الغرب عامة" .

(البحر المتوسط فى عهد فيليب الثانى ، الفصل الثانى ، صفحة ١٠٦ ، (F. Braudel

وبعد عام ١٢٠٤ أصبح كره الأرثوذكس للاتينيين جزءا متأصلا فى الضمير القومى للبيزنطيين ، وغير منفصل عن العقيدة الأرثوذكسية نفسها .

وقد حدث فى القاهرة أن استقبل السلطان " العادل " وفدا من سفراء جمهورية فينيسيا (البندقية) يضم مارينو وداندلو وبيتر وميشيل ، وجرى الاستقبال فى عظمة وأبهة أشبه بقصص ألف ليلة وليلة ، على الرغم من مرور ثلاث سنوات فقط على المجاعة التى واجهت البلاد ، وتم عقد معاهدة مع الفينيقيين أعطتهم بموجبها الامتياز الخاص بخفض الرسوم الجمركية ، بالإضافة إلى تخصيص ثان بامتياز آخر فى الإسكندرية.

وبموجب هاتين المعاهدتين دخل السلطان " العادل " فى الفوضى السياسية التى كانت تسود أوروبا آنذاك.

كان حلم الحملة الصليبية الأولى هو إقامة مملكة على الأرض المقدسة ، إلا أن أول مملكة أنشئت فى القدس كانت أبعد ما تكون عن " مملكة الله فى الأرض " ، ولذلك لم يمض عليها قرن إلا وانهارت وغرقت فى دماء معركة حطين ، وكان وراء ذلك اتحاد أمراء الشام ومصر والتفافهم حول صلاح الدين.

وكان من الواضح أن صلاح الدين لم يشأ تصفية وجود الفرنجة وإخراجهم نهائيا من فلسطين والشام ، فقد كان يرى أن وجود هؤلاء الفرنجة على الشاطئ لا يشكل أى خطر على إمبراطوريته أوعلى المسلمين بصفة عامة ، كما أنه أيضا حاز إعجاب الفرنجة بفضل تبنيه مبدأ ديناميكية التجارة التى كان من الممكن استغلالها فى الوحدة بينه وبين بلاد يعرف عنها القليل.

وقد نقل المؤرخ " أبو شامة " رسالة من صلاح الدين إلى خليفة بغداد مؤرخة فى عام ١١٧٤، برر صلاح الدين فيها السياسة التى يتبناها لرعاية وتشجيع التجارة مع أوروبا ، والتى تستند على الأسس التالية:

"ولأن كل هؤلاء التجار يوفرون لنا الأسلحة للحرب والمعارك ويمنحوننا أفضل ما يصنع ، وكل ذلك بشروط توافقنا وفى الوقت نفسه لا تعجبهم فهى فى صالحنا وتمثل خسارة لهم " .

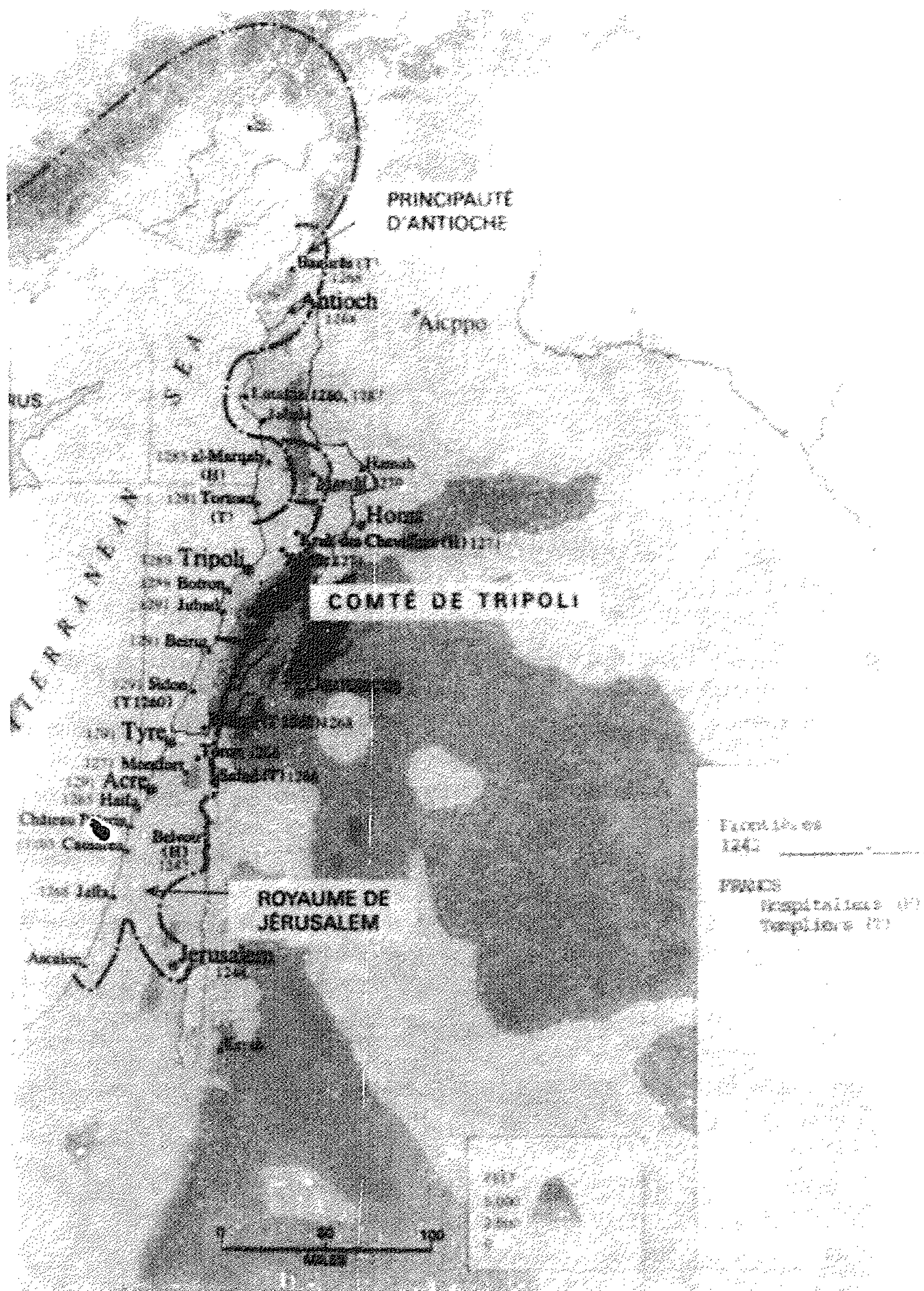
(كتاب الروضتين ، القاهرة ، ١٩٦٢).

أما الحملة الصليبية الثالثة التى قادها ريتشارد قلب الأسد فقد كانت استجابة دامية لهذا الحلم ؛ ولذلك كانت نشطة وقوية وعنيفة فى الوقت نفسه ، وقد كادت أن تنجح فى الانتقام لحطين واستعادة القدس أيضا ، ولكنها لم تتمكن إلا من استعادة جزء صغير فقط من المملكة اللاتينية فى المنطقة حول " عكا " التى استعادوها من صلاح الدين بعد حصار استمر لأكثر من عامين. وكان يجب وقتها أن تستخدم هذه المملكة كقاعدة لغزو مصر ، خاصة وأن حياة ريتشارد كانت معتمدة على الرجال والعتاد والنقود التى كان يحصل عليها بصفة مستمرة من أوروبا ، وبصفة خاصة من فرنسا ، ولأن الأمراء الأيوبيين لم يكونوا مهتمين بمواجهة الخطر الخارجى لانشغالهم بتقسيم الإمبراطورية التى ورثوها عن كبير عائلتهم.

فى ذلك الوقت لم يكن للإمبراطورية اللاتينية قائد ، فقد كانت تستعين بالقادرين من الباباوات وبمملكة فرنسا وإمبراطورية ألمانيا ومملكة صقلية لتوفير الحماية لها. فالغريب الذى سيفد إلى البلاد هو الذى سوف يستشعر مشاكلها ويخاف على مستقبلها ، وكانت الأنظمة الدينية العسكرية لفرسان المعبد وفرسان الإسبتارية (رهبان محاربون لرعاية الجرحى فى المعارك) والفرسان التوتونيين (الفرسان الجرمانيون) الذين افتقدوا ملكا يوازن بين سلطاتهم قد أصبحوا هم أنفسهم " ملوكا " يتمتعون بالاستقلالية إلى حد ما. أما المدن الإيطالية التجارية مثل جنوة والبندقية وبيزا فقد كانت تتحكم فى المياه والتجارة ، وكان هؤلاء الفرسان يقومون بعد كل معركة بتقرير سياساتهم طبقا لتقييمهم نتائج عمليات تحرير الأراضى المقدسة ، أما مستقبلها

فلم يكن واضحا. فى حين كان الهدف الحاسم أمامهم والذى يضعونه نصب أعينهم هوالتجارة مع مصر ، ولا عجب فى ذلك ، فقد كانت مصر هى مصدر المكاسب الهائلة التى يحققونها.

لم يبق فى عكا والمدن الأخرى على ساحل الشام وفلسطين إلا عدد قليل من الرجال الذين ولدوا فى الأراضى المقدسة ، ولم يكن لديهم وطن آخر غيرها ، أما الفرسان المرتبطون بالبلاد فقد توفى العديد منهم ، بينما بقى على قيد الحياة فى المدن التجارية النخبة المتمسكة بحريتها ، والتى كانت تتمتع بخبرة كبيرة فى فن التجارة مع المسلمين أكثر من خبرتها فى محاربتهم ، إلا أنهم كانوا قد تشتتوا أيضا أو فقدوا ثروانهم. وكان لابد من العودة إلى البداية فى كل شىء ، إلا أن الإيمان لم يعد كما كان أوكما قال. "روتوبوف" إنه قد تجمد.



Les Etats Latins (1243 - 1291)
Service cartographique de l'Université du Wisconsin (USA)
K.M. Setton : The Crusades - Tome 2 (Edition de l'Université du Wisconsin,1969)

نظرة الفرنجة للمسلمين

عندما بدأ الاستعداد للحرب الصليبية كانت نظرة الأوروبيين عامة والفرنجة بوجه خاص إلى أعدائهم المسلمين نابعة من قصص الفروسية التى استمرت لعدة قرون. فقد كانت هذه الروايات هى ما يقرؤه النبلاء ، وتقريبا كل من تعلم القراءة من عامة الشعب وقد كتبت هذه الروايات خلال القرن الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر ، وبالطبع كانت تؤازر وجهة نظر الصليبيين ، كما لم تخل الدروس الملقاة فى القصور أوفى تجمعات الأسواق من قصص عن البطولات التى كان يقصها الرواة والشعراء. وكان من الضرورى أن يتضمن أى حفل يقام فى القصور أوأى تجمع آخر قصيدة شعرية أوأغنية تمجد بطولات هؤلاء الفرسان.

كان المسلمون فى بداية الأمرهم الأعداء، وكان هذا المصطلح يشير لكل الأعداء الأجانب ، ولكن بفضل القصص التى كانت تحكى دوما عن بطولات الفرسان، ارتبط لفظ المسلمين تدريجيا فى ذهن العامة بمسمى « العدو الدنيتى » أو "المخالفين فى العقيدة".

وكان الإسلام فى ذلك الوقت أكبر حضارة مجاورة ، بل ومنافسة لأوروبا المسيحية ، وقد ظهر الإسلام فى جنوب أوروبا كقوة غازية فى القرن الثامن ، وكانت الصورة فى الواقع إيجابية فى نظر شعوب إسبانيا وجنوب إيطاليا وجنوب فرنسا ؛ فمثلا فى إسبانيا لم يصطدم العرب بمقاومة شعبية بالرغم من اختلاف الدين ، وفى وسط فرنسا طلب الثوار فى المقاطعات التى كانت ضد الفرنجة الاستعانة بالعرب المنتصرين فى إسبانيا لمساعدتهم على دحر الفرنجة ، وقد نجحوا فى ذلك بالفعل. وقد سبق أن حدث الشىء نفسه قبل قرن من الزمان فى مصر ، عندما فتح الأقباط المسيحيون أبواب " بابليون عاصمة البلاد " للغزاة المسلمين للتخلص من طغيان المسيحيين البيزنطيين.

كان واضحا أن غزوات المسلمين الحربية لم تكن بغرض جمع أموال الضرائب المبالغ فيها ، أو بغرض التخريب مثلا ، وسيظل هذا دائما في الذاكرة ، بعكس أهل النورمان والماجيار الذين ارتكبوا الكثير من الأفعال الشنعاء في أوروبا الغربية لسنوات طويلة ، وقد حدث ذلك في أراضٍ شاسعة مأهولة بالسكان. وكانت الأسطورة التي تحكي عن أن البطل " شارل مارتل " – وهو البطل الذي قهر العرب في بواتييه – غير صحيحة تماما ، ويشهد على ذلك من عاصره وشهد انتصاراته التي أخضعت الساكسونيين والفريزنيين وكذلك الألمان. أما بالنسبة للكنيسة وبعيدا عن نظرتها له على أنه أحد منقذي المسيحية من الغزو الإسلامي، فهي الكنيسة نفسها التي أدانته واتهمته بالكفر بعد ذلك ، وكان بسبب استيلائه على أراضيها والأراضي التابعة للأديرة ،حتى يتمكن من تجهيز جيش جديد ، وقد قامت الكنيسة بإحراق قبره الخالي بما أن الشياطين قد حملوا جسده إلى النار بعد وفاته.

وقد أشاد المؤرخون والمؤلفون وأيضا الشعراء لمدة طويلة في فرنسا بالمسلمين الذين كانوا يتسمون بالقوة والمقدرة ، والتطلع الى الاكتشافات والمعرفة، كما كانوا يتقنون كذلك فنون العيش في رخاء ، ومع أن ديانتهم المسلمة لم تكن شرعية في نظر المسيحيين ، إلا أنها كانت على الأقل مقبولة ومحترمة. وقد نسب إليهم كل ما هو راق ، حتى إن شعوب وسط فرنسا نسبت لهؤلاء المسلمين الآثار التي أقامها الرومان.

وكان الشعراء الجوالون في وسط فرنسا هم الذين ابتدعوا الحب الرومانسي ، رغم أنه كان موجودا أيضا في الشعر الأندلسي . إلا أنه لم يثبت أن هؤلاء الشعراء الجوالين قد نقلوا عن الشعر الأندلسي المليء بالحب الأفلاطوني، ولكن من المؤكد أن الوحي بينهما كان مشتركا. وقد انعكست أغاني هؤلاء الشعراء الجوالين على سلوك الأمراء الذين كانوا يمارسون الحب الرومانسي كما جاء في الأغاني ، لدرجة تؤكد أن هزيمتهم أمام الفرسان الفرنجة أكبر بكثير من هزيمتهم في غزواتهم النسائية ، وكانت أساليب الحب كما جاءت في الشعر كفيلة بجعل نساء بلاط أكس وتولوز ومونبلييه يتنهدن ويحلمن بالحب.

حارب شارلمان إمبراطور ألمانيا ووالده بيبين القصير الساكسونيين والبافاريين وشعوباً أخرى شمجية صغيرة فى الشمال كانت أعداءً للإمبراطورية، أما محاربة الجنود المسلمين على جانبى جبال البرانس فقد كانت بالنسبة لهم مسألة ثانوية، بالرغم من أن هذه الحملات الأخيرة كانت السبب فى تثبيت ملكهم ومجدهم أيضا. وبعد الحرب التى خاضها الإمبراطور ذواللحية الكثيفة الحمراء، الذى كان معاصرا للخليفة هارون الرشيد ببغداد آن ذاك، وكانت بينهما علاقات ' فقد أرسل له مبعوثين ليشرحوا له معاركه ومفاخره.أما المعارك التى دارت بين أتباع رولاند التقى ضد الجنود المسلمين. فقد مجدتها الأغانى الرمزية والقصص البطولية لفرسان فرنسا ، وفيما بعد أصبح الجنود المسلمون هم الخصم النبيل المفضل فى المعارك التى يتقابلون فيها مع أتباع رولاند التقى.

وفى بداية القرن الحادى عشر، ومع بداية ظهور النغمة الجديدة للحروب الصليبية ، تغيرت صورة الجنود المسلمين فى فرنسا عما كانت عليه سابقا. وقد وصف البابا أوربان الثانى واعظ الحملة الصليبية الأولى المسلمين "بأنهم شعب بدون إله " ووصفهم أيضا " كرجال ليس لهم دين مصيرهم " النار الأبدية " بالإضافة إلى أوصاف أخرى غير محببة للنفس!

وقال برنارد دى دكليرڤوه الذى قامت الكنيسة بتقديسه إن قتل المسلمين ليس خطيئة ؛ حيث أن المسلمين لا يحثون على التعاليم الدينية ، بل يحضون على الرذيلة وكراهية المسيحية ، وكانت قصص الفرسان تعدل حسب الأذواق فى ذلك الوقت ؛ فلم تعد قصص وروايات رولاند وأتباعه تستخدم لإشعال قلوب المنصتين بالخيال لمساندة محاكم التفتيش فى إسبانيا ، أو لخدمة الحملات الصليبية عبر البحار.ففى صقلية مدينة النور تم تغيير اسم رونالدو إلى أورلاندوفوريوزوالذى أزاح المسلمين منها بغرض تمجيد المسيح ، وأيضا حبا فى النساء الجميلات ، أما فى رونسوفوفقد احتل المسلمون مكان الباسكان (الباسك حاليا) ، فقاموا بصيد الخائن رولاندو وأتباعه وقتلهم.

وفى أغلب مدن وسط فرنسا وفى إيطاليا أيضا ظهرت قصص تحكى عن أمير محلى سوف يتجنب الرذيلة إذا عمت الفضيلة ، كما أنه سيتجنب الفضيلة إذا عمت

الرذيلة ، وكل ذلك من أجل مجد الفرسان المسيحيين الذين سينتهى بهم الأمر إلى قهره ومطاردته.

نبت هذا النوع من الأغانى والقصص والشعر البطولى من الاحتلال الإسلامى لإسبانيا ووسط فرنسا وساحل إيطاليا ، وهذه الأغانى هى التى صنعت روح الفروسية من قبل ، وهى تلك الروح التى أرست الحب الرومانسى فى فرنسا لعدة قرون فى المستقبل.

وقد وجدت الدعاية الدينية والسياسية للحروب الصليبية ما يغذيها ، فجعلت من الجوانب السلبية للخصم هدفا للفرسان الفرنجة الرومانسيين ، حتى إن ما كان فى البداية قتالاً بين فرسان يتساوون فى المبادئ والقيم النبيلة أصبح الآن نداء للقتل في حق غير المسيحيين ، كما أصبح سلبا مقننا لممتلكاتهم. وقد رسخت هذه الصورة المشوهة فى أذهان كل الفرنجة لعدة قرون ، حتى بعد انتهاء الحروب الصليبية وهى الآن أبعد ما تكون عن الاندثار وما زالت مستمرة إلى اليوم!

خلفاء « صلاح الدين » وشقيقه « العادل »

صلاح الدين (١١٣٨ – ١١٩٣)

- الأفضل على (دمشق) ١١٧١ – ١٢٢٥
- العزيز عثمان (مصر) ١١٧٢ – ١١٩٨
  - المنصور محمد (مصر) ١١٨٩ – ١١٩٩
- ١٥ ابنًا آخرين

سيف الدين العادل (١١٤٥ – ١٢٢٨)

- الكامل (مصر) ١١٨٠ – ١٢٣٨
  - الصالح (مصر) ١٢٠٧ – ١٢٤٩
    - توران شاه (مصر) توفى ١٢٥٠
  - العادل الثانى (مصر) ١٢٢١ – ١٢٤٨
- المعظم (دمشق) ١١٨٢ – ١٢٢٧
- الأشرف (ميزوپوتاميا) ١١٨٢ – ١٢٣٨
- ٦ أبناء آخرين

أولاً : الحملة الصليبية لفرسان المهور

ضياع بيت القدس

انتصر صلاح الدين على الفرنجة فى حطين انتصارا داميا ، وكان ذلك فى ٤ يوليو١١٨٧ ، وكان هذا النصر سببا فى السقوط النهائى للمملكة اللاتينية فى القدس ، وأصبحت البقية الباقية من الصليبين فى أيدى غير النصرانيين. وبذلك أعيدت القدس العاصمة والمدينة المقدسة المحاصرة وفوق كل ذلك الرمز الأخيرللمسيحية إلى السلطان المنتصر ، وفضل المدافعون تجنب الهجوم والمذابح التى قد تنتج عن الحرب. لقد عرف صلاح الدين آنذاك كيف يتعامل مع المسيحيين بإنسانية وشهامة الفرسان ، مما أجبر المؤرخين اللاتينيين على الكتابة عنه بكل التقدير والإعجاب ، وقد كان من السهولة بمكان أن تتم مقارنة هذا الغزو" المخلص للرب" بالمذابح التى حدثت عند غزو الصليبيين لأورشليم القدس عام ١٠٩٩ ، وقد استمر حكمهم للمدينة المقدسة مدة سبعة وثمانين عاما .

أمر صلاح الدين المسيحيين بمغادرة الأراضى الداخلية والتوجه ناحية الساحل الذى كان ما زال تحت سيطرة الفرنجة آنذاك. وكان عليهم الاختيار بين أحد هذه المناطق ، وهى أنطاكيا وطرابلس فى الشام ، أو الساحل فى جنوب يافا أوشمال تيبور فى فلسطين ، ولكن ما حدث هوأن بارونات الفرنجة كانوا أقل سخاء من الغزاة المسلمين، ففى لبنان مثلا قام "رينو" صاحب نفين - وقد اشتهر عنه أنه كان قاطع طريق مثل الكثيرين من الأشخاص الذين أفرزهم القرن الثانى عشر - بمهاجمة اللاجئين المسيحيين ونهبهم. أما فى طرابلس فقد خشى الحاكم من أن يقوم اللاجئون الجياع بالسلب والنهب فقام بإغلاق الأبواب فى وجه الجميع. أما ما حدث مع اللاجئين الأكثر ثراء من الفرسان والبرجوازيين ، والذين يملكون بعض الأشياء الثمينة ، فقد كان مختلفا بعض الشيء ؛ فقد حوصروا من الفرسان المتمركزين فى طرابلس وسلب منهم

كل ما تركه لهم المسلمون ، وكانت هذه هى النهاية الحزينة للصليبيين بعد أن فقدوا بيت المقدس والأراضى المقدسة فى فلسطين!

كان اللاجئون المسيحيون فى الجنوب أى فى عسقلان أحسن حظا ؛ فقد توجهوا إلى دلتا النيل تحت حماية صلاح الدين ، وتمت استضافتهم فى الإسكندرية طوال فترة الشتاء إلى أن استطاعوا ركوب السفن المتجهة إلى أوروبا ، وعندما رفض ربابنة السفن القادمة من جنوة والبندقية وبيزا ركوب غير القادرين على دفع مصاريف السفر هددهم قاضى الإسكندرية بعدم رد حبال ودفة السفن إليهم ما لم يقوموا بحمل جميع اللاجئين ، بل والأكثر من ذلك أنه جمعهم وحملهم مسئولية سلامتهم ، وقد كان هذا تصرفا إنسانيا منه بالطبع ، حيث إنه استغل وجود ٣٦ سفينة إيطالية آنذاك فى ميناء الإسكندرية كانت تأخذ على متنها فقط من يستطيع دفع قيمة السفر.

" تعالوا أمامى وأقسموا بأنكم ستقومون بنقلهم بإخلاص وشرف المسيحية حتى ميناء الوصول. لا تأخذوهم لمكان آخر غير الذى تأخذون إليه الأغنياء، ولا تؤذوهم ، وإذا نما إلى علمى أنكم آذيتموهم أوأهنتموهم بأى شكل فسأنتقم من التجار الذين سيحضرون من بلادكم إلينا فيما بعد "

إلا أن هذا التهديد لم يكن كافيا لإقناع ربابنة السفن الإيطاليين بأخذ اللاجئين ، بل كان على الحكومة الأيوبية أيضا أن تؤكد لهم أنها ستقوم بدفع المبالغ التى يحتاجها اللاجئون خلال فترة رحلتهم.

وقد تم إعادة جامعى الثقافة الإسلامية فى القدس بعد تطهيرهم بماء الورد ، ودعا صلاح الدين النصارى واليهود أهل الشام لإعادة إعمار المدينة بعد أن أخلاها من السكان الفرنجة وفى الوقت نفسه كانت الحرية مكفولة للمسيحيين فى القيام بالحج بدون تحصيل أى ضرائب منهم.

فتح السلام طرق التجارة ، ونبذ صلاح الدين الأفكار التى كانت تشجعه على تصفية فلول الفرنجة على الساحل ، وكانت فكرته تعتمد أساسا على فتح الطريق إلى أوروبا بلد الفرنجة ، التى كان يجهل تقريبا كل شىء عنها .

وقد زاد من عزلة الفرنجة عن بعضهم البعض احتفاظهم بتيبور، التى قام على حمايتها المركيز " دى مونتفيرا " ، وكذلك طرابلس وقلعة توتوز والكرك وقلعة مرقب وكلها مناطق تفصل بينها أراض تقع تحت سيطرة المسلمين.

وبفضل سيطرة الإيطاليين على البحر احتفظ الفرنجة لأنفسهم بالسيطرة على الشواطئ ، أما صلاح الدين فقد احتفظ لنفسه بالسيطرة على الأرض ، وقد ظن صلاح الدين فى ذلك الوقت أنه لا يوجد خوف من المسيحيين ، وكان هذا خطأً فاحشا. فقد التمس الملوك المسيحيون من البابا السماح لهم بتنظيم حملة صليبية جديدة ، وهى الحملة الصليبية الثالثة ، وذلك لاستعادة بيت المقدس والأماكن المقدسة ، على أن تكون الحملة بقيادة كل من ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وفيليب أوجست غازى بوفين ، وفردريك باربروسا إمبراطور ألمانيا ، وهذه المرة جاءت الحملة الصليبية من البحر ، وكذلك من البر عبر تركيا، وكان يجب عليهم النجاح هذه المرة .

حاول الصليبيون الهجوم على القدس من ثلاث جبهات بدون نجاح ، على الرغم من أمجاد ريتشارد قلب الأسد السابقة فى الاستيلاء على الأراضى وأخذها بالقوة ، إلا أنه بعد حصار دام عامين ، استطاع ريتشارد أن يسترد عكا من السلطان ، وأعلن أنه راض كل الرضا عن هذا الكسب ، ثم رحل إلى أوروبا ، وكان فردريك باربروسا قد سبقه فى الذهاب ، لكنه مات غرقا فى تركيا ، (وقد كانت ذكرى حطين هى البصمة التى أشعلت ثورة الغضب فى المعارك الجديدة).

ويبقى السؤال : هل من الممكن أن تصبح المملكة الصغيرة التى أنشئت على طول الشاطئ حول عكا قاعدة لغزوات جديدة مرة أخرى؟

عكـــا ١٢١٠

كانت ملكة مدينة عكا تدعى " مارى دى جيروزاليم مونت فيرا " وكانت فى السابعة عشرة من عمرها وتحت وصاية ديبلان صاحب بيروت الذى أظهر حكمة فى اختيار زوج لها حيث أن هذا الزوج سوف يصبح يوما ما على رأس المملكة - التى فقدت عاصمتها أورشليم القدس - ولم يتوج لها ملك.

ففى عام ١٢٠٨ التف بارونات الشام حول جان ديبلان وقاموا بإعطائه النصيحة التالية :

"أوكل ملك فرنسا فيليب أوجست فى اختيار رجل طاهر يقدر ويعرف كيف يحافظ على مملكة أورشليم القدس"

وبعد ذلك سافر رئيس أساقفة عكا " جوتييه دى فلورانس . إلى باريس بصحبة " ايمار " صاحب القيصرية وأكدا أمام ملك فرنسا من جديد ولاء الشام ولبنان للفرنجة واللاتينيين وأنه تم قطع العلاقات مع الإمبراطورية الألمانية وإنهاء الامتيازات التى كانت تتمتع بها منذ وصول ابن فردريك دى بربروسا وتأسيس نظام الفرسان التيوتونيين فى دمشق.

وكان ملك فرنسا " فيليب أغسطس " هو الراعى الحقيقى لملكة أورشليم القدس ، وكان يجب عليه تعيين عظيم لها لا يكون له خبرة فى السياسة فقط ولكن لديه أيضا المقدرة على تفهم كيفية القيام بحكم هذه المنطقة المفتوحة على التجارة مع الدول الأخرى وقد وقع اختياره على رجل نبيل من " شامبانى " وهى مقاطعة تقع وسط المنطقة الاقتصادية فى أوروبا فقد أضيف فى القرن الثالث عشر نشاط أسواق مثل " شامبانى " و" برى " وهى المدن الصناعية فى ذلك الوقت إلى مدن مثل " تروا "

و"بروفانس" و" بار سور أوب" والتى كانت تقع بالقرب من باريس ، وكانت شامبانى لا تمثل فقط السوق الكبير بل ومقر السلطة الملكية كما كانت مدينة الإشعاع الثقافى بفضل جامعتها ، وكان يتم فيها مقايضة الأقمشة الحريرية القادمة من البلاد الإسكندنافية ومن بلجيكا بالتوابل والفضة التى يأتى بها التجار الإيطاليون. وقد تضخمت ثروة "جان دى بريان " صاحب شامبانى فى ظل هذا المناخ ، حيث كان هناك ارتباط وثيق بين التجارة والسياسة فى ذلك الوقت. وقد كان "جان دى بريان" يبلغ من العمر ٦٠ عاما آنذاك ولكنه كان مليئا بالنشاط والحيوية وكان قدره أن يتزوج من فتاة السابعة عشرة ربيعا، إلا أن البلاط الملكى لم يتقبل هذا الأمر ولم يتفهم المشاعر التى كانت " بلانش " كونتيسة شامبانى تكنها له، إلا أن " فيليب أغسطس " كان يقدر فيه اتزانه وحكمته وقد قدم له ٤٠٠٠٠ جنيه كمقدم صداق وحث البابا أيضا على دفع المبلغ نفسه .

وسافر " جان دى بريان " بعد استلامه هذا الصداق للحاق بصغيرته الموعودة ورسا فى ميناء " عكا" فى ١٣ سبتمبر ١٢١٠ وفى اليوم التالى تزوج " مارى " وتوج فى الكاتدرائية " ملكا لأورشاليم " وسط هتاف وتهليل جميع بارونات الساحل وفرحة العامة.

قدر " لمارى " الموت بعد سنتين وذلك بعد أن وضعت طفلتها " إيزابيلا يولوند " التى أصبحت فيما بعد الوريثة الشرعية الوحيدة للمملكة وأصبح " جان دى بريان " بطبيعة الأمر الوصى الشرعى على العرش ، وقد كان من الحكمة أن يعقد هدنة مع السلطان " العادل " لمدة ست سنوات أى من عام ١٢١١ إلى عام ١٢١٧ حتى يضمن السلام الذى كان فى حاجة إليه لإعادة بناء مملكته.

ولكن الذى حدث فى أوروبا كان على عكس ذلك حيث لم تكن الأمور هادئة على هذا النحو.

فقد انتخب " إينوسنت " الثالث بابا فى عام ١١٩٨ واتخذ من قوة الكرسى البابوى منعطفا مصيريا ، وكان هذا المنعطف هو إلزام جميع المسيحيين بالحرب باسم السيد المسيح الذى اعتبرت المحاربة من أجله واجبا كما يحارب كل رجل من أجل

سيده (مما جعل المسيح أشبه بالإقطاعى الذى يملك الأراضى والفلاحين) ولكن وجه الخلاف هذه المرة أن البابا رئيس الكنيسة المسيحية هوالذى سوف يقود المعركة ، وأما جميع ملوك أوروبا فهم رجال تابعون للكرسى البابوى فقط ، وبذلك أصبح البابا هوالرئيس الأعلى والأب الروحى الدينى والدنيوى للمسيحيين فى هذا العصر. كذلك قام " اينوسنت " الثالث بتحوير بعض المعانى الواردة فى "الوصايا" فى ندائه للحرب الصليبية لتتفق مع أهدافه ، وأصدر أوامره بإطاعتها والعمل بها من الجميع صغيرا كان أو كبيرا .

وهكذا لم يعد الصليب يؤخذ وحده كذريعة لتحرير الأماكن المقدسة وقد كان يمكن للبابا أن ينادى للحروب الصليبية دفاعا عما كان يسميه الحقوق السياسية الأساسية للكنيسة ، فالحرب ضد الألبجنزيين (من أهل "ألبى" فى الجنوب الفرنسى الذين عاشوا حياة بسيطة وثاروا ضد حياة البذخ التى كان يحياها كبار رجال الدين) والهرطقة هى أولا وأخيرا مسألة تخص الكنيسة لكنه لم يفعل. فهى حرب صليبية باباوية تم الإعلان عنها ولم يكن لملك فرنسا أن يشارك فيها فى بادئ الأمر. وقد صاغ "اينوسنت" الثالث نظرية سياسية لهذه المناسبة ، وكان وقتها قد أقر بحق المسيحيين فى الاستيلاء على أموال الكفار بالقوة وأصدر أوامره أنه منذ تلك اللحظة فإن الذين لا يؤمنون بالطبيعة الواحدة للمسيح سيعاملهم البابا كخونة ، وقد أنشأ "اينوسنت" الثالث ما يعرف بحق التعويض ؛ وكان ينص على أنه إذا رفض شخص ما معاقبة الذين لا يؤمنون بالطبيعة الواحدة للمسيح، أومن يرفض مليكه أولا يستطيع إجباره على القيام بواجبه فى معاقبة هؤلاء فإن البابا يستطيع آنذاك أن يمنح كل ممتلكاته للمسيحيين المتحمسين الذين يقبلون الغزو، وكانت هذه هى النظرية التى أعطت الأولوية للكنيسة على قانون الإقطاع فكانت تقدم الوعود بمنح المكافآت من الأراضى المملوكة للكنيسة لمن سينحاز إليها .

وقد قام إينوسنت بإرسال صغار النبلاء والمغامرين من جميع الفئات المحكوم عليهم فى جرائم حرب إلى الأراضى المقدسة مما أدى إلى تطهير المجتمع من هذه الفئات. كما كان يقوم أيضا بتشجيع نهب وسرقة كل ما هونفيس من هؤلاء الكفار وبعد القيام بعمليات السلب يمنحهم بركاته وهكذا يكسبون الجنة.

وبالنسبة للنبلاء ، فإن الحرب الصليبية كانت فرصة مواتية للاستيلاء على أراض جديدة ، وبسط نفوذهم على مناطق أخرى ، وكذلك وضع أيديهم على مراكز تجارية قوية حتى يمكنهم الانضمام إلى الطبقة الإقطاعية، فقد كانت طموحات الأمراء إعلاء مستوى الطبقة الاجتماعية التى ينتمون إليها ، مما دعاهم إلى الإسراع فى الاستيلاء على الحصون القوية والأراضى الغنية التى تنمى مناطق نفوذهم وتزيد من استقلالهم ، ونتج عن ذلك وجود بعض المقاطعات ، مثل مقاطعة ديواس فى إمارة أنطاكيا ومقاطعة طرابلس ومقاطعات أخرى وذلك قبل مملكة أورشليم القدس.

وكان إينوسنت الثالث يبحث دائما عن مصادر للحصول على التمويل المادى للقيام بهذه الحروب ، ولهذا قام لأول مرة بفرض الضرائب على رجال الدين ، إلا إنه عندما بدأ فى تحصيل هذه الضرائب قام بإنفاق النقود التى جمعها على أهداف أخرى بدلا من الحرب ضد الإسلام. فمن المعروف مثلا أنه تم استغلال الحرب الصليبية الرابعة التى قادها دوق داندلو ضد القسطنطينية "روما الشرق" ، للاستيلاء على المدينة الأرثوذكسية المقدسة ونهبها فى عام١٢٠٤، وقد حكمها اللاتينيون فيما بعد، ولكن هذا لم يسهل غزوالأراضى المقدسة.

توقفت الحرب ضد الألبنجنزيين بدعوى تطهير النفس. أما الحرب الصليبية الخامسة التى كانت تنادى بتحرير قبر المسيح فقد ادخر "إينوسنت" الثالث كل جهد لها، ولم تخضع الحرب الصليبية فى هذه المرة للملوك والعظماء والفرسان ، ولكنها كانت تحت القيادة البابوية الفعلية ، متمثله فى رجال الدين الذين وضعوا على رأس الجيوش.

بدأ "إينوسنت" الثالث إيقاف امتيازات الذين اتخذوا من الصليب شعارا لحملات أخرى غير غزو الأراضى المقدسة مثل ؛ الحملات ضد الألبنجنزيين فى فرنسا، أوضد الوحدويين فى إسبانيا وقد كان الطواف المقدس الشهرى يتم فى كل مكان ، وكان الرجال والنساء يسيرون كل على حدة ، ويقومون بالدعاء لله والرجاء أن يسمح لهم بعودة قبر المسيح للمسيحيين ، وقد أعلن "إينوسنت" الثالث فى ندائه للحرب الصليبية فى أبريل عام

١٢١٣ " بأن يوم التحرير أصبح وشيكا "، مما يعنى أن قوة الإسلام كما هى محددة فى سفر الرؤيا بعدد ٦٦٦ سوف تصل إلى نهايتها (سفر الرؤيا الثالث عشر، ١٨) فى عام ٦٦٦ بعد مولد الرسول محمد أوبعد العام الأول من الهجرة فى التقويم الإسلامى .

وعندما عين "روبير دى كورسون" سفيرا للبابا فى فرنسا كان يقوم بالتبشير للحرب الصليبية بحماس جارف ، مما جعل سادة القوم يتهمونه بالمبالغة ، وكان الفقراء يستمعون إليه أكثر لأنه كان يوزع الصليب على كل من يريد أن يعلقه من العجائز والسيدات والأطفال والعجزة والعميان ، وقد ساد التذمر بين سادة القوم لأن كل من يحمل الصليب كان يتهرب من سيده ، ويرفض دفع الديون المستحقة عليه ، وقد شكا الملك "فيليب أغسطس" ذلك للبابا.

وكان فيليب دى كولونيا هوالصوت المسموع فى ألمانيا، وقد رافق الجنود إلى مصر.أما القساوسة والمطارنة ، وهم أكبر رجال الكنيسة قدرا، فقد كانوا مسخرين لإشعال حماس المتمردين ، ولكن نجاحهم كان محدودا.

وفى نوفمبر من عام ١٢١٥ أرسل الفاتيكان جيشا من المبشرين إلى فرنسا وإسبانيا وإنجلترا لافتتاح فعاليات المؤتمر الدينى الرابع الذى كان تتويجا لمجهوداتهم ، وكان " إينوسنت " الثالث قد عقد العزم على أن يقود بنفسه الحرب الصليبية التى كان مقررا لها أن تبدأ فى أوائل شهر يونيو١٢١٧ ولكن القدر لم يمهله فقد توفى فى ١٦ يوليو ١٢١٦ فى بيرو وبذلك لم يكن مقدرا للبابا "إينوسنت" الثالث أن يشاهد بنفسه تحقق الحرب الصليبية التى طالما أولاها مجهودات كبيرة.

وجاء "أونوريوس" الثالث بعد إينوسنت، وكان عجوزا حكيما متزنا ، فأحس بأن نجاحه فى هذه الحرب الصليبية يجب أن يبدأ بالتعبئة فى الموقع نفسه ، أى فى فلسطين والشام ، فقام بتكليف 'جاك دى فيترى" الذى كان قد عين حديثا أسقفا لعكا بالتبشير للحرب الصليبية فى الأراضى المقدسة. وقد كان لهذا الأخير خبرة جيدة بهذه المهمة حيث أنه كان المبشر للحرب الصليبية ضد الألبنجنزيين.

وعندما وصل "جاك دى فيترى" إلى فلسطين اكتشف أنه غير قادر على فهم هذا الشعب فقد درج على اعتبار كل من هم خارجون عن طاعة الكاثوليك اللاتينيين

أوالرومـان " ملحـدين " ؛ فكيف يفـهم النصـارى المحليين مـثل أقـباط مـصر والملكانيين واليعقوبيين فى الشام.... الخ ؟

ترى هل لأنـهم يعشـقـون المسـيح ويلبسـون الصليب ، يعنى ذلك أنهم أصـبحـوا مسيحيين ؟ أم لأن عـقيدتهم كانت مقبولة من روما ؟ ؛ فمـثلا كنيسة الشام لم تكن تعترف إلا بالجوهر الإلهى للمسيح ؛ وهى النظرية اليعقوبية للأسقف بيير عداى من القرن السـادس وكان هذا بالطبع مخالفا لبقـية الكنائس الأخرى التى تعتبر المسيح رجلاوإلها فى الوقت نفسه وهذا أيضا يخالف الإسلام واليهودية على حد سواء ؛ حيث يعترف الاثنان بأن المسيح رجل فقط ، ولكنه ليس إلها ، أما الكنيسة السريـانيـة فـهى لا تستـخدم اللاتيـنية فى عبـاداتها ، ولكنها تسـتخدم اللغة الـسريـانية ، وهـى اللغـة الآرامية الأصلية (والآراميون هم الشعوب التى رحلت وعاشت فى بلاد الشام والعراق) ، وهى أيضا اللغة الأم التى كـان يتحـدث بـها المسيـح ، كـما كانوا يتباهون أيضا بأن أقدم كنيسة فى العالم توجد فى مغارة فى أنطاكيا ، أما اليعقوبيون فلم يكونوا سوى ملحدين ، بل وكفاراً وذلك بالنسـبة لجـاك دى فـيترى والكنيسة الـكاثوليكـية ، وأيضا بالنسبة للمسلمين واليهود.

ومن جهة أخرى كانت لغات أخرى غير اللاتينيـة تستـخدم فى جميع الكنائس الشرقية ، فمثلا كانت الصلوات تتلى بالعربية أوالأرمنية أوالسريالية ، ولغات أخرى كثيرة لم يسمع بها المسيحيون المخلصون.

أما الصليبيون الذين كانوا قد نهبوا وسلبوا القسطنطينية، فلم يهتموا منذ الحرب الصليبية الأولى بنهب أوسلب الكنائس ، كما لم يهتموا كذلك بسرقة نبلائهم لصالح أسـيادهم الأسـاقفة ، الذين حضـروا من أوروبا ، وقد ذكر **CL.Cahen** أنه رغم أن مسـيحى الشـام والفلسـطينيين قد تحـملوا العبء الرئيسـى للحـملات الصليبيـة ، سواء كانوا من فرسان المعبد أوفرسان الإسبتارية ، إلا أنه لم يحمل أى منهم لقب " صليبى " ، كما لم يتمتعوا بميزة الغفران ، فالموت بالنسبة لهم لم يكن استشهادا ، ولم تمنحهم روما لقب قساوسة.

وكان عليهم انتظار تنصيب البابا جون بول الثانى فى عام ١٩٨٨ ، ليتم تعيين بطريرك للقدس يكون من أصل عربى ومن مواليد البلاد.

تضامن المسيحيون المحليون مع الصليب ، ولكن تضامنهم لم يكن واضحا تماما ، ففى مصر مثلا كان كل من الأقباط واليهود يعتبرون أنفسهم مواطنين ينتمون إلى السلطان والشىء نفسه فى الشام حيث الملوك المسلمون يعتبرون النصارى الملكانيين واليعقوبيين مواطنين منتمين إليهم ، ولم يكونوا يخلطون قط بينهم وبين الصليبيين الأوروبيين ، وبالتالى فإن الموقف كان يحتاج لبعض التغييرات ، وعندما رغب الفرنجة فى تنظيم أنفسهم كدولة فى الشام وفلسطين كانوا يفضلون النصارى المحليين والتقليل من شأن المسلمين ، وقد تسبب ذلك فى اتهامهم بالتواطؤ فى بعض الأحيان مع العدو أو على الأقل التعاطف معه ، وكان هذا الوضع شديد الوضوح ، خاصة فى جبال لبنان مما تسبب فى إثارة التوتر بين التجمعات الدينية المختلفة.

وقد اتسم موقف الصليبيين فى مواجهة السكان المحليين الذين كانت غالبيتهم من المسلمين بكثير من اللامبالاة ، فلم يقوموا ببذل أى مجهود أومحاولات لكسبهم وفضلوا اللجوء إلى القوة.

أما الأسرى المسلمون الذين أرادوا اعتناق المسيحية فلم يفرج عنهم ، وذلك عكس ما كان يفعله المسلمون من الإفراج عن الأسرى المسيحيين إذا أرادوا اعتناق الإسلام. وفى الأراضى المحتلة أغلقت المساجد التى يطلق عليها المساجد المحمدية ، ومنعت كذلك ممارسة شعائر الديانة الإسلامية إلا فى حالات استثنائية ، بعكس ما كان يحدث عند المسلمين الذين كانوا يحمون العبادات بجميع أشكالها ، سواء المسيحية أواليهودية (أهل الكتاب).

وعلى الصعيد الثقافى لم تشجع الحرب الروابط الثقافية التى كانت تبدو شرا بالنسبة لهم ؛ لأنه إذا كان العدو يجسد الشر فماذا يمكن التعلم منه غير الشر.

ولم يهتم المسلمون أواللاتينيون بدراسة الشكل الخاص بالحكومة أو النظام الاجتماعى ، وإذا كان بعض اللاتينيين قد عبروا عن أنفسهم باستخدام اللهجات المحلية فى تخاطبهم فإن القليل منهم فقط هومن تعلم اللغة العربية ، وكان يستطيع قراءتها

وكتـابتـها ، وكـان العرب أقل منهم قدرة على تعلم اللغـات الغـربيـة التى عجـزوا عن فهمها أو التحدث بها مثل اللاتينية واليونانية والإيطالية المستخدمة فى منطقة الجنوب والشمال ، وأيضا الفرنسية والألمانية والإنجليزية والإسبانية ... إلخ ، وكانت تصيبهم الحيرة عند اختيار إحدى هذه اللغات.

وفى أوروبا كانت ترجمة العربية تتم من خلال العبرية ، وذلك بفضل اليهود الذين كانوا يترجمون كتب الفلسفة والعلوم العربية. أما فى الشرق المسلم فلم يظهر أى نشاط لترجمة الكتب الغربية إلى اللغة العربية ، بل كانوا يفضلون ترجمة كتب أرسطو وأفلاطون أو كتب الطب اليونانية ، كما كانت العلاقات الثقافية مع البيزنطيين سهلة وميسرة وظهرت منذ الأيام الأولى للإسلام ، وقد تسببت الأعمال العدوانية للصليبيين فى إعاقة ظهور التأثير الثقافى لهذه العلاقة. أما بالنسبة للبيزنطيين فلم تمنع الحرب من التبادل الثقافى والعلمى معهم ، وقد شكك المؤرخ العربى الكبير ابن خلدون بعد قرن من الحروب الصليبية فى وجود حياة علمية أو ثقافية فى الغرب ، وعلى أية حال لم يكن هناك داع أمام أى باحث عربى لدراسة ما يكتب فى الغرب.

إلا إنه كان هناك استثناء واحد فى صقلية فقد ، عهد الملك "روجر" الثانى والد "فردريك" الثانى إلى "الإدريسى" بتأليف كتاب عن جغرافية العالم ، فكان له السبق فى ذلك الحين ، ولم يكن هناك من يهتم بدراسة العلوم والآداب فى مملكة أورشليم القدس فى ذلك الوقت، فحكام المدن من مسيحيين ويهود وحتى المسلمون أنفسهم كانوا متضامنين مع بعضهم البعض فى الشعور بالقلق من كل ما هو جديد ، كما كان الجمع بين العقل والدين من الصعوبة بمكان حتى بالنسبة " لابن رشد " أو" الميمون " أو"توما الأكوينى ".

ونتيجة طبيعية للانتصارات التى تحققت فى الحرب ضد الجنود الصليبيين ، والتى عززت انتصارات المسلمين ، وجد المسلمون أنه لا منفعة من الفرنجة ، ولا يوجد ما يمكن أن يتعلموه أويأخذوه عنهم. وفى نهاية الأمر كان هناك يقين أن الإسلام يمثل صورة حضارية كبيرة تفوق كثيرا ما يمكن أن تقدمه المسيحية لهم ، إلا إن المسلمين كان يلزمهم ليس فقط عدة قرون ، بل ومعايير معينة حتى يمكن فصل العلم عن الدين

فى بلادهم ، والاعتراف فى النهاية بأن الوقت قد حان للبدء فى الاهتمام بالخبرات الثقافية والعلمية الأوروبية.

أما الصليبيون فقد أصابتهم الدهشة عند وصولهم للأراضى المقدسة ؛ فقد وجدوا شعبا مختلطا ولغة عربية غريبة ، بل ومجهولة بالنسبة لهم ، وفاكهة لم يعتادوها وحيوانات عجيبة أيضا ، وحتى يتخلصوا من إحساسهم بالغربة فى تلك البلاد فقد أعطوا للأشجار العربية أسماء مثل "عرب الجنة" و"تفاحة آدم" و"صبار الفراعنة"..... إلخ ، وكانوا يندهشون أمام النخيل وأشجار الصنوبر اللبنانية ، بل وحتى الصمغ الذى كان يتدفق من حز الشجر ، وكان من تقاليد العرب جمع الليمون الذى كانوا يعصرونه ليرويهم فى الأيام الحارة ، وكانوا يخلطونه أيضا مع الأطعمة ، ومن المعروف أن الكونت " أنجو" كان قد أحضر الخوخ الذى زرعه فى تورينومن الشام ، وقال عنه إنه من الأراضى المقدسة وهذا يثبت أن اكتشاف خوخ تورينويرجع أصلا للصليبيين ، أما السكر الذى كان يشتريه أهل البندقية فى فرنسا فهو من قبرص ، وكان وجوده نادرا ويباع فى محلات العطارة ، كما اعتادوا أيضا على خلط الفواكه باللحم والعسل والسكر الطبيعى ، وتوقف أكل لحوم فخذ البقر التى لم تكن متوافرة فى الأراضى المقدسة ، فكانوا يأكلون بدلا منها لحم الخراف والطيور وكان استهلاك اللحوم كبيرا ، وكذلك الفواكه والأسماك التى كانت توجد بوفرة ، أما الصلصات المستعارة من العرب فقد كان يوضع عليها الفلفل الأسود أوالأبيض والجنزبيل والكمون ونباتات عشبية أخرى من فصيلة الصليبيات ، كما كان يتم تتبيل البيرة والنبيذ بالقرنفل أوجوزة الطيب ، ويتم تعطير الخل أيضا ، وفى دمشق تعلموا كيفية عمل المربات التى أصبحت تقدم بعد الوجبات.

وقد تم اكتشاف الجمال والنوق وفهود الصيد الأليفة ، وكذلك الكلاب المتوحشة وأيضا الضباع والأسود ، بالإضافة إلى ما ذكره الذين قاموا برحلات لمناطق بعيدة عن التماسيح وفرس البحر والنمور والزراف أيضا.

إضافة إلى ذلك كان يجب التعود على ارتداء ملابس مختلفة ، فقد أجبرت الحرارة كلا من الرجال والنساء على ارتداء ملابس فضفاضة ، كما كان من الضرورى حماية الرأس من الشمس ، أما سيدات الطبقة الراقية فكن يرتدين ملابس مكونة من قطعتين

ومصنوعة من الأقمشة الثمينة المطرزة بخيوط ذهبية أوفضية أومزينة باللؤلؤ ، وكان هذا الحال بالنسبة للرجال أيضا ، فقد كانوا يتأنقون ويغطون الشرائط بنسيج شفاف تزينه مشابك من الذهب ، أما الأحذية فكانت مدببة ومقوسة ، وكانت معاطف الفرسان تصنع من الحرير السميك المزدوج المماثل للساتان.

وكانت القلاع الشرقية تشبه السجون إذا قورنت بالقصور أوبمساكن الأغنياء من التجار الشرقيين ، وقد زودت أفنيتها بنافورات يتدفق فيها الماء ، وزرعت حدائقها وبساتينها بالورود والرياحين ، وحليت حوائطها بالفسيفساء التى كانت تساعد على ترطيبها ، وكانت الشموع تصنع من شمع العسل المعطر ، كما اعتادوا على الاغتسال بصفة مستمرة ، وكذلك الاستحمام الذى كان ضروريا للتخلص من تعب اليوم ، وبصفة إجمالية فقد أتاحت لهم هذه الحملة فرصة التعرف على اكتشاف حضارة جديدة كانوا يجهلونها.

وكان الذين يفدون إلى البلاد حتى لفترات قصيرة يعودون إلى بلادهم حاملين بعض الذكريات دون محاولة فهم معانيها ومدلولاتها الكثيرة ؛ فقد كانت هناك عقبتان وهما عقبة اللغة وعقبة العداء الدينى ، وكان كلاهما كافياً للحيلولة دون ذلك. كما كان الاهتمام ينصب كلية على ما يعود عليهم بفائدة فورية ، لذلك انتفت محاولات الفهم والمعرفة ، فالأجنبى هو العدو ، ولم يكن هناك مجال للتعاطف معه بأية حال من الأحوال.

لم يرجع كل من غادر الأراضى المقدسة بالضرورة إلى بلاده الأصلية فى أوروبا ، فقد كان الكثيرون منهم يحاولون تحقيق الثراء فى الشرق خارج حدود الأراضى المقدسة فبعد إنشاء الإمبراطورية القسطنطينية اللاتينية حاول ملك قبرص وكذلك إمبراطور القسطنطينية اللاتينى تعمير أراضيهما ، وذلك بتشجيع المهاجرين من الأراضى المقدسة على الاستقرار لديهما ، ووعدوهم بالأراضى ، والأموال لذلك قال "أرنول" إن مائة فارس وحوالى عشرة آلاف مسيحى من الذين جذبتهم هذه الوعود غادروا فلسطين ودمشق متجهين إلى قبرص والقسطنطينية ، وبذلك أصبحت المملكتان المسيحيتان الجديدتان قطبين جاذبين ومنافسين للأراضى المقدسة.

أما الذين عاشوا لفترة طويلة فى هذه الأراضى فقد كانت المسألة مختلفة تماما بالنسبة لهم، فقد كون الذين قرروا العيش فيما وراء البحار حزبا آخر ، أما أعضاء الحملة الصليبية الأولى الذين قبلوا البقاء فى فلسطين فقد أطلق عليهم بازدراء " المهور " ، وهؤلاء أدركوا أنهم إذا أرادوا العيش كمسيحيين أوفياء فعليهم أن يعيشوا فى سلام مع السكان الأصليين بقدر الإمكان.

وبالنسبة " لجاك دى ڤيترى " فقد كان العداء محتدما بينه وبين الألبان ، واستمرت هذه المشاعر أيضا ضد السكان المحليين بعد مجيئه إلى الأراضى المقدسة، أما الفرنجة الذين استقروا فى الشام فقد عانوا أيضا من كراهيته. وقد لاحظ " دى ڤيترى" أن الأسياد المسيحيين سواء كانوا من اليعقوبيين أوآخرين من الذين نشأوا بين المسلمين قد تطبعوا بطباعهم ، واقتبسوا الكثير من عاداتهم ، حيث إنهم فى أعماقهم كانوا يكنون الكره تجاه اللاتين دون معرفة أسباب ذلك. وكانوا جميعا يتكلمون العربية ولم يكن أسلوب معيشتهم أوطريقة ملبسهم تختلف عن المسلمين فى شىء ، إلا إن " دى ڤيترى " قال إنهم يستخدمون المسلمين كجواسيس. وكان الأمر أسوأ بالنسبة للمهور ، وفى نهاية الأمر فإن العادات الشرقية خلقت منهم شرقيين من متعددى الزوجات.

"لا يحترم أى إنسان ولا حتى واحد فى الألف قوانين الزواج ، والأدهى من ذلك أن الزنا والخيانة لم تكن عندهم بالخطيئة المميتة ، هكذا تأسست ثقافتهم فاستسلموا للذات والشهوات" .

وفى رأى " جاك دى ڤيترى " فإن شخصية رجل الدين اللاتينى من بلاد الشام كانت تتميز بالطمع فى السلطة والثروة ، أما العلمانيون فقد فقدوا مبادئهم الأخلاقية ، ولذلك رأينا رجالا يقتلون زوجاتهم ونساء يضعن السم لأزواجهن للزواج من عشاقهن.

ويسجل أحد الكتب أن جنس"المهور" يتسم باللؤم والخداع ؛ فهم خائنون وشهوانيون وفاسدون. وليس هذا فقط ، بل ويستغلون الحجاج أيضا ، كما أنهم يتصفون بسوء الخلق ".

أما المهور فلم يتوانوا عن تأكيد عدم واقعية فكر المحاربين الذين أتوا من بلاد بعيدة اعتقادا منهم بأنهم سوف يحصلون على كل شئ بقوة السلاح ، دون أن يهتموا كثيرا بمعرفة أى شىء عن البلاد التى سوف يغزونها ، وكان الذين يرحلون عنها بغنيمة أو بدون غنيمة قليلين نسبيا ، أما الذين يبقون وتضطرهم الظروف إلى الاستمرار فى المعيشة فى البلاد للدفاع عنها ، فإنهم يعيشون وسط شعب مرهق وعدوانى بعض الشىء .

ويضيف " فوشيه دى شارتر " قائلا:

"أما نحن الذين كنا أغرابا يوما ما فقد أصبحنا شرقيين ، فمثلا الذى كان رومانيا أو إفرنجيا من سكان " شارتر وريمز بريان" أو "الكيتان" أصبح جليليا أو فلسطينيا ، فقد نسينا أصولنا حتى إن كثيرا منا أصبح يجهلها ، أو ربما حتى لم يسمع بها أبدا. فأحدنا امتلك منزلا وخدما بحكم الوراثة ، وآخر تزوج سيدة سورية أو آرامية ليست من عشيرته وفى بعض الحالات سريانية معمدة وآخر له صهر أو حماة أو قريب أما هذا فلديه أبناء وأحفاد أيضا وذاك يمتلك مزارع عنب أوأراضى أخرى ، كما أنهم استخدموا اللهجات المختلفة للبلاد ، وأصبحت اللغات القديمة التى يتحدث بها الواحد للآخر معروفة للجميع ، فاللغة تقرب الأصول البعيدة ، وعندما تتلاقى الكلمة بالكتابة أيضا ، وأصبح الأسد والبقرة يأكلان من العلف نفسه ، وبذلك أصبح المستوطن الذى كان غريبا يوما ما من أهل البلاد تقريبا ، بل وقريب الشبه من المواطن أيضا.

فى كل يوم يفد إلينا آباء وأصدقاء من الغرب للحاق بنا "فهم لا يترددون فى ترك كل ما يمتلكون فى بلادهم والمجىء إلينا ، لأنه من جعله الله فقيرا هناك فسوف يصبح غنيا هنا ، وحتى الذى لم يكن يمتلك من الأشياء الصغيرة شيئا هناك أصبح يمتلك ثروة هنا ، وأيضا الذى لم يتمتع بامتلاك مزرعة هناك ، أصبح يمتلك قرية هنا، فلماذا يعود إلى الغرب من وجد كل هذه الثروة فى الشرق؟

لم يتعد سكان المملكة اللاتينية فى أورشليم القدس مائة ألف شخص فى الذروة قبل غزوة صلاح الدين ، وكان ثلاثة أرباعهم يسكنون المدن ، وعند وصول " جان دى بريان " كان عدد السكان فى مدن الساحل التى سيطر عليها المسيحيون لا يتعدى

الخمسين أو الستين ألف شخص ، أغلبهم من الفرنسيين ، وعدد كبير منهم من الإيطاليين ، أما البعض الآخر فقد كان مولدا من أصول مختلفة ، أما السكان فى القرى المجاورة فكانوا من أهل الشام الذين يدين بعضهم بالمسيحية ، إلا أن الأغلبية كانت مسلمة.

كانت عكا هى العاصمة الحقيقية ، وكانت فى الماضى مكانا خطرا يأوى القتلة الذين كانوا يشكلون الفئة الغالبة من سكانها ، وكان يتجمع فيها أيضا حثالة البحر المتوسط الذين استغلوا الحروب الصليبية على أمل البدء فى تكوين ثروات وحياة جديدة.

إلا أن مهاترات " جاك دى فيترى " ونقده اللاذع المثير للأعصاب كان يحمل فى طياته إحساسا بالتعارض بين الذين يؤمنون بروح الحروب الصليبية ، وبين هؤلاء الذين قرروا الاستقرار فى الشرق والعيش فى سلام مع جيرانهم المسلمين ، إن أمكنهم ذلك. فهل كان من الممكن التوفيق بين العقليتين؟ وماذا إذا كان يريد الصليبيون حقا؟ .

لم يكن من السهل الإجابة على مثل هذا السؤال ، فقد كان تحرير الأماكن المقدسة يتطلب العمل على تأسيس حكومة مسيحية ، ولكن كيف يمكن لحكومة مسيحية أن تثبت وسط هذه الشعوب الإسلامية الكثيرة المعارضة ، فى الوقت الذى لا يبحث فيه الصليبيون عن الصلح أوالتوفيق؟ فهل كان لا بد فعلا من قتل كل الكفرة الذين يقابلونهم ، بل وكل من يحل محلهم عند اكتمال تحرير الأماكن المقدسة ، والمزارات المقدسة؟ هل كان الصليبيون فى عجلة من أمرهم للعودة إلى ديارهم ، وإن أمكن بغنيمة مقبولة؟ ، لم يقم أحد بطرح هذا السؤال على الأقل فى بداية الحرب الصليبية الأولى.

لقد نشأت فكرة الحروب الصليبية فى إسبانيا ، وبدأت كفكرة لتحرير غرناطة من أيدى المسلمين ، ولكنها لم تتضمن مطاردة الوجود الإسلامى وإحلاله بوجود مسيحى ، لذا لم يكن هناك داع لقتل كل هؤلاء الكفار ، ولكن كان يجب حثهم على العودة لماضى أسلافهم ، أو على الأقل كان هذا ما يجب أن يحدث. فقد عرفت إسبانيا على أنها أرض مسيحية محاطة بأراض مسيحية أخرى ، أما الغزوالإسلامى لأراضيها فقد كان

يرجع لقرون عديدة ، وقد اعتبر ماضيا لا انعكاسات له ، إلا أنه لم يكن من المتوقع أن يتبع تحرير إسبانيا عودة كاملة للمسيحية ، ولم يكن حدوث هذا بالأمر السهل.

كان من الصعب إذن مقارنة فلسطين بإسبانيا ؛ فالأماكن المقدسة كانت تقع فى أراض بعيدة كما كان الوصول إليها شاقا. وكانت هذه الأراضى مجهولة بالنسبة للجميع ، خاصة فيما يتعلق بديانتهم ، فقد كان الإسلام مجهولا وغير مفهوم تماما حتى بالنسبة للمسيحيين الذين يعيشون بين المسلمين ، فقد كانت لهم شعائر وطقوس غريبة ويتكلمون لغات غير معروفة. لذا قرر وعاظ الحملات الصليبية أن المسلمين الذين يسيطرون على الأراضى المقدسة هم مسيحيون فى ظاهرهم ، لكنهم فى حقيقتهم كفرة ، ولذلك فهم يستحقون الموت جزاء لهم. واعتبر وجودهم فى أورشليم القدس أوبيت لحم انتهاكا للحرمات وتدنيسا للأماكن المقدسة ، لذلك كان لا بد من وضع صيغة للمطالبة بالحق فى السعى على دفع هذه المهانة ، وكانت القوة هى اللغة الوحيدة التى سوف تمكنهم من ذلك فجاءوا إليهم وشهروا سيوفهم ، وحاربوا تحت شعار إما القتال وإما الاستشهاد. ولم يكن هناك شيء آخر يهم.

وعندما نجحت الحرب الصليبية الأولى فى غزو أورشليم القدس ١٠٩٩ ، وتمكن الصليبيون من طرد كل المسلمين واليهود الذين ظلوا أحياء، كان السؤال الذى فرض نفسه هو : من الذى سيسكن أورشليم القدس ؟ ومن سوف يعمل فى الحقول وأيضا من الذى سوف يسكن فى المدن المجاورة ؟ مع التأكيد بطبيعة الحال على بقاء السلطة المسيحية الجديدة، وبالطبع لم يتم قتل المسلمين جميعا ، لأنهم كانوا يجيدون فن القتال استعدادا لمواجهة هؤلاء الشياطين البيض الذين حضروا من بلاد بعيدة لتحويل المساجد إلى كنائس ، هذا بالرغم من تواجد الكنائس بكل أنواعها وعقائدها وكل ألوانها ، أيضا بجانب الجوامع والمعابد اليهودية.

وقد وافق ثلاثة أوأربعة آلاف صليبى على عدم العودة لبلادهم بعد أن تلقوا وعودا بإرسال زوجات مسيحيات لهم ، كما تحول القساوسة إلى جنود ؛ فمثلا كان رهبان المعبد رهبانا لهيكل الرب فى آن واحد ، وكذلك الحال بالنسبة للفرسان...الخ .

وساعد على ذلك القرويون المسلمون الذين حملوا المحراث والمنجل للعمل فى الأرض ، فأصبح هناك بارونات وإقطاعيون جدد، أما أغلبية الصليبيين فقد عادوا إلى بلادهم الأصلية ، إن لم يكن بغنيمة جيدة فبقصص خيالية تحلم بها أوروبا .

أما الذين بقوا فى الأراضى المقدسة فقد أخذت الحياة مجراها بالنسبة لهم ، وكان عليهم تعلم فن جديد ، وهو كيفية العيش فى دولة مسيحية فى وسط عالم إسلامى ، وكانت هذه بداية مولد المملكة اللاتينية فى أورشليم القدس ، وبداية مولد المهور .

وعلى جانب آخر فإن وعظ " جاك دى ڤيترى " زعزع ترابط الفرنجة فى الشام ؛ فقد أدركوا أنه سيعجز عن مواجهة قدرات السلطان الأيوبى " العادل " صاحب دمشق ، وأيضا صاحب القاهرة بلا منازع ، بدون تأييد مجموعات الصليبيين القادمة من أوروبا إليهم.

كان " المعظم " وهوالابن الأصغر الممتلئ حماسا ضد المسيحيين قد شيد قلعة منيعة فوق جبل تيبور بجانب بحيرة طبرية ، تسمح بمراقبة وتحدى الوجود الفرنجى فى أورشليم القدس وعكا وجبل تيبور التى ارتبطت دوما بالتبشير بالمسيحية ، وقد أعطى الوجود الإسلامى الفرنجة الإحساس الدائم بالتحدى.

وعندما أوشكت المعاهدة بين السلطان " العادل " و" جان دى بريان " على الانتهاء فى سبتمبر ١٢١٧ ، وبدأ وصول طلائع الصليبين بدءا من دوق النمسا " ليوبولد " السادس ، وانتهاء بملك المجر "أندريه" الثانى. ورسا الصليبيون الألمان والمجريون فى عكا ، ولم يكن لديهم الوقت الكافى للتدريب على مواجهة المسلمين من فرط حماسهم للقتال ، فقاموا باعتقال السكان المحليين وتدمير حدائقهم وبساتينهم ، بل وطردوا المتدينين من منازل مضيفيهم بعد سلبهم ونهبهم ، ولم يكتفوا بذلك فقط بل قاموا بقتل المسيحيين أيضا .

وابتهج الصليبيون القبارصة لذلك ، وعلى رأسهم الملك " هيو" الأول وكذلك رئيس أساقفة نيقوسيا "أستروك دى مونتيجو" و"جوتييه دى سيزاريه" القائد العام لقبرص ، وتم عقد اجتماع بين القواد الثلاثة فى عكا للإعداد للحرب ، وكان هؤلاء القادة الثلاثة هم "جيلوم دى شارتر" الذى كان مخصصا لخدمة المعبد، و" جاران دى مونتيجو"

السيد الأعظم لفرسان الإسبتارية ، و"هرمان فون سلزا" السيد الأعظم للفرسان التوتونيين (سكان جرمانيا الشمالية).

هذا الفيض المفاجئ من الجنود والحجاج خلق مشكلة عويصة فى التموين؛ فالمحصول كان ضعيفا فى الشام فى هذا العام ، والطعام كان نادرا وغالى الثمن ، ومات الفقراء من الجوع ، واستدعى الأمر حث الزوار على العودة إلى أوروبا فى أقرب وقت ممكن. وقد اشتهر البافاريون بعنفهم المفرط وخاصة فى تصرفاتهم مع السكان المسيحيين المحليين الذين يسكنون البلاد التى يغزونها.

وكان من الضرورى أن يتم استغلال ضراوة القتال التى اشتهرت بها هذه المجموعات التى وعدوها بنهب الغنائم بأقصى سرعة ، فتم عقد اجتماع لمجلس الحرب فى أكتوبر ١٢١٧ فى عكا ، وكان قراره مهاجمة قلعة جبل تيبور، وتم بالفعل محاصرة الجبل بعد بعض المناوشات ، إلا أنه كان لا بد من صعود الجبل فى المقام الأول لبدء الهجوم ، ولم تكن أدوات الحصار ذات فائدة تذكر ، فقد كان المحاصرون يلقون عليهم بحمم من النيران أدت إلى اشتعال السلالم النقالة فجأة، وخشى الفرنجة من دفع ثمن غال لهذا الهجوم ، حتى فى حالة انتصارهم فقرروا الانسحاب، وفى الوقت نفسه أدرك السلطان "العادل" أن الفرنجة قد أصبحوا قريبين جدا من الحصن ، وأنه من الممكن لهم الاستيلاء عليه فجأة وفى أى وقت ، فقرر القيام بهدمه وتخريبه بنفسه.

ثبت بالدليل والبرهان "لجان دى بريان" أنه لا يمكنه محاربة جيوش السلطان فى فلسطين نفسها ، فأورشليم القدس كانت ومازالت فى موقع داخلى بعيد وسط التلال الجافة، فلم يكن هناك أمل فى النجاح خاصة بعد التجربة المحزنة التى مر بها الملك فيليب أغسطس وريتشارد قلب الأسد ، بالرغم من الإمكانيات الفائقة التى كانا يملكانها ، وما زالت هذه التجربة المحزنة تعيش فى نفوس الصليبيين إلى الآن ، وكذلك ذكرى حصار عكا وشل حركة قواتها تحت أسوارها لمدة عامين ، والمبالغ الباهظة التى صرفت وثمن أرواح الرجال الذين قتلوا للاستحواذ على المدينة. ولذلك عاد جان دى بريان إلى التفكير فى نصيحة ريتشارد قلب الأسد الأخيرة التى أوصت بالأخذ بميزة التفوق البحرى للفرنجة ، ومهاجمة العدوفى مصر نفسها قلب الإمبراطورية الأيوبية،

وكذلك غزوالإسكندرية أودمياط ، مما يمكن أن يكون بمثابة تطويق لعنق مصر ، وبعد ذلك يمكن التفاوض من مركز قوة وبصورة واضحة وقوية. ألم تكن مفاتيح أورشليم القدس فى القاهرة إذًا ؟

تفهم ملوك أورشليم القدس السابقون ذلك جيدا وخاصة الملك " عامورى" الذى قام خلال ست سنوات ، أى فى الفترة من ١١٦٣ وحتى ١١٦٩- بغزو مصر حوالى خمس مرات ، حتى إنه وصل فى إحداها إلى مشارف القاهرة ، مما اضطر المصريين إلى حرق مدينة الفسطاط (القاهرة القديمة) لإيقاف غزوه وإجباره على الانسحاب، وتم سكب عشرين ألف برميل من النفط على المحلات والمنازل والقصور والجوامع والحى اليهودى أيضا ، كما تم إجلاء السكان إلى القاهرة الجديدة، وقد ظلت النيران مشتعلة لمدة ٤٥ يوما.

وفى وقت لاحق دخل أسطول فرنسى صغير فرع رشيد وصعد فى النيل حتى مدينه فوة فى قلب الدلتا ، وقام بسلب ونهب المدينة لمدة خمسة أيام، ثم رحل بدون أدنى قلق تاركا مصر تعانى من جراء ما حدث.

وكان مجلس الخلفاء الفاطميين قد سبق أن وافق على دفع جزية سنوية للقدس تقدر بستين ألف دينار من الذهب ، ليتمكنوا من العيش بسلام ، إلا أن صلاح الدين قام بإلغائها مما يدل على أن فكرة غزومصر لم تكن بالجديدة على الفرنجة ولكن الأسلوب الذى استخدم كان هوالشيء الجديد ، فقد حرص الصليبيون على تجنب الطريق البرى الذى عبره "عامورى " عدة مرات عبر صحراء سيناء ، وقاموا بالرسو مباشرة عند مصب النيل فى موانئ الدلتا عن طريق البحر ، وقد قال "جان دى بريان" أمام المجلس المجتمع فى عكا :

" إننى أنبه إلى أننا لن نتمكن من استخدام أراضى الشام ضد المسلمين، وإذا رأيتم أنه من الممكن استخدام أساليب جديدة فسأتطوع للذهاب إلى مصر ومحاصرة الإسكندرية أو دمياط ، لأننا إذا استطعنا الاستيلاء على إحدى هاتين المدينتين فمن الممكن فى رأيى أن نحصل على مملكة أورشليم القدس".

وأضـاف قـائلا إن نجـاح صـلاح الدين فى الاسـتـيـلاء على بيت المقـدس وكل حصونها يرجع لكونه صاحب مصر ، ويمتلك رجالها وثرواتها ، ولذلك فإن الاهتمام بالتوجه إلى مصر أولا والاستيلاء عليـها هـو أول شـىء يجـب علينا عمله، عندئذ فقـط لن يتمكن أحد من منـعنا من الاستيـلاء على أورشـليم الـقدس ، وأيـضـا على بلاد أخرى .

وكانت القوة الغالبة على الساحة العسكرية المحيطة بمملكة أورشليم القدس هى قوة الشام ، وظل الوضع كذلك لمدة تزيـد على الخـمسين عـامـا ، ثم انتقل مركـز القوة الإسـلامية إلى مصـر مع وجـود صـلاح الدين ، لذلك كان يجب أن تكون مصر هى الهدف الأول.

عـين "جـان دى بريـان" قائـدا للجيش بالإجمـاع ، وكـان يعـتبر "شـارلمـان" آخر بقامته الفارعة وشدته وخـبرته فى فنـون القـتال ؛ حتى إنه عنـدما كـان يستل سيفه فى المعـارك كان السريانيـون يفرون من أمامه وكـأنهم رأوا الشيطان ، أو كـأنهم رأوا أسدا يتأهـب لافتراسهم ، وقـد وصفه" سـالى مبان " بأنه لم يـكن هناك فارس أكثر منه شجاعة.

تمت الموافقة على الخطة بحماس من الجميع ، وقد دهش القادة الأوروبيون لقيام الصليـبيين بالتوجه من الأراضى المقدسة إلى مصـر بدلا من الذهاب إلى أورشليم القدس مباشـرة ، إلا أنـهم اقتـنعوا بعد مـجهود كبـير، وبعد أن قـيل لهـم إن مصـر كانت هدفا فى الاجتماع الرابع للمجلس الدينى رغم أن هذا لم يكن حقيقيا ، فالمجلس لم يشر إلى ذلك نهائيا. وفى ٣ نوفمبر ١٢١٧ أظهر أسقف أورشليم القدس ما أطلق عليه وقتها بقـايا الصليب الحقيقى ، الذى تم الاسـتيلاء عليه فى مـعركة حطـين على يـد قـوات صـلاح الدين ، وقـد رفـض السلـطـان منذ ذلك الحين إعـادة هذه البـقـايا المقدسة التى تعتبر من الأشيـاء الثمينة بالنسبة للمسيحيين. وأعلن الأسقف أنه طالما تم العثور على قطع الصليب الحقـيقية فلم يعـد هناك شىء أكثر من ذلك لرفع الروح المعنوية للجنود.

وأخيرا وصل الأسطول الألمانى بصحبة الجنود ذوى الشعور المجعدة الذين اشتركوا فى الاستيلاء على لشبونة ، وبذلك تمكن "جان دى بريان" من تنفيذ خطته ، وقد جمعت كل القطع البحرية المتوفرة وحملت بالرجال والسلاح والعتاد، وبعد مرور يومين كانت السفينة قد رست فى دمياط عند المصب الشرقى للنيل (فى آخر مايو ١٢١٨ أوشهر صفر ٦١٥ هجرى).

أما فى المعسكر الإسلامى فقد كانت المفاجأة مذهلة.



التجارة بين المسيحيين والمسلمين أثناء الحروب الصليبية
(رسم ل.بلان) مجموعة فيوليه

جيوش الصليبيين

كانت الجيوش الصليبية قوية مثل حصونهم، وكانت كبيرة العدد وتعطى الانطباع بأنها لا تقهر. فالحديد الذى كان متوفرا فى كل مكان فى الغرب كان نادرالوجود فى الشرق ، وقد استخدم فى كل شىء ، فى صناعة الخوذ السميكة والدروع المطوقة والسيوف الطويلة المستقيمة الثقيلة أيضا ، وحتى الخيول كانت مدرعة بالحديد ، وكان التساؤل الذى يدور فى الأذهان هوكيفية استطاعة هؤلاء الرجال حمل هذه الكتل الحديدية الضخمة طوال اليوم وتحت أشعة الشمس الحارقة ، دون أن تقلل من قدرتهم بعد ذلك على القتال لساعات طويلة بالرماح والسيوف والأسلحة المهولة التى يحملونها ، سواء كانوا مشاة أو خيالة، وبصفة عامة ، فقد كان الفرنجة رجالا طوال القامة ذوى عضلات قوية لا يستطيع أحد أن يقف فى طريقهم إذا قرروا القيام بأى هجوم.

جاء الصليبيون المتطوعون الذين لبوا نداء البابا لتحرير الأراضى المقدسة وخاصة أورشليم القدس من شمال فرنسا وبلجيكا وألمانيا ، ولكن بمرور الوقت أصبحت العناصر التى تأتى من شمال ووسط فرنسا هى الفئة الغالبة ، وقد اعتمدت الجيوش الصليبية على الاحتياطى من الإيطاليين والإنجليز والاسكنديناف والألمان ومن المجر أيضا ، أما الإسبان فكان عددهم أقل ، وذلك لانشغالهم باستعادة بلادهم.

وقد احتارت العرب بين أشكال الرجال ولغاتهم المختلفة ، وكانوا يسمونهم الفرنجة تحويرا لكلمة "فرنسى" وقد أطلقت هذه الكلمة بعد ذلك على كل الأجانب الذين يفدون من أوروبا.

وفى الحرب الصليبية الأولى ارتدى الرجال من جميع الفئات شارة الصليب ، وسافروا للأراضى المقدسة ، وهم يجهلون مصاعب ومشقة الرحلة الطويلة ، وكان الكثير

منهم يملؤهم الحماس الدينى ، أما الآخرون كالفلاحين مثلا فقد وجدوها فرصة للهرب من المجاعة والأمراض ، فى حين كان رجال الحرب المغامرون يجذبهم أمل الحصول على غنائم ثمينة ، أما الأسياد الإقطاعيون فكانوا يأملون فى الحصول على مناطق نفوذ جديدة ، وكان عدد غير المحاربين يفوق الرجال المحاربين الحقيقيين ، إلا أنهم كانوا يموتون بالعشرات والآلاف قبل وصولهم للأراضى المقدسة.

كان المحاربون الحقيقيون هم رجال الحرب المدربين والمنظمين طبقا للنظام الإقطاعى ، فالملك أوالأمير مثلا لديه العديد من الأتباع وهم البارونات، وكان على كل بارون تدبير القوات والمعدات لسيده ، كما كان لديهم أيضا أتباع من الفرسان يدينون لهم بخدمات حربية تستمر طالما أن الحملة الصليبية مستمرة. أما القوات المحاربة فقد كانت أساسا من المتطوعين الذين استخدمت معهم كل طرق الترغيب فى السفر، مثل تأجيل سداد ديونهم ، ورد الفوائد ، وضمان ممتلكاتهم أثناء غيابهم ، والعفو عما ارتكبوه من أخطاء ، وترك الحرية لهم فى نهب وسلب كل ما يحلو لهم من ممتلكات الكفرة ... إلخ. كما لم يترددوا أيضا فى إطلاق سراح المسجونين طبقا للقانون الوضعى ، وحتى المحكوم عليهم بالإعدام إذا وافقوا على ارتداء شارة الصليب والسفر. وقد كتب "سان برنار دى كليرفوه" يقول:

"ما أسعدنا أن نقضى على طاغية مسلم ، وما أسعد بيت المقدس باستقبال مدافعين مخلصين"(١) .

وقد كان من الصعب تقدير الحجم الحقيقى لهذه القوات، فالحملة الصليبية الأولى قدر عددها بنحو ٥٠٠ إلى ٦٠٠ ألف مقاتل ، وهو رقم مبالغ فيه بالطبع ، خاصة إذا أخذنا فى الحسبان عدد المقاتلين الحقيقيين مقارنة بالفلاحين والقرويين وكل الفئات الأخرى من تجار ونساء ومغامرين ، والذين غادروا بلادهم قبل جيوش الفرسان ومات أغلبهم فى الطريق ، فمن المعروف مثلا أنه كان تحت قيادة " جودفرى دى بويون"

(١) De Laude Novea Militiae V - 10 Cite par C. Morrisson Les Croisades مجموعة ماذا أعرف ؟ باريس ١٩٨٤ .

١٠٠٠ فارس و٧٠٠٠ جندى ، أما البارونات الآخرون فقد كان تحت إمرتهم فى الغالب عدد أقل ، إلا أنه أثناء حصار أورشليم القدس لم يكن هناك سوى ١٢٥٠ فارسًا، وحوالى ١٠٠٠٠ جندى محارب ، وكان يؤخذ فى الحسبان الخسائر التى تحدث فى الطرق الطويلة التى تقدر بآلاف الأميال.

استطاع الملك "فيليب أغسطس" فى الحملة الصليبية الثالثة تجميع حوالى ٧٠٠٠ رجل من الأراضى المقدسة ، كما كان لدى "ريتشارد" قلب الأسد أكثر من ٨٠٠٠ رجل ، بل وتمكن "فردريك باربروسا" الأول إمبراطور ألمانيا من جمع ٣٠٠٠٠ رجل ، ولكن تضاءلت قواته بعد ذلك وبالكاد استطاع ١٠٠٠ جندى ألمانى الانضمام للفرنسيين والإنجليز فى حصار عكا عندما مات هوفى تركيا.

أصبح "جودفرى" الذى كان قد منح لباروناته وللكنيسة إقطاعيات كبيرة، ملكا لأورشليم القدس وأسس نظاما إقطاعيا مماثلا للنظام القوى المطبق فى فرنسا، فكان على كل من يمتلك إقطاعية تقديم عدد محدد من الفرسان المسلحين ، وكذلك رجالٍ آخرين سواء من المشاة أومن الحراس ، وكان يتم توفيرهم بطريقة مباشرة أوغير مباشرة عن طريق أتباعه. وقد شكل الفلاحون الذين يعتنقون الديانة المسيحية العدد الأكبر من المشاة وكذلك الإداريين أما المسلمون الذين لم يغادروا أراضيهم وظلوا يزرعونها فكانوا قد أعفوا من كل الخدمات العسكرية ، وكان يجب تخصيص مجموعات لمراقبتهم ومنع قيام أى حركات ثورية ؛ مما جعل الموقف أكثر تعقيدا أن أنطاكيا وطرابلس كان قد تم غزوهما قبل غزوأورشليم القدس أى قبل اختيار "جودفرى دى بويون" ملكا لها مما هيأ لأصحاب هذه المدن استقلالهم وعدم تبعيتهم لملك أورشليم القدس ، فاتبعوا سياسة مستقلة بل وفى بعض الأحيان معارضة لسياسة الملك ، وكانوا يخضعون للملك فى الحالات التى يرغبون فيها فقط.

نجح "جان دى بريان" فى تجميع الأغلبية التى شاركته فى حملته الصليبية إلى الأراضى المقدسة ، وقد تكونت جيوشه أساسا من الفرسان القادمين من وراء البحار ، وانضم إليهم عدد محدود من قبرص وأوروبا ، ولكنهم لم يتعدوا ٥٠٠٠ فارس و٤٠٠٠ من رماة السهام والجنود المسلحين بالقذائف وأخيرا ٤٠٠٠٠ جندى

مشاة ، وقد كان هذا عددا لا بأس به فى ذلك الوقت ، أما طريقة نقلهم فتعتبر تقنية حربية عالية المستوى.

لم يكن مطلوبا من الصليبيين فى ذلك الوقت الإقامة فى الأراضى المقدسة ، بل بالعكس كان مطلوبا ممن بقى منهم على قيد الحياة ، العودة إلى بلادهم سواء كانوا منتصرين أو منهزمين ، ووافق عدد قليل منهم على البقاء فى فلسطين والشام ، أما أوروبا فقد أرسلت محاربين وليس محتلين ، وقد عانت المملكة اللاتينية فى أورشليم القدس من نقص حاد فى الرجال المقيمين بصفة دائمة ، وكذلك المقاتلين ، لذا اضطرت إلى اللجوء إلى المرتزقة سواء كانوا مسيحيين أو غير مسيحيين ، فقد كان المهم هو كفاءتهم القتالية العالية ، وكان من الأفضل أن تكون هذه الكفاءة فى تخصص معين ، كأن تكون فى الفروسية أورماية السهام أوإجادة استخدام القذائف ...إلخ. وقد وجد ملوك أوروبا والمدن الإيطالية أنه من الأفضل والأسهل لهم الاكتفاء بإرسال نقود تدفع للمرتزقة عن إرسال فرقهم الخاصة ، وكان فى هذا تهدئة لضمائرهم نهائيا.

وقد تم تقسيم الجيش المتواجد فى الأراضى المقدسة، إلى عدة أقسام، لكل قسم منها هدف محدد لإنجازه ، وهذا الهدف يشكل جزءا من الهدف النهائى الأكبر، وكان يجب عليهم التمسك بالموقع المحدد فى الخطة الإجمالية ، مع عدم توقف الاتصال بالقسم المجاور ، حتى يمكن وقف استراتيجية العدوالتى تركزت فى محاولة الهجوم ثم التقهقر السريع لخلخلة الخطوط الأمامية للعدو، وقد طبق هذا النظام بشدة.

وكان الصليبيون يتبعون الخطوات التالية فى تحركاتهم فى الحرب الصليبية الأولى ، وكذلك الحروب التى تلتها ، وهى أن يضم كل قسم تسع سرايا من الفرسان، وتقسم كل سرية إلى ثلاث سرايا توضع على ثلاثة خطوط ، فيتشكل بذلك مربع من الفرسان يستطيعون دفع أى هجوم من العدومن أى اتجاه ، إلا أنه كان من المتعذر تطبيق هذا التخطيط إلا فى الأراضى المنبسطة، أما فى الأراضى الجبلية فى شمال الشام أو فلسطين ، فكانت الجيوش مجبرة على التحرك فى صفوف طولية ، مما كان يعرضها للإصابة فى العمليات الاستنزافية.

وكان فرسان كل عظيم وأيضا جنود مشاته يخضعون لإمرته، وكان الفرسان مقسمين إلى مجموعات تتكون كل مجموعة من ٢٠ إلى ٢٥ رجلا ، أما الاحتياطى

فقد كان تحت قيادة الملك ، أو قائد الحملة ، وذلك للتدخل عند الحاجة أوللدفاع عن الخطوط الخلفية.

وكانت القاذفات إحدى الاختراعات التى استخدمت فى الحروب الصليبية وتقوم بقذف الأسهم والحجارة ، وكان استخدامها محظورا حسب قانون الفرسان فى أوروبا ، لأنها اعتبرت من الأسلحة المخلة بالشرف للفارس ، لأن القذيفة كانت تسقط وسط الجموع ، ولم يكن هناك ما يحمى الفرسان منها ، إلا إن ما كان مخلا بالشرف فى أوروبا ، لم يكن كذلك فيما وراء البحار ، وقد استخدمت هذه القاذفات بكثرة منذ الحرب الصليبية الأولى ، ويرجع استخدامها إلى القرن الثانى عشر ، وكانت هى السلاح المفضل للمرتزقة الذين كانوا يعتبرونها مهنتهم، وكانوا يحملونها فى البداية فى أيديهم ، وفيما بعد استخدمت طرق أخرى ، كما كان من الضرورى استخدام ماسك يثبت فى الحزام أوفى ركاب الفارس، وكانت أجود القاذفات تأتى من "جنوة" ، وقد عانى المسلمون منها كثيرا، وعندما كان يقع أحد القذافين فى الأسر كان يتم قتله فورا فى ميدان القتال ، أوفى أحيان كثيرة تقطع أصابعه حتى لا يستطيع الاستمرار فى هذه المهنة.

أجبر الصليبيون على السير لمسافات طويلة وهم يقاتلون ، وقد تعلموا أشياء كثيرة مثل ضرورة تأمين تموينهم الحربى ، وكذلك تحويل الأموال وتأمين الموانئ والحيل الدبلوماسية اللازمة لضمان مرورهم بدون عوائق ، كما تعلموا أيضا ملاحظة كل تحركات المجموعات ؛ وقد كان كل جندى مسئولا عن توفير مئونته ، كما كان يقوم بحمل طعامه أونقوده ليشترى بها ما يحتاج إليه ، وليس كما كان الوضع فى الماضى حيث "الحياة من خير البلاد" أثناء الترحال، وذلك بالإضافة إلى تعلم أشياء أخرى عند الوصول إلى الأراضى المقدسة ، مثل كيفية الحفاظ على المياه وترتيب تمويل المؤن والذخيرة قبل عبور الأراضى الجدباء أوالصحراوية ، أو كل ما كان مجهولا بالنسبة لأوروبا ، كما كان يجب تقليد المسلمين فى العمل على وجود مؤن دائمة ، وقد تفهم الصليبيون أن كفاءة جيوشهم تعتمد بقدر كبير على جودة ودقة تموينهم.

حارب الصليبيون فى أراض غريبة بل وبعيدة عن قواعدهم ، وقد شعرت المملكة اللاتينية فى أورشليم القدس ، وكذلك الإمارة المسيحية فى الشام بذلك ، وأدركوا أنه

بدون السيطرة على البحار التى كان يحميها الإيطاليون وخطوط الإمداد التى كانت تمدهم بالرجال والمواد والسلاح ، أيضا فإن الفرنجة لن يكون فى استطاعتهم الصمود طويلا في الأراضى المقدسة ، ولذلك كان الاعتماد كبيرا على أوروبا، وعندما أرهقت أوروبا من هذه الحملات المكلفة التى لا طائل منها أو انشغلت بمشاكل أخرى، أصبح اللاتينيون فى الشرق الأوسط أمام طريق مسدود .

يضاف إلى ذلك أن الصليبيين كانوا يحاربون وسط شعب مضياف كان فى الغالب يتجاهل معاركهم. ولم يبذل الصليبيون أى مجهود لكسب تأييد السكان المحليين أو على الأقل حملهم على التجاوب معهم، حتى إنه رغم زعم المسيحيين القبارصة وأهل الشام أنهم كاثوليك ، إلا إنهم ظلوا كفارا فى نظر البابا وغير معترف بهم، ولذلك لم يعاملوا بطريقة أفضل ، فكان الصليبيون يستولون على كنائسهم ويعلنون تبعيتها لهم ، كما كان الأسياد من الصليبيين أوالمطارنة يصادرون ممتلكات رجال الدين المحليين ، وقد احتاج الأمر لوقت طويل ودبلوماسية شديدة لبدء علاقات جديدة بين بعض الكنائس ، مثل الكنائس المارونية فى جبل لبنان ، ولكن للأسف كان الشر قد سبق .

أما بالنسبة للعلاقة بين الكنيسة البيزنطية من جهة والكنيسة الكاثوليكية من جهة أخرى فقد كان أقل ما توصف به أنها كانت مأساة أونكبة ؛ حيث إن ما ارتكبه الصليبيون من قتل وسلب ونهب فور الاستيلاء على القسطنطينية لم ينتج عنه سوى تعميق الكراهية بين الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية ، وقد فشلت كل محاولات التقريب بينهما لعدة قرون.

وفى حين كان المسلمون يحاربون فى بلادهم ووسط شعوبهم للدفاع عن أراضيهم ، كان ذلك عكس ما يفعله المسيحيون تماما ، وكانت المعاناة الكبرى للصليبيين دوما هى قلة عددهم فى مواجهة خصم يستطيع تجديد جيوشه دائما بما لديه من احتياطى كبير.

وقد كانت هذه هى نقطة الضعف الرئيسية عند الصليبيين ، ولكن كان يعوضها تفوقهم البحرى ؛ فكانوا يستطيعون اختيار الأماكن التى تتمركز فيها قواتهم الرئيسية ،

كما كان لديهم ميزة أكيدة وهى عنصر المفاجأة ، وكانوا يستطيعون بحسن تقديرهم وباستخدامهم أسلوب المباغتة مواجهة التفوق العددى للعدو ، مما يمكنهم من تدمير حصونه المنيعة أواحتجاز بعض الرهائن بطريقة تسمح لهم بالتفاوض فيما بعد، أما المسيحيون فى المملكة اللاتينية بأورشليم القدس ، فبفضل مساحة الأرض الصغيرة كان فى إمكانهم تجميع قواتهم بسرعة أكبر ونقلها للجهة المختارة التى يأملون فيها ملاقاة الصليبيين القادمين من أوروبا عن طريق البحر ، سواء كان ذلك من الشمال أوالجنوب وهذا بالضبط ما فعله "جان دى بريان" ، حيث حشد قواته بسرعة ونقلها مباشرة عن طريق البحر إلى مكان غير متوقع ، وكان هذا المكان هو دمياط.

الكنيسة والأنظمة الدينية العسكرية

كانت الكنيسة قد حصلت على مناطق نفوذ وإقطاعيات كبيرة فى الأراضى المقدسة كما امتلكت مناطق شاسعة أيضا وخاصة فى المدن ، وكان عليها تعبئة فرسان وجنود وميليشيات وقت اللزوم ووضعها تحت آمر الملك ، وذلك على غرار الأسياد ، كما كان تمويل هذه الجيوش أمرا مصيريا ، إلا أن دورها لم يتوقف عند هذا الحد.

فبعد انتهاء الحرب الصليبية الأولى ونشوة النصر والاستيلاء على أورشليم القدس لوحظ أنه لم يتم الإعداد لإدارة الأراضى المستولى عليها ، وفى الحقيقة كان هناك جهل تام بكل شىء وكان يتولى حراسة الأراضى المقدسة حوالى ٣٠٠ فارس و٢٠٠٠ من الجنود المشاة ، وفى أنطاكيا كان العدد أقل فكيف يمكن الدفاع عن الأراضى المقدسة بهذا العدد القليل ، خاصة أنه لم يكن هناك شك فى أن المسلمين لن يتأخروا كثيرا فى القيام بهجمة مضادة ، كما كان من الضرورى أيضا حماية الحجاج الذين بدأوا يتوافدون على الأراضى المقدسة.

لذلك تم إعادة تشكيل الأنظمة الدينية العسكرية ، وتم الدمج بين الضروريات العسكرية ومتطلبات الإيمان الدينى ووضعها موضع التنفيذ. وفيما يخص الأنظمة الدينية العسكرية فإن روح الفروسية والروح الصليبية التى ينص التعريف بها على كونها الإعداد لحرب عادلة ومقدسة ، فقد اتحدت مع الحياة الرهبانية التى انبرى عنها نظام يتطابق مع هذا العصر.

فرسان المعبد: فى عام ١١١٥ قام "هيودى باين" فارس بورجينيون وجودفرى دى سان أدهيمار، وهو فارس فلامنكى، بتجنيد سبعة فرسان لحراسة الحجاج الراغبين فى الذهاب من أورشليم القدس وجنين لزيارة الأماكن التقليدية التى تم فيها تعميد المسيح فى نهر الأردن ، وقد قامت هذه المجموعة الصغيرة من المتطوعين فى عام

١١١٨ بنذر أنفسهم لحماية الحجاج ، ولأنهم كانوا من غير رجال الدين فلم يكن مطلوبا منهم مراعاة شروط الرهبنة من فقر وطهارة وإذعان ، وكان الفارسان المؤسسان لهذا النظام يمتلكان جوادا واحدا يمتطيانه بالتناوب، كما أنهما أقسما بأنهما لن يرتديا سوى الملابس التى ستمنح لهما ، ولن يمتلكا سوى أسلحتهما فقط ، وتكونت بذلك مجموعة "فرسان المسيح الفقراء" التى أصبحت فيما بعد فرسان المعبد ، وقد خصص لهم الملك "بلدوين" جناحا فى قصره بأورشليم القدس ، كما قام ببناء ما يشبه معبدا بها فزاد عددهم ، وقد سافر مؤسسهم "هيودى بياين " إلى فرنسا لمحاولة الحصول على مرسوم ينص على قرار تأسيس النظام والقواعد اللازمة لذلك ، فاجتمع المجمع الدينى الكنائسى فى تروى ، وبعد الدراسة أقر مطلب فرسان المعبد. وكان هذا أول قرار لإنشاء نظام عسكرى من الرهبان ، وكان هى وقد قابل برنار دى كلير قواه القس السسترشيانى (نظام للمترجم رهبانى فى منطقة Citeaux) والداعية المتحمس للصليبيين الذى كتب الجزء الأكبر من قواعد القرار بإلهام من تعاليمه إلا أن هذا القرار خلط بين الالتزامات الدينية والقواعد الدنيوية، مما جعل ميليشيات المسيح الجدد المكونة من رهبان فرسان تعكس مجتمعا يهتم بالقدسية والدنيوية بدون قدرته على معرفة الحدود التى تفصل بين كل منهما.

فمن وجهة النظر العسكرية، كانت القواعد الموضوعة لفرسان المعبد هى الجهاد حتى الموت للدفاع عن الأراضى المقدسة المسيحية، ورفض دفع أية جزية أو إيواء المشركين ، ثم الدفاع عن أى مسيحى يعتدى عليه مشرك، وأخيرا القتال ضد العدوحتى ولو كان متفوقا عدديا. هذا التشبث بالقواعد العسكرية المصحوب بالتطرف الدينى الأعمى جعل منهم مصدر رعب للكثيرين ، وعانى المسلمون منهم أكثر مما عانوا من أى خصم آخر.

أصبح قانون فرسان المعبد من أقوى القوانين ؛ فقد أصبح لكل فارس الحق فى امتلاك ثلاثة جياد والحصول على حامل سلاح يصحبه بجواد رابع حتى ميدان المعركة. وعند بدء المعركة ينسحب حامل السلاح. وكان الفرسان مقسمين إلى سرايا، ويتخذون خطا مستقيما أثناء المعركة، وكانت العقوبات الرادعة تطبق على الفارس الذى يخرج

عن الخط دون إذن. وتعتبر مآثر فرسان المعبد كثيرة بالرغم من أنها لم تكن كلها ضد المسلمين. فقد كانت المرة الأولى التى شاركوا فيها فى معركة ضد إمارة أنطاكيا المسيحية التى كانت تقف ضد بلدوين ملك أورشليم القدس. وفى عام ١١٧٧ حارب فرسان المعبد معركة شهيرة وشرسة ضد صلاح الدين ؛ فقد انضم ثمانون من فرسان المعبد إلى ثلاثمائة من الفرسان وعلى رأسهم عظيمهم فى معركة شرسة ضد جيش المسلمين الذى تم تشتيته ، وبالرغم من ذلك فقد وقع عظيهم فى الأسر ورفض دفع فدية ومات فى السجن. وقام خليفته جيرار دى ريدفور بجنون وجرأة بالهجوم على رأس تسعين من فرسان المعبد وأربعين فارسا على الفرسان المسلمين الذين يبلغ عددهم سبعة آلاف رجل، وانتصر المسلمون ولم ينج سوى اثنين من فرسان المعبد نجحا فى الهروب، بينما قتل الآخرون جميعا. أما دور جيرارد دى ريدفور فى معركة حطين فيثير الجدل ؛ فقد تم أسره مع فرسان المعبد الذين نجوا من الموت فى هذه الكارثة إلا أن صلاح الدين قام بالعفو عنه بينما ظل كل رفاقه فى الأسر. هذا الجميل كان عارا فى نظر رفاقه مما دعاهم لاتهامه بالخيانة أو التواطؤ مع السلطان المنتصر.

وقد انتقل قانون فرسان المعبد الذى بدأ فى فلسطين إلى فرنسا ثم إسبانيا ثم إنجلترا ثم البرتغال ، وتم اقتباسه فى أنظمة عسكرية أخرى مع إضافة الكثير إليه. هذه الأنظمة سمحت للشرق اللاتينى بالحصول على عدد كبير من الرجال الدائمين والمسلحين لضمان الدفاع عنه فى الفترة بين سفر وإحلال الجيش الصليبى .

فرسان الإسبتارية: أوفرسان القديس جان دى جيروزالم. تأسس هذا النظام فى عام ١٠٧٠ ، أى قبل الحرب الصليبية الأولى ، وذلك لتنظيم مساعدة الحجاج عند زيارتهم للأراضى المقدسة.وفى القرن الثانى عشر ظهرت بعض تعديلات عسكرية على القانون وكان ظاهرها حماية ممتلكات الفرنجة فى الأراضى المقدسة. وقد سهلت هذه القوانين الحصول على تبرعات عديدة تمثلت فى قلاع لم يستطع الأسياد الإقطاعيون الإبقاء عليها. وبداية من عام ١١٥٧ أصبح هذا النظام العسكرى مرتبطا بوضوح بالعمليات العسكرية. مما دفع ملك أورشليم القدس إلى أن يطلب منه تجميع خمسمائة فارس لمساعدته فى غزو مصر عام ١١٦٨ .

الفرسان التوتونيون (سكان شمال جرمانيا): نشأ هذ النظام العسكرى أثناء حصار عكا فى ١١٨٩/١١٩٠ ، ومثل فرسان الإسبتارية طبقت عليه القواعد المسيحية. واعترف به البابا عام ١١٩١ ، وتأكدت صبغته العسكرية فى عام ١١٩٨ . وكان فرسان المعبد وفرسان الإسبتارية قد استقروا تماما فى فلسطين وشمال الشام. وقد تمركز الفرسان التوتونيون حول أنطاكيا وطرابلس شمالا فى الشام ، وقام المسلمون بإبادتهم فى عام ١٢١٠، إلا إنهم حاولوا إعادة تنظيم صفوفهم حول عكا ، ثم أخذهم الإمبراطور فردريك الثانى بعد ذلك إلى أوروبا ، ليشاركوا فى إحدى الحروب الصليبية فى بروسيا شمال إمبراطوريته ، وطلب منهم احتلال بروسيا وتحويل الوثنيين البروسيين الذين يقطنونها إلى المسيحية ، وتحريرهم من البولونيين الذين يؤازرهم البابا ، وكان يمكن الاستدلال على الفرسان التوتونيين من ملابسهم السوداء الطويلة المحلاة بالصليب اللاتينى .

وفى أواخر القرن الثانى عشر شكل فرسان المعبد وفرسان الإسبتارية جزءا قويا من القوات العسكرية للمملكة اللاتينية فى أورشليم القدس، وكانوا الحماة والقوة الضاربة للجيش ، كما كانت جماعاتهم على المدى البعيد أهم القوى الضاربة فيما وراء البحار. وكانت القصور والقلاع التى منحت لهم والتى دعمتها قواتهم قد كونت أهم نقاط القوة العسكرية المسيحية بالإضافة إلى دورياتهم التى كانت تؤمن الطرق.

وفى التراث الإنجليزى اتهم ماتيوبارى النظم العسكرية بتشجيع الحرب حتى يمكن توفير التمويل للحروب الصليبية ، وكان فرسان المعبد يمتلكون فى قمة مجدهم٩٠٠٠ قصر ريفى كما وصل عدد فرسان الإسبتارية إلى ١٩٠٠٠! وكانت الإيرادات المحصلة كافية. فإذا كان من المفروض أن يبعث كل قصر ريفى فارسا واحدا للأراضى المقدسة مع تأمين مئونته، كان هذا ضمانا كافيا لوجود جيش دائم لديه المقدرة على مواجهة الجنود المسلمين.

وأخيرا ، فقد كانت النظم العسكرية الدينية أهم مصدر مالى للحروب الصليبية ، وكانت تؤمن تحصيل الأموال فى أوروبا لضمان الإنفاق منها فى أى مكان أثناء الرحلة للأراضى المقدسة. وكانوا يقومون بصرف قروض لتسهيل سفر الصليبيين أو الحجاج،

مع أخذ ضمانات بكل ما هو ذو قيمة فى أوروبا من أراضٍ ومجوهرات أو ضمانات شخصية، وقد لجأ كل ملوك أوروبا والنبلاء وحتى عامة الشعب إليهم. وفى تنافس مع البنوك الإيطالية كانوا يؤكدون تحويل الأموال المحصلة من قبل رجال الدين فى جميع أنحاء أوروبا للفاتيكان.

أما من حيث ارتباطها بالكنيسة فى روما، فإن هذه النظم العسكرية كانت مستقلة سياسيا، بل ولا تكاد ترتبط أيضا بملك أورشليم القدس الذى لم يكن يملك فعل أى شيء حيالهم، كما كانوا مستقلين عن البابا الذى يوجد فى مكان بعيد عنهم ، وقد انتهى الحال بفرسان المعبد وفرسان الإسبتارية إلى أن أصبحوا مملكة مستقلة. ولو أن حالتهم أصبحت يرثى لها بعد ذلك نتيجة انتصار المسلمين فى الأراضى المقدسة.

إلا إن الصفة المميزة لهذه الأنظمة العسكرية ، والتى كانت تخيف المسلمين وتثير قلقهم ، كانت إيمانهم العميق المتعصب وعنادهم الذى يمثل " روح الصليبيين" ، وكان مذهبهم واضحا وبسيطا . ويتركز فى أن الكنيسة فقط هى الحقيقة ، أما غير المسيحيين فهم كفرة ، وبالتالى فهم الأعداء ، وهم الشر المطلق فى مواجهة الحقيقة كما عرفتها الكنيسة الكاثوليكية الرومانية.

وكانت كل السبل مسموحا بها لمحاربة الشر والذى يحتسب هو نقاء الضمير. ولذلك لم يكن هناك أفضل من الاستيلاء على الأماكن المقدسة والسيطرة عليها بأى ثمن. أما ارتكاب الخطايا فإن الغفران الكامل من البابا يضمن المغفرة والجنة.

وكانت تعاليمهم تنص على الآتى :

– يحظر الانسحاب أو الهرب أمام العدو أثناء المعركة، يجب القتال مهما كان التفوق العددى للعدو فإما النصر وإما الموت. لا تدفع أى فدية للأسرى الذين يخضعون للنظام مهما كانت مراكزهم، والقلاع المستولى عليها لا ينبغى التخلى عنها تحت أى ضغط. حتى ملك فرنسا " لويس التاسع" الذى أسره المصريون أعلن عدم قدرته على مقاومتهم.

– لا تفاوض بل قتال!.. ولا ينبغى محاولة شرح هذا السلوك العدوانى للعدو ولا إقناعه بعدالة القضية المسيحية. السيطرة بالقوة تقوى إرادة الأحياء. والتجاهل والاحتقار واستخدام العنف والشراسة لكل من يمثل العدو هى اللغة الوحيدة المسموح

بها، وبقتل الأعداء نخلص الإنسانية من الأشرار الذين يتخفون خلف وجوه إنسانية. هذه حقيقة لا تستحق حتى المناقشة.

وكانت النظم الدينية العسكرية تشكل دائما الوجه المناصر للحرب حيث إنها كانت سبب وجودهم وأساس ثرواتهم وقوتهم، ولهذا فسوف يكونون دوما ضد كل الجهود لأى اتفاق مع المسلمين .

أما ردود فعل المسلمين لكل هذه التعاليم فلم تكن مستغربة، ففى الغالب كان يتم إطلاق سراح الأسرى فورا ، إذ لا يوجد سبب للاحتفاظ بهم أسرى طالما إن استبدالهم بفدية أو بأماكن منيعة أو حتى بأسرهم فى المعسكر الآخر لا طائل من ورائه.

ولن يكون للإسلام جيش عسكرى ذو عقيدة دينية مقارنة بفرسان المعبد. وفى واقع الأمر لم يكن فى نية المسلمين تشكيل حملة مضادة للحرب الصليبية.

وكانت الحصون المنيعة تضمن سيطرة الفرنجة على الأراضى المقدسة ، حيث يمكن الاختباء فيها بأمان ، حتى لو تضاعف عدد الجنود المكلفين بحراسة الموقع. وكان أشهرها حجما وقدرة هى "صهيون" و"صفد" و"مرقب" الواقعة على الطريق الواصل من عكا إلى أورشليم القدس. وكان فرسان المعبد والفرسان التوتونيون قد بنوا حصن الكرد قريبا من المدينة المقدسة. وهنا يجب التنويه عن قلعة الكرك والقلعة الشقيقة لها مونتريال ، واللتان تقعان جنوب البحر الميت فى صحراء الأردن. فهاتان القلعتان الشهيرتان عرفتا لوقت طويل بأنهما من القلاع المنيعة، فبجانب موقعهما كانت لهما أهمية خاصة، حيث كانتا تسيطران على طرق القوافل التى تجىء من مصر إلى الشام ، والتى تتجنب الطرق الساحلية التى يحتلها الفرنجة. وأكثر من ذلك كانتا تتحكمان فى مداخل شبه الجزيرة العربية وطرق القوافل من الشام إلى مكة. وكان أسياد الكرك يفرضون رسوما كبيرة على القوافل فى كلا الاتجاهين.

ومن الصعب القول عمن كان له الفضل فى بناء هذه القلاع العملاقة ، هل هم المسلمون ؟ أو المسيحيون ؟ فنحن نعرف مقدرة الصليبيين على تشييد القلاع والأسوار فى أنطاكيا والشام، مما يؤكد التنافس بين الفريقين لبلوغ قدرة مشهود لها فى حجم

ومناعة حصونهم ، وقد كانت الأيدى العاملة المستخدمة فى بناء هذه القلاع من أسرى الحرب من كلا الجانبين.

وكان كل منهما يستخدم نفس آلات الحرب للاستيلاء على القلاع: المنجنيق لقذف الحجارة من على بعد ثلاثمائة متر، والحجر التركى، وقاذفات الحجارة والسهام العملاقة التى ترمى الحجارة المشتعلة، وأوعية النفط المشتعلة... إلخ. كما كان كل منهما ينافس الآخر بمهارة فى أعمال حفر الخنادق والمعدات اللازمة لهدم هذه الأسوار العملاقة .

فى دمياط عام ١٢١٨

أحدث خبر رسو الفرنجة فى مواجهة دمياط دويا كالرعد فى القاهرة فبعد انتصارات صلاح الدين اعتقد الناس أن الفرنجة لا يشكلون أى خطر، على الأقل بالنسبة لمصر.

أما السلطان العجوز "العادل" فقد كان فى الثالثة والسبعين من العمر وكان حكمه امتدادا لحكم " صلاح الدين "، ويتمتع باحترام الجميع ويخشاه الناس دون سواه. وكان يراقب تحركات الفرنجة من دمشق، ويعلم أن وصول أعداد جديدة كبيرة من الصليبيين يعنى معارك جديدة. وكان يستمع إلى مشورة مستشاريه، وخاصة صديقه القاضى "الفاضل" الذى كان يردد دائما " ارع القضية - إن هذه الليالى ليست للنوم ".

وفى القاهرة كان ابنه الأكبر "الكامل" يحكم مصر بحزم وفطنة باسم أبيه. وقد برهن، قبل سنوات، على ذكائه وحكمته بتصفية آخر الفاطميين المنتسبين للشيعة وكذلك أتباع الطائفة الإسماعيلية، بينما كان قائدهم الذى يطلق عليه أتباعه لقب "الإمام" قد توفى فى السجن، وكانوا قد طلبوا من "الكامل" التصريح لهم بتنظيم جنازة لتشييعه والبكاء عليه قبل دفنه، طبقا للعادات الشيعية، وأذن لهم "الكامل" بذلك. وشاهدت القاهرة النساء الشيعة يخرجن من منازلهن وهن يبكين ويصرخن فى ألم. أما الرجال من أتباع الطائفة الإسماعيلية الذين كانوا مختبئين فقد خرجوا بدورهم للاشتراك فى الموكب المهيب وهم متأكدون من عدم وجود شىء يخشونه. وهنا حاصرهم "الكامل" برجاله وقبض على المئات منهم وملأ بهم سجون القاهرة، وكان من ضمن الذين تم القبض عليهم زعماؤهم الرئيسيون، ثم قام بمصادرة ممتلكات الأغنياء منهم لصالحه،

أما هؤلاء الذين نجحوا فى الهروب من الاعتقال فقد فروا خارج البلاد. وكانت هذه نهاية الطائفة الإسماعيلية فى مصر، وبهذه الطريقة أظهر "الكامل" مقدرته على الحكم.

وفور علم "الكامل" بوصول الفرنجة أمام دمياط، قام على سبيل الاحتياط باعتقال التجار الإيطاليين الذين يعيشون فى الإسكندرية. ونجح أحد التجار وهوأصلا من جنوة ويقيم فى الإسكندرية وكان يطلق عليه العرب اسم "كيليام" (جليوم)، فى التودد للحاكم بالقاهرة ، وكان قد اكتسب مودة السلطان "العادل" إلا إنه فى الحقيقة كان جاسوسا للفرنجة وكان يبلغهم بكافة الأخبار، وقد تم إبلاغ السلطان بذلك إلا إنه رفض تصديق ما قيل.

اعتبر "العادل" هجوم الفرنجة عارا شخصيا، يتمثل فى رفضهم لكل الأساليب السياسية التى قام بها هو و شقيقه صلاح الدين منذ عشرين عاما. ألم يكن فى مقدرة السلاطين الأيوبيين تصفية ممتلكات الفرنجة كاملة فى الشام ولبنان؟ ألم يرفضوا مبادرة للسلام؟ ألم يصموا أذانهم عن احتجاجات أمرائهم؟ ألم يتجاهل صلاح الدين نصيحة هؤلاء الأمراء بالهجوم على آخر قلاع الفرنجة وقام بتوقيع هدنة معهم وسرح جيشه كمبادرة للسلام؟

و"العادل"، من بعده، ألم يفعل كل ما فى وسعه لتجنب حرب جديدة ووقع هدنة مع جان دى بريان، وعامل هذا الملك الصغير الذى كان قد اعتلى العرش لتوه كند له؟ ألم يتحمل الانتقادات والسخرية من الذين اتهموه بالتخلى عن الجهاد المقدس مقابل الرغبة فى صداقة هؤلاء الرجال البيض؟ لقد جاءت الإجابة أخيرا على كل هذه التساؤلات بوضوح فى شكل جيش من الفرنجة تحت قيادة جان دى بريان قادما من الشام ومن وراء البحار بأعداد أكبر مما شوهد منذ وفاة صلاح الدين وبقيادة جان دى بريان نفسه، وهوالذى كان السلطان قد كرمه، أما الآن فهويقوم بمحاصرة دمياط الميناء الرئيسى التجارى لمصر.

أمر "العادل" ابنه الأكبر "الكامل" بقيادة الجيش المصرى ومواجهة الغزاة. وفى الوقت نفسه قرر القيام هووابنه "المعظم" بمهاجمة الفرنجة فى الشام، مع استعداده بالإمدادات لنجدته وقت اللزوم.

كان صلاح الدين قد قام بتحصين دمياط تحصينا منيعا، أما ميناؤها فقد كان يعتبر الميناء الرئيسى لمصر بل ويعتبر فى هذا الوقت أكثر أهمية من ميناء الإسكندرية. وكانت مبانيه تقع فى الجهة اليمنى من الفرع الشرقى للنيل، وكانت تعد محمية طبيعية للنهر الذى يمتاز باتساعه عند المصب، فى حين كانت بحيرة المنزلة التى كانت قريبة جدا منه، تحميه من الشرق. وكان الفرنجة قد رسوا على الشاطئ وصعدوا النيل على الضفة اليسرى جنوبا لبضعة كيلومترات فى مواجهة المدينة، ونصبوا معسكرهم على بعد ثلاثة كيلومترات من داخل الأرض على جزيرة صغيرة مثلثة تسمى جزيرة دمياط. وكانت الجزيرة محاطة من الغرب بقناة قديمة مهجورة تسمى، قناة الأزرق، أما من الشمال فكانت محاطة بالبحر المتوسط وبالفرع الشرقى للنهر من الجنوب والشرق.وكان الدفاع عن المكان سهلا ومن الممكن تزويده بالمؤن من ناحية البحر. ولكن كانت الصعوبة من وجهة النظر الهجومية، تكمن فى ضرورة اجتياز الصليبيين للنيل أمام مقاومة العدومن أجل الوصول لأسوار المدينة

اعتبر الصليبيون تقارب مياه النيل والبحر فألا حسنا، وكانت المياه عذبة ومنعشة للشرب. وفى ٩ يوليو١٢١٨ انخسف القمر، واعتبر المسلمون ذلك، فألا حسنا، وزاد من إيمانهم بأن السماء تؤازرهم.

اجتمع "الكامل" من جهته مع مستشاريه وأنشأ معسكره على الجانب المقابل للنيل فى العادلية أى الجانب نفسه الذى تقع فيه دمياط والذى توفر له اتصالا مستمرا معها. وقام السلطان بتجنيد البدو[١] من شرق الدلتا بغرض الضغط على الفرنجة ليلا ونهارا. وكان يذهب إلى العادلية بنفسه ليشرف على العمليات ضدهم.

كان لدمياط ثلاثة أسوار وعدد كبير من الأبراج. وكانت الأسوار مختلفة الارتفاع، فالسور الأول الأقل طولا يلى الخندق الذى يحيط بالمدينة من جانب الأرض، والسور الثانى أكثر ارتفاعا ومدعم بثمانية وعشرين برجا كل واحد منها يحتوى على ثلاثة

(١) البدو ، كانوا خاضعين لقانون الجزية ويعيشون مع قطعانهم على حدود الصحراء . وكانوا يسمون كذلك « العرب » . وكانوا يحتقرون سكان المدن ويتصفون بكرم الضيافة . وكانوا مولعين بالنهب ، وبإيذاء فرق المسلمين فى بعض الأحيان .

أبراج صغيرة ، أما السور الثالث والأخير وهو الأكثر ارتفاعا فكان فى وسط النيل وفى مواجهة المدينة، وعلى جزيرة صغيرة كان يوجد برج صغير يسمى برج السلسلة لوجود سلسلة غليظة تمتد منه لتسد مجرى النهر من جهة الشرق أى ناحية دمياط، وكانت مثبتة من ناحية الغرب بطريقة تسد مجرى النهر بالكامل وتتحكم فى المرور فى وقت السلم كما فى وقت الحرب. وكان بناء البرج قويا بحيث لا يمكن إصابته بالمنجنيق أوالمدفع الحجرى أوالألغام، وتقوم على حراسته قوة تتكون من ثلاثمائة جندى، ومقام فى وسط المياه ويفصل بين الصليبيين والمدينة. إذا فالاستيلاء على هذا البرج كان خطوة لا بد منها للبدء فى محاصرة حقيقية لدمياط.

حاولت جيوش الفرنجة مرة بعد الأخرى الاستيلاء على أحد البرجين اللذين تربط بينهما السلسلة دون أن تكلل هذه المحاولات بالنجاح، بل تحطمت معدات الحصار. وقد استمر هذا الوضع لمدة أربعة أشهر، استغله السلطان "العادل" لتعبئة قوات فى الشام بهدف إرسالها لمساندة دمياط.

كانت المشكلة الكبرى إذن بالنسبة للفرنجة هى الاقتراب من البرج الذى تبدأ منه السلسلة إلى منتصف النهر، حيث كان يجب بناء مصطبة تسمح بوضع سلالم متحركة تمكنهم من الهجوم على الأسوار. ولذلك واتت "أوليفييه دى كولونيا" الفليسوف اللاهوتى فكرة توصيل سفينتين يربط الواحدة بالأخرى جسر من الخشب أوالحديد (كمرة) يتساوى مع مستوى السفينتين. وأضاف الفرزيان أربعة صوارى ثبتوا فى كل واحدة منها برجا من الخشب للمراقبة وأحاطوه بحصر من القش شد بعضها إلى بعض لتكون سورا واستخدموها ككوة للسفينة. وفى النهاية وضعوا جسرا متحركا للنزول عليه من السفينة إلى الأرض وقاموا بربطه بحبل فى الكمرة. ومن ثم تحركت هذه الكتلة التى سميت "مارين" فى اتجاه برج السلسلة الذى يدافع عنه ثلاثمائة مقاتل مسلم. وقام الفرزيان الفرسان المشتعلون حماسا من "أوليفييه" بإنزال الجسر واندفعوا نحوالمدافعين عن البرج وقتلوا كل من فى طريقهم. ونجحوا فى تحطيم جسر السفينة الذى يربط هذا البرج بمدينة دمياط. أما المسلمون الذين رفضوا الاستسلام لهم فلم يجدوا طريقة للخلاص سوى السباحة. ورفرفت الأعلام المسيحية على البرج فى وسط النهر. وسد

الصليبيون باب السور الذى يطل على دمياط ووضعوا جسرا من السفن بين معسكرهم على الضفة المقابلة والبرج. وكانت السلسلة قد تحطمت وأصبح فى إمكان سفن الفرنجة الصعود فى النيل من الآن فصاعدا. حدث ذلك فى شهر أغسطس ١٢١٨، وكانت خيبة أمل "الكامل" كبيرة إلا أن مدينة دمياط لم تكن قد سقطت بعد ولم تكن محاصرة أيضا.

ولم يكن جيش " الكامل " قد وصله الدعم من الشام فلم يكن قد تورط بعد. وحاول هومن جانبه إحلال السلسلة التى نجح الفرنجة فى قطعها والتى تحطمت نتيجة للمعارك الضارية. وذلك بوضع حاجز منيع على الأرض وإغراق سفينة كبيرة فى وسط النهر لعمل سد، ولكن الفرنجة نجحوا مرة أخرى فى الالتفاف حول هذه العقبة بإعادة إحياء قناة الأزرق التى كانت تقع على حدود معسكرهم وقاموا بتعميقها. وبهذا استطاعوا الصعود بسفنهم حتى وصلوا فى مواجهة العادلية حيث يوجد معسكر السلطان. ومنذ هذه اللحظة أصبح الجيشان وجها لوجه وأصبحت دمياط محاصرة.

كان السلطان العجوز "العادل" والد "الكامل" فى طريقه إلى الشام، عندما علم عن طريق الحمام الزاجل بخبر استيلاء الفرنجة على برج السلسلة. وصدمه الخبر وشعر بخطورة الموقف فازداد انفعاله حتى مرض ونقل قريبا من دمشق. ثم زاد عليه المرض وتوفى فى اليوم السابع من شهر جمادى الآخر أى ٣١ أغسطس ١٢١٨

وبذلك فقدت الإمبراطورية الأيوبية قائدها فى أحلك الأوقات، وتذكر الجميع الفتنة التى حدثت بعد وفاة صلاح الدين. فقد كان لدى "العادل" ١٦ ابنا من الذكور، وعند وفاته لم يكن أحد من أبنائه بجانبه، وقرر أقرب مستشاريه كتمان خبر الوفاة فى انتظار وصول أبنائه الأمراء "الكامل" من مصر و"المعظم" من نابلس و"الأشرف" من بلاد ما بين النهرين (العراق) وذلك لتنظيم أمورهم لتولى إرث السلطان العجوز وإبعاد المنافسين المحتملين. لذلك أعلنوا أن أطباء السلطان أمروا أن يذهب إلى مدينة دمشق لعلاجه، وأخذوه على محمل يرافقه واحد من خدمه وتبعه أحد الأمراء لتجهيز احتياجاته وأعطاها للخادم المكلف بخدمة السلطان المريض. وكان الاعتقاد أنه ما زال حيا، لذلك استطاع الموكب أن يدخل قلعة دمشق بمتعلقات السلطان وخزائنه ونسائه من الحريم

وتابعيه المعتادين. وكان أول من تم إبلاغه بنبأ الوفاة هو ابنه "المعظم" الذى حضر بسرعة من نابلس فأقيمت صلاة فى الجامع تعبيرا عن الولاء للسلطان "العادل" ولابنه "المعظم" من بعده دون الإعلان عن وفاة الحاكم. وبعد إقامة مراسم أداء اليمين أعلن رسميا وفاة السلطان العجوز، وتم وضع جميع كنوز الحاكم التى كانت توجد فى الشام أو الكرك بالأردن فى مخبأ.

تم دفن السلطان فى حرم قلعة دمشق، وقد أثار موته مشاعر وانفعالات شديدة بين عامة الشعب الذى حاول " المعظم " تهدئتها، وكان مبشروه يرددون فى كل مكان ويصيحون " ابكوا ملككم السلطان العادل، وادعوا لابنه المعظم أن يحفظه الله". وهكذا انتهت فترة حكم امتدت ٢٣ عاما فى دمشق. و١٩ عاما فى القاهرة.وترك "العادل" ذكريات حاكم عظيم، ورجل سلام حكيم اتسم دائما بدبلوماسية رفيعة، واستطاع أن يصون ملحمة شقيقه " صلاح الدين "، ويمضى فى مسيرته ، ونجح فى الحفاظ على تماسك البيت الأيوبى بتنظيم محكم، وقد ساعده فى ذلك وزير ماليته "ابن شكر" ، الذى استطاع ضبط الأمور جميعها بالتفاهم مع سيده السلطان بعد أن ترك صلاح الدين ديونا وفوضى. وكان " العادل " فى حياته يقتسم إدارة إماراته مع أبنائه الكبار الذين أثبتوا مهارتهم فى الحكم، كما كان معتادا على زيارتهم فى الدول التى يحكمونها، لإجزال النصح لهم. وبصفة عامة كان يفضل قضاء فترة الصيف فى دمشق أوجبال لبنان الأكثر طراوة، وفى الشتاء يظل فى القاهرة حيث الجو اللطيف المناسب. وكان يعرف عنه شراهته للأكل، ويقال إنه كان يستطيع أن يأكل خروفا بمفرده. وكان مشهورا بمغامراته النسائية، ويقال إنه امتاز بفحولة نادرة.

أما "المعظم" الذى سنحت له الفرصة ليكون موجودا فى ذلك الوقت ، فقد ورث من خزينة والده المتوفى فى دمشق ٧٠٠٠٠٠ دينار من الذهب المصرى وذلك بخلاف الكنوز الموجودة فى الكرك فى الأردن والتى استولى عليها أيضا. وقد كتب لأشقائه لإبلاغهم بوفاة والدهم. ووصل الخبر "للكامل" فى معسكر الزاهر قرب العادلية فى مواجهة دمياط ، وقد أدرك ان وفاة السلطان ستشجع الفرنجة على المضى فى مخططاتهم، وأن حصار دمياط سيتم تكثيفه.

الجيش الأيوبى

قام السلطان "الكامل" بإعداد جيشه لمواجهة جيش "جان دى بريان" بالأسلوب الذى درج عليه الأيوبيون، بمعنى أن الجيش كان يتسم بالترابط العائلى، كما كان معمولا به فى هذا العهد ، فقد كان الأمراء الأيوبيون على أتم استعداد دائما لتلبية نداء الواجب.

وفى مقابل كتلة الحديد التى كان رداء وأسلحة الحرب التى يحملها جيش المسيحيين ، يتكون منها بدا جيش المسلمين وكأنه عار؛ أسلحة خفيفة ، وسيوف قصيرة أومتوسطة وخيول خفيفة وسريعة لا تَوفِّر لها الحماية، كما بدا مظهر الفرسان المسلمين أمام العدد الكبير من الفرنجة أقل صلابة وقوة.

إلا أن هذا الانطباع الأول كان خطأ، فالمسلمون كانوا معتادين على مظهر خصومهم، وكانت لديهم القدرة على استغلال مظاهر القوة لدى الأعداء وتحويلها إلى نقاط ضعف. فالتكتيك الإسلامى كان يهدف دائما لمنع المسيحيين من نشر صف كامل من فرسانهم ، فكانوا يواجهونهم بساتر خفيف من القوات مهمته الهجوم عليهم وتفريقهم. وفور تحطم صف العدو تبدأ كثرة العدد تلعب دورها لصالح المسلمين.

وكان فى استطاعة السلطان "الكامل" تجميع من ١٠٠٠٠ إلى ١٢٠٠٠ فارس من مصر، والسلطان "المعظم" كان فى مقدوره جمع ثلاثة آلاف، ومن شمال الشام (حلب وحمص) كان بالإمكان تجميع العدد نفسه تقريبا، أما الأمراء الآخرون الأقل قوة فقد كان عدد قواتهم أقل.

وطبقا للأسس المتوارثة من صلاح الدين الذى ينحدر من أصل كردى، فقد كان الأكراد والتركستان يشكلون أفضل عناصر الفرسان الثقيلة، والبدويشكلون الفرسان

الخفيفة، بينما كان المشاة يتكونون من الميليشيات والمتطوعين. وكانت الفرسان الثقيلة تلبس دروعا وتتسلح برماح وأقواس وسهام، وكانوا ينتمون إلى علية القوم ومدربين على رمى السهام أثناء ركوض الخيل ، كما كان تدريبهم يتضمن أيضا الرمى فى مجموعات متاخمة تستهدف تفريق فرسان العدوقبل الضربة القاضية، وبصورة عامة ، كانوا يرمون سهامهم سواء كانوا سائرين على الأقدام أوممتطين جيادهم. وفى كتاب فن الحرب للطرطوسى، نصح بالتصويب أولا على جياد العدو ، وإذا كانت محمية بدروع ثقيلة حتى يسقط من عليها، كما نصح أيضا أنه فى حالة مواجهة عدومسلح بسيف ثقيل يجب التصويب نحوه من مسافة قصيرة بقدر الإمكان ، حتى يقل احتمال عدم إصابته. أما إذا كان العدومسلحا برمح فيجب الاحتفاظ بمسافة مناسبة تكفى لإصابته وعجزه عن حمل درعه وسيفه، وفى المقام الأول يجب الهجوم على العدوالذى يحمل رماحا باعتبار أنه هو الأكثر خطرا.

وقد استخدم الجنود الأيوبيون أسلحة من النوع الخفيف الرقيق المطروق الجانب ، والتى تتميز بدقتها ورفعها، وكانت الجياد، وخاصة التى يمتطيها الرماة ، لها حماية خاصة، حيث أن الجياد العربية بصفة عامة لم تكن تلبس دروعا ، ولذلك كانت سريعة وخفيفة.

وكان يطلق على فارس المقدمة "الشجاع" ، وكان يستخدم عادة التكتيك العربى الأصيل "الكر والفر" أى "اضرب واهرب"، وكان انسحابهم يغطى بفرق من النخبة "الأبطال"، أما الفرسان الذين كان بعضهم يضع غطاء على وجهه فكانوا يفضلون الرمح كسلاح ، ويستخدمونه بدقة فى القتال أكثر من السيف وكتل الأسلحة والبلطة ، حيث أنهم كانوا يجهلون القوس والرمح. كما كانوا يستخدمون هذه الأسلحة لإيقاع الفرسان الفرنجة المثقلين بأسلحتهم من على خيولهم، وعلى الأرض كان من الصعب على هؤلاء الوقوف دون مساعدة ، وبذلك يصبحون هدفا سهلا. وكانت السيوف العريضة المعقوفة مفضلة على السيوف المستقيمة الثقيلة التى يستعملها الفرنجة.

وفى المعركة ضد الصليبيين كان للمشاة دور كبير، فبعد انتصارات صلاح الدين، لم يتبق للصليبيين سوى شريط من المدن المحصنة على الساحل، وكنتيجة للنقص

الواضح فى عددهم لم يكن لديهم أمل فى المقاومة سوى فى ظل قلاعهم الكثيرة المحصنة. وللتغلب على هذه الحصون القوية تضاءلت أهمية الفرسان، وكان من الضرورى وجود فرق أخرى بديلة يمكنها تسلق هذه الأسوار التى تقع على رأس الجبل والإغارة عليها ، كما استلزم الأمر أيضا وجود مهندسين أكفاء للإشراف على أعمال الحفر. وفى أثناء الهجوم كان الجنود يستخدمون كل أنوا ع الأسلحة، الحراب والرماح والسيوف والخناجر والبلطة وكتل الأسلحة ، بينما الأقواس تمطر المدافعين بالسهام، وكانت الدروع الحديدية أوالمعدنية هى التى تحميهم.

وكان جنود المشاة يستخدمون النار الإغريقية منذ زمن طويل وذلك من خلال أنابيب من الصلب ، ثم يرمون النيران ويلقون كذلك أوعية صغيرة مملوءة بالنفط سواء باليد أو بواسطة معدات خاصة. وكانت السهام الصينية أى السهام التى تحمل فى طرفها كرة من النفط المشتعل فعالة ضد المعدات والخيام والآلات الخشبية. وحوالى عام ١٢٣٠ بدأ استخدام البارود الذى نقل من آسيا ، مع خلطه بفحم الخشب والكبريت. وأصبحت النار الإغريقية سلاحا قاصرا على المسلمين ، ولم يتعلم الصليبيون كيفية استخدامها.

وقد توفرت خدمة المرتزقة سواء من المسيحيين أوالمسلمين لمن يستطيع أن يدفع لهم ويعدهم بغنائم أفضل. وكان كل معسكر يتعامل مع من يخدم فى المعسكر الآخر على أنه مرتد عن الدين، ومع ذلك لم يرفض أحد من المعسكرين الجنود الممتازين. وكان صلاح الدين يردد دائما أننا لم نر مسلما أصبح مسيحيا مؤمنا ، ولم نجد مسيحيا سيئا أصبح مسلما مؤمنا. وبصفة عامة، كان هؤلاء المرتزقة المشكوك فى ولائهم فى المواقف الصعبة، يخدمون غالبا كمساعدين أومعاونين. وبالإضافة إلى الأعداد المتطوعة المؤمنة كان يوجد أيضا "الغزاة" والذين كان يطلق عليهم كذلك "المجاهدون". هؤلاء المتطوعون كان يملؤهم الإيمان وكانوا من ذوى الحمية ، ويرغبون فى مقاتلة المسيحيين الكفرة. ومن هنا لا يمكن تشبيههم بجماعة فرسان المعبد أوفرسان الإسبتارية ، حيث كان ينقصهم تنظيم مستقل بهم. مما يعنى أن هؤلاء الغزاة لن يكونوا أبدا ميليشيات مستقلة عن الجيش النظامى .

وكان التدرج فى الأجور يتماشى مع التدرج فى الجيش. فالصفوة عادة هم الأكراد والكردستان وكانوا يتلقون مرتبات كاملة، يليهم الجنود شبه المستديمين، عسكريين ومساعدين، وكانوا يتلقون نصف مرتب، ومن المعتقد أن البحارة كان لهم الحق فى ربع المرتب الأساسى، أما بالنسبة للفرق الخارجية فكان لهم الحق فى ثمن المرتب. وكان توزيع الغنائم يتم بالنظام نفسه. وعادة ما كان الفرسان يحصلون على ضعف ما يحصل عليه الجنود الدائمون وشبه الدائمين، ولذلك كان عليهم إثبات قدراتهم فى أرض المعركة.

أما الأكراد فكانوا رأس الحربة فى الجيش الأيوبى ، يمكن أن نصفهم فى أربع كلمات: رشاقة طبيعية، إخلاص قوى، القدرة على تحمل المسئولية عند الضرورة ، حتى لو كان هناك خطر يتهدد حياتهم، وكانوا رجالا أونساء يفضلون الموت على العار، أو الهرب.

لم يكن الفارس الكردى يختلف عن الفارس المسيحى. فهوالفارس الذى يتحدى العدو قبل اللقاء فى المعركة. إلا أن الفروسية عند المسلمين كانت صفة خاصة شخصية لا تجملها رموز أو احتفالات أوقمصان مدرعة. وقد نافس صلاح الدين وتفوق فى القصص المسيحية على أكثر النبلاء الصليبيين. فالمثالية فى الأخلاق لم تكن تختلف فى الجيشين ، وإن كان السلوك أبعد من أن يكون واحدا. وقد رأينا ذلك عند استيلاء قوات جود فرى دى بويون على القدس ، ثم بعد ذلك فى قوات صلاح الدين.

أما الأتراك فكانوا قد تغلغلوا بقواتهم فى الشرق الأوسط قبل صلاح الدين بعد أن طردهم المغول كلية من آسيا الوسطى، فتبعوا زعيمهم وانضموا إلى الجيش فى مصر والشام ضد الفرنجة ، أو ضد الأمراء أعداء السلطان الأيوبى الذى كان يجزل لهم بسخاء. فكانوا رجالا أقوياء، مؤمنين بالإسلام، فقدوا كل شىء ويريدون استعادة كل شىء ، فهم محاربون أشداء. وكانت ساحات جورجيا والقوقاز وجنوب روسيا سوقا عسكرية لا تنضب، وفى المعارك كان الصديق والعدو يتنافسان لتأجير شجاعتهم. وكان الأتراك يفضلون ركوب الجياد أكثر من السير على الأقدام، ويرتدون درعين أوثلاثة، ويمتازون بدقة التصويب المميتة سواء من الأمام أوالخلف. وقبل كل شىء كانوا يجيدون

استخدام القوس، أما تشكيلاتهم العسكرية فكانت تعتمد على ثلاثة خطوط، الواحد خلف الآخر ، فالجنود فى الصف الأول يترجلون من على جيادهم ، ويفرغون أحمالهم على الأرض، ثم يصوبون ، سواء جالسين أوفى وضع القرفصاء، وكل صف يحمى الصف الذى يليه من الهجوم المحتمل وقوعه من العدو ، وكانت النتائج مبهرة .

وكان هناك من يطلق عليهم التركمان ، وهو اصطلاح شائع لتعريف الملونين أو المولدين. وكانوا يوجدون فى جيوش المسلمين والمسيحيين كمساعدين محليين يحاربون بالطريقة التركية نفسها و بأحمال أقل. وكان ذلك، فى الحقيقة، إرثًا بيزنطيًا، فالأتراك الذين اعتنقوا المسيحية وانضموا للفرنجة أو المتزوجون من يونانيين، أو الأطفال المولودون فى هذه البلاد كانوا فى جملتهم مولدين. وفى آسيا الصغرى نجد مولدين اعتنقوا الإسلام وتزوجوا من نساء أتراك، ومولدين أتراك سجناء، ومهاجرين متزوجين من نساء من الفرنجة سواء اعتنقوا المسيحية أو لا.

ومع مرور الفرق الآتية من أوروبا إضافة إلى الغزوات من كل نوع، ظهر فى آسيا الوسطى وشمال الشام أناس منحدرون من مختلف الأجناس أو الدماء . وكانت طوائف القناصين منهم مرتزقة ممتازين، ولم يكن من المهم أن يكونوا من دين واحد أوتابعين للعظيم الذى يخدمونه. وكان تشكيل الجيش الأيوبى وعتاده مثار إعجاب شديد فى ذلك الوقت. حيث الجمال والبعير تحمل المعدات الثقيلة ، وتسمح لجيش المسلمين بالانتقال فى الصحراء بسرعة أكثر من الجيش المعادى. ولم يستخدم الجيش الأيوبى عربات ثقيلة وطويلة ، مما حدا بالبعض إلى القول بأن العرب لا يعرفون العجل!... وكان الجيش الأيوبى يختار وقت وأرض القتال، وفى المسافات القصيرة كان الفرسان يصطحبون المشاة معهم كاحتياطى. وكان يتبع الجيش مستشفى حقيقى : أطباء وجراحون وعربات إسعاف عبارة عن أسرة تحملها الجمال.

ولكن الحرب هى عمل النبلاء، والنبلاء هم الفرسان. والذى يقول فرسان، يعنى فرس أو جواد . و كسيده يجب أن يكون الجواد أصيلا ونبيلا. والفارس المسلم لديه ولع بجواده، رفيقه فى المعارك. والجواد العربى خفيف وسريع ومخلص ومطيع، وقد دخل التاريخ بتلك الصفات.

وفى كتاب "تقاليد الفروسية لدى العرب" الذى صدر فى القاهرة عام ١٩١٩ لواصف بطرس غالى، قال إن الجواد العربى هو من أصل جواد الملك داود " زاد الراكب " ونتاج مباشر من خيول الفرسان النبلاء الذين أنعم بهم الرب على خادمه إسماعيل.

وكان معظم كبار العرب يحبون ترديد هذه الأسطورة ويقولون إن الجواد الأول للملك سليمان، كان جوادا ينحدر من أصل عربى ، ويرددون عنه إنه زاد الراكب: فقد جاء سكان عمان، للملك سليمان بن داود وقالوا له:

" سيدنا، إن بلادنا بعيدة ونحتاج إلى مؤن، أعطنا ما يكفينا حتى نصل إلى بلادنا "

وهنا أعطاهم سليمان جوادا من جياد والده الملك داود، وقال لهم:

" هاهى مئونتكم، عندما تعسكرون ضعوا على هذا الجواد رجلا مسلحا بحربة، واجمعوا الخشب وأشعلوا النار، وقبل أن تشتعل النار سيكون الفارس قد عاد ومعه غزال "

وتعجب رجال عمان وقالوا: لا يوجد أى اسم مناسب لهذا الجواد إلا "زاد الراكب" ولهذا الجواد ترجع جياد العرب.

وأسطورة أخرى تتردد كثيرا فى الشرق تقول إن أصل الجواد العربى يرجع إلى الجياد الخمسة للنبى أوالتى يطلق عليها " الخمس " (وتقول الأسطورة) إن النبى محمد قد عسكر بالقرب من نهر وكان معه عدد كبير من الجياد ظلت لعدة ساعات دون ماء للشراب، وعندما حل وثاقها أخيرا اتجهوا للنهر ليرتووا، وعندئذ طلب الرسول إطلاق البوق لتجميع قواته، ومن ضمن الجياد التى كانت تشرب من النهر تفرقت خمسة جياد عن الباقين وتوجهت إلى سيدهم تاركين الشراب ، وكانت عيونهم براقة نقية وهم يصهلون بفرحة، فباركهم النبى ، ومنذ ذلك الحين يطلق عليهم « الخمسة المرسلون من الله ». ولهذه الجياد تنتمى أرقى سلالة من جياد الشرق(*) .

(*) أسطورة « الجياد الخمسة » وأصل الجواد العربى لم يرد لها ذكر فى كتب الحديث أو السيرة النبوية ؛ وهذا المسمى « الخمسة » يرمز إلى نسل الخيل الأصيل الذى كانت تختلف أسماؤها من قبيلة لأخرى .
راجع : The Covol Lyons . (المترجمة والتحرير)

كان النبى محمد قد وضع بنفسه أسلوب توزيع الغنائم بين الجنود والمشاة والفرسان، وكان كل جندى يحصل على جزء من الغنيمة، وكل فارس على ثلاثة أجزاء، واحدة له واثنين لجواده، وكان هذا الامتياز دليلا على رفعة شأن الجواد وأهميته.

وكانت المملكة اللاتينية فى القدس تفضل الجياد الأوروبية البطيئة القوية التى اعتاد عليها الفرسان. وكانوا يستوردونها من روسيا عن طريق بيزنطة. وفى البلاد الإسلامية كان يؤتى بها من تركيا.

وإذا كان التسلح فى الجيوش المسيحية والإسلامية فيما عدا النيران الإغريقية لم يكن يختلف بالنسبة للجيشين، فإن الرجال كانوا مختلفين تماما. ومن المثير للدهشة أن هؤلاء الرجال الذين تقاتلوا بضراوة لمدة قرنين من الزمان كان تأثيرهم الواحد على الأخر لا يذكر إن بل الهوة التى حفرت بينهما بدون تحجيم فى بداية هذين القرنين ظلت واسعة. وكانت إحدى النتائج الخطيرة الناجمة عن الحروب الصليبية هى عدم التفاهم والكراهية بين المسلمين والمسيحيين ، وبالتالى بين المسيحيين واليهود فى أوروبا. ولم تكن الكراهية قد انتهت فى أوروبا حين بدأ الشرق الأوسط يدفع الثمن.

وفى وعظ البابا "أوربان الثانى" عند بداية الحرب الصليبية الأولى كان قد وضع برنامجا عاما للمؤسسة الدينية (الكنسية):

" اتبعوا طريق الضريح المقدس، وانتزعوا هذه البلاد من أيدى الشعوب البغيضة وأخضعوها لسلطانكم ... أورشليم القدس هى المركز الوسط، أرضها خصبة بالإضافة إلى كل خيراتها ، فمن خلالها تحصلون على كل ما تتمنون، ويمكن تشبيهها بملذات ا لجنة. هذه المدينة الملكية التى تقع فى منتصف العالم، هى الآن محتلة من الأعداء وتخضع لهم ، وتقل قيمتها وهى فى حوزة بلاد تجهل قانون الرب، فهى إذا، تطلب منكم وتتمنى تحريرها ...."

(خطاب البابا فى مجلس كليرمون ١٠٩٥).[١]

(١) نص نداء البابا . والمؤرخون أعادوا صياغته ، ج . دابى ، العصور الوسطى ، صفحة ١٤١ .

وقد أعطت كلماته هذه الدافع والحافز للحروب الصليبية، وكانت مباركة البابا تولد فى نفوس الصليبيين مشاعر الكبرياء والتعالى .

" المخالفين فى العقيدة الذين أهانوا الرب بسبب عدم إيمانهم، واستولوا على الأراضى التى يطالب بها المسيحيون شرعا " (هيودى بيز ١١٤٠ / ١٢١٠)

ويضيف القديس برنارد دى كليرفوه:

" فيما يخص فرسان المسيح فهم يحاربون بكل صفاء من أجل ربهم وهم فى سكينة وبدون خوف من المعصية عند قتل أعدائهم، ولا من الهلاك إذا هوجموا وقتلوا، فإذا قتلوا فهو دائما قتال فى سبيل المسيح. فهذه ليست جريمة بل فخر .... "

وكانت الرحلة للأراضى المقدسة تعتبر تكفيرا عن الذنوب والمعاصى، وتجعل الرب يغفر لهم مقدما، وسينعم الصليبى بالغفران التام.

وقد لا يتفق المسلمون مع وجهة النظر هذه. فكيف كانوا يرون الجنود الفرنجة والصليبيين من وجهة نظرهم؟ . لقد قال أسامة بن منقذ، وهو شاهد مميز على هذا العصر:

" عندما ننظر إلى ما يمس الفرنجة، لا نستطيع إلا أن نمجد ونقدس القوة العليا (لأن الله لم يخلقنا فرنجة) لأننا نرى فيهم حيوانات لديها شجاعة وحماسة المقاتلين، وليس أكثر من ذلك، بينما غيرهم لديهم القوة والمقدرة على تحمل الأعباء....."(٢)

وأضاف أن الصليبيين الجدد الذين تأقلموا على أجواء فيما وراء البحار، يتمتعون بسلوك غير إنسانى . وأما الذين تعاملوا مع المسلمين (الذين يطلق عليهم المهور) فلديهم سلوك مخالف، فهم أكثر إنسانية، بحيث يمكن أن يصبح العدو صديقا، لأنه فى الوقت نفسه جار له.

(٢) انظر كتابه المترجم والمقدم من أ . مايكل « تعاليم الحياة » ، باريس ١٩٣٨ .

فالمحارب المسلم، مثل المسيحى، مقاتل بسبب عقيدة الإيمان، وإذا حمل السلاح فذلك من أجل الله، وإذا مات فقد أصبح شهيدا . " لقد وهب المحاربون أرواحهم وممتلكاتهم لله الذى وعدهم بالجنة". فالوعد إذاً مماثل لدى الجانبين.

ومن الجدير بالذكر أن كثيرا من أخلاق المحارب المسلم ترجع للبيئة الصحراوية التى ولد وتربى فيها: الشرف، الولاء، الشجاعة، الصبر الذى يجعله يتقبل العذاب الذى يبتليه الله به. فهذا العذاب هوالذى يوفر له الأمل فى النصر المحتوم للمؤمنين ". وهذه الكبرياء والأخلاق الصارمة تختلف بالطبع عن الفروسية، رغم أنها معترف بها ضمنيا للفرسان المسيحيين الذين تشبعوا بأغانى البطولات. وهى فضائل يضيف إليها المقاتل المسلم إحساسه بالانتماء إلى الأمة الإسلامية جمعاء ، وليس وطنه فقط، والجهاد الذى يعنى الانتصار الدنيوى للأمة الإسلامية هوإذعان وثقة كاملة فى إرادة الله. أما بالنسبة للصليبى المسيحى، فإذا مات فهذا خلاص شخصى له، كما أنه بالنسبة للمسيحيين فهو مباراة بين المدن والدول المتنافسة لمن ستكون له السيطرة فى آخر الأمر.

وكان المقاتل المسلم يؤمن بأن " كل شىء يأتى فى حينه "، وكانوا يستهزئون من الصليبى الذى يعتقد أنه يستطيع تغيير مصيره بأن يلتحف بدروعه، أما الجنود الذين يهربون من الخدمة اعتقادا منهم بأنهم قد هربوا من مصيرهم فيحق عليهم أقصى العقاب. فالهارب من الخدمة سيتم تقطيعه إلى نصفين ، وستلقى جثته للكلاب، كما سوف يعاقب بشدة كل من ساعده على الهرب أيضا.

كان " الجهاد " هوالحرب المقدسة التى تدور فى ذلك الوقت دفاعا عن الأراضى الإسلامية، وهى على النقيض من الحروب الصليبية، التى عرفها المسيحيون بأنها حرب لتحرير الأراضى المقدسة. فالصليبى الذى يموت وهو شهيد، والمقاتل فى الجهاد يموت وهوأيضا شهيد الإيمان، والجنة موعودة للاثنين. وهى جزاؤهم الأعلى، والله وحده يعلم من هم المؤمنون.

كان للصليبيين بدون أدنى شك ميزة التفوق فى الهجوم، فعنصر المفاجأة واختيار الوقت والمكان الذى تركز فيه القوة الأساسية كان فى صالحهم. وهذا ما حدث فى الهجوم المفاجئ لجان دى بريان على دمياط.

أما الهجوم المضاد للجيش الأيوبى فكان بطيئا، فقد طلب سلطان مصر الذى تحمل عبء المعركة من أعضاء بيته وأشقائه وأبناء عمومته فى الشام والعراق مساعدته. إلا أن السلطة السياسية التى كانت للابن الأكبر تسببت فى بعض المشاكل. فقد كان يجب إقناع أمراء المقاطعات البعيدة بأهمية الانضمام للمعركة المشتركة. وكان من الواضح أن المسلمين فى البلاد الأخرى مثل إيران، وآسيا الوسطى ، والهند ... لم يكن يعنيهم الأمر.

كل هذا كان يتطلب وقتا ، والنجاح لم يكن مضمونا . وأثناء الانتظار كان على "الكامل" الصمود وتحمل عبء الهجوم وغزو دمياط منفردا .

ذعر فى معسكر المسلمين

فى معسكر الفرنجة بدأ يراودهم الإحساس بطول فترة الحملة، ورغم أن النجاح الذى أحرزوه كان مشجعا، إلا أنه لم يكن نهائيا أوحاسما. وبالرغم من ضياع برج السلسلة، إلا أن سكان دمياط كانوا يسخرون من خلف الأسوار.

وكانت المؤن تأتيهم بانتظام من الفرع الأيمن للنيل، فى حين كان اتساع النهر فى هذا المكان يفصل بينهم وبين الجزيرة التى وضع الفرنجة أيديهم عليها. وظلت أبواب المدينة مفتوحة، ولم يشعر السكان إلا بضيق بسيط لوجود هؤلاء الرجال المسلحين حولهم.

وكان السلطان قد وعد البدو بقطعة ذهب عن كل رأس من الفرنجة يأتونه بها، فكانوا يدورون حول المعسكر المسيحى كدبابير النحل. وفى الليل يتسللون إليه للسلب وقتل الجنود العزل، مما حرم على الجميع النوم. ومرت شهور على هذا الحال بدون إحراز نتيجة ملحوظة.

كانت آلام الحرب على هذا الوضع تتساوى فى كلا المعسكرين.

وفى نهاية فصل الصيف اعتبر الألمان أنهم باستيلائهم على برج السلسلة قد أدوا واجبهم، فرحلوا. وتم إحلالهم بحوالى عشرين ألف رجل من الصليبيين الرومان، الذين قام البابا بتمويلهم. ثم جاء بعد ذلك عدد من نبلاء إنجلترا، منهم راندولف كونت شيستر وأوليفييه الابن الشرعى للملك جون (يوحنا) المعروف بلقب المفلس (الذى لا أرض له)، وقد وصلوا قبل وصول الصليبيين الفرنسيين الذين كان من بينهم أسقف بوردو، وقساوسة باريس، وتلاهم أنجيه، ولاون، وميلون دوبوفيه. وفى سبتمبر ١٢١٨، بعد شهر من الاستيلاء على برج السلسلة ووفاة "العادل" وصل إلى دمياط ممثل

الكاردينال الإسبانى (أوالبرتغالى) بيلاجيوجلفانى، أسقف ألبانو. وطالب باسم الكنيسة استرداد قيادة الحملة الصليبية بصفته ممثلا للكاردينال، أما جان دى بريان فلم يكن سوى ملك للمهور. وكان أقصى ما هومفروض أن يعهد إليه، هواسترداد القيادة من بارونات الشام، أما قيادة باقى القوات والصليبيين الأوروبيين فكان يجب أن تخضع لبيلاج ، ذلك حق له. لذلك قام باسم البابا، بحجز الأراضى المصرية التى كانوا واثقين أنهم على وشك الاستيلاء عليها لسيده. وكان بيلاج ذا شخصية قوية قاسية، محبا للترف والبذخ، وقحا وسفيها، وكان يقول عن نفسه أن البابا قد خوله جميع سلطاته، وكان يحب ارتداء اللون الأحمر من رأسه إلى أخمص قدميه ، وحتى سرج حصانه كان من اللون الأحمر أيضا!... هذا الرجل الغليظ والعنيد كان يفكر فى الوقوف ضد جان دى بريان الابن المطيع للكنيسة فى روما.

ونتيجة لهذا الصراع، لم يكن هناك قيادة واحدة وفعالة للجيش معترف بها من الجميع، ولم يعد الصليب كافيا لوضع حد للطموحات الشخصية للقادة ، أو الاهتمامات التجارية للمدن الإيطالية المتنافسة. وبالنسبة لجان دى بريان فقد كانت حملة دمياط عبارة عن حملة عسكرية الهدف منها إحياء المملكة اللاتينية فى أورشليم القدس، وكان رد الكاردينال على ذلك بأن الحملات الصليبية ليست تحت إشراف ملك أورشليم القدس ، ولكنها تقع تحت إشراف الكنيسة، وأن هدف الحملة أكبر من إحياء المملكة اللاتينية فيها.

وطالت الحرب وتعددت نتائجها، وفى أثنائها كانت إحدى السفن العملاقة التى كان الفرنجة يضعون عليها آمالا كبيرة، والتى كانت مغطاة بألواح من الحديد لمقاومة النار الإغريقية، قد واجهت عاصفة شديدة وغرقت على الشاطئ. ولزيادة الكارثة ولسوء الحظ وقعت فى أيدى المصريين.

وفى أكتوبر ١٢١٨، حاول "الكامل" أخذ المبادرة وعبر بجنوده النهر ليفاجئوا المعسكر المسيحى ، ولكن الهجوم فشل. وقد حاول أسقف عكا، جاك دى ڤيترى، بدوره عبور الضفة المقابلة ليصل إلى دمياط ، ولكنه فشل كذلك، وجاء الشتاء، وأبطأت العمليات. وغمرت الأمطار الغزيرة المعسكرات وانتشرت الأوبئة بين المقاتلين.

حاول " الكامل " حماية مؤخرة جيشه بالسيطرة على الأقلية المسيحية، الملكانيين والأقباط، بالرغم أن هؤلاء لم يعطوه أى سبب للشك فى ولائهم. وطبقا للتقاليد، فإن السلاطين الأيوبيين كانوا يعتبرون اليهود والمسيحيين مواطنين أوفياء ويستحقون الثقة. ألم يساعد الأقباط العرب المسلمين فى غزو بابليون ضد المسيحيين والبيزنطيين؟ ، وألم يحارب اليهود بشجاعة، والسلاح فى أيديهم، بجانب المسلمين للدفاع عن أورشليم القدس ضد الفرنجة الملاعين؟ . عموما كان الصليبيون أنفسهم يفرقون بصعوبة بين المصريين المسلمين والمسيحيين واليهود. ورغم ذلك بدأ " الكامل " يفرض ضرائب مادية على الملكانيين والأقباط رغم أنهم كانوا معفيين من الخدمة العسكرية.ثم بدأ فى وضع ختم لإغلاق كنيسة الملكانيين المقدسة فى القاهرة القديمة. وفى الإسكندرية تم هدم كنيسة سان مارك بحجة أنها مبنية فى موقع يمكن منه السيطرة على مدخل الميناء. أما الأقباط وكانوا بضعة آلاف فلم يكونوا على دراية بكيفية مقاومة الجماهير فى حالة الغزوالفرنجى، وفضلوا من باب الحذر الهجرة إلى الجنوب، أى إلى إثيوبيا التى كان يحكمها ملك مسيحى ، مما عزز من عدم ثقة السلطان بهم. خاصة وأنهم علموا فى القاهرة أن بابا روما أرسل كتابا إلى من يسمى "القسيس جان" أونجاشى الحبشة يحضه فيه على غزومصر من الجنوب ، بينما يهاجمها الصليبيون من الشمال. وفى آخر الأمر اضطر اليهود والمسيحيون إلى رهن كل ما هوثمين لدفع الضرائب الاستثنائية التى فرضت عليهم.

ثم حدث شىء آخر تسبب فى تصاعد التوتر فى المعسكر الإسلامى. ففى نهاية فصل الشتاء، فى مارس ١٢١٩، وصلت أنباء بأن السلطان " المعظم "، شقيق " الكامل " وعظيم الشام قرر هدم أسوار أورشليم القدس بالكامل، كما هدم أسوار القلاع الأخرى فى فلسطين. فعملا بنصائح والده "العادل"، وأمام خطر الفرنجة، تحولت أورشليم القدس إلى مدينة مفتوحة، وبالتالى ينتفى الداعى للدفاع عنها، وكان ذلك أفضل من المخاطرة برؤية المسيحيين وقد استولوا على المدينة واحتموا وراء أسوارها وأبراجها. فأبلغ أتباعه الأسباب التالية:

" نحن الشعوب الإسلامية أقوياء ولسنا ضعفاء. والشعوب الضعيفة هى التى تحتمى فى الأماكن المحصنة، يبنون الأسوار ويقيمون الأبراج لتعويض ضعفهم. انظروا

إلى الفرنجة: إذا كانت مدنهم غير محصنة، وإذا كانوا لم يشيدوا فى كل مفترق طرقا، وكل جبل قلاعا منيعة، لم يكن من الممكن صمودهم أمام قواتنا لمدة عام. إذًا ليست هناك حاجة لتحصين أورشليم القدس. سنستطيع الدفاع عنها ، وبالإضافة لذلك لن يستطيع الفرنجة أخذنا على غرة أو خيانة وهى مغلقة، مما يضطرنا لحصارها طويلا لاستعادتها. إذًا لا يوجد ما نخشاه ".

هذه الاعتبارات لم تقنع أحدا. فهذا المثال لم يكن خاليًا من حس سياسى.أورشليم القدس مدينة مفتوحة، غير محصنة، وبدون أسوار يمكن للحجاج القادمين من الغرب زيارتها بحرية، ألم يكن هذا هوسبب التورط الصليبى ؟ إذًا من يستطيع التظاهر بأن هناك أية قيود لمن يهب نفسه لخدمة الله فى المدينة المقدسة؟ .

وكانت أورشليم القدس قد تمت زيادة تحصينها بعد الاستيلاء عليها من الفرنجة، بناء على أوامر وإشراف صلاح الدين. وهذا لقى قبولا من الرأى العام الشعبى الإسلامى . وقد كتب "عماد الدين" فى رسالة:

" هذا العمل تم بناء على أوامر الله ... لحماية أماكنه المقدسة ... أمنيتنا الوحيدة هى الحصول على رضا السماء والعفو عن خطايانا ".

كذلك عاهل الموصل كان قد أسرع فى حشد العمال لقطع الحجارة لإرسالها لبناء السور. وقد نظم "الساعاتى" قصيدة للسلطان يقول فيها:

" بدونك كان هذا المكان سيذرف دمعا ودما عندما تدق الأجراس وتدوى من جديد ساحات الكنائس..."

إلا أنه من بين المسلمين كان هناك من طفح به الكيل، وقد بدأ هذا داخل سكان أورشليم القدس نفسها. حيث اعتقدوا أن السلطان "المعظم" قرر التنازل عن المدينة للفرنجة. فتوجه الشعب كله، رجالا ونساء وأطفالا إلى ساحة المسجد الأقصى، وقصوا شعورهم كعلامة حداد ثم غادروا المدينة وهى فى حالة فوضى ، تاركين ممتلكاتهم بدون حماية. فقد كانوا واثقين بأن الفرنجة فى أثرهم ولن يتأخروا فى دخولها. وتوجه بعضهم إلى مصر، وآخرون لجأوا إلى قلعة كراك فى الأردن، وجموع أخرى ذهبوا إلى

دمشق. ومات الكثيرون فى الطريق إمّا من الجوع والعطش وإما كانوا ضحايا لقطاع الطرق من كل نوع. وكلهم لعنوا " المعظم ". ولكن أوامر السلطان نفذت، وتم هدم كل الأسوار وكذلك الأبراج باستثناء برج داود. وقد كتب القاضى الحنفى " مجد الدين "، قاضى جبل تيبور يقول:

" مررت أمام مدينة القدس النبيلة وألقيت التحية عما بقى فيها من أبنية. وسالت دموع حارقة من عينى وأنا أتذكر أمجادنا الماضية. ها هو أحد البرابرة يريد محو واجهتها. يريد لمسها بيد غير طاهرة، يد كافر ومجرم. وأقول له: ليجف يمينك. احترم هذه المدينة لمن يريدون التأمل والصلاة فيها. إذا كانت الأرواح ممكن أن تقدم كفدية للمدينة، لوهبت لها روحى وسيفعل كل المسلمين مثلى".

أصيبت هيبة العائلة الأيوبية فى الصميم. فالدفاع الحذر الذى قام به "الكامل"أمام دمياط أفقده شعبيته بين ضباطه وخاصة الأكراد الذين كانوا يريدون إظهار مقدرتهم على القتال المتلاحم.

أما الكردى " المشطوب " أمير نابلس، والذى ينحدر من العائلة الأيوبية نفسها، وأكثر هؤلاء قوة وبأسا فقد دبر مؤامرة معتمدا على عناصر كردية تعتبر من أفضل الجنود، إلا إن " المشطوب " كان من قبيلة الحكارى الكردية، وهى قبيلة كانت تعيش منعزلة ومستقلة تقريبا، لذا كان نفوذه محدودا.

وبلغت " الكامل " فى الثكنات العسكرية أنباء مضللة عن هذه المؤامرة، فشعر بالقلق ولم يعد مطمئنا فى العادلية حيث كان يقيم. وفى ليلة ٤ أوه فبراير، غادر المعسكر سرا ولجأ إلى أشمون طناح، فى جنوب الدلتا.

وعندما استيقظ الجنود لم يجدوا السلطان الذى تركهم بدون أى معلومات أوتعليمات إلى ضباطه، فانتابهم القلق بسبب هذا السفر غير المفهوم، فهربوا من معسكرهم وأرادوا اللحاق به بعد أن قيل لهم إنه فى الجنوب.

كان الجيش قبل كل شىء جيش السلطان، وهوالذى يقوده حتى ساحة القتال ويضمن له التموين والرواتب، سواء كانوا ضباطا أو جنودا. وبدون السلطان لم يكن هناك جيش. وبدون أى توجيهات اتجه الجنود لا شعوريا إلى حيث يوجد السلطان.

ولم يكن هذا الوضع غريبا أوشاذا. وكان المثال الشهير على ذلك والذى أصاب المسيحيين والعالم الإسلامي بالذهول، وقتها هوما أصاب جيش فردريك بربروسا الألماني من هزيمة وتشتت فى سيلبس على الحدود الشمالية للشام. عندما سافر بربروسا للاشتراك فى الحرب الصليبية الثالثة والانضمام لفيليب أغسطس وريتشارد قلب الأسد فى حصار عكا، ثم غرق صدفة فى نهر سالف. فقد أفقد خبر وفاته المفاجئ عزيمة جيشه، الذى كان يحرز الانتصارات الواحدة تلو الأخرى. وقبل مفاجأة الهزيمة، وبعد الاستيلاء على قونيا الحصينة من قائدها، لم يعد هناك غير قطيع بدون قائد. وقد كتب المؤرخ "عماد الدين" يقول:

" هؤلاء الألمان الذين لم يكن هناك شك فى قدرتهم فقدوا شجاعتهم حتى أنهم استسلموا بدون إبداء أى مقاومة وكانوا يباعون فى سوق العبيد بأبخس الأثمان".

ولم يلتف حول ابن الإمبراطور، فردريك سوابيا، سوى بعض الضعفاء والمرضى، وقد استطاع فردريك فى أكتوبر ١١٩٠ الانضمام للصليبيين الفرنسيين والإنجليز فى حصار عكا.

تركت الجيوش الإسلامية معسكر العادلية فى الفجر. وفى منتصف النهار اكتشف البصاصون الفرنجة فى دهشة أنه لم يكن هناك أحد أمامهم. فعبروا النهر بدون مقاومة، ووجدوا المعسكر مهجورا بدون أى دفاعات وبه كمية كبيرة من الأسلحة والتموين. ولكن كان يجب عليهم التأكد من أن هذا ليس شركا ولكنه معجزة تقريبا. وبدأ أخيرا حصار دمياط. أما ما حدث لجيش الأعداء الذى كان بالأمس يواجههم فسوف يتم البحث عن هذا الأمر فى المستقبل.

استسلم السلطان " الكامل " بسهولة للخوف، فقد أثرت فيه خيانة " المشطوب " بشدة، حتى أنه فكر فى مغادرة مصر والذهاب لليمن. وهكذا وضع عرشه فى خطر بتخليه عن قواته بدون إحاطة أوأوامر. إلا أن الحظ وقف بجانبه هذه المرة. فبعد يومين من هروبه من معسكر العادلية، وصل أخوه الأصغر " المعظم " من دمشق على رأس تعزيزات قوية. وعندما علم بدسيسة " المشطوب " طلب " المعظم " رؤيته فورا وفى الليلة

نفسها. فقادوه إلى خيمة " المشطوب " الذى شعر بالفخر لهذه الزيارة المفاجئة فى منتصف الليل. وطلب منه " المعظم" مرافقته فى جولة بالخيول.

لم يكن لدى " المشطوب " الوقت لارتداء ملابسه، فامتطى جواده وهويرتدى ملابس خفيفة ورافق "المعظم" خارج المعسكر. وهناك أحاط بهما حرس السلطان. وتم نفى الضابط الكردى تحت الحراسة إلى الشام، وانتهت مؤامرة الثكنة بطريقة كوميدية.

وفى اليوم التالى سيطر أتباع السلطان على قوات الجيش، وتم إعادة تنظيمه وتعزيزه بالعناصر القادمة من الشام، وتوجهوا من جديد إلى الشمال وعسكروا فى فارسكور قريبا من معسكر العادلية القديم الذى كان يحتله الفرنجة. ووجد هؤلاء أنفسهم محاصرين من جديد بقوات السلطانين جنوبا والمدافعين عن دمياط شمالا. ولكن الدائرة حول مدينة دمياط كانت قد أغلقت وبدأ حصارها.

قام الجيشان المتصارعان بإرسال مبعوثين فى كل مكان لطلب تعزيزات، ومن مكان لآخر ظهرت المزايدات بشكل ملموس. فالأمر لم يكن يتعلق فقط بضربة يد مؤقتة من الفرنجة لمدينة على الساحل المصرى، بل كان التخطيط للضربة الحاسمة.

فرانسوا أسيس فى زيارة السلطان - ١٢١٩

فى خضم هذه الحرب الجنونية ، وبينما الجنود الفرنجة يضاعفون من هجماتهم ضد المدافعين عن دمياط ، وفى نهاية شهر يوليو ١٢١٩ ، وصل إلى معسكر المسيحيين أمام دمياط راهبان إيطاليان بائسان ، يرتديان ثيابا رثة قذرة وحفاة ، وباستجوابهما أفادا بأن أحدهما يدعى الأب فرنسوا (من بلدة) أسيس فى إيطاليا والآخر دى ريتى ، ويرغبان بواعز من إيمانهما فى نجدة الذين يتعذبون ويموتون فى سبيل المسيح ، كما يريدان إظهار الحق للمخالفين فى العقيدة وهدايتهم لاعتناق المسيحية، وبعد ما قيل لهما أن ما من أحد وجد طريقة أفضل من السيف لهداية هؤلاء المخالفين للعقيدة. ذهب الأب فرنسوا ودى ريتى لمقابلة جان دى بريان ملك أورشليم ، ولا أحد يعرف ما دار فى هذا اللقاء الأول. ولكن هناك بعض الظن بأن جان دى بريان قد تأثر كثيرا بهذه المقابلة. فبعد مضى خمسة عشر عاما من هذه الأحداث، وفى سن الخامسة والسبعين، وبعد عدد لا يحصى من المعارك والسلب والنهب بكل الطرق، ثم الزهد فى كل شىء فى الدنيا، تذكر جان دى بريان الراهبين اللذين قابلهما فى دمياط، وأراد أن يصبح راهبا فرنسيسكانيا أيضا. وعندما توفى فى عام ١٢٣٧، لم تكن مصادفة، أن يدفن فى كاتدرائية سان فرنسوا أسيس فى روما كذلك.

أما الكاردينال بيلاج، ممثل البابا، فقد رفض الاستماع إلى فرنسوا وزميله، وقال لهما:

"لن أعطى الإذن أو الأوامر بذهابكما إلى السلطان على الإطلاق ، لأننى لا أريد أن أرسلكما إلى موت محقق، كما يجب أن تعلما أنكما لن تعودا أحياء"

وبناء على ذلك، مكث " الأخوان " فى المعسكر المسيحى، حتى تم استدعاء، دى ريتى " المستنير" رفيق فرنسوا إلى الفاتيكان وكان دى ريتى أصلا من روكا أكرينا وهى بلاد قريبة من أسيس وكان فرنسوا قد شفاه بمعجزة من مرض العمى الذى ولد به والذى كان سببا فى إطلاق لقب " المستنير " عليه ولأنه كان قد زار الشرق قبل ذلك فقد اختاره الفاتيكان كأفضل مترجم لمرافقة فرنسوا عند مقابلته سلطان مصر.

وجد فرنسوا ورفيقه الصليبيين يهاجمون بجسارة أسوار الأعداء ، وشاهدا الموتى يتضاعفون ويدفنون ، وقد حاولا مساعدة الجرحى وإراحتهم ، كما شاهدا المسلمين يدافعون ثم يهاجمون بشجاعة مساوية للمسيحيين ، ويموتون وهم يصيحون بإيمانهم بلغة لا يفهمها أحد. وحاول الراهبان إقناع المسيحيين ، بوقف هذه المهزلة فالمسيح كان الحب ولم يكن ليحمل السيف أبدا. ولكن هذا كان جهدا ضائعا!...

و ما أثار شفقة فرنسوا أكثر من ذلك هو بلا شك ما حدث فى ١٥ أغسطس ١٢١٩ ، وهو يوم عيد صعود العذراء ، ففى تلك الليلة، تم أسر ثمانية مسلمين حاولوا دخول دمياط. فى الصباح ، ولإرهاب الحامية قام الصليبيون بقطع آذان وأنوف وشفاه وأيدى الأسرى ، كما فقأوا إحدى أعينهم ، واقتيد أربعة منهم إلى معسكر المسلمين ، والأربعة الآخرون إلى دمياط. وعلى الجانب الآخر فعل المسلمون الذين شعروا بالإهانة الشىء نفسه فى أسير مسيحى وأرسلوه إلى معسكر الصليبيين. كل هذا تم باسم المسيح وبحضور الأسقف مبعوث البابا ، ولكن فرنسوا لم يستطع تقبل هذه الوحشية .

و حول دمياط وفى المعسكر المسيحى انتشرت إشاعات كثيرة صدقها الجميع ، حتى الأكثر جنونا من بينها ، فقد انتشرت إشاعة تعلن عن وصول " ملك أبيض من الغرب " (هل هو فردريك الثانى ؟) وكذلك عن وصول الملك داود أو الأب جان قادما من الهند لمساعدة المسيحيين فى الأخذ بالثأر من المسلمين المنتصرين. وفى أواخر أغسطس ١٢١٩، كانت هناك استعدادات لمعركة كبيرة. وفى الليلة السابقة للمعركة نصح فرنسوا الصليبيين بعدم خوضها، متنبئًا لهم بالهزيمة. وبالرغم من ذلك وقعت المعركة، ومنى الصليبيون فعلا بهزيمة منكرة. وأبيد أكثر من أربعة آلاف جندى ، وقد

أشفق فرنسوا على الجنود الذين دفعوا ثمنا غاليا لجرأتهم. وأصر مرة أخرى أمام مندوب البابا على الذهاب مع رفيقه لمقابلة السلطان. وأمام هذا الإصرار لم يتمكن بيلاج من الاستمرار في معارضته وقال لهما:

" لا أعلم ما في قلوبكما ولا ما هي نواياكما، ولكن إذا أردتما الذهاب، تأكدا من أن يكون قلبكما وروحكما متوجهين دائما إلى الله "

وأجابه فرنسوا :

" نذهب إلى السلطان المسلم بحسن نية، وهذا دافعنا لما نسعى إليه "

فقال الكاردينال:

" اذهبا إذن إذا كان ذلك يروق لكما، ولكن تذكرا أنني لم أرسلكما "

وكان من الواضح أن الكاردينال لم يفهم فرنسوا أسيس أو يصدقه.

وفي صباح أحد الأيام شوهد فرنسوا ودي ريتي وهما حفاة أمام بوابة الخروج في المعسكر المسيحي متجهين إلى معسكر المسلمين ، وحاول الحراس منعهما وتذكيرهما بأن رأس كل منهما لا تساوي بالنسبة لأي مسلم حفنة ذهب يعدهم بها السلطان وأن ما يقدمانه للمخالفين في العقيدة لا يعد من قبيل الرحمة في شيء. ولكن الراهبين لم يعنيا بالرد ، وشوهدا وهما يختفيان متجهين ناحية المسلمين.

لم يصدق الحراس المسلمون أعينهم وهم يرون اثنين من الغرباء يتجهان نحوهما، اثنين من الفرنجة يرتديان ملابس رثة وحفاة ومغطيان بالوحل وعزل من السلاح. هل يجب قتلهما ، أم أنهما يحملان رسالة من الجانب الآخر ، كان من الصعب تخيل اثنين من السفراء بملابس رثة كهذه ، ولكنهما كانا من الفرنجة الذين لا يجب أن تثير أفعالهم أي دهشة.

تردد الجنود وحاولوا فهم ما يريد هذان الراهبان. إلا أن ردودهما لم تكن مفهومة ، رغم أنهما ذكرا اسم السلطان " الكامل "، فما كان من الجنود إلا أن أوسعوهما ضربا ، ولكنها كانت مجازفة، فقرروا اصطحابهما إلى السلطان، وكان

السلطان جالسا فى الصباح تحت خيمته مع حاشيته ، ومحاطا بمستشاريه وضباطه ، ومن بينهم من كان يتكلم بلغة الفرنجة، فألقى الجنود بالراهبين تحت أقدام السلطان مستفسرين " هل يجب قطع رقبتهما ؟ "

سأل " الكامل " فرنسوا عن سبب حضورهما إليه وماذا يريدان. ووسط دهشة الجميع رد فرنسوا بكل بساطة أنه جاء يطلب من سلطان مصر ومن الجميع نبذ الخوف والاعتراف بالديانة المسيحية كحقيقة وحيدة، فقال له السلطان:

" مكتوب فى كتابكم المقدس أنه لا ينبغى رد الشر بالشر، ولا رفض احترام الرداء الذى تلبسونه فوق جلبابكم. ولكن لم يكن على المسيحيين المجىء إلينا للاستيلاء على أرضنا. ثم كيف نعرف الحقيقة؟ أنت راهب فى ديانتك. ولكن أئمة ديانتنا يقولون إن ديننا هو الحقيقة الوحيدة. نحن نعتقد فى إله واحد وأن محمدا رسوله"

فرد عليه فرنسوا بهدوء :

" عقيدتنا تجاوزت الحكمة. والحكمة لديها القوة التى تؤازر الاعتقاد بها. لا أستطيع تغيير البراهين المعتمدة على الكتابات المقدسة لأن حكماءك يرفضون الاعتراف بها. ولكن لإثبات حقيقة عقيدتى، أقترح عليك إشعال جمرة نار فى هذا المكان ، وعندما تشتعل النار جيدا ويعلو اللهب سأمر فوقها مع أشهر العلماء علما فى عقيدتك. وعندئذ سيقرر الله، وهو الحقيقة الوحيدة، من منا سيخرج حيا ".

فكر السلطان برهة، ثم انتبه لهمس من حوله، وقال لفرنسوا:

" صحيح إنه مكتوب فى كتابنا المقدس أن الله قادر على كل شىء، ولكن غير مسموح لنا أن نملى على الله ما يجب عمله وما لا يجب عمله، أن نقول له من يجب أن ينجو أو لا ينجو. الله وحده هو الذى يقرر أن يموت هذا أو ذاك من عباده ، حتى لو كان فى نظرنا لا يستحق الموت. الله ليس أقل عدلا فى ذلك. وهذا هو سبب رفضنا ما جاء فى عقيدتكم ، ما تطلقون عليه قضاء الله، وإذا تركتك تفعل ما تقترح ، وإذا متم جميعا محترقين ماذا سأقول لشعبى؟ هكذا أراد الله معاقبة المسيحيين المغرورين، وأيضا المسلمين الذين صدقوا سريعا ؟ ، سيثور شعبى لسذاجتى وسيكون معه الحق ".

فقال فرنسوا:

" إذا وعدتنى أن تتحول إلى المسيحية مع شعبك إذا خرجت حيا من النار ، إذن سأدخل وحدى إلى جمرة النار. وإذا حدث واحترقت، يمكنك إرجاع ذلك إلى خطاياى. ولكن إذا حمتنى رحمة الله، فى هذه الحالة يجب أن تعتقد فى فضيلة المسيح وحكمة الأب، والله هو منجى كل البشر ".

رفض السلطان هذا العرض الجديد، كما قال، اتقاء لثورة شعبه، وأضاف.

" لذلك طلبت إعطاءك كل ما يجدد قواك، وكساءك بملابس جديدة وحذاء ومنحك بعض الهدايا ، وكثيرا من المؤن للطريق، وسيكون لك الأمان حتى تصل إلى معسكرك ، ولن يتعرض لك أحد بالأذى. اذهب وارحل فى سلام، ولا تنسنى فى صلواتك واضرع إلى الله أن يهدينى، إنه الوحيد العظيم ".

ولكن فرنسوا وريتى رفضا كل ما عرضه عليهم السلطان من عطايا ورحلا.

وفى إحدى عظاته عن فرنسوا أسيس ذكر القديس بونافنتورا:

" إن قسوة السلطان الشديدة، كانت فى رفضه منح فرنسوا شرف الاستشهاد ".

(الموعظة رقم ٣ ، جزء ٩ ، صفحة ٥٨٣) .

أصبحت المناقشات التى دارت بين السلطان وفرنسوا أسيس علنية. وكانت هذه هى العادة فى البلاد الإسلامية ، حيث إن المناقشات الدينية بين الفقهاء الدينيين المسلمين والمسيحيين واليهود لم تكن نادرة. كما كانت الخلافات بين المسيحيين واليهود فى إسبانيا علنية أيضا.

و لذلك لم تكن المناقشة بين السلطان والأب فرنسوا على انفراد ، بل استمع إليها الجميع.

و لم يكن التعارض بين الإسلام والمسيحية جديدا. بل كان الجديد فى مبادرة فرنسوا أسيس أنها وقعت فى أثناء الحرب الصليبية والعداء بين المتحاربين على أشده. راهب يتحدث عن السلام ويحاول الإقناع بالكلمة وليس بالسيف، وفى الوقت نفسه

يموت المقاتلون كل يوم فى المعارك. كان هذا بالطبع هو الجديد. ونحن يمكننا أن نفهم أن رجلا مثل السلطان " الكامل " الذى كان يسعى دائما إلى الحوار والاتفاق ، بدلا من الحرب يحاول الاستماع. ولكن ليس هناك ما يشير إلى عدم تمسكه بصحة الرأى الإسلامية .

إن الإسلام بالنسبة للمسلمين دين [له] كتاب [القرآن] كالتوراة عند اليهود والإنجيل عند المسيحيين ، وقد ورد ذكرها فى القرآن، فهو دين التوحيد. والقرآن يؤكد بطريقة قاطعة وحدوية الخالق، ويرفض تماما فكرة الثالوث الذى يعتبره من أنواع تعدد الآلهة.

﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ﴾ (النساء / ٤٨)

الشىء نفسه عن فكرة تجسيد الألوهية للآدميين ، فهى غير مقبولة عند المسلمين. فالمسيح نبى، ومحمد آخر الأنبياء وأكرمهم عند الله، ولكنه ليس إلها. إنه رجل وفى الوقت نفسه هو قائد المجتمع المؤمن، ولهذا فقط اختار قبل وفاته خليفة له.

وفى الإسلام لا توجد مؤسسات رهبانية، ولا نظير لفرنسوا أسيس فى الإسلام. حيث لا يجوز للإنسان رجلا أو امرأة الهروب من العالم والانعزال عنه، فالعزوبية مصدر للخطيئة وليست للفضيلة ، والعلماء المسلمون المتخصصون فى دراسة الفقه الدينى هم مرشدون فقط ، ولا يتشبهون بالقساوسة ، وهم ليسوا وسطاء بين الخالق وعبده ، فليس لدى العالم الدينى أى سلطة لتوجيه أو حتى غفران الآثام التى ترتكب فى حق الخالق. فلا يوجد رجل دين مسلم بالمعنى نفسه فى المسيحية ، والخليفة ما هو إلا سلطة دنيوية لا يمكن مقارنتها بسلطة البابا.

إن كل الخلافات بين الديانتين معروفة جيدا. ولا يعتقد أحد أن المناقشات البسيطة تكفى لحلها كلها. فالنبى نفسه لم ينجح فى مناقشاته مع المسيحيين واليهود. فهما منطقان مختلفان، وعقيدتان متعارضتان متضاربتان. وكل منهما يبنى عقيدته على نصوص مقدسة بالنسبة له ، وعدوه ينكرها. فالأمر لا يتعلق بالإقناع أكثر منه نقلا للعقيدة. لقد وهب فرنسوا ورفيقه حياتهما للإقناع برسوخ عقيدتهما ، والسلطان يعلم أن المسلمين يموتون كل يوم لإثبات عقيدتهم.

و لكن المناقشة الحقيقية كانت فى مجال آخر. هل يستطيع فرنسوا وصديقه إقناع الصليبيين بالحوار والمفاوضة بدلا من القتال؟ كان فرنسوا يتمنى ذلك ولكنه لم يستطع.

وحاليا بدأ التشكيك فى صحة اللقاء بين القديس فرنسوا أسيس والسلطان " الكامل " فالوثيقة العربية الوحيدة التى تشير إلى هذا الحدث هى النص الذى وجده لويس ماسينيون فى القاهرة فى ديسمبر عام ١٩٥١؛ هذا النص للكاتب ابن الزيات من القرن الخامس عشر ، وفيه يتحدث عن طبيب صوفى هو المرشد الروحى للسلطان " الكامل " ويدعى " فخر الدين محمد إبراهيم الفارسى "، المتوفى عام ١٢٢٤ (٦٢٢ هجرية) ويقول ابن الزيات إن على قبر هذا الصوفى فى مقابر القرافة بالقرب من القاهرة، نصباً تذكارياً مدوناً عليه الآتى:

" استشاره السلطان بخصوص الموضوع المعروف الخاص بالراهب الشهير ".

هذا النصب التذكارى فسره الفرنسيسكان بأنه يخص اللقاء بين القديس فرنسوا والسلطان " الكامل "، وإذا كانت حقيقة اللقاء معترفا بها على وجه العموم، فالتفاصيل وخاصة إثبات موضوع النار الذى اقترحه فرنسوا أسيس لم يكن عليها إجماع. والواقع أن مغزى هذه المهمة العجيبة وتفاصيل رحلة الراهبين إلى مصر وإقامتهما فى معسكر المسيحيين ثم معسكر المسلمين، تختلف بشكل ملموس حسب المصادر الكهنوتية التى تتحدث عن القديس فرنسوا أسيس.

ومن ضمن المصادر الخارجية لهذه الرواية كانت الشهادة الأولى لأسقف عكا جاك دى فيترى ، الذى أكد رؤية فرنسوا أسيس شخصيا فى معسكر دمياط قبل لقائه مع السلطان عام ١٢١٩ ، وقال إنه فور وصوله مدفوعا بحماس لا يقاوم أراد فرنسوا استكمال رحلته ومقابلة السلطان شخصيا. ولقد استمع السلطان إلى ما أراد فرنسوا أن يقوله عن عقيدته ويضيف جاك دى فيترى أن الراهبين تم استقبالهما بترحاب من قبل المسلمين طوال الوقت، ولكن ما إن بدءا فى التهجم على الرسول صلى الله عليه وسلم حتى بدأوا فى تعذيبهما فى الحال.

وبعد موت فرنسوا عام ١٢٢٦ قص مؤرخ آخر للصليبيين المناقشات نفسها التى دارت مع السلطان، وذكر أن فرنسوا قال للسلطان:

" حضرت من طرف الرب كمسئول عن روحك، وسأثبت لك بأسباب مقنعة أن قانونك لا يعنى شيئا، وإذا لم أستطع ذلك اقطع رقبتى ".

أما بالنسبة للفرنسيسكان فإن اللقاء مع الإسلام لا يفهم إلا من خلال إطار مصير القديس نفسه. وكان توماس دى سيلانو، أول الفرنسيسكان الذين كتبوا عن القديس فرنسوا أسيس عام ١٢٢٨، أى بعد عامين من وفاته. وبأمر من البابا كتب "حياته الأولى " وتناولها مرة أخرى فى عام ١٢٤٦ فى "الحياة الثانية". وقال إن اللقاء مع الإسلام كان يفهم منه رغبة فرنسوا فى الاستشهاد بعد حديثه مع السلطان. فالاستشهاد كان أقصر الطرق للقاء المسيح. وكان فرنسوا قد نجا ثلاث مرات من الموت شهيدا ، وفى لقائه مع السلطان فى دمياط، نجا للمرة الرابعة، وأعيد إلى معسكر المسيحيين.

وقد اعتقد فرنسوا أنه عندما وصل إلى معسكر الجنود المسلمين، وهو موسع ضربا من الحرس، أنه على الطريق الصحيح للاستشهاد. فتحمل العذاب بصلابة. وعندما مثل أمام السلطان، عرض عقيدة المسيح بدون خوف، واستمع له السلطان بانتباه، ولكن ماذا دار فعلا فى هذا اللقاء؟ لم يذكر توماس أيا من هذه المناقشات ، ولكن محاولة البحث عن الشهادة فى الموت باءت بالفشل، فقد اقتيد فرنسوا وزميله إلى معسكر المسيحيين سالمين وباحترام.

ولكن فرنسوا لم يفقد الرغبة فى الاستشهاد ، حتى فى معسكر المسيحيين، فقد كان يريد إيقاف الحرب، إلا إنهم عاملوه كمجنون. ولم يذكر توماس دى سيلانو أن فرنسوا أدان الحروب الصليبية، ولكنه قال إنه حذر القادة الصليبيين. فالحرب لا تكون مقدسة إلا إذا كانت مدفوعة بروح الله ، وليس بالغطرسة التى لا تعتد إلا بقوة السلاح.

ومع ذلك فمن الواضح أن القصة الأكثر ميلا للحقيقة هى الخاصة بالقديس بونافنتورا التى استمع إليها بالتفصيل من الأب دى ريتى الشاهد المسيحى الوحيد

على الحدث نفسه. القديس بونافنتورا كان قائدا للكهنوت الفرنسيسكان منذ عام ١٢٥٧ وحتى عام ١٢٧٤ ، وتبدأ قصته بالبحث عن معنى الاستشهاد، فمعنى التضحية لم يكن له المعنى نفسه فى هذا الوقت. وفرنسوا كان مثل المسيح، فقد وافق أن يموت من أجل الذين عذبوه. فإذا قتله المسلمون فلن يقل جدارة أو حبا عند الله لأن الله يحبهم أيضا بصفتهم بشراً. وهنا أعطى القديس بونافنتورا صورة جديدة للقاء.

فبعد أن ضرب الحراس فرنسوا ودى ريتى، مثلا أمام السلطان الذى طلب منهما خطاب اعتمادهما. وأجاب فرنسوا بأنه ليس له علاقة بالصليبيين، وأن الذى أرسله ليس رجلا بل الله نفسه ليحمل للسلطان البشرى السعيدة بالحقيقة الجديدة. مما يعنى أن فرنسوا يبشر بالثالوث والمسيح المنقذ. ولا يستطيع أحد أن يعارضه. وقد طلب منه السلطان الذى تأثر بهذا الورع أن يبقى بجانبه، وحينئذ ألقى فرنسوا بتحديه:

" إذا أردت أنت وشعبك الإيمان بالمسيح، ففى هذه الحالة سأظل بجانبك، بقلبى وحبى للمسيح. ولكن إذا كنت ما زلت مترددا فى إنكار عقيدة محمد. إذاً أشعل جمرة نار، وسوف أدخل فيها مع رجال الدين الذين يحيطون بك، وبذلك ترى ما هى العقيدة الأكثر تقديسا والأكثر ثباتا (*) .

و أمام تردد السلطان ازداد فرنسوا فى تحديه :

" عدنى أن تدخل المسيحية وأيضا شعبك : وسوف أدخل النار وحدى وسوف أخرج سليما. وإذا احترقت لن يكون ذلك إلا نتيجة لخطاياى ".

ومن جديد رفض السلطان هذه الفكرة خشية حدوث ثورة شعبية. ولكنه عرض عليه الهدايا التى رفضها فرنسوا. فعرض عليه قبول إعانة مالية لفقراء المسيحيين والكنائس. ورفضها فرنسوا بقوة من جديد. ثم استأذن من السلطان بعد أن رفض

(*) هذه الروايات الأسطورية جميعا تتم عن جهل رهيب من جانب صفوة أوروبا فى عصور الظلام ومحاكم التفتيش، فهم لا يعرفون شيئا عن حضارة الشرق الإسلامى وعطاء القاهرة ودمشق وبغداد وسماحة الإسلام، والأعجب أنهم كانوا ينظرون أيضا إلى المسيحية الشرقية على أنها هرطقات يجب القضاء عليها.

هذا الأخير إعطاءه فرصة للاستشهاد ، وعجز هو من جانبه عن عمل شيء لإدخال هذا الشعب للمسيحية ورحل.

وهكذا انتهت ما أطلق عليها البعثة الأولى. وكانت فكرة قيام راهبين بالتبشير بالمسيحية عن طريق الإقناع وليس بالسيف فكرة جديدة تماما فى هذا العصر، وكانت هذه أولى تطبيقاتها العملية.

كان فرنسوا أسيس" الفقير الصغير " ينحدر من أسرة غنية. فوالده كان تاجر أقمشة. وقد ذكر أنه عندما كان شابا سمع " المسيح " يطلب منه أن يتخلى عن كل شيء لإعادة بناء الكنيسة. وفى مدينة التجارة، وأمام نظرائه المكتسين بالذهب والممتلئين بالزهو، خلع ملابسه علامة للإذعان، وارتدى رداء الرهبان. ولم يكن فرنسوا أسيس قسيسا، ولكنه وعظ بالإنجيل، وارتبط بالطبيعة، وكلم العصافير. فقد أقسم أن يصبح فقيرا كالمسيح. وقد عاد من مصر بمرض فى عينيه أصابه بالعمى.

وإذا كانت الأسطورة تتعرض لتاريخ زيارته لمصر، فإن هذه الزيارة هى التى أثرت فى فرنسوا أسيس بعمق. فقد استطاع أن يرى بعينيه الحقيقة الوحشية لحرب قيل إنها مقدسة. ولم يظهر مصطلح الصليبية فى كتاباته. ولكنه رفض أن يكون إخوانه مبشرين بالصليبية ، طالما هو على قيد الحياة. فلن يشعر بأى حال بأنه أفضل من الكفار. ولن يستخدم أى كلمة نابية عن الإسلام. فقد تأثر بخشوع المسلمين أثناء أدائهم الصلاة، ولذلك سيحث إخوانه على فعل الشيء نفسه، وكان هذا نادرا فى هذا العصر!... كما أنه لم يرغب أيضا فى أن يصبح راهبا عسكريا. وفى عام ١٢١٧، عندما بدأت الحرب الصليبية، منع إخوانه من مغادرة البلاد للحرب، وكان قد حصل من البابا هونوريوس الثالث عام ١٢١٦ على غفران الحج بدون مقابل للحجاج الفقراء للذهاب إلى الأراضى المقدسة بدون سلاح، وهى ميزة تجعلهم مساوين للصليبيين. أما من وجهة نظر الأسياد الذين تملكتهم الغيرة من هذه الميزة فقد كانت كارثة!... ولكن كان يجب للقيام بذلك الحصول على إذن من البابا .

كانت حياة فرنسوا أسيس مختلفة عن رهبان الحروب الصليبية. فالقديس فرنسوا ليس هو القديس برنارد دى كليرفوه مؤسس فرسان المعبد. وكان يعتقد أنه إذا مات

عند السلطان، فإن المسلمين سوف يتحدثون عنه أكثر من المسيحيين. فاستشهاده سوف يصبح الضمير المخالف لكل ما يدعى به ويفعله المتعصبون. وتاريخيا، من المؤكد أن نظرة فرنسوا أسيس للعالم الإسلامى كانت تختلف كثيرا عن أقرانه. فقد كان فرنسوا أسيس هو المعارض للحروب الصليبية .

بالنسبة للفرنسيسكان، لم يكن هناك شك فى أن وجود أثر جرح على جسده فى لافرنا عام ١٢٢٤، كان دليلا على أن الشهيد القديس فرنسوا قد وجد الاستشهاد الذى ذهب يبحث عنه فى مصر.

وكان من الواضح أن القديس فرنسوا أسيس هذا " المتيم جنونا فى محبة الرب " قد سبق عصره بدون شك. ولم يكن مفهوما سواء من البابا الذى استمر بالتبشير للحروب الصليبية ، أو من الرهبان الذين بالرغم من منعه لهم قطعيا بالذهاب لبلاد المسلمين، قد سبوا النبى محمداً وديانته وأوقعوا العديد من المذابح.

وكان لويس الرابع ملك فرنسا الذى تم تكريسه كقديس هو الآخر، قد اتخذ من فرنسوا مثلا له. وهذا الملك بالرغم من انتمائه إلى جماعة الثالوث المكونة من مجموعة من العلمانيين التابعين لروح الفرنسيسكان، إلا إن ذلك لم يمنعه من الذهاب إلى مصر كصليبى...

إلا إن الشهادة التى أدلى بها فرنسوا أسيس كانت فى غاية الأهمية . وبفضل مبادرته، حصلت الحرب الصليبية التى طالما كانت أمرا مسلما به وحقا لا نزاع فيه على إدانة واضحة. ومنذ ذلك الوقت ضاعت هيبة الصليبيين.

مات فرنسوا أسيس وتحولت حياته إلى أسطورة، وقد حافظ الفيوريتى على هذه الأسطورة. وفى الجزء رقم ٢٤ جعل فرنسوا سلطان مصر يعتنق المسيحية! ، كما ذكر أن تحدى النار لم يكن موجها للسلطان ، ولكن إلى عاهرة عربية حاولت إغراء القديس على البغى. هذه العاهرة التى شاهدته فى النار دون أن يحترق اعتنقت المسيحية بعد ذلك ، وبفضلها أنقذت أرواح كثيرة من المصريين باعتناقهم المسيحية.

وفى روما توجد كاتدرائية ضخمة حيث الرخام ينافس الذهب والفضة، وقد شيدت لتكريم الشخص الذى قدسه الشعب قبل الكنيسة الرسمية. ولكن ترى هل سيعرف الأب فرنسوا ذلك؟ .

وفى فلورنسا، وبعد قرن تقريبا، رسم جيوتو فى القبة البردية لكنيسة سنتا جروس لوحة جدارية تمثل فرنسوا يقترح على السلطان دليل النار. وكان قد ورد ذكر للقصة نفسها قبل ذلك بخمسة وعشرين عاما فى أسيس على لوحة جدارية فى الكنيسة الأم.

أما دانتى فى الترتيل رقم ١١ فقد خلد حب فرنسوا للاستشهاد بصورة للقديس فى الجنة.

وبعد كل هذا، أصبح اعتراض فرنسوا على الحروب الصليبية وعلى كنيسة روما، كما كانت فى عهده، فى طى النسيان .

دمياط أو أورشليم

وصلت التعزيزات للجانبين، تعزيزات لجيوش السلطان " الكامل " من شقيقه الأصغر " المعظم " بالإضافة إلى جيوش أخرى من دمشق، وتعزيزات لجيوش الفرنجة تأتى يوميا من أماكن غير معروفة، وكان قائد جيوش قبرص جوتييه دى سيزار قد وصل على رأس مائة فارس، كما جاءت مجموعة من البارونات الفرنسيين المشهورين، الذين كانوا قد أثبتوا جدارتهم فى موقعة بوفين مع الملك فيليب أغسطس خلال عيد الفصح عام ١٢١٩ وواجه جان دارسى وجوتييه دى نمور فى دمياط حربا تختلف عن تلك التى واجهها الفرسان الألمان ، حيث كانت الشواطئ حول دمياط ضيقة بالنسبة لهذا العدد ، وكان الكامل يعلم من خلال تجاره الذين يبيعون اللحوم والخضروات والفاكهة بأسعار مرتفعة، أن هناك صعوبة فى التموين ، ومشاكل نقود تسبب قلقا لجان دى بريان ومستشاريه. بالإضافة إلى المنافسة المشتعلة بين جنود من مدن مختلفة فرضت عليهم الظروف أن يقيموا معا فى أماكن متفرقة ، مما استوجب عليهم وضع صليب بألوان مختلفة للتعرف عليهم.

وفى خلال مناقشة بين الشقيقين " الكامل " و" المعظم " تم طرح اقتراح للسلام. وكان والدهما "العادل" قد أعطاهم النصيحة التالية" يمكن التنازل عن الأشياء الثانوية من أجل الحصول على الأشياء الأساسية." ماذا يعنى ذلك فى هذه الحرب؟ . من الواضح أن الفرنجة كانوا يريدون أن يكون لهم جذور فى مصر لإضعاف قوة الأيوبيين، حيث أن ولاة مصر كانوا يسيطرون على موانئ البحر الأحمر ، ومن خلالها على تجارة الشرق الأقصى. أما الفرنجة فسوف يهددون المدن المقدسة للمسلمين، مكة والمدينة، ألم يعلن رينو دى شاتيون مولى حصن الكرك فى مؤاب فى الأردن – الذى كان صلاح الدين قد أفسد مكائده – عن حملة تدنيس ليستولى على هاتين المدينتين

المقدستين ، ويدكهما دكا ويبعثر ما فيهما من رماد الرسول إلى الأبد؟ وكذلك المغول بقيادة جنكيز خان، الذى اعتبر كارثة الله على الأرض، يشكلان أيضا تهديدا جديدا.

ألا نخاطر بتواجدهم على أبواب بغداد أو من يعلم، دمشق؟ ، هل يمكن أن يهددنا الفرنجة إلى الأبد ، وأن نواجه مثل هذا الوعيد ؟ .الخطر ليس فقط على مصر ولكنه كبير بالنسبة لكل المسلمين.

ولكن ماذا كان يريد الفرنجة؟ ، لماذا جاءوا من بلاد بعيدة مع ملوكهم وفرسانهم ليحاربونا ، ونحن لا نعرف شيئا عن بلادهم؟ ، فليس لدينا حدود مشتركة معهم....إنهم يقولون إنهم يريدون القدس، وبعض ضيعات لا تشكل أهمية فى بيت لحم والناصرة ، وذلك لعبادة ما يعتبرونه إلها. وهنا اقترح "المعظم" منحهما الأراضى التى غزاها "صلاح الدين". ولكن هل سيكون ذلك كافيا لتحقيق السلام؟ إذا أعدنا لهم ما جاءوا من أجله من البلاد البعيدة ، فهل سنحصل أخيرا على السلام ؟ وفى سبيل ذلك عرض الكامل على شقيقه تعويضه بأراض أخرى إذا ما تنازل عن جزء من الأراضى التى يسيطر عليها، ووافق المعظم على هذا العرض ، وقرر الشقيقان مخاطبة جان دى بريان لإيفاد سفراء معتمدين ومفوضين للتفاوض معهم على شروط السلام. وجاء الرد يحمله فارسان هما: أملين دى ريوتى، وجليوم دى جيبوليه (الأول من فرنسا والثانى من المهور) وكان يصاحبهما مترجم اسمه مختار (أطلق عليه الفرنسيون موشتار) كان مكلفا بالاستماع إلى اقتراحات السلطانين.

وحينئذ، قدم سلطان مصر، حفيد صلاح الدين، " الكامل أيوب " رسميا الاقتراح التالى فى حضور شقيقه "المعظم" سلطان الشام وفلسطين:

" إذا رفعتم الحصار عن دمياط وجلوتم عن مصر، سنعيد لكم كل ما استولى عليه صلاح الدين فى الضفة الغربية للأردن، أى القدس وكل الأماكن المقدسة الأخرى ، وهذا يعنى كل ما يشكل مملكتها وعاصمتها. وسنستثنى كرك مؤاب وكرك الشوباك (والتى يطلق عليها الفرنجة كرك ومونتريال) ، لأن هذه القلاع تتحكم فى الطريق الصحراوى لمكة. ونقترح عليكم معاهدة لمدة ثلاثين عاما حتى نحصل على السلام والرخاء ".

و قد تملكت الدهشة الفارسين المسيحيين أمام هذا الاقتراح. واقترح السلطانان أيضا أن يصحبهما فى العودة أميران لمعرفة رد الملك جان دى بريان والبارونات المسيحيين على هذا العرض الخاص بتسليم القدس للمسيحيين. ولكن أليست هذه خيانة بالنسبة للآخرين ؟ ألم يخشيا رد فعل عنيف من جيشهم أو شعبهم على هذا الاقتراح الجرىء؟

لقد قدمت القدس على أنها الهدف النهائى للجهاد فى الحرب المقدسة ضد الصليبيين. وكانت فى الوقت نفسه الهدف النهائى للجانب المسيحى أيضا. فإذا كان الفرسان قد حضروا من بلاد بعيدة، بعد أن تركوا نساءهم وأطفالهم وممتلكاتهم من أجل أن تصبح القدس مدينة مسيحية، فهذا يعنى أن القدس كانت الرهان الأساسى للمعركة، والعاصمة التى يجب الاستيلاء عليها والدفاع عنها. ومن هذه الحقيقة ينتفى الادعاء الخاص بالحروب الصليبية. وبعد الاستيلاء عليها أصبحت مقدسة فى أعين المسلمين كما كانت بالنسبة للمسيحيين، وكانت كذلك دائما ولكن بطريقة أكثر صوفية بالنسبة لليهود، أى أنها بالنسبة لكل هؤلاء لم تكن مسألة استيلاء. فكان يجب إذا على جميع المسلمين، الدفاع عنها بالضراوة نفسها التى حارب بها المسيحيون ، والاستيلاء عليها. وكانت قدسية المدينة بالنسبة للمسلمين تستند فى أساسها على وجود مسجدى قبة الصخرة والمسجد الأقصى، حيث إنه فى بداية الإسلام، عندما كان النبى فى مكة كانت القبلة الأولى تجاه القدس.

إن قبة الصخرة أكثر من مسجد ، فهى معبد مقام على جبل موريا ، ويرجع تاريخه لأول عقد فى الغزو الإسلامى للمدينة. وقد أسرى فيه بالنبى محمد ليلا ، وتحمل الصخرة علامة رجليه. وقد ذكرت رحلة الإسراء هذه فى القرآن وهى حجة المسلمين فى القدس. أما بالنسبة لليهود فهذه الصخرة نفسها تمثل المكان الذى كان على إبراهيم التضحية بابنه إسحاق فيه. كذلك كان المسجد الأقصى أيضا مقدسا، فقبل بناء قبة الصخرة بعدة سنوات كان مكانا للعبادة. حيث يمكن للآلاف من الأشخاص التجمع بين المكانين المقدسين فى نافورة القص للوضوء التى كان يتم تغذيتها من الصهاريج العديدة تحت الأرض من الربوة التى يقع عليها المعبد.

وطبقا للطقوس الإسلامية، فإن القدس هى إحدى المدن الثلاث الأولى على الأرض مع مكة والمدينة. وهى كذلك إحدى المدن الأربعة فى الجنة، والرابعة هى دمشق . وقد قال أبو هريرة أحد الشعراء العرب(*):

من بين كل المدن

اختار الله أربعًا مفضلات

مكة المدينة المفضلة

المدينة مدينة النخيل

دمشق مدينة التين

وأخيرا ، القدس مدينة شجر الزيتون

وقد كان شيوخ اليهود، الذين احترمهم الإسلام يسكنونها مثل يهويا الغازى، وسليمان الذى بنى المعبد. كما كان يسكنها المسيح ومريم. وفى القدس مات المسيح، ودفن وبعث. وفى القدس أيضا ، طبقا للتقاليد نفسها ، سوف يحدث البعث والموت والحساب الأخير، وستمر كل المخلوقات على الجسر المستقيم الممتد من جبل الزيتون إلى جبل المعبد.

وخلال احتلال المسيحيين للمدينة لم يكن يسمح لغير المسيحيين بالسكن فيها ، إلا أن هذه القاعدة لم تطبق بدقة منذ بدأ غزو المدينة وذلك لأسباب عملية. فكان هناك حى صغير لليهود وكان يمكن للمسلمين السكن فى المدينة ولكن سرا . وقد كتب الرحالة اليهودى الكبير، بنيامين دى توديل فى كتابه " كتاب الرحلات "، فى القرن الثالث عشر عن أورشليم الصليبية يقول:

" من هنا يوجد ثلاث طرق كل منها طوله ٥٢٥٠ كيلومترا تتجه جميعها إلى أورشليم القدس. المدينة صغيرة محصنة بثلاثة أسوار، سكانها عديدو ن منهم:

(*) أبو هريرة أحد الصحابة المشهورين برواية الحديث النبوى . (التحرير)

اليعقوبيون، والأرمن، واليونانيون، واليهود والفرنجة جنبا إلى جنب، يتكلمون كل اللغات المعروفة ، وكان حق ممارسة مهنة الصباغة مرتبطا بدفع رسوم معينة مرة فى العام. وهذه الميزة الفريدة كان يشتريها يهود أورشليم القدس من الملك وكان عددهم حوالى مائتى شخص، ويسكنون فى جزء من المدينة يقع أسفل برج داوود. وجزء من أساسات هذا البناء، ويبلغ حوالى اثنى عشر مترا، يعتبر عتيقًا جدا. أما الباقى فقد أضافه المسلمون. ولا تحتوى القدس على صرح محصن أفضل من برج داوود. وكانت تضم مستشفيين يعيش فيهما أربعمائة فارس وهما فى الوقت نفسه ملاذ للمرضى. وكل من يحتاج للعلاج بالإضافة إلى الاهتمام بجثث المتوفين منهم. وكانت الإسبتارية الثانى تسمى مستشفى سليمان ، لأنها تقع فى المبنى الذى كان قد بناه الملك سليمان. هذه المستشفى كانت تؤوى وترعى أربعمائة فارسٍ من الذين يصلون من بلاد الفرنجة ومن بلاد مسيحية أخرى. وكانوا دائما فى حالة استعداد للحرب فقد أقسموا يمين العمل فى المستشفى وهم مسلحون ، وذلك لمدة عام أو اثنين ، ثم بعد انتهاء المدة يعودون إلى بلادهم ".

وكان المكان الفسيح المعد للصلاة يطلق عليه الضريح المقدس ويستقبل الزوار من الحجاج.

ويوجد بالقدس أربع بوابات: بوابة إبراهيم، وبوابة داوود، وبوابة صهيون، وبوابة يوسافات. وهذه الأخيرة توجد فى مواجهة المعبد المقدس. هذا المكان يوجد به الآن صرح يسمى (قبة الصخرة) التى بناها الخليفة عمر بن الخطاب ، وهى قبة كبيرة وجميلة . ولم يمكن مسموحا لأحد بتصويرها أو رسم أى شىء بداخلها ، فقد كان المكان مخصصا للعبادة فقط.

وفى مواجهة هذه القبة يمكن أن نرى الحائط الشرقى وهو أحد الحوائط المكونة لقدس الأقداس فى المعبد القديم. ويسمى بوابة الرحمة ، حيث يقصده كل اليهود للصلاة بجانب الحائط.

وفى القدس أيضا يمكن أن نرى الإسطبلات التى بناها سليمان ، والتى تمثل جزءاً من منزله. وقد استخدمت فى بنائها صخور ضخمة الحجم لا يوجد مثيل لها فى أى مكان آخر.

كما يمكن اليوم أيضا رؤية بقايا القناة القديمة التى كانت تقدم فيها القرابين فى الزمان القديم. وكان اليهود يحبون كتابة أسمائهم على الحائط المتاخم.

وعند مغادرة بوابة يوسافات، يمكن أن نشاهد الدعائم ناحية المكان الذى مات فيه أيسالون، ومقبرة الملك أوزياس ، وكذلك منبع نهر سيدرون.و بجانب منبع سيلوى يوجد مبنى ضخم من أيام أجدادنا.

والقدس ينقصها الماء، لذلك يشرب الناس ماء المطر الذى يجمعونه فى المنازل.

والمدينة تحيطها الروابى ، وفوق جبل صهيون يوجد معابد منزل آل داوود والملوك الذين جاءوا من بعده...".

و عندما احتل صلاح الدين القدس، رفع الصليب الذى أقامه الصليبيون الأوائل من على قبة الصخرة. وحسب ما ذكره الكاتب المصرى "جمال الدين الشيال"، فإنه من الممكن أن يكون هذا الصليب هو الصليب الأصلى الذى وصفه المؤرخ" العماد" فى كتابه (الروضتين ، الجزء الثانى ، ٧٨) كما يلى:

" يقال إنه صنع من خشب الصليب الذى صلب عليه الذى يعبدونه، وكان مغطى بالذهب الأحمر ومرصعا بالحجارة الكريمة..".

ويبدو أنه كانت هناك بلبلة بين صليب قبة الصخرة وبقايا الصليب الحقيقى الذى حمله الصليبيون أمامهم فى معركة حطين، هذه البقايا التى وقعت فى أيدى قوات صلاح الدين.

وبعد احتلال القدس، أخرج صلاح الدين الفرنجة من المدينة المقدسة وسمح لهم بالعودة إلى مدنهم على الساحل. وشجع المسلمين والمسيحيين والملكيين واليهود على العودة والإقامة بالمدينة. ألم يقل النبى فى حديث: " الذى يسكن فى القدس يعتبر مقاتلا فى سبيل الله ؟[*] كما يحب الأئمة من جانبهم القول باستمرار " الموت فى القدس، هو تقريبا مثل الموت فى السماء ".

(*) لعله يشير إلى الحديث الذى رواه ابن عساكر ، وفيه « ستفتح على أمتى من بعدى الشام وشيكا ... فمن احتل ساحلا من تلك السواحل فهو فى جهاد ، ومن احتل بيت المقدس وما حوله فهو فى رباط » ، (وضعفه الألبانى) . (التحرير)

وفى رسالة شهيرة موجهة إلى ريتشارد قلب الأسد، كتب صلاح الدين، يقول:

"... إنه حتى إذا كان هو شخصيا على استعداد لإعادة المدينة كطلب الملك ريتشارد، إلا أن الملك لا يمكن أن يتخيل عواقب إمكانية الحديث عن التخلى عن المدينة... إننا لا نستطيع حتى مجرد النطق بهذه الكلمات أمام المسلمين" ؟.

ومما لاشك فيه أنه بعرض إعادة القدس إلى الفرنجة يكون الملوك الأيوبيون قد أداروا ظهورهم لما كان عنوان النصر لدى صلاح الدين محرر المدينة المقدسة القدس. إلا أنه من الواضح أن الأسباب التى دفعتهم إلى هذا الاقتراح هى الأسباب نفسها التى من أجلها كان العدو يبحث عن وسيلة لاحتلال مصر. لقد أطلقت الشعارات الرنانة عن القدس ، وحشدت الجيوش ، وتجمع رجال الدين والفقهاء من أجل القدس وقاتلوا جميعا ، وماتوا وهم يصيحون باسم القدس ، ورغم كل ذلك كان تفكير القادة ينحصر أولا فى مصر والقاهرة ، وإذا كان يجب الاختيار بين مصر والقدس فقد كان القرار فى صالح مصر أولا ، أما القدس فسوف يحصلون عليها فيما بعد.

وفور عودة السفراء إلى المعسكر المسيحى، اجتمع المجلس بكامل هيئته: بارونات الشام، والصليبيون الفرنسيون وفرسان المعبد ورهبان الإسبتارية والصليبيون القبارصة والإيطاليون والتجار من جنوة والبندقية، وكل من تضمنتهم البعثة من أشخاص بارزين ومستشارين أو ذوى نفوذ ، اجتمعوا جميعا حول جان دى بريان والكـــاردينال بيلاج، واستمعوا إلى اقتراحات السلطان قبل أن يدلى كل منهم برأيه.

وقد اقترح بارونات فرنسا ومن بعدهم أهل البلاد من الشام وفلسطين الهجوم على دمياط : "ألم نكن نهدف إلى الحصول على رهن للتفاوض معهم؟" ها هى القدس تقدم إلينا ، وحتى قبل أن نستولى على دمياط. وانضم جان دى بريان لهذا الاقتراح، ألم يأمره ملك فرنسا بإعادة غزو المملكة والاستيلاء على القدس والقضاء على ما استولى عليه صلاح الدين باستثناء الحصنين فى الصحراء كراك مؤاب ومونتريال؟ ، أليس هذا دليلا على نجاح مهمته ؟ ، بالإضافة إلى أنه سوف يجد فى دمياط مفاتيح عاصمة مملكته...مفاتيح أورشليم!

و عندما سئل الكاردينال بيلاج مبعوث البابا عن رأيه، اندفع يذكرهم بالطبيعة الماكرة للكفار ، وبما كتبه الراهب جيبرت دى نوجنت فى كتابه " أعمال الله على يد الفرنجة Gesta dei per francos :

"يمكن أن نذم من تكون طبيعته شريرة لأنها عادة تكون أسوأ مما يقال "

فالذين يريدون التفاوض مع الشر بدلا من محاربته ليسوا إلا كفرة. والعدو إذا عرض إعادة القدس فهذا يعنى أنه غير قادر على الدفاع عنها. ألم يكن هو نفسه الذى دمر أسوارها وبروجها ؟ فإذا أخذنا دمياط وسرنا تجاه بابليون، فإننا نعطى كل مصر للمسيح، وغدا، ربما نعطيه أكثر.

وهكذا طالب برفض اقتراحات السلطان ومعاودة الهجوم على دمياط فورا. أما فرسان المعبد ورهبان الإسبتارية وتجار جنوة وبيزا والبندقية الذين كانوا يعتبرون الحروب الصليبية منجم ذهب بالنسبة إليهم ، فإن معاهدة لمدة ثلاثين عاما تعنى كارثة فى مفهومهم، وفى خارج خيمة الاجتماع تصايحت أيضا مجموعة من الجنود الصغار الذين كان هؤلاء الملوك والقادة يريدون منعهم من الحصول على " فاكهة النصر " (السلب والنهب). هل ينبغى عليهم العودة لبلادهم بأيدٍ خاوية؟ ، فكانوا يهتفون فى كل مكان " خونة الهجوم على المسلمين ". وفى النهاية تغلب رأى سيد الحملة الصليبية، الكاردينال بيلاج. ورفض العرض ، وتم طرد الأميرين.

ولكن المبعوثين عادوا بعد عدة أيام وأضافوا إلى عرضهم الأول دفع جزية فى شكل ١٥٠٠٠ بيزا من الذهب تعطى للفرنجة.

ولكن فرسان المعبد كانوا فى طريقهم إلى معسكر المسلمين فى فارسكور على رأس جيش كبير.

كارثة الفرنجة فى فارسكور

ضيق رفض الفرنجة غير المتوقع للمفاوضات الخناق على السلطان، وكان " الكامل " قد وضع قواته على أهبة الاستعداد. كما تم دعم الاتصالات مع دمياط المحاصرة عن طريق الإشارات والحمام الزاجل. وكان سيف الباب العالى (السلطان) فلاحا يسمى شميل، يمتلك شجاعة نادرة ، وقد أرسى نظام اتصال خاصا به شخصيا. فكان يسبح فى منتصف النهر ويخترق حراس الأعداء ويدخل دمياط حاملا رسائل من السلطان للمحاصرين. ويعود بعد ذلك سابحا حاملا رسائل موجهة للسلطان. وقد أنعم عليه السلطان بلقب أمير ، ثم أسند إليه بعد ذلك قيادة حامية القاهرة.

وفى كل مرة كان الفرنجة يهاجمون فيها دمياط، كان جيش السلطان الذى يعسكر فى الجنوب يقوم بمهاجمة المعسكر المسيحى، وبذلك كان على جيش الفرنجة المحاربة فى جبهتين.

توجه الجنود إلى معسكر المسلمين فى هذه المرة، بهدف الهجوم عليه بعد أن تدربوا على يد رجال الدين والضباط، واتهموا الفرسان الذين نصحوهم بعدم ترك الأماكن الآمنة فى خنادق المعسكر بأنهم " خونة ". كان هذا يوم ٢٩ أغسطس ١٢١٩ والجو شديد الحرارة. إلا أنه فى كل مرة كان جنود الفرنجة يتدفقون للهجوم على المسلمين ، كان المسلمون يتراجعون ويسحبوهم إلى العمق فى داخل الأراضى، وفى نهاية اليوم وبعد إرهاقهم من هذا الركض غير المجدى، والجوع والعطش، ينسحب الجنود الفرنجة دون نظام، والجنود المسلمون يلاحقونهم.

وبدأ الجنود الإيطاليون المعسكرون على ضفة النهر فى الهرب. وكان هذا ما ينتظره الخيالة المسلمون. فاندفعوا يلقون بأنفسهم وسطهم يزرعون الموت بينهم. وكان فرسان المعبد فقط هم الذين التفوا حول جان دى بريان وباروناته الهاربين على عجل،

واستطاعوا تنظيم دفاع منظم ، ونجحوا فى تجنيب الجيش كارثة محققة. وعندما أسدل الليل أستاره كان أربعة آلاف جندى مسيحى يفترشون أرض المعركة ، ومن بينهم خمسون من فرسان المعبد و ٣٢ من فرسان الإسبتارية ، وكان قد تم أسر أو قتل قائدهم إيمار دى ليرون. إضافة إلى كثيرين من الفرسان النبلاء ، ومن بينهم الراهب بوفيه وميلون دى ننتوى وجوتييه لو شامبلون وجون دارسى رفيق فيليب أغسطس فى معركة بوفين.

ولم تكن اللهفة الشرسة للقادة في محاولتهم الحمقاء الهجوم على معسكر المسلمين بالشيء الغريب. فالذين تم تجنيدهم فى مقابل مرتبات هزيلة لا تكاد تكفيهم على المعيشة كانوا يحاربون على أمل اقتسام غنيمة كبيرة من الأعداء.و كانوا يجهلون الطرق الدبلوماسية والأساليب السياسية التى كانت غريبة بالنسبة لهم، لقد جاءوا ليحاربوا وينتصروا ويغتنوا . ففى خلال الحرب الصليبية الثالثة، وأثناء حصار عكا، ثار عشرة آلاف جندى ضد حكم باروناتهم بسبب نقص المؤن وارتموا فى أحضان معسكر صلاح الدين. وكانت هذه مفاجأة لجيش شقيقه " العادل " الذى أمر هؤلاء الجنود بالانسحاب وتركهم ينهبون كما يشاءون. وبينما الجنود ينهبون ويأكلون حتى الشبع حاصرهم الفرسان وقتلوا خمسة آلاف رجل فى ساعة. وأما نساء الفرنجة اللاتى اندفعن بسبب الجوع واشتركن معهم فقد تم بيعهن كجوارى.

وقد أمر السلطان " الكامل " بتزيين القاهرة احتفالا بالنصر فى فارسكور. واقتيد الأسرى فى شوارع المدينة وسط مشاعر الخوف من سخرية الأهالى التى عمتها الفرحة. وتم إلقاء الأسرى فى القلعة انتظارا لتحديد شروط إطلاق سراحهم ، سواء بفدية ذهب أو فضة ، أو مبادلتهم بأسرى فى أيدى المسيحيين. فقد كان الجو مهيئا لبدء هذه المساومات.

إلا أن السلطان " الكامل " لم يتنازل بسهولة عن أفكاره، فقد أمر بالإفراج عن أندريه دى ننتو يل شقيق الأسقف ، وأيضا جون داكريس وهو فارس فرنسى من النبلاء، وقدم لهم الطعام وملابس جديدة وكلفهم العودة إلى معسكر المسيحيين وتجديد العرض الذى سبق له تقديمه ؛ وهو سحب جنود الفرنجة من مصر مقابل تسليمهم

أورشليم وكل ما يمثل ممتلكات المملكة اللاتينية بها ، ما عدا القلعتين الواقعتين فى الضفة الغربية للأردن ، كما أنه سوف يسمح بإعادة بناء الحصون التى هدمت ، بما فيها أسوار أورشليم، وطبقا لما ذكره المؤرخون المسيحيون فإنه سيتحمل هو شخصيا تكلفة هذا البناء. وقد جاء على لسان بعض الكتاب أنه أضاف إلى عرضه إعادة أجزاء الصليب الأصلى الذى استولى عليه صلاح الدين. وقد أثارت هذه الاقتراحات النزاع فى المعسكر المسيحى ، ومرة أخرى اعترض الكاردينال بيلاج بشدة على جان دى بريان وصمم على أنه الوحيد الذى له حق قيادة الحملة الصليبية بصفته مبعوث البابا. كما أن الأراضى التى تم غزوها أو التى سوف يتم غزوها سوف تئول إليه بحكم القانون البابوى، وأكد أن الدليل على عدم جدية عرض السلطان هو القول بإعادة أجزاء الصليب الحقيقى. بينما فى حقيقة الأمر كان صلاح الدين قد بحث دون جدوى عن هذه الأجزاء التى كان من الواضح أنه بعد النصر يريد استبدال الأسرى المسلمين بها لتخليصهم من الموت على أيدى المسيحيين. وبعد النصر فى حطين ولتجنب إعادة هذه الأجزاء إلى أيدى المسيحيين، فإن المسلمين المتشددين كانوا قد قاموا بحرقها. لذلك كان رد الكاردينال بيلاج على رسولى السلطان أنه لا يوجد ما يتم التفاوض عليه ، وطلب منهم عدم العودة مرة أخرى.

ولم يكن بد من أن تستمر الحرب !.

الاستيلاء على دمياط - ١٢١٩

بالرغم من النصر فى فارسكور، كان السلطان " الكامل " يعلم أن الوضع فى دمياط المحاصرة والتى قطعت عنها الإمدادات منذ عدة أشهر كان ميئوسا منه. وكان يأمل فى إمكانية التفاوض والانتهاء إلى حل قبل سقوط المدينة التى سوف يزيد استسلامها من مطامع الفرنجة. ولكن لم تكن هناك أى مفاوضات جادة تلوح فى الأفق.

وقد ألف كاتب مجهول فى القرن الثالث عشر كتاب " قصة حصار دمياط " الذى يعتبر شاهدا حيا على الأجواء التى كانت تخيم حول المدينة المحاصرة فى ذلك الوقت.

ففى ١٣ يوليو ١٢١٩ هوجمت المدينة بمعدات الحصار المتعددة، ففى فجر هذا اليوم شاهد الفلاحون سلما مرفوعا على أحد أبراج المدينة ، إشارة إلى أن هناك محاولة للصعود من جانب الفرنجة، إلا أنها واجهت مقاومة من المحاصرين الذين كانوا يلقون جمرات النار الإغريقية وشعلات كبريتية على كل من يحاول الصعود ، حتى احترق السلم واضطر الفرنجة للنزول بعد أن كبدهم المحاصرون خسائر فى الأرواح. وقد بكى المسيحيون الذين شاهدوا هذه المحاولات وكانوا يصلون لله. وجاء الدور على جنود جنوة الذين نجحوا فى الوصول إلى أعلى البرج ، واستمرت المعركة حتى الليل. وكان المسلمون يدافعون بحماس ، واستطاعوا حرق السلالم ، مما اضطر المسيحيين إلى استخدام الخل والنبيذ لإخماد النار. وعندما وجد المسيحيون أن سير المعركة ليس فى صالحهم ركعوا وهم يبكون ويصلون قائلين:

" سيدنا المسيح، ملك النصر، أنت القادر على كل شىء، تعال لنجدة خدامك، وخررنا من هذه النار ومن أيدى هؤلاء المسلمين الظلمة، قدرتك المقدسة، خالق السماء الملك الأبدى.

آمين !

وكان دائما ما تتلى الصلاة التالية فى المعسكر:

"سيدنا، المسيح الذى اتخذ هيئة الإنسان، والذى عانى من الحب والموت والذى عاد من الموت فى اليوم الثالث وبعد ٤٠ يوما صعد إلى السماء، لا تنظر إلى خطايانا وأخطائنا ، ولكن انظر إلى أهدافنا التى من أجلها نحن هنا فى المعركة. ساعدنا أيها المسيح ، لأنه إذا لم تحمل الغصون فى الحقول الفاكهة، فإنه بدون عون الرب لن نستطيع القتال، مثل الأغنام التى يخاف راعيها من الذئاب، ونحن محاطون بالكفرة، وبدون معاونتك لا نستطيع القضاء عليهم."

وللحصول على العطف الإلهى وضع رجال الدين طقوسا لعقاب من يخرج على الدين ، وكان القساوسة يصلون ويرتلون المزامير أثناء اصطحابهم للحراس الصليبيين. وقبل الهجوم على برج السلسلة فى دمياط طرح أسقف أورشليم نفسه أرضا فى التراب ، ووضع أمامه قطعة أصلية من الصليب وهو يطلب من المسيح العون. وكان بيلاج قد وضع شعائر الدعاء الخاصة بالصلاة والجزاء ، وكان قد طرد العاهرات وأنذرهن بالجلد وتعريضهن للخطر إذا اقترين من معسكر المسيحيين. فى حين كانت الرمال مغطاة بجثث الجنود والجياد الذين قتلوا أو جرحوا.

وفى ٦ أغسطس، وقع هجوم آخر جديد لم يكلل بالنجاح. وقتل وجرح فيه كثير من المسيحيين. وقد أعرب أحد المؤرخين العرب عن دهشته من وجود نساء مسيحيات بين الصليبيين ، وهن مسلحات ويلبسن الدروع.

" كانَ عند الفرنجة فارسات من النساء يرتدين الدروع ويلبسن ملابس الجنود وكن يشاركن فى المعارك وفى القتال المتلاحم مثل الرجال... ولا يعرفن إلا بعد خلع الدروع من عليهن. وهكذا تم اكتشاف بعضهن وبيعهن كجوارى... "

ولم يكن من المستغرب أن يفكر كلا الطرفين فى التقهقر ، فقد كانت الأحداث اليومية المتكررة تعزز هذه الفكرة عند الأب جاك دى فيترى، وعلى الجانب المسلم أيضا كانت محاولات إرسال التعزيزات إلى دمياط قد فشلت. وقد حاولت فصيلة مكونة من

٥٠٠ مملوك تركى اجتياز خطوط العدو ، ولكن تم صدهم وفشلت المحاولة، وتم أسر معظم الجنود وقتلوا ، ومثل بجثثهم، وعلقت رءوسهم أمام حصون المدينة المحاصرة. وفى ٣ نوفمبر ١٢١٩ حاولت مجموعة من الجيش مرة أخرى نجدة المدينة ونجح المسلمون أثناء الليل فى عبور خطوط العدو فى القطاع الذى يقوده الكونت دى نيفار، وكان الجنود المسلمون على وشك الوصول إلى أبواب المدينة عندما أطلقت الإنذارات من جنود الرب . الذين استيقظوا مبكرا للعبادة.و تم قتل معظم المسلمين إلا أن بعضا منهم نجح مع ذلك فى دخول دمياط. وبعد هذا الحادث تم تعزيز الحراسة فى معسكر المسيحيين ، وأدين الكونت دى نيفار بالإهمال وتم طرده بطريقة مهينة ، وكان انتشار الجوع والمرض قد تفشى بين السكان فى دمياط ، حتى أنهم فقدوا قواهم، ولم يتمكنوا من الصعود فوق الأسوار فى المساء للمراقبة.

وهكذا وفى ليلة باردة غير مقمرة من ليالى شهر نوفمبر، وضع أربعة من جنود الفرنجة سلما على أحد الأبراج التى كانت المعدات الحربية قد نجحت فى عمل ثغرة بها. وكان هدفهم تقدير عدد ونوعية الدفاع عن البرج قبل وقوع الهجوم الذى كان مقررا له اليوم التالى. ولكن ولدهشتهم لم يجدوا أى حراس.فقد كان المدافعون المنهكون قد أخلدوا للنوم ، وكان هذا فى اليوم التاسع من شهر رمضان، وهو شهر الصيام عند المسلمين، ولهذا تمكن الجنود المسيحيون أثناء الليل من الصعود إلى البرج واحتلاله. وتم إخطار جان دى بريان الذى أخطر بدوره المبعوث البابوى ، وتم التجهيز للهجوم عند الفجر. ومع أول شعاع من النهار نزل الجنود من على البرج وتجولوا فى شوارع المدينة ناشرين الخوف والموت. ورفرفت أعلام الفرنجة على دمياط ، أما الحراس المنهكون فقد لجأوا إلى قصر القلعة.و كان حاكم المدينة من أصل لبنانى، وكان يعلم أن سيد صيدا باليان كان من ضمن الصليبيين ، فعرض عليه الاستسلام له لأنه كان يعتبره كسيده شرعا ومواطنا من بلده (نوفمبر ١٢١٩). وعندما استيقظ سكان المدينة فى الصباح الباكر تم قتلهم أو أسرهم. أما الذين استطاعوا شراء حريتهم وتجنب القتل فقد طلب منهم الرحيل من المدينة. وقد ذكر أوليفييه دى كولونى أنه من مجموع ٨٠٠٠٠ من السكان الذين كانوا يسكنون دمياط بقى ثلاثة آلاف فقط أحياء عند احتلال المدينة. وكان الأصحاء منهم حوالى مائة شخص. وقد تم تحويل الجامع

الكبير فى المدينة فورا إلى كنيسة ، ووهب للعذراء. أما المنبر المصنوع من الخشب القديم والذى كان تحفة فنية فقد نزع وتم تقطيعه وإرساله، كما يقال، لعدد من أمراء إيطاليا .فيما تم حرق القرآن والزخارف القديمة. وقد أتى الفرنجة بعد ذلك برجال ونساء من بلادهم لإعمار المدينة ونشر عاداتهم. كما كانوا فى عجالة أيضا لإعادة بناء الحصون التى دمرت. فدمياط سوف تصبح مثل عكا أو صور، مكانا حصينا يحيط به البحر ولا يمكن اختراقه ، وكان تفوق بحرية الفرنجة أكبر ضمان لحمايتها.

و عندما شاهد السلطان " الكامل " من معسكره أعلام الفرنجة ترفرف على دمياط، سحب قواته على عجل إلى مسافة ٥٠ كيلومترا إلى الخلف حتى طلخا بجانب المدينة الجديدة المنصورة ، التى شيدت على الطريق المؤدى إلى القاهرة ، وانتظر هجوم الفرنجة الذى كان حسب تصوره قريب الحدوث. . ولكن الانتظار طال، وانتهى الشتاء ثم الربيع وجاء صيف عام جديد. فما الذى حدث عند الفرنجة ؟



من دمياط إلى المنصورة (١٢٢٠/١٢٢١)

إن أهمية الاستيلاء على دمياط لؤلؤة مصر، وميناؤها الغنى، بعد أن أصبحت بوابة التجارة وقاعدة الاتصالات مع أوروبا ومصدرا للمؤن والنقود قد صاعفت من الخلافات بين العناصر المختلفة فى جيش الفرنجة. فقد طالب بيلاج بكل المدينة وتصرف وكأنه صاحب الأمر والنهى والسيد بدون منازع. وكان يقول إن دمياط قد تم الهجوم عليها وغزوها تحت شعار " الله يساعد الضريح المقدس !" وإن الله استجاب لهذا الدعاء. وقد تم وضع المدينة مؤقتا تحت قيادة جان دى بريان انتظارا لوصول رأى البابا. وكان ثلثا أحياء المدينة الخاوية من سكانها الأصليين قد تم اقتسامه بين مختلف الفئات، بينما الثلث الباقى ظل من ممتلكات الملك جان دى بريان بموجب حقه فى غزوات الصليبيين. وحصلت الكنيسة على نصيبها فى شكل الجوامع التى تحولت إلى كنائس.و قد حصل رسول البابا طبقا للشروط السابقة على أحد أحياء المدينة وبرج وبوابة من إحدى بوابات الحصن، وهى بوابة القاهرة التى أعيد تسميتها ليصبح اسمها بوابة روما.و قام جان دى بريان بصك نقود تحمل اسمه: دينارا من الفضة الخالصة مع صورة إكليل نحتت على أحد وجهيه وعلى الوجه الآخر جملة لاتينية تقول - جان ملكة دمياط - ويحيط بها شكل الصليب.

و بعد الاستيلاء على دمياط تسلم البابا هونوريوس الثالث رسالة بتاريخ ١١ نوفمبر ١٢١٩ تتضمن وصفا للحالة النفسية للصليبيين:

" فى هذه الساعة التى فتح لنا الرب فيها أبواب مصر... إذا جاءت إلينا أعداد غفيرة من المسيحيين فسوف يمكننا القتال للوصول إلى مدينة القاهرة، وغزو باقى مصر بسهولة وبالتبعية ستعود مملكة أورشليم التى فقدناها حتى الآن بسبب مساعدة مصر... "

وفى آخر فبراير ١٢٢٠ أفاد البابا أنه يعتبر الكاردينال بيلاج هو القائد الأعلى للصليبيين وجان دى بريان الملك وقائد الجيش ، إلا أنه يجب عليه أن يذعن لمندوب البابا سواء فى الأشياء الدنيوية أو الروحية. وزاد ذلك من قوة وسطوة بيلاج الذى رفض التنازل عن أى من حقوقه ، حتى إنه طرد المسيحيين الذين رغبوا فى السكن فى الحى الذى خصص له ، والذى رفض إعادته لجان. ومن شدة استيائه وغيظه، قرر جان دى بريان مغادرة دمياط طالما أن مندوب البابا أصبح هو الملك الحقيقى (٢٩ مارس ١٢٢٠). وكان يرغب فى محاولة غزو مملكة أرمينيا فى قيليقيا ، إلا أنه فشل واضطر للعودة بسرعة إلى عكا.

و فى دمياط ، وبعد أن فقد جيش الصليبيين قائده تراخى عن الحرب فى حين كانت نقود الجزية تتدفق من كل جانب ، مما أنساه الأعداء وضرورة متابعة الحملة.

أما السلطان " الكامل " فقد كرر اقتراحه للمرة الثالثة: أعيدوا لنا دمياط واجلوا عن مصر وسنرد لكم أورشليم ومملكتكم ما عدا القلعتين الواقعتين على الضفة الغربية للأردن وهما مفتاحا طرق القوافل المؤدية إلى مكة. وبالإضافة إلى ذلك سنعيد لكم أيضا كل المسيحيين الأسرى الموجودين لدينا.

ولكن مندوب البابا قال: لماذا التفاوض طالما أننا أقوياء والعدو المهزوم يتراجع ؟ إلا أن إصرار السلطان " الكامل " على الاحتفاظ بحصنى كراك ومونتريال فى صحراء الأردن كان يعنى أن السلطان سيشكل تهديدا مستمرا ، للقدس ولذلك كان من الضرورى الاستيلاء على هذه الحصون حتى يمكن وضع مساحة شاسعة من الصحراء بين المسيحية والإسلام.

و كانت المجموعة التى تحت قيادة الكاردينال بيلاج تتضمن مجموعات الفرسان العسكرية ، وأيضا الجاليات الإيطالية. وكان بيلاج يحلم بأن يكون أول مسيحى يغزو مصر. وكانت الجماعات الكهنوتية العسكرية المتعصبة، تعارض أى تنازل ، وانتهى الأمر باتحاد الفرسان التوتونيين فقط مع بارونات الشام ، أما الإيطاليون فقد كانوا يرغبون فى الاحتفاظ بدمياط بأى ثمن كان حتى يتحقق حلمهم فى احتكار التجارة مع مصر ، إلا إن بيلاج كان هو الذى نجح فى الاستيلاء عليها ، وللمرة الثالثة رفض

بإصرار اقتراحات السلطان وبعث برسالة إلى باريس لإبلاغ مجريات الأمور إلى الملك فيليب أغسطس . ويقول أرنول:

" عندما سمع فيليب ملك فرنسا القول إنه يمكن للصليبيين الحصول على مملكة فى مقابل مدينة اعتبرهم مجانين وبلهاء عندما لم يعيدوها ويقبلوا العرض."

إلا إنه عند استشارة البابا أوصى باستبعاد عرض السلطان ، وقال إنه يترك نفسه تحت رحمة الله.

و فى دمياط، كان الوضع مختلفا تماما ، ففكرة السلام كانت بعيدة، وكان الاهتمام كله ينحصر فى الحصول على تعزيزات جديدة ، وذلك لغزو مصر كلها ، وكان الصليبيون الإنجليز قد وصلوا مع الكونت رودولف من شيستر وجيوم ذى السيف الطويل وكونت ساليز بورى ، كما وصل أيضا الصليبيون الفرنجة الجدد. وأخيرا جاء فردريك الثانى إمبراطور ألمانيا وملك صقلية، وكانوا جميعا قد أقسموا بقلوب مفعمة بالإيمان على حمل الصليب والانضمام للحملة الأخيرة. أما التعزيزات الأولى التى وعدوا البابا بها فقد وصل جزء منها إلى مصر فى أبريل ١٢٢١ قادما من تورينو فى إيطاليا، كذلك وصل إلى دمياط فى مايو ١٢٢١ أسطول صغير مع فرقة من الفرسان التوتونيين على رأسها لويس من بافاريا، الذى كان لديه تعليمات رسمية من الإمبراطور بعدم أخذ أى مبادرات عسكرية قبل وصول الإمبراطور نفسه، وهذا الأخير كان من المقرر وصوله إلى مصر فى صيف العام نفسه .

إلا أنه يبدو أن البابا ورسوله اعتقدا أنه بالقوات التى فى حوزتهم يمكن للصليبيين الاستيلاء على القاهرة بدون تأخير ، وبالتالى منع فردريك الثانى من شرف نصر أكيد ؛ فقد كان يجب أن يكون شرف النصر للبابا وليس للإمبراطور. وهذا ما يفسر قرار الكاردينال بيلاج المفاجئ فى يوليو ١٢٢١ بترك المكان الآمن فى دمياط والتوجه نحو القاهرة ، وقد حاول دوق بافاريا معارضة الكاردينال ، ولكن أمام الحماس العام لم يستطع إلا الخضوع.

وبعد حوالى عامين من الاستيلاء على دمياط، وفى منتصف الصيف، أصدر بيلاج أوامره للجيش بالاستعداد للمعركة والتوجه إلى العاصمة المصرية، التى كان مصمما على تسميتها بابليون. وألقى باللعن على كل من كان يحثه على توخى الحذر. وكل ما وافق عليه هو إبلاغ جان دى بريان الذى كان قد عاد إلى عكا. وتقول رسالة مندوب البابا لجان دى بريان إن الجيوش استعدت من جديد للتحرك صوب القاهرة، وقد أغاظه ذلك جدا لأنه كان يشعر طبقا لاعترافات المؤرخين أن هناك خطرا كبيرامن ضياع كل شىء ، ورغم علمه بأن واجبه يقتضى الوجود على رأس باروناته ، إلا أنه سافر فورا إلى قبرص، ومن هناك توجه إلى دمياط التى وصلها فى ٧ يوليو ١٢٢١ ، وكان الجيش قد ترك المدينة فى اتجاه الجنوب بعد أن صدرت له الأوامر بالتحرك. بالكاد وافق بيلاج على أن يبطئ تقدمه حتى يلحق به جان دى بريان. ربما كان يريد منعه من شرف قيادة الجيش ليحرمه بعد ذلك من نصيبه من الأراضى التى سوف يستولون عليها؟

وللمرة الرابعة عرض عليهم السلطان " الكامل " والمحيطون به رد المملكة التى استولى عليها صلاح الدين فيما عدا كراك مؤاب ومونتريال ، كما عرض عليهم أيضا كل القلاع التى استولوا عليها وتسليمهم المناطق المقدسة ، والسماح لهم بإقامة أسوار أورشليم مرة ثانية ، والتوقيع على معاهدة لمدة ثلاثين عاما.

وللمرة الرابعة يرفض بيلاج عرض السلطان بالرغم من جهود بارونات الشام الذين كانوا قد انضموا، وللمرة الأولى، إلى فرسان المعبد وإلى رهبان الإسبتارية.

وعند وصول جان دى بريان من قبرص، حاول مرة أخرى إثناء الكاردينال بيلاج عن عزمه وقال له:

" لا ينبغى أن نخرج من هذه المدينة قبل وصول التعزيزات من الإمبراطور فردريك الثانى. سنبقى ألف عام خلف خنادقنا حيث لا نخشى شيئا حتى لو هاجمتنا جيوش فى عدد حبات رمال الصحراء ، فأكثر ما يمكن أن يفعله المسلمون هو حصارنا لمدة سنة أو شهر أو اثنين أو ثلاثة، ولكنهم لن يستطيعوا النيل من مقاومتنا ، وكل منهم سيعود من حيث أتى. وخلال هذا الوقت سنحصن مواقعنا ونضع خططنا بثقة. فإذا غزونا مصر فى عشرين عاما، نكون بالرغم من ذلك قد استعجلنا الأمور ".

ولكن كان رد رسول البابا: أنت خائن.

فرد جان دى بريان: سأنضم إلى حملتك، وليفعل الله ما يشاء !

واستمر الجيش فى التقدم وعلى رأسه فرسان المعبد، مرتدين معاطفهم البيضاء الطويلة المرسوم عليها الصليب الأحمر، وكانوا يمتطون جيادهم الرمادية المغطاة بسحائب بيضاء ، وهم مستقيمو القامة يتصايحون " المسيح حى، المسيح يحكم، المسيح هو الوحيد الذى يأمر ".

وكان السلطان " الكامل " قد استغل المهلة المفاجئة التى تلت سقوط دمياط لبناء خط دفاعه الرئيسى فى منتصف الطريق بين دمياط والقاهرة قريبا من المدينة الجديدة المنصورة التى أنشأها وحصنها .و كانت المدينه تقع فى قلب دلتا النيل على فرع دمياط فى منطقة يعترضها عدد من قنوات الرى. وكانت محمية طبيعيا من الشمال بكل هذه المياه. ولم يكن " الكامل " يريد الدخول فى معركة فى سهل لا موانع به حيث يمكن لفرسان الفرنجة بثقلهم من تحطيم خطوطه، أما فى منتصف هذه الشبكة من القنوات وفى أرض موحلة فقد كان الفرسان الفرنجة مجبرين على أن يتفرقوا ، وأن يتخلوا عن جيادهم الثقيلة، والخوض فى الوحل. أما الفرسان المسلمون على جيادهم العربية الصغيرة والسريعة والمحملة بثقل أقل فسوف تكون الأمور فى صالحهم. وعلاوة على ذلك، فإنه كان قد بنى فى الإسكندرية ورشيد العديد من السفن ذات المجاديف التى يمكنها مداهمة خطوط المواصلات التى يستخدمها المسيحيون على طول الشاطئ مما سوف يكبدهم خسائر جسيمة فى سفنهم الشراعية.

وكان الكامل قد طلب من أشقائه تعزيزات مهمة من الرجال والمعدات ، فجاء سلطان دمشق " المعظم " وسلطان الموصل " الأشر ف " لمساعدة شقيقهم فى محنته. وتم تعبئة الأمراء الأيوبيين أما الجيش الذى تجمع حول المنصورة فقد كان عدده كبيرا ، حتى إن الجنود لم يجدوا مكانا لنصب خيامهم. وكانت الجيوش الملتفة حول السلاطين الثلاثة مهيأة " للجهاد " والحرب المقدسة، فالدفاع عن الإسلام واجب مقدس على كل المسلمين. وقد تمكن السلاطين الثلاثة من إقناع جيوشهم أن مصير الإسلام فى خطر. وأن المسيحيين الكفار قد غزوا الأرض الإسلامية .. مصر واستولوا على دمياط

مفتاح مصر وطردوا السكان لتسكين مسيحيين غرباء. وأن الصليب قد وضع على منارة جامع دمياط ، وأجراس القساوسة حلت محل ترتيل المؤذن.

كان الجميع يعلم أن عروض السلام التى قدمها السلطان " الكامل " قد رفضت ، وأن الكفار كانوا يريدون غزو مصر واحتلال القاهرة ، ومن ثم القضاء على الدين الإسلامى ولم يكن أحد ليقبل ذلك، وعندما وصل إلى علمهم أن جيوش الفرنجة قد غادرت دمياط واتجهت ناحية المنصورة، علت صيحة واحدة رددها آلاف الجنود المجتمعين " الله أكبر " أو هذه الصيحة للفرسان المسلمين:

" امتطوا الجياد ! فرسان الله، افتحوا لنا أبواب الجنة "

كان الشعور فى القاهرة على أشده ، فقد كان السلطان قد جمع منذ شهور كل الرجال الذين يستطيعون حمل السلاح أو المساعدة فى الأعمال التى تتطلبها الأمور الهندسية فى الجيش ، وفى شوارع المدينة الضيقة لم يكن يشاهد سوى الرجال بأسلحتهم، أما النساء والأطفال فكانوا يفضلون المكوث فى المنازل فى انتظار أخبار المعركة التى كان الجميع يدرك قرب وقوعها وأهميتها .

و كان الوقت هو شهر يوليو والحرارة الشديدة لم تكن فى صالح التنقل بدون داع. فبدت المدينة التى تبدو عادة مستيقظة ومملوءة ضجيجا وكأنها مشلولة بدون حركة.

و قد حاول غير المسلمين والمسيحيون من جميع الملل، واليهود ، الذين لم يكن مسموحا لهم بحمل السلاح وبالتالى لم يكن فى استطاعتهم الاشتراك فى المعركة حاولوا الاختفاء حتى ينساهم الجميع . وكان الطبيب الخاص للسلطان " الكامل " أبراهام اليهودى بن ميمونيد هو الذى يدير مستشفى القاهرة.

و عند كل صلاة كان المؤذنون يؤكدون على نصرة الإسلام من منابرهم ويتلون آيات من القرآن يؤمنون أنها مناسبة لهذا الموقف .

كان الجيش والشعب المصرى على أتم الاستعداد .

فـى وحـل الـدلـتـا

كانت دمياط تقع على الضـفة اليمـنى عند الـفرع الشرقى للنيل. ومن الطبيعى أو بحسابات خاصة – لا أحد يعرف على وجه التحديد – أن قوات الفرنجة التى خرجت من المدينة اتبعت هذا الجانب الغربى فى مسيرتها متوجه إلى فارسكور ، ثم شرمساح على الضفة نفسها وكان يصاحبها فى مسيرتهما ٦٠٠ مركب وسفينة من كل الأنواع تحمل مؤنًا لـ ١٢٠٠! فارس ، بالإضافة إلى القناصين السوريين و٤٠٠٠ رامى سهام ، من ضمنهم ٢٥٠٠ من المرتزقة ، وعدد كبير من جنود المشاة ، مما شكل إجماليا حوالى ٢٥٠٠٠ إلى ٣٠٠٠٠ رجل مسلح. وكانت السفن تغطى الجناح الأيمن والمشاة تغطى الجناح الأيسر والفرسان فى الوسط.

و تحت شمس الصيف الحارقة زحف الجيش ناحية المنصورة التى تم تشييدها على الضفة اليمنى للنهر ، أما من الجانب الآخر فقد كان يوجد فرع لقناة كبيرة للرى باتساع فرع نهر النيل ، وهى قناة أشمون– طناح ، وكانت المدينة تبدو على هيئة مثلث تحدها القناة من الشمال والشرق والغرب. وعند السفر من دمياط إلى الضفة الغربية للنهر كان يجب للوصول إلى المنصورة عبور النيل والدوران حول المدينة عن طريق قناة أشمون. وعلى قمة هذا المثلث لم يكن هناك مجال للمناورة ، فقد كانت الجبهة ضيقة فى مواجهة جيوش العدو. إلى جانب وجود عنصر أساسى يتمثل فى ثقل جنود الفرنجة ومعهم فرسان المعبد وفرسان الإسبتارية الذين يعمل لقوتهم حسابٌ كبيٌر، بالإضافة إلى عدم وجود مكان لنشر سراياهم.

وعند الوصول إلى شبرمساح وقبل الالتحام فى مثلث المنصورة، أرسل جان دى بريان من جديد لبيلاج قائلا :

" أعتقد أنه سيكون من الحكمة أن نبقى هنا فى الوقت الحالى، وأن نحفر خندقًا حولنا ، ثم ننتشر فى الأراضى الممتدة من هنا حتى دمياط ، وسوف يظل أسطولنا على اتصال معنا ، ولن تستطيع حتى عصفورة الطيران بيننا وبين دمياط. وعندما تضعف جيوش السلطان ، وتكون قد وصلتنا التعزيزات، سوف تصبح مصر تحت أقدامنا بدون أن تكون هناك أية مقاومة "

و كرر عليه بيلاج: "أنت خائن لأن هذا هو وقت الاستيلاء على مصر ، أو لننس ذلك إلى الأبد."

واستمرت القوات فى التقدم ، وتم احتلال شرمساح بدون أى جهد وهرب سكانها من أمام الفرنجة ، وانسحبت الحامية التى كانت تحميها دون أن تبدى أى مقاومة.

و قد كان تقدم قوات الفرنجة خلال قيظ الصيف فى دلتا النيل مثل الكابوس. ففى أوروبا كانت المعارك تدور فى الصيف، أما فى الشتاء فإن الثلوج كانت تصد كل المناورات ، فتصبح الحرب غير ممكنة. ولكن مصر ليست أوروبا. فقد وجد آلاف الجنود وآلاف الفرسان أنفسهم فى الريف خلال شهرى يوليو وأغسطس بسلاحهم وعتادهم فى درجة حرارة تصل من ٣٥ إلى ٤٠ درجة مئوية فى الظل (وأين الظل ؟). وكان يجب عليهم التنقل بين شعب معاد لهم ، والفرنجة مرهقون، والفرسان والبدو يتعرضون لهم . وهم يبحثون عن أى مكان منعزل فى بلاد طرقها ريفية بسيطة ، ومحاطة بمربعات من القنوات بدون جسور أو سدود. ولم يعان الفرسان من أية مشاكل فى العبور ، ولكن الأمر كان يختلف بالنسبة للجنود المثقلين بالعتاد، والذين يجرون معدات الحصار وكل المؤن الضرورية على كل قناة يعبرونها، ومن سيحصى عدد قنوات دلتا النيل ؟ ، كان يجب إنشاء جسر أو سد يستطيع تحمل العربات الثقيلة والمجانيق. وكان الجنود يلعنون كل من يسبقونهم ويثيرون أمامهم هذه الرمال الخانقة تحت حرارة الشمس الملتهبة، هؤلاء الذين يدمرون الجسور والسدود بدون تفكير فى باقى الجيش الذى يتبعهم ، والذى سوف يقع على عاتقه إعادة بناء ما تهدم ، ليستطيع الاستمرار فى السير. وعند قدوم الليل، عندما تهب أخيرا نسمة خفيفة، تمكن الرجال والجياد من التنفس، كان يجب عندئذ توخى الحذر من الهجمات المستمرة للفرسان المسلمين كثيرى العدد ككثرة

الذباب والناموس الذى يمتص دم الفرنجة نوى الجلد الأبيض. وفى الفجر يتعرضون للبدو الذين يأتون للنهب وطعن الجنود النائمين ، بعد أن يدخلوا خيامهم ويسرقوا كل ما يمكنهم حمله.

وكان الفرسان يحمون جيش الفرنجة من جانبيه، وفى مسيرة تمتد لعدة كيلومترات يحاولون خلالها التماسك وعدم التشتت.

أما السلاطين الثلاثة قادة جيش المسلمين الذين تجمعوا فى المنصورة ، فكان عليهم أولا فصل جيش الفرنجة عن قاعدتهم فى دمياط ، وكان هناك أربعون ألف فارس، وعدد غير معروف من الجنود ينتظرون بثقة وصول الفرنجة. ومن خلفهم كانت كل البلاد معبأة.

ومع رؤية جيوش الفرنجة محاصرين بين النيل وقنوات الرى ، أرسل الكامل إلى الضفة الشرقية ألفين من الفرسان تجاه الشمال ، عبروا النيل وقطعوا طريق التقهقر إلى دمياط ، وقد استغل الأمير " بدر الدين بن حسون " طمى النيل واستخدم قناة صغيرة فى برامون لنقل زوارق من المحلة إلى المنصورة ، ونجحت المراكب المصرية ذات المجاديف فى قطع طرق الإمداد فى النهر بين دمياط وجيش الفرنجة ، وكانت هذه السفن قد بنيت فى الإسكندرية ، ونقلت بالطرق البرية مما استدعى مجهودا كبيرا. وأذهلت المفاجأة الفرنجة الذين ظنوا أنه ليس هناك ما يخشونه من جهة النهر. وكانت السفن الفرنسية التى أتت من دمياط لتموين الجيش قد وجدت نفسها محاصرة ، ولم تستطع العودة إلى دمياط دون أن تخاطر بالغرق ، وكان بيلاج واثقا من النصر السريع ، فلم يأخذ إلا أقل قدر من المؤن. وعندما وصل جيش الفرنجة أخيرا ، فى نهاية المطاف، إلى حيث يواجه جيش الأعداء، عبر فرسان المسلمين خفيفو الحركة والموجودون على الضفة المقابلة لقناة أشمون ، وأتموا حصار الفرنجة. وحوصر جيش الفرنجة فى حيز ضيق كان يتقلص باستمرار بحيث فقد القدرة على المناورة ، ولكن كان عليهم مهما كلفهم ذلك محاولة عبور النهر ، فى حين كان العدو ينتظر على الضفة الأخرى فى ظل مدينته المحصنة. وكان الوقت هو أواخر شهر يوليو.

وهنا قرر السلطان " الكامل " أن الوقت قد حان لتوجيه الضربة القاضية و كان فيضان النيل يقترب من ذروته. فأمر بالتعجيل بفتح السدود كما يحدث فى هذا الموسم من كل عام منذ سنوات طويلة ، وإغراق كل الأراضى الموجودة على الضفة الشرقية للنهر. أما الفرنجة الذين كان من المفترض علمهم بطبيعة النيل بعد أن مكثوا فى دمياط قرابة ثلاث سنوات، فقد كانوا على ما يبدو قد نسوا أنه فى هذا الوقت من السنة أى خلال فترة الصيف يتدفق فيضان النيل بكميات كبيرة من المياه ، وهكذا تم فتح السدود ، وعمت الفرحة المسلمين ، وغمرت الدلتا كلها هذه المياه المحملة بالطمى لإعادة إحياء الأرض ، وتقويتها للزراعات القادمة. وشل جيش الفرنجة من هول المفاجأة. ولم يكن هناك من يستطيع إيقاف هذا الهدير من المياه المحملة بالطمى التى تأتى من كل جانب. وأصبحت الأرض السوداء الجافة من حرارة الصيف وحلة لزجة ، تندفع إلى عجلات العربات وتوقفها ، أما الجياد بحملها الثقيل من الفرسان فقد غاصوا فيها حتى صدورهم.

و لم يجد الجنود المحاصرون بالمياه مكانا للتمدد للراحة. إذ لم يكن فى استطاعتهم إلا الوقوف ومحاولة البقاء على قيد الحياة ، وحتى تزداد الكارثة سوءا لم تستطع سفن المؤن المرسلة من دمياط الصعود فى مجرى النيل الذى يفيض ، فأصبح الجيش معزولا ومكبلا فى مكانه.

ورغما عن ذلك ، وبدلا من محاولة التراجع فورا، ظلت جيوش الفرنجة مجمدة فى مكانها لمدة ثلاثين يوما تحت شمس الصيف الحارقة ، وبدون ظل يقيهم من هذه الحرارة ؛ بقى الجنود محملين بأثقالهم متخبطين فى الوحل اللزج، فى محاولة لمقاومة الهجوم المتواصل من العدو السريع الحركة ، الذى يضرب ويهرب رافضا المواجهة المباشرة. وبدا أن جيش الفرنجة قد ضرب ، وأصابه الشلل ، وأصبح غير قادر على التقدم للأمام وعاجزا عن التخلى عن هذه المسيرة المجنونة للقاهرة.

لم يكن الجيش قد حارب بعد ، وكان من المستحيل خوض أى معركة. فجيش الأعداء الذى تختلط فيه نجوم سماء مصر مع النار التى يوقدها الفرنجة لا يستطيع التحرك. ولماذا التحرك. إن الشمس والماء قد حسما المعركة.

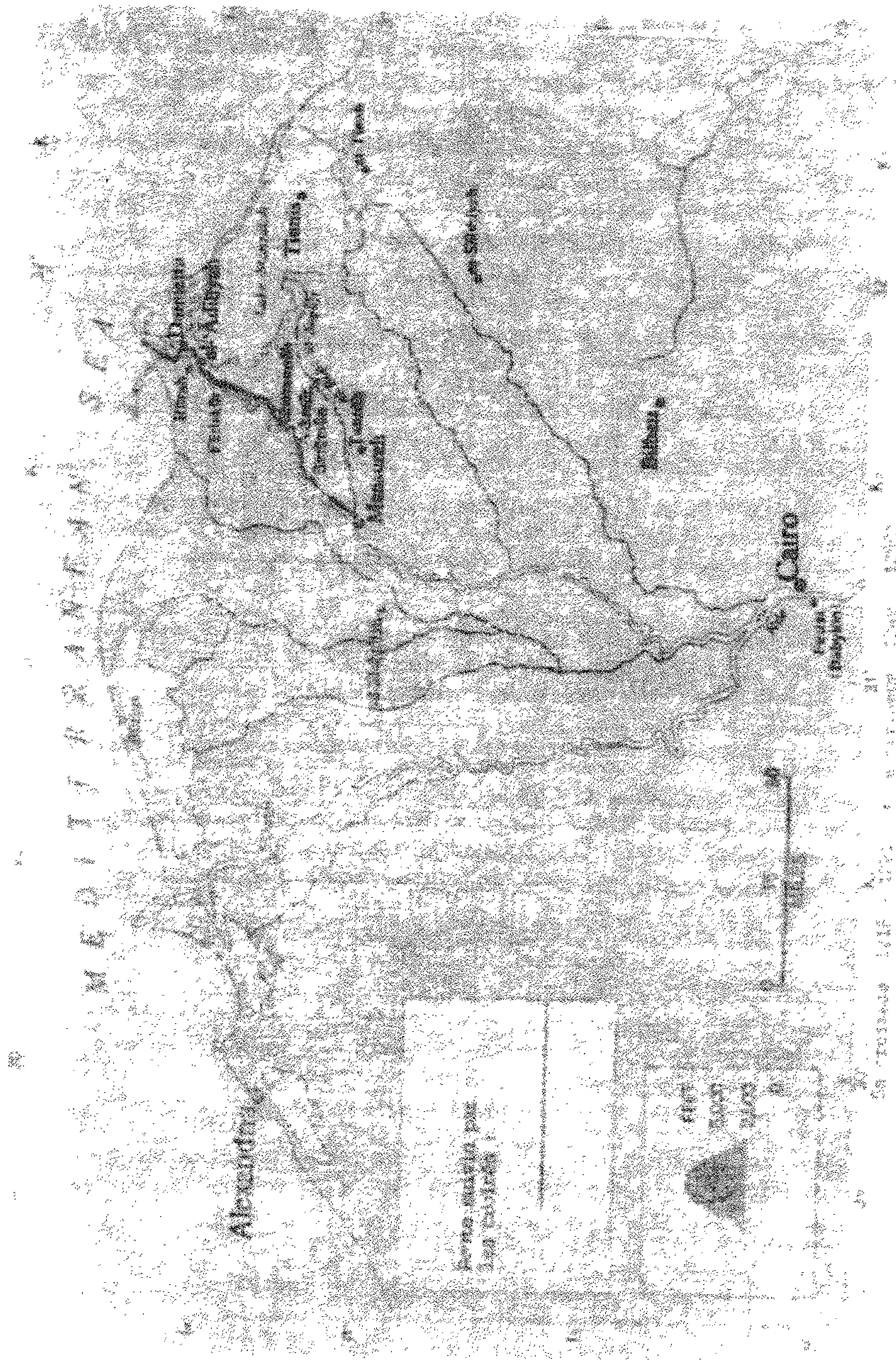
وفى ٢٦ أغسطس، وبعد شهر من الوصول إلى مشارف المنصورة ، صدر الأمر بالانسحاب. فالمعارك المشرفة التى خرج الجيش من أجلها من دمياط لغزو مصر لم تحدث. والجنود أحرقوا معداتهم. واتجه التفكير إلى تحطيم حصار الأعداء فى الشمال للوصول إلى دمياط بدون صعوبة. ومرة أخرى كان تقديرهم للمسلمين خطأً. فالمياه تغمر كل مكان، وفى كل مرة تحاول فرقة التقدم، يتم فتح سد ما وينهمر سيل من المياه يغرق المكان حتى آخر النظر. ولا يوجد أى مناورة جدية يمكن القيام بها. فسهام الأعداء تهوى كالمطر الآن بدون انقطاع على الجنود الذين انخفضت روحهم المعنوية ، وأصبحوا مرهقين، وجائعين، وقد ألهبتهم أشعة الشمس الحارقة.

كان القتال مستحيلا ، والجيش يغرقه النيل أو القنوات ، ولا يمكن التقدم أو التقهقر أو الاستمرار بدون إمدادات، لقد تم تدميره دون أن تكون هناك معركة. ماذا يمكن إذن أن يحدث؟

الكاردينال بيلاج يريد الآن التفاوض. واستدعى جان دى بريان وطلب منه أن يظهر ذكاءه وحسن تفكيره أمام هذه المحنة، وكان من القسوة أن يشير جان دى بريان إلى مواقفه السابقة، ومع ذلك فقد قال:

" سيدى مندوب البابا، ألم يكن من الأفضل لك عدم الخروج من إسبانيا؟ "

وكان جان دى بريان يعرف أنه يجب عليه الآن التفاوض وفى أسوأ الظروف الممكنة. وكان يحتاج إلى رجل يستطيع التكلم مع السلطان. فاختار أحد " المهور "، وكان رجلا من البلاد يتكلم العربية، ويدعى وليم دى جيبوليه (أى جبيل - فى لبنان - بابيلوس الأثرية) ، وطلب منه الذهاب لرؤية السلطان "الكامل" وأشقائه لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. ولكن كيف سيتم استقباله؟ ألم يتم طرد رسل السلطان من دمياط بدون أى اهتمام ، وبأمر بألا يعودوا مرة أخرى ؟ ، كان هذا منذ شهرين تقريبا ، ولكن الأيام فى بعض الأحيان تمر كالقرون !!


Alexandria
Cairo

بين الفرسان

أصبحت الحملة تشبه مباراة الشطرنج بالنسبة للأشقاء الثلاثة المجتمعين فى المنصورة، وكان الخصم قد أخذ المبادرة وقام بتحريك جنوده أولا، وبهدوء حرك " الكامل " فرسانه على أرض يعرفونها جيدا. ولم تكن هناك حاجة للتضحية بالجنود لضمان ميزة ما ؛ فقد أصبحوا فى وضع ممتاز: كش ملك! وأوشكت المباراة على الانتهاء.

وكان رأى المعظم والأشرف - ذلك الشاب المندفع الذى حضر من بلاد بين النهرين على رأس مجموعة من صفوة المحاربين التى ترغب فى إظهار مقدرتها الحربية ، " هو ضرب العدو بدون هوادة " حيث الفرصة مواتية ، ومن الأفضل انتهازها، فلماذا يتركها؟ إن جيوش الفرنجة تحت رحمتهم ، وسحقها سوف يكون درسا قاسيا لكل من تسول له نفسه غزو أراضيهم. وكانت المجازر التى قام بها ريتشارد قلب الأسد فى عكا قد أثارت اشمئزاز واستنكار نظرائه. إذًا فمن الذى يستطيع أن يعتب على سلطان مصر سحقه لجيش الأعداء ، الذى غزا مملكته واستولى على دمياط وقتل سكانها؟ .

إلا أن القرار كان فى يد " الكامل " الشقيق الأكبر، المنتفع الأساسى. وقد قال للأشقاء والأمراء الملتفين حولهم:

" مما لا شك فيه ، أنه من السهل علينا إفناء جيش الفرنجة، لقد حولناهم إلى بؤساء. فلقد شاهدنا فرسان المعبد الفخورين بأنفسهم وهم يقتلون جيادهم ليأكلوها، لن يكون هناك قتال، بل سوف تصبح مجزرة حقيقية، ومما لا شك فيه أنه يوجد ما يبررها ، وهو عدد الجرائم التى ارتكبت فى حقنا خلال ثلاث سنوات، ولكن ماذا ستكون النتيجة؟ ، إن ما حدث لعمنا العظيم " صلاح الدين "، بعد الاستيلاء على أورشليم القدس، المقدسة، يجب أن ينير لنا الطريق. فتحرير أورشليم القدس بواسطة

قواتنا البطلة بعد نصر حطين زرع روح الانتقام فى بلاد الفرنجة. فهم لا يأخذون فى اعتبارهم أن السلطان لم يكن يريد الاستيلاء على المدينة غدرا، أو إراقة الدماء بدون داع، فلقد نسوا المجازر التى ارتكبتها جيوشهم عند الاستيلاء على المدينة. نسوا رحمة " صلاح الدين " بمراعاة واحترامَ نسائهم ، وتحرير أزواجهن حتى لا يهجرن زوجاتهم. لم يفهموا أن المدن التى بقيت تحت سيطرتهم فى الساحل ، لم تكن كذلك بسبب عدم المقدرة على الاستيلاء عليها ، ولكن بسبب العلاقات التجارية ، وإقرار السلام مع بلاد الفرنجة بدلا من الحرب المستديمة. ولكن ماذا كانت إجابة هؤلاء الفرنجة الملاعين؟ أرسلوا جيشا لا يمكن إحصاؤه ضدنا. سفنهم غطت سطح الماء، والأراضى الفلسطينية أصبحت صغيرة بالنسبة لفرسانهم. لقد كان على رأس جيشهم ملكان قويان مع كل فرسانهم النبلاء. إلا أن الله أعاننا على إغراق إمبراطور ألمانيا ، وتشتيت جيشه الذى لا يقهر ، حتى قبل أن تطأ قدمه أرضنا. لم نرأبدا مثل هذا التجمع من الأعداء المسلحين بشجاعة فائقة. لقد قرروا إعادة الاستيلاء على بيت المقدس أو الموت. وكانوا على وشك النجاح. ولكن الله ألهم عمنا " صلاح الدين " ووالدنا " العادل " بما يفعلان لإثناء ملوك الفرنجة عن عزمهم. وتم إنقاذ بيت المقدس!

إن الانتقام منهم اليوم سوف يؤدى إلى زيادة سخط أشقائهم من الفرنجة، لقد تناسوا جرائمهم، ولن يروا إلا الدماء التى سنريقها. أما المدافعون عن دمياط فسوف يخشون على حياتهم ، وسوف يدخلون إلى القلعة ويغلقونها عليهم، وهنا سيستوجب علينا حصارهم، وسوف يطول الحصار ، ويكون دمويا ، لأن الرجال الواثقين من أنهم سوف يلاقون حتفهم. سيقاتلون مثل الأسد الجريح، وهذا ما قاله مبعوثونا الذين عادوا إلينا، كما أن رسلنا الموجودين لدى صديقنا الإمبراطور فردريك فى صقلية قد أخبرونا أن هناك أسطولا كبيرا يستعد للإبحار لنجدة دمياط ، وعلى متنه فرسان وجنود. وقد رحلت فعلا طليعة من مالطة. والحرب سوف تستمر! كم عدد ملوك الفرنجة؟ وكم عدد الرجال تحت إمرتهم؟ لا أحد يعرف، وسوف يرغبون هم أيضا فى الانتقام لأشقائهم، وسوف نجد أنفسنا نحن أيضا فى مواجهة جيش جديد قادم من البحر، عدده كبير، مثل الجراد، وقد غزا إيران ، واستقر فى بخارى وسمرقند. فهل هذا هو الوقت المناسب لزيادة عدد أعدائنا؟ إن الحرب قد فرضت علينا. ولم نرغب فيها، فلنعرف إذن كيف

نفرض عليهم السلام والعودة إلى بلادهم! يجب أن نتلوا عليهم الآية القرآنية الكريمة :
﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ (الأنفال / ٦١) .

وفى هذا الوقت تم إبلاغ السلطان بوصول رسول من قبل الفرنجة . واستمع السلطان إليه طويلا، فقد كان وليم دى جيبوليه يتكلم بلغة يفهمها " الكامل ":

" اسمح لنا بالانسحاب، أوقف المذابح وسنعيد لكم دمياط. وسنركب البحر ونعود إلى الساحل حيث نقيم ، ويعود الآخرون كل إلى بلاده. وسنطلب من الإمبراطور فردريك الثانى بألا يرسل أسطوله أو أية تعزيزات تكون فى الطريق. وأخيرا سيعم السلام علينا وعليكم. هذا السلام الذى لم يكن من المفترض أن ينتهك " .

وقد رد عليه السلطان " الكامل " بأن مثل هذا العرض يجب أن يقدم للسلطان من الملك نفسه. وهكذا دعى جان دى بريان للحضور للتفاوض معه فى الخيمة الملكية.

وكان الحفل يقرب من الخيال، فقد استقبل جان دى بريان ليس كملك مهزوم يريد أعداؤه إهانته، ولكن كفارس بائس ، كأننا فى بوفين وليس فى مصر، أو كأننا فى نهاية مباراة للمارشال وليم. الحرب انتهت ، إذن هى نهاية المباراة. وبدون شك كان يجب طلب جزء من ثروة جان دى بريان فدية لاسترداد ما أخذه بدون حق :

(مقاطعات ومدن وحصون) ، فالقتل لن يجدى فى شىء فسجين غنى يدفع مقابل حريته، أنفع من عدو ميت.

إننا بين " فرسان " رجال من المهنة نفسها ، وبعد المعركة الغازون يقال عنهم " المنهزمون " على طاولة طعام ويثار ما هو أهم: قيمة الغنائم، وثمن الحرية للمساجين. كل طرف فى هذه المفاوضات سيطالب بمهارة كل ما له قيمة، فالحقد ليس له مكان.

أما بالنسبة للكاردينال بيلاج، الذى أبعد عن المفاوضات، فقد كانت هذه المفاوضات كابوسا أو خيانة. فبدلا من أن يطلب السلطان الدبلوماسية من جان دى بريان أن يقسم بمعتقداته ويدخل فى الإسلام أو أن يموت، قدم له وليمة فاخرة بعد أن

عرض عليه ملابس وهدايا ، وكل ما يليق بملك، وقد تم تخليصه من طمى الدلتا ، ويمكنه بعد ذلك أن يجلس بشرف على مائدة السلطان، ألم يعامله كند له بدون أن يشعره بحالته الدنيا؟ بالطبع كل هذا لم يخرج عن الدبلوماسية والسياسة ، وكذلك الأيديولوجية. ولكن الصلة بين الملك والسلطان ترسخت وهذا لا يمكن إلا أن يكون له تأثير على ما سيتم تقريره فيما بعد عند بدء الأخذ والعطاء.

قص إيرنول النصوص التالية التى تشير إلى نوع الصلة التى نشأت بين الرجلين وتأثيرها على الأحداث: فى منتصف المأدبة التى أقامها السلطان، استدار نحو جان دى بريان ورأى الدموع تنساب من عينيه وسأله عن السبب، فأجاب الملك:

" مولاى أرى الشعب الذى عهد الله به إلىّ يموت جوعا "

فطلب منه السلطان ألا يبكى ، وسيتكفل بإطعام جنود الفرنجة. وأرسل لهم فى الحال ثلاثين ألف رغيف خبز تم اقتسامها فيما بينهم ، واستمر على هذا الحال لمدة أربعة أيام، ثم سمح للذين لديهم الإمكانيات بشراء الخبز واللحوم من متاجر السلطان، واستمر لمدة خمسة عشر يوما أخرى فى إرسال الخبز للفقراء الذين لم يكن لديهم شىء آخر يأكلونه.

روى أوليفييه دى كولونى، هذه الأحداث، وقال:

" هؤلاء الذين قتلنا منهم فى الماضى الآباء والأبناء والبنات والأشقاء والشقيقات فى عدة معارك، هؤلاء الذين نزعنا عنهم سبل الحياة وطاردناهم عراة من أماكن إقامتهم، عندما كنا نموت جوعا أعطونا من قوتهم وبدون حساب ، وعاملونا بالحسنى ونحن تحت رحمتهم وسطوتهم ".

تم الانتهاء من المعاهدة، وسوف يتم إعادة دمياط، وجيش الفرنجة يمكنه الانسحاب ، وسوف يرحل الصليبيون إلى بلادهم. أما جان دى بريان فقد حصل أيضا على وعد بإطلاق سراح كل المساجين المحتجزين فى مصر ، وكذلك الموجودين فى الشام فور التوقيع على المعاهدة ، وبعد الجلاء عن المدينة.

أما التجار الإيطاليون الذين أغوتهم الإقامة فى دمياط، وتشجعوا بقرب وصول تعزيزات من كونت مالطة أنريكو بسكاتورى، فقد فقدوا مركزا تجاريا هائلا ، وشاهدوا نهاية تجارة مربحة بشكل كبير. فحاولوا إثارة فتنة باحتلال فندق الملك ومساكن فرسان المعبد وفرسان الإسبتارية. وطلبوا من فرسان المعبد وفرسان الإسبتارية عدم الإذعان لأوامر جان دى بريان بترك دمياط للسلطان وأن يخونوا العهد ويحملوه مسئولية قتل الجيش المحاصر من قبل جيش السلطان ، إلا إن فرسان المعبد وفرسان الإسبتارية رفضوا هذه العروض، وتم الجلاء فى النهاية عن دمياط فى ٧ سبتمبر ١٢٢١ .

دخل السلطان " الكامل " المدينة دخول المنتصرين، وقبل السفر إلى عكا وقع جان دى بريان وسلطان مصر معاهدة لمدة ثمان سنوات، وهى المعاهدة التى وافق سلطان دمشق " المعظم " على تطبيقها فى الشام.

وقد طلب الكاردينال بيلاج من سكرتيره شنوان أوليفييرا دى بادربون، كتابة رسالة للسلطان ليشكره على المعاملة الإنسانية التى عومل بها الأسرى المسيحيون، فكتب له يقول:

" ليزد المولى من النعم عليك ، وليخلع من قلبك الظلم حتى يمكنك التعرف على الحقيقة، أنا سجينك المحرر، خادمك المعتوق، ولا يمكن أن أكون كافرا بالنعمة بعد أفعالك الحسنة. لم يحك أبدا عن أمثلة أكثر كرما قبالة الأسرى الأعداء. لقد سمح المولى أن نكون أسرى بين يديك ، ولكن لم يكن لدينا شعور بأننا بين يدى طاغية أو سيد ، ولكن تحت سيطرة أب أنعم فى المعاملة الحسنة، وأنقذنا من الخطر، وزارنا فى محنتنا، كما تحمل كذلك ضجيجنا ... لقد رعيت مرضانا، وعاقبت بشدة الذين كانوا يريدون بنا شرا ... إنه حق أن تسمى " الكامل " لأنك تحكم بحكمة وفضيلة، وأنت سيد على كل الأمراء الآخرين... ".

ومن ناحيته قام جاك دى فيترى أسقف عكا والواعظ الرسمى لهذه الحملة الصليبية بالكتابة للسلطان ليشكره أيضا على تحرير الأسرى:

" عطف السلطان على الصليبيين يكبر أكثر فأكثر. عندما تم التوقيع على المعاهدة أعطى الحرية لمحبى المسيح الذين كانوا فى سجونه. وكان لديه ثلاثون ألفا، فأعطى لهم الحياة وخيرهم بين الرجوع إلى بلادهم أو الانضمام إلى جيشه ، وأمر بإعطاء هؤلاء الرجال المحررين مؤنًا لإعاشتهم ، وأخذ ثمن ذلك من الأغنياء منهم ، وأعطاها مجانا للفقراء والمرضى... ".

حل السلام أخيرا، وانتهت الحملة الصليبية الخامسة. وظلت القدس مسلمة ، وعادت دمياط لؤلؤة مصر.

وفى قصيدة كتبت عام ١٢٢١ بعد فقد دمياط، وصف الباحث هورون دى سانت كانتين الكاردينال بيلاج بأنه رجل الدين الخائن ، وأنه أخذ جانب جالون ضد رولاند المتدين. وقال إن روما أخطأت خطأ كبيرا باستبدالها النقود بأمنيات الصليبيين، وبالتالى منع المحاربين الصليبيين من التوجه إلى الأراضى المقدسة:

" لا يمكن أن يعتبر راع يقظًا على قطيعه عندما يبيع هذا القطيع للذئب مقابل نقود... ماذا سوف يحدث لهذه النقود التى كسبت ببشاعة من هؤلاء المضللين الذين نزعوا الثمن من الصليبيين؟ إننا أخذنا فى عكا وبيت لحم ما كان قد وعدهم الله به... ".

(القدس تشتكى ، أناشيد الصليبيين ، باريس ١٩٠٩ ، طبعة ج. بيديارو ب. أوبرى) .

ويحكى المؤرخ " أبو شامة " أنه فى أثناء احتفال السلاطين الأشقاء الثلاثة، أمطروا مطربة أطربتهم بأغنية جديدة فى هذه المناسبة بالدينارات الذهب:

" أبناء الكفرة، هبوا وشاهدوا ماذا حدث فى هذه الأيام! أيها المسيحيون انظروا إلى عيسى (المسيح) ومعه موسى وهم يساعدون محمدا على النصر ".

من بوڤين إلى المنصورة

إذا قارنا بين معركة بوفين التى قادها جيوم لو بريتون والتى علق عليها ببراعة ج. دابى (يوم أحد فى بوفين) وبين المفاوضات التى قادها السلطان " الكامل " بعد كارثة الفرنجة فى المنصورة، لأذهلنا التشابه فى الموقف. فبالرغم من أن بوفين تبعد عن المنصورة، والملك فيليب أغسطس لا يشبه السلطان " الكامل أيوب " البتة، إلا أننا نشعر أننا فى الحالتين أمام " فرسان " رجال من العالم نفسه .

مثل ما حصل فى بوفين، عند انتهاء المعركة، كان المنتصر والمهزوم يجلسان جنبا إلى جنب، متساويين، يرأسان احتفالا ملكيا ينسيهما قسوة المعركة التى انتهت لتوها، وليس كما هو الحال الآن. وفى بوفين كانت المعركة تدور بين طرفين مسيحيين ، وكأنها مباراة فى الفروسية. أما فى المنصورة فقد بذل الكاردينال بيلاج كل ما فى وسعه حتى يصبح الأمر كذلك . إلا أن الطرفين كانا ينتميان إلى عالمين مختلفين فى أسلوب الحياة، وأيضا حضارتين بعيدتين كل منهما عن الأخرى. وكان الدين هو الرمز الواضح لهذا الاختلاف ، والمنتصر هو الذى سيحصد النتيجة آخر الأمر.

وبالنسبة لمصر، فإنه فى حالة انتصار الفرنجة كان يوجد خطر وقوع البلد فى معسكر الأعداء. فالغزاة كانوا سيفرضون ديانتهم بحد السيف ، كما فعلوا فى الماضى فى فلسطين وغيرها .

أما الفرنجة الذين يحاربون بعيدا عن بلادهم الأصلية، فقد كان الوضع يختلف. فالنتيجة إما الموت أو تحمل قسوة قانون الغزاة. ولكن بلادهم الأصلية فى أوروبا كانت بعيدة عن أى مخاطر.

ومع ذلك، فـإن السلطان " الكامل " أظهـر لهم منذ البـداية إمكانيـة المفـاوضـات، مثلما كان الحال في بوفين، فإن الهدف ليس قتل الأعداء. وفي بوفين أيضـا كما في المنصـورة، كـان يجب أسر الأعداء من أجل الفدية، وأخـذ أمـوال الأسيـر، وإعادة مـا استولى عليه بدون حق ، كما حدث في دمياط.

ومع ذلك فالمنصورة ليست بوفين.

تصنع السلطـان " الكامل " نسيـان الواقع ، وهو أنه بالنسـبة للصليـبيين فـهم لا يحـاربون مـسيـحـيين، وقـد أوضح الكاردينال بيـلاج لمبـعوثي السلطان هذه النقطة جيـدا ، فهدف الحـملة ليس الدخول في مفـاوضـات. بل إن الهـدف المعلن والمنشـور هو القضـاء على الكفرة ماديا ومـعنويا ، وتفوق المسيحية على الإسـلام. وكان من المفترض أن تكون الإجابة هي محو المهزوم من الوجود. ولكن سلطان مصر يفضل استخدام لغة العقل والدبلوماسية في خدمة السياسة.

وجـان دي بريان، فـارس فرنسـا الذي أصبح في الحـقيـقـة من " المهور " يتكلم باللغة نفسها. المسيحية لا يمكنها تدمير الإسلام، والإسـلام لا يستطيع ولا يريد تدمير المسيـحية. وقد حكم على الديانتين بالعيش جنبا إلى جنب، إذًا لماذا لا نحـاول العيش في سـلام؟ وإذا كان الأمـر كذلك، فـقد اقـتنع الجـانبان بأهمـية الاتفـاق، وحتـى يمكن التعامل بالروح نفسها التي سـادت في بوفين. تواجه الفرسـان وحاربوا بشجـاعة وعزم. والآن وقد انتهت المعركة، كما هو الحـال في نهـاية المباراة، اجتمع الفرسـان لتصفيـة حسـاباتهم. سوف يتم تقييم الغنائم من الجانبين، وتبادل الأسرى، المهزوم سوف يدفع الثمن الحقيقي للغنيمة. وسوف يصبح الاحتفـال أكثر بذخا ، ليعوض مـا كانت عليه المعركة من مشقة. وسيتم التوقيع على " هدنة " وهـي ضرورية للطرفين للراحة ، وإعادة بناء قواتهم ، فمن المعروف أنه لا يوجد سلام دائم ، والحرب هي جزء من الحياة. ولكن الهدنة ستـفصل بين المتحـاربين لفترة مناسبـة ، ثم بعد ذلك سـتعود المعـارك بقيـادة محاربين آخرين. فهذا هو قانون الطبيعة الذي لا يجرؤ أحد أن يقف في مواجهته.

ومعركة المنصورة انتهت كما انتهت معركة بوفين. انتهت المعركة ولا يوجد قتال. نتفاوض، ونتبادل، نعطي ونأخذ، ندفع ما يجب دفعه ، ونوقع هدنة.

هل كان " الكامل " على حق فى انتهاج هذا السلوك، وأن ينسى أن حملة صليبية على مصر لا تقارن بالخصومة بين المسيحيين والمسلمين؟

الشك فى الشقيقين والنقد الشديد الذى استمعا إليه من كل من حولهما لم يقنعهما بأن الفرنجة لن يردوا جميل معاملتهما الإنسانية نحوهم. وقد أجاب على من انتقدوه بآية من القرآن الكريم تقول "وما النصر إلا من عند الله" وأن المستقبل سيظهر من كان على حق ومن كان على خطأ.

ثانيًا : الحملة الصليبية المسالمة

كان غياب فردريك الثانى إمبراطور ألمانيا وملك صقلية من أهم أسباب انتصار المصريين فى المنصورة، هل سيأتى أو لن يأتى للانضمام للحملة الصليبية؟ وفى دمياط كانوا ينتظرونه بفارغ الصبر. وكان السلطان " الكامل " يتساءل أيضا : هل كان الإمبراطور فعلا صديقا مخلصا لمصر والإسلام؟ هل كان من القوة بحيث يستطيع مقاومة بابا المسيحيين، والعدو الأزلى للإسلام؟ . كان " الكامل " يستقصى الأخبار من التجار اليهود والمسلمين الذين يجوبون البحر المتوسط ، ويرسون فى صقلية مكان إقامة فردريك المفضل. وأخيرا لم يحضر الإمبراطور ، وتشتت الصليبيون المنهزمون.

فردريك الثانى ، المذنب

فى روما استقبل الفاتيكان أنباء الاستسلام فى المنصورة والجلاء عن دمياط بوجوم. وكانت التقارير الواردة من جان دى بريان والكاردينال بيلاج قد تم تحليلها بعناية. وكان البابا إينوسنت الثالث – الذى كان الأب الروحى للحرب الصليبية – قد مات قبل أن يحضر بدايتها .أما خليفته هونوريوس الثالث، المنتخب عام ١٢١٦ فلم يتأثر بالسلوك الشريف لسلطان مصر. فقد توصل إلى نتائجه الخاصة من خلال الأحداث المحزنة التى تسببت فى هزيمة الجيوش الصليبية فى المنصورة، من حيث ضياع دمياط والفشل الكامل للحملة. فقد أدرك أن فشل الحملة لا يرجع للأخطاء الناجمة عن سوء تقدير الكاردينال بيلاج ، ولكن لأن الخطأ يقع بكامله على الإمبراطور فريدريك الثانى وحده. فإذا كان هذا الأخير قد سافر كما وعد لنجدة جيش الفرنجة فى مصر، لكان الاستيلاء على بابيلون (القاهرة) وغزو مصر حينئذ سوف يتم بنجاح. إلا أن الإدارة البابوية تناست بسهولة أنه منذ شهور قليلة كان البابا قد شكر الإمبراطور على حماسه وتعزيزاته القيمة التى أرسلها إلى دمياط تحت قيادة لويس دى بافيير. ولكن لم يكن من الممكن إدانة بيلاج بدون الإضرار بالبابا وسلطته، إلا أن فردريك الثانى كان لديه الرد المقنع على هذا السؤال ، وهو أنه توقع هزيمة الصليبيين ، وأن وجوده أو غيابه لم يكن سيغير من الأمور شيئا. وزادت حدة النزاع بين روما والإمبراطور مما جعل الشعراء الجوالين يتغنون به قائلين:

يا روما ! أورشليم القدس تشكو من الطمع الذى يسيطر عليك

وكذلك عكا ودمياط

يقول الجميع إن كل ذلك بسببك

حيث إن الله والقديسين ليسوا مكرمين فى هذه الأرض

(أغنية شكوى أورشليم القدس ضد البلاط فى روما)

و كتب جيوم لو كليرك فى " قرص الله الذهبى ":

" عندما يرأس رجال الدين الفرسان، فإن ذلك بدون شك ضد القانون. فإن على رجل الدين الاكتفاء بترتيل الكتابات المقدسة والمزامير بصوت عال، وترك الفرسان يذهبون إلى المعركة " .

كان لفشل الحملة الصليبية صدى واسعً، حيث كان يمثل فى عيون العالم المسيحى فشل القيادة البابوية فيما كان يجب أن يكون مجرد حملة يعهد بها إلى العسكريين. ومنذ هذا الوقت ، بدأ ملوك أوروبا يشعرون بأن لهم الحق فى أن ينظروا إلى الحملات الصليبية من وجهة نظر أوضاع سياستهم الخاصة.

كان فردريك الثانى، إمبراطور ألمانيا وملك صقلية، وحفيد فردريك دى بربروسا أول أمراء المسيحية. وكان روجر الثانى ملك صقلية جده من ناحية الأم. فقد كانت أمه من صقلية أيضا، وقد وصف بأنه رجل من الجنوب أكثر منه من الشمال. وكان شعر جسمه أصهبَ، ولم يكن جميلا ، بل كان أصلعَ قصير البصر عصبيا نحيلا. وقال عنه أحد المؤرخين " لو كان عبدا، لما اشتراه أحد بمائتى فلس " ووصفه القسيس سلامبى دى أداموه فى تأريخه كالآتى:

" رجل ماكر وخبيث، متزمت وسريع الانفعال، وفى الوقت نفسه كان رجلا له قيمه ومبادؤه ، خاصة عندما يريد أن يظهر طيبته أو حفاوته وعطفه وظرفه ونشاطه.كما كان يجيد القراءة والكتابة ونظم الشعر والأغانى ".

وكان يطلق عليه" أعجوبة الدنيا" فقد كان يجيد أيضا العديد من اللغات: الصقلية والتوسكانية والفرنسية والألمانية واليونانية والعربية واللاتينية.

وعندما توج فى أيكس لا شابيل، فى ١٥ يوليو ١٢١٥ أعلن نذره للقيام بحملات صليبية. وناشد نبلاء ألمانيا أن يحذوا حذوه. وفعل ذلك تلقائيا بدون الرجوع أولا للبابا إينوسنت الثالث.

وهكذا ، أكد استقلاليته عن بابا روما. إلا أنه كان يريد أن يتوخى الحذر في تحديه لمن يريد أن يجعل الحملة الصليبية مهمة خاصة بالكنيسة تحت سيطرة البابا. وفي المجمع الكنسي الرابع في اللاتيران، كان من الواضح أن إينوسنت الثالث قد فهم الرسالة. فلم يذكر اسم فردريك بين الصليبيين ، وردد الأساقفة أن هذه الأمنية ما هي إلا جنون شاب جاهل تنقصه الخبرة.

وعندما مات إينوسنت الثالث (١٦ يوليو ١٢١٦) لم يضع خليفته هونوريوس الثالث في الحسبان الأمنيات التي أعلنها الإمبراطور إلا في عام ١٢١٨ ، عندما تذكر البابا فجأة أن الإمبراطور كان قد وعد بالمشاركة في الحملة الصليبية ، وهنا طلب منه سرعة إرسال النجدة إلى مصر. ورد فردريك بالإيجاب ، ولكنه وضع شرطا للسفر بأن يتم تنصيب ابنه هنري ملكا قبل سفره ، وأن يتلقى هو وزوجته كونستانس التاج الإمبراطوري من أيدي البابا في كاتدرائية القديس بطرس في روما.

ووافق البابا، وذهب فردريك كونستانس إلى روما. وكان عمر الإمبراطور حينئذ ٢٦ عاما فقط ويطلق عليه " أعجوبة الدنيا" وفي ٢٢ نوفمبر ١٢٢٠ في كاتدرائية القديس بطرس في روما، وضع البابا هونوريوس الثالث التاج على رأس فردريك وركع البابا أمامه كما يركع أمام سيد العالم، مقرا بأنه من الآن فإن دور فردريك دي هوهنشتاوفن أصبح مكملا لدور الإمبراطور شارلمان. وذكر هونوريوس الثالث الإمبراطور بأن الصليبيين الذين استولوا على دمياط سوف يصبحون في خطر، طالما لم يعزز غزوتهم في داخل مصر، وكانت هذه هي القضية التي يدافع عنها الكاردينال بيلاج. وللمرة الثانية، وفي روما، تقلد الإمبراطور شارة الصليب وأدى قسمه بين يدي الكاردينال أوجولينو أوستي، الذي أصبح اسمه فيما بعد جريجوري التاسع وأصبح من ألد أعدائه. ووعد بالسفر إلى مصر في شهر أغسطس ١٢٢١، وإرسال تعزيزات إلى دمياط بداية من فصل الربيع.

إلا إن ما حدث بعد ذلك هو أن الجيش الرئيسي لم يصل إلى دمياط إلا بعد كارثة المنصورة ، وأن فردريك الثاني لم يذهب إلى مصر قط .

ويمنحه لقب الإمبراطور فى روما،" نور العالم الساطع " ،أصبح فردريك الثانى بدون أدنى شك الملك الأكثر سطوة فى أوروبا. وأصبح أول ملك غربى يسك نقودا من الذهب ، كما كان يحدث أيام القياصرة. ولأنه كان من أم صقلية المولد وأب ألمانى ، فكان يفضل باليرمو عن أيكس لا شابيل ، والبحر المتوسط عن بحر البلطيق. ويقال إن حلمه كان أن يركز مملكته فى البحر المتوسط. وبهذا تعود الإمبراطورية الرومانية إلى أصلها. وحتى يتمكن من تحقيق هذا الحلم كان عليه إقامة صلات وطيدة مع الشرق الأوسط الإسلامى.

وقد أدرك فردريك سريعا أن العقبة الأساسية فى طريقه هى البلاط البابوى فى روما ، الذى يصر على أن تكون له اليد العليا فى إدارة كافة الأعمال الهامة فى أنحاء العالم المسيحى ، وأيضا بالنسبة لعالم الكفرة. ولهذا اعتبر أنه عدو الكنيسة لعدم اعترافه بهذه الهيمنة، وأصبح فردريك الثانى بالتأكيد الأمير المسيحى الأكثر حرمانا من بركة الكنيسة فى التاريخ .

التحالف المشروع وغير المشروع

لماذا إذن كان هذا العناد من قبل روما ضد أول أمير في المسيحية، والوريث المختار لشارلمان؟ . من الواضح أن روما كانت تتوقع أن تبقى الحكم الأوحد بالنسبة لشرعية أو عدم شرعية كل ما يخص الأمراء المسيحيين، وأنه لكى تكون مسيحيا وتظل مسيحيا، كان على الأمراء ألا يتجاوزوا الحدود التي تضعها روما. فمثلا كان للبابا حق الاعتراض، وكان على الملوك المسيحيين احترام هذا الحق إذا أرادوا الاستمرار في الحصول على مساندة الكنيسة(التي كانت في يد رجال الدين). كما كان على المسيحيين جميعا القسم بالإخلاص ، والإذعان لأوامر البابا ، وإلا تعرضوا للعقوبة الكبرى وهي حرمانهم كنسيا ومصادرة ممتلكاتهم. ولذلك حتى يتمكن البابا من السيطرة على هذا الأمير العنيد كان يجب أن يوجد قوة مسيحية مسلحة على أهبة الاستعداد لتحل محل هذا الأمير العنيد وتدين بالولاء للبابا " الراعي " الحقيقي للشعب المسيحي.

وكانت الكنيسة الكاثوليكية منذ الأزمنة التاريخية البعيدة تؤمن بأن أى تحالف أو معاهدة صداقة أو تعاون متبادل بين شعب مسيحي وشعب كافر هو عمل غير مشروع. والذي يؤكد قانونية هذا السلوك التقليدي هي الفقرة الثانية الواردة في الرسالة الثانية للقديس بولس إلى الكورينثيين (الإنجيل الثانى٦،١٥) وكان البابا يوحنا الثامن قد ردد هذه الفقرة في عام ٨٧٥ بغرض حث المدن الإيطالية نابولي وسالرنو وأمالفي على الرجوع عن تحالف كانوا قد أتموه مع الأمراء المسلمين من جيرانهم . والحقيقة هي أن القديس بولس عندما كتب إلى الكورينثيين كان غرضه أبعد ما يكون عن القيام بتنظيم العلاقات بين الأمراء المسيحيين والملوك الكفرة.و في الواقع فهل مر حتى على خاطره وجود أمراء غير مسيحيين ؟ في حقيقة الأمر فإن القديس بولس لم يكن يتحدث سوى عن العلاقات الشخصية بين المسيحيين والكفرة . مخافة من أن يقوم المسيحيون

بتقليدهم فى تصرفاتهم. وبالتالى فإن البابا يوحنا الثامن طبق القاعدة نفسها بالنسبة للعلاقات بين المجتمع السياسى المسيحى والمجتمع الذى يعتمد على عقيدة غير مطابقة للمسيحية، كما كان ينظر للإسلام فى القرن التاسع.

هذا التحريم من التحالف ينبع من " القانون الإلهى ".(فالبابا هو رئيس المجتمع المؤمن) " وهذا القانون هو الذى يجب أن يخضع له الملوك والأمراء المسيحيون. وفى عصر يوحنا الثامن أى فى القرن التاسع كان العالم غير المسيحى عالما عدائيا. فقد كانت تعاليم الإسلام التى أدت إلى الجهاد تنتشر فى كل الاتجاهات . فالضفة الجنوبية للبحر المتوسط أصبحت تدين بالإسلام ، وكانت السفن المسلمة تسيطر على البحر. وأمام هذا الانتشار الذى لم يكن له حدود كانت هناك ضرورة قصوى للدفاع عن المسيحية ، فالمجتمع المسيحى والأسس الصوفية للمسيحية تعارض كل ما يعتبر " مجموعة القوانين الشيطانية".

وكان البابا جريجورى الكبير (٥٩٠ إلى ٦٠٤) هو أول من أصدر مرسوما بإمكان استعمال القوة مع المنشقين وغير المؤمنين ، حتى يعتنقوا المسيحية: وهو مبدأ خطير يؤدى إلى عواقب مأساوية فى عصر لم يكن الإسلام قد ظهر فيه بعد! ، أما فى فرنسا فقد كان لدى الملوك الذين ينتمون لعهد الملك شارلمان إمكانية إعلان الحرب على السكسونيين ، متخذين الدين ذريعة لذلك.

أما القرآن فيظهر تسامحه لكل أهل الكتاب – سواء كانوا يهودا أو مسيحيين – ويلجأ فقط للإقناع من خلال الدعوة وليس القوة. وتعتبر الإرادة الإلهية التى عبر عنها فى القرآن سندا لهذا الموضوع:

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة يونس ٩٨]

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ على الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ﴾ [سورة يونس ٩٩]

وإذا كـان تفسـيـر مـا جـاء فى هـذه الآيـات لا يتـم احـتـرامـه أو الالتزام به بدقة، إلا أنه على أقل تقدير فإن المبدأ الاساسى كان دقيقا وواضحا ، أن على المسلمين عدم اللجوء إلى الفرض بالقوة والإجبار. إن التعايش ما بين الديانات المختلفة وخاصة الديانات الثلاث المنزلة، الإسلام والمسيحية واليهودية، كانت طبيعية. وفى أوروبا - بالنسبة للمبشرين المولعين بالصليبية - كان السائد هو الجنوح إلى الهيمنة الكاملة للدين المسيحى كما يفهم فى روما، مع إبعاد الديانات الأخرى. ولم يتم التساهل مع اليهود أو قبولهم ، إلا لأن ديانتهم تستخدم كبرهان للديانة المسيحية.

بعد ثلاثة قرون، تبدل المشهد: فالمسيحيون الذين كانوا فى حالة دفاع فى القرن التاسع انتهوا فى القرن الثانى عشر إلى حالة الهجوم السياسى والعسكرى ضد المسلمين. وقد شجع هذا على إنهاء التحالف المحلى بين الأمراء المسيحيين والمسلمين، فالمصلحة الفورية كانت غالبا ما تتفوق على الانتماء للديانة نفسها . وفى إسبانيا كانت هذه هى القاعدة المطبقة عموما فى السلوكيات. هل يمكن أن ننسى أن البطل القومى المثالى" سيد كامبيادور رودريجو دياز"، كان قد كرس معظم نشاطه العسكرى العظيم فى خدمة أمير مسلم؟

وبالرغم من إن الكنيسة كانت فى ظاهرها تشجع الروح الدفاعية ، إلا أن الروح الهجومية نشطة لدى المسيحيين. وفى عام ١٠٩٥ كان سبب الدعوة للحملة الصليبية الأولى، " تحرير الأراضى المقدسة والكنيسة الشرقية " وغزو وإعادة الأراضى التى كانت ذات أصل مسيحى. والحرب الصليبية كانت إذا معادلة " دفاعية " حتى ولو كانت من وجهة النظر العسكرية هى أول هجوم عام منظم من جانب العالم المسيحى ضد المسلمين المخالفين فى العقيدة.

وعلى المسار نفسه تجمدت أيضا الأوضاع الإيديولوجية. فالفارس، البطل، أصبح نموذجا لكل المجتمع، وأصبح " المدافع عن العقيدة " لأنه مسيحى ، فلن يستطيع أن يضع نفسه فى خدمة أمير مخالف فى العقيدة كما فعل " سيد ".

كان يجب على المسيحيين أن يكونوا أقوياء أمام المسلمين. " والسلام الإلهى " الذى كانت الكنيسة تحاول النهوض به كان ضروريا لإحساس الصليبيين بالوحدة ضد العدو المسلم. ولكن لأسباب قومية يمكن فى بعض الحالات وضع ميثاق صداقة أو تحالف يتم فى الحالات الصعبة بين الملوك المسيحيين والمسلمين. وهذا حقيقى خاصة فى الأراضى المقدسة .

سوف أسافر يوما ما ....

بصفة عامة يجب علينا تفهم أسباب اعتراض الباباوات الذين يتناوبون فى روما على الإمبراطور فردريك الثانى. هل من الممكن أن تكون سياسته فى علاقاته مع المخالفين فى العقيدة غير سياسة البابا؟ "وضع الدولة" كما تصورها فردريك الثانى، هل يمكنها أن تعارض القواعد السلوكية الموضوعة فى روما لكل المسيحيين؟ هل يمكن أن يتصور إمبراطور مسيحى الحروب الصليبية بطريقة مختلفة عن التصور البابوى؟ كان الإمبراطور فردريك الثانى والبابا هو نوريوس الثالث يكرهان بعضيهما البعض بشدة. ولكن البابا كان أكثر واقعية ، لأنه لم ينس أن الإمبراطور كان الملك المسيحى الوحيد الذى يمكنه تعبئة جيش فى الأراضى المقدسة. لذلك كان من الواجب عليه ألا يتنازل نهائيا عن علاقته مع إمبراطور يتمتع بهذا النفوذ القوى.

وكان هناك شخص واحد يمكنه التقرب من البابا والإمبراطور فى آن واحد: وهو هرمان فون سالزا، عظيم الفرسان التوتونيين، والصديق والمستشار المقرب للإمبراطور، وكان الإمبراطور يثق فيه بحيث ولاه المهمة الحساسة التى تتناول علاقاته مع روما. كما كان البابا يقدر هذا الرجل الذى يتمتع بالإخلاص والوفاء بعيدا عن كل شك. وكرجل دين كان فون سالزا قد أقسم بالولاء للعاهل البابوى، إن مهمته كسفير فرضت عليه أيضا قسم الولاء للإمبراطور ، مما جعل الموقف صعبا بالنسبة لجميع الأطراف.

وفى عام ١٢٢٢ رتب هرمان فون سالزا لقاء بين هونوريوس الثالث والإمبراطور فريدريك الثانى فى فيرولى بالأبروزس. وفى هذا اللقاء اتهم البابا الإمبراطور فردريك الثانى بأنه بغيابه عن الحملة الصليبية الخامسة فى مصر قد تسبب فى الكارثة التى حلت بهذه الحملة. وأجاب فزدريك الثانى بمساعدة فون سالزا بأن ثورة البارونات الصقليين ووقوع عصيان مسلح من قبل العرب على هذه الأراضى جعله فى موضع

يستحيل معه السفر. ثم سأله لماذا لم يبق الصليبيون فى دمياط، وهى المدينة المحصنة والتى يستحيل تقريبا الاستيلاء عليها بدلا من محاولة الاستيلاء على مصر كلها؟ وأتساءل، لماذا لم يقبل الصليبيون العرض الذى تقدم به السلطان ألا وهو استبدال القدس بدمياط ، بالإضافة إلى الأماكن الأخرى التى كانت مملوكة للفرنجة والتى استولى عليها صلاح الدين؟ وتساءل، ما الهدف من وراء الحملة الصليبية: مصر أم القدس؟

وفى النهاية خضع البابا ووافق له على تأجيل آخر. وفى عام ١٢٢٣ التقى الاثنان مرة ثانية ولم يكن لدى هونوريوس الثالث صبرٌ حتى يرى الإمبراطور ، وقد سافر إلى الأراضى المقدسة و جدد الإمبراطور قسمه تحت ضغط الحرمان الكنسى بالسفر فى ميعاد غايته يوم ١٤ يوليو ١٢٢٥ إلا أن السفر تأجل مرة أخرى حتى ٢٧ أغسطس ١٢٢٧ .

وفى هذه المرة، اضطر الإمبراطور لقبول شروط جبرية أملاها عليه البابا. حيث تعهد بتسليح ألف فارس من ماله الخاص ، وتعهد أيضا بأن يتولى كافة تكاليف هؤلاء الفرسان لمدة عامين، وكان عليه أيضا توفير وسيلة انتقال بحرية لألفى فارس، مع السماح لكل منهم بمرافق يحمل السلاح ، وثلاثة جياد وكل العتاد اللازم، وأخيرا تجميد مائة ألف أونس ذهب، وهو يمثل مبلغا ضخما، على أن يتم توزيع هذا المبلغ على فقراء الأراضى المقدسة فى حالة عدم سفره فى الموعد المحدد. وتم الاتفاق على إيداع المبلغ لدى فون سالزا عظيم الفرسان التيوتونيون.

إلا أن هونوريوس الثالث مات قبل سفر الإمبراطور، وانتخب جريجورى التاسع فى عام ١٢٢٧ ، وقام هو الآخر بمتابعة الإمبراطور بكراهية شديدة. وسنحت له الفرصة الأولى للتدخل ضد فردريك الثانى فور انتخابه. فقد حث الأمراء البولونيين على مقاومة الفرسان التوتونيين المسلحين من قبل الإمبراطور ، والذين كانوا يشجعون الكفار البروسيين بأن يعلنوا استقلالهم بالثورة ضد أسيادهم الدانمركيين والبولونيين. وهكذا تمت المواجهة بين البابا والإمبراطور، وفى وسطهم البولونيون والبروسيون.

ولكن أخبار المبادرات الجديدة لفردريك الثانى فى الشرق أضافت إلى البابا أسبابا جديدة أشد خطورة تدفعه للشكوى من الإمبراطور.

فأمام الهزائم المتكررة للصليبيين كان فردريك الثانى قد وصل فى نهاية الأمر، إلى أنه بالنسبة للمسيحيين، فإن طرق غزو الأراضى الإسلامية كانت قد أغلقت، وكان من الأفضل التفاوض. ألم يكن هناك اهتمامات مشتركة تنفذ مع الملوك المسلمين بدلا من قوة السلاح ؟ إلا أن النتيجة التى وصل إليها كانت فريدة فى القرن الثالث عشر. فقد كانت فى الاتجاه المعاكس للشعور العام: وهو هزيمة إمبراطورية الشر بقوة السلاح، وتحويل هذه الإرادة والقوة المتمسكة بالمسيحية والتأكيد على النصر العظيم للمسيح، وفى الوقت نفسه ، إثراء المدافعين عن العقيدة. ومن ناحيته كان فردريك الثانى معارضا تماما لهذا السلوك.

عالم الإسلام

على هذا الوضع، فإن النظرة إلى الإسلام فى أوروبا كانت فى غاية السوء، حيث إن الحروب قد استمرت لمدة قرن ضد المسلمين فيما وراء البحار وفى إسبانيا. وكان من النادر أن يحاول أحد فهم ما يحدث فى جنوب البحر المتوسط ، وكيف إنه فى أقل من قرن من الزمان بين عام ٦٢٢ (السنة الأولى الهجرية) والقرن الثامن استطاع الإسلام أن يشكل إمبراطورية ممتدة أكبر من إمبراطورية الإسكندر والإمبراطورية الرومانية، كذلك. كيف، ولماذا، تمكنت العشائر الأمية التى لم يتوافر لها إلا كتاب واحد، من نشر دينها الجديد ولغتها وجعلها تتطور بسرعة لتصبح الأداة البارزة للحضارة، وقاطرة للثقافة المشتركة لشعوب مختلفة مثل الإيرانيين والمصريين، وكلها ثقافات قديمة وعريقة وموروثة من حضارات رائعة؟

ومن الجزيرة العربية انتشر الإسلام على طول سواحل البحر المتوسط، وحدود بيزنطة على المحيط الأطلنطى. وبعد المغرب انتقل الإسلام إلى إسبانيا، واجتاز جبال البرنس، وغزا الروسيان، والونجدوت والبروفانس. وصعد المسلمون وادى نهر الرون حتى سافوى ، ووصلوا إلى طول الشاطئ الأطلنطى حتى نهر جيروند، ثم عبروها للوصول إلى شاطئ اللوار على حدود الغابات التى لم يمكن عبورها فى الشمال.

ولم تكن البلاد الواقعة على سواحل البحر المتوسط هى المنطقة الوحيدة التى دخلت فى الإسلام. أما الشام وفلسطين وكذلك مصر فلم تكن كلها مسلمة. ولكن فى هذا العصر وفى أوروبا لم يكن الأوروبيون يعرفون شيئا عن الإسلام.

أصبحت إيران إسلامية منذ القرن السابع ، ثم انتشر الدين الجديد نحو الجنوب فى آسيا وإفريقيا متتبعا طرق التجارة. ففى بادئ الأمر كان يتتبع الإسلام طرق السواحل حيث كان التجار العرب والإيرانيون يتبعون شاطئ الخليج الإيرانى والبحر

الأحمر، ثم ينزلون إلى الساحل الأفريقى حتى زنزبار. ثم يعبرون المحيط الهندى، الذى كان محفوفا بالمخاطر بدلا من الإبحار على طول الشاطئ. وكان البحارة الإيرانيون فى الخليج يعرفون منذ قرون، قبل الإسلام، التأثير الجيد للرياح الموسمية المصحوبة بالأمطار. وخلال الصيف كانت هذه الرياح الشديدة التى تستمر لمدة أربعين يوما تساعد على دفع سفن هؤلاء التجار من ساحل العرب فى اتجاه الهند. أما فى الشتاء فكان الهواء يأخذ اتجاها معاكسا ، وبذا يساعد السفن على العودة بسرعة إلى موانيها. وهكذا تكتمل الدورة السنوية للتجارة. فيسافر التجار فى الصيف محملين بالذهب والفضة ، ويعودون فى الشتاء التالى بكل أنواع البهارات والأعشاب والعقاقير الطبية والأحجار الكريمة والمنسوجات القطنية أو الحريرية. ودائما تدفعهم الرياح الموسمية ويصل التجار المسلمون إلى البنغال، وماليزيا وأندونيسيا ومعهم ديانتهم الجديدة. فى حين كان الوكلاء التجاريون فى إندونيسيا بدورهم يساعدون على الربط بين الفلبين والصين.

وعلى الساحل الشرقى لأفريقيا، وبعد عدة قرون، اكتشف فاسكو دى جاما طريق رأس الرجاء الصالح، والتقى بالرحالة المسلم أحمد بن ماجد الذى أوصله، وهو بدون شك لا يدرك خطورة ما فعل، فى أقل من شهر إلى كلكتا فى الهند.

وعندما كان الصليبيون يحاربون فى البحر المتوسط، كان الإسلام قد استقر فى شمال الهند فى خليج البنغال وشرق ملقا. ومن ملقا سيطر الإسلام على طريق التوابل. وفى ماليزيا كان السلاطين الكبار مسلمين. ونقل ملاحون آخرون العقيدة الجديدة إلى موانئ الفلبين والصين. بينما القوافل التى تعبر طريق الحرير البرى، تنشر الإسلام خطوة بخطوة حتى أقاليم الصين الشرقية. وفى خلال أربعة قرون – من نهاية القرن السابع وحتى نهاية القرن الحادى عشر – أصبحت كل بلدان البحر المتوسط تدين بالإسلام. وقد قال ابن خلدون " لن يستطيع المسيحيون أن يضعوا حتى لوحا من الخشب فوق المياه ". وبالطبع كان هذا القول مبالغا فيه.

وعلى أية حال، فإن التفوق الواضح للعرب بدأ يأفل مع وصول النورمانديين إلى صقلية. ففقد المسلمون بالرمو فى ١٠٧٢، واستولى روجر الأول ملك النورمانديين على كل الجزيرة. وفى عام ١٠٨٧ وقبل رحيل الحملة الصليبية الأولى نحو الشرق بفترة طويلة، شكل الملك روجر الأول حملة اتجهت إلى شمال أفريقيا ورست فى المهدية ، وهى الميناء الكبير وعاصمة المملكة الفاطمية فى تونس. وقد انتصر فيها المسيحيون النورمانديون واقتسموا غنيمة تبلغ ٣٠٠٠٠٠ قطعة ذهب. هذا النصر المدوى اعتبر فى واقع الأمر نقطة تحول بالنسبة للحملة الصليبية الأولى. فالسفن المسيحية التى تم بناؤها بإتقان أكثر فأكثر بدأت تجوب البحر المتوسط فى كل الاتجاهات وأوقفت سيطرة المسلمين على البحر.

التجارة والسلاح والمال

كان أهل جنوة هم الذين اشتركوا مع منافسيهم من بيزا بجانب النورمانديين الذين استولوا على المهدية، وعلى الأرجح فهم أول من تفهم أهمية الطرق المؤدية إلى الشرق. وكان من المؤكد أنهم كمسيحيين لديهم الرغبة الدينية فى المشاركة بورع فى الملحمة الكبرى لتحرير الأماكن المقدسة، أو أكثر من ذلك، فى الانتقام من الغزو المستمر للجنود المسلمين على أرضهم. ولكنهم تساءلوا لماذا الذهاب عن طريق البر الذى هو فعلا أقل تكلفة ، ولكن بالتأكيد أطول مسافة، والملىء بألف كمين وفخ مميت، مع أن البحر مفتوح على مصراعيه أمامهم؟ ، ولذلك ، وفى يوليو ١٠٩٣ قام أصحاب السفن فى جنوة بتسليح اثنتى عشرة سفينة ونقلوا أربعة آلاف رجل إلى إنطاكية فى الشام. وتلا هذه الحملة حملات أخرى كثيرة حتى قبل وصول الصليبيين إلى القدس عام ١٠٩٩ فى عام ١٠٩٨ كانت بيزا قد أرسلت أكثر من ١٢٠ سفينة بأحمال مختلفة فى اتجاه فلسطين. ولم تستطع البندقية البقاء بعيدة عن هذه الأحداث. ففى عام ١٠٩٩، وهى السنة التى استولى فيها الصليبيون على القدس، أبحر مائتا شخص من البندقية إلى حيفا. ولم تتوان ثلاث المدن الإيطالية الأخرى - جنوة وبيزا والبندقية - عن الدخول فى هذه المنافسة ، والسلاح فى أيديهم لزيادة نصيبهم من الأرباح من هذه التجارة. فبدأوا بدورهم فى نقل المسافرين إلى الشرق من حجاج، وجنود، وجياد، وأسلحة... إلخ، ليعودوا بعد ذلك بثروة الشرق المذهلة من بهارات ولؤلؤ وذهب وحرير... الخ سواء أخذت بالقوة أو تم شراؤها من المسلمين. وسوف يتَّبع الإيطاليين البروفينسيون والقطلان (أهل قطالونيا)، الذين كانوا يفضلون التعامل مع المغرب. كان ذلك بمثابة نظام تجارى يحيط بموانئ الفرنجة المحصنة فى الشام وفلسطين، بالإضافة إلى الرغبة فى التجارة مع مصر التى ستكون منبع الثروة لكل المدن التجارية فى أوروبا.

كان هناك عجز فى إجمالى تجارة أوروبا مع الشرق وذلك منذ عدة قرون. فقد كان شراء كميات كبيرة من البهارات، والأقمشة الحريرية، والأحجار الكريمة، إضافة إلى مصاريف الحج، والحملات العسكرية، والفدية التى تدفع لتحرير الأسرى النبلاء، وأخيرا المساعدات المالية المستمرة المرسلة لمساندة المملكة اللاتينية فى القدس، كل هذا سحب الذهب القليل الذى تم العثور عليه فى الغرب ، وخصوصا معدن الفضة، نحو بلدان الشرق الأوسط. وكان ملوك الشرق المسيحيون فى بيزنطة والمسلمون فى دمشق وبغداد والقاهرة، يتمتعون بالثراء الفاحش مقارنة بأمثالهم الأوروبيين. أما الفرسان المفلسون الذين حضروا من الغرب، فلم يكن الشرق بالنسبة لهم يعنى فقط استرداد بيت المقدس، ولكن كان غزو الثراء الذى لا مثيل له فى أوروبا.

كان من الواضح إذن تداخل التجارة مع الحرب والقرصنة. فالأرباح التجارية الناجمة عن حصار مدينة أو ميناء تعتبر غنيمة، كما كان يمكن اعتراض سبيل سفينة للأعداء، سواء مسلمة أو مسيحية، إذا تبين أنه يمكن الخروج منها بثروة معقولة. والمسلمون من جانبهم أيضا كانوا يفعلون الشىء نفسه . وساد العنف والحرب كل مكان. وظل سلب الصليبيين للقسطنطينية فى عام ١٢٠٤ المثل الواضح لأعمال اللصوصية التى تمت باسم الدين ضد مسيحيين آخرين. ولم تكن الرغبة فى تخليص القبر المقدس إلا ذريعة لهذه المؤسسات الدينية أو الدنيوية التى كان هدفها الأول الثراء بأى ثمن وبأى وسيلة ممكنة!

ولكن التجارة يمكن أن تكون مشروعة أيضا. فيجب ألا ننسى أن الحرب كانت ضد المخالفين فى العقيدة على الجانب الآخر. لذلك من الضرورى وضع قواعد للتجارة التى تمثل المصدر الدائم للدخل للذين يلعن أحدهم الآخر يوميا.

ومنذ مجمع اللاتيران الثالث عام ١١٧٩ ، وتحت التهديد بالحرمان الكنسى ، تم منع بيع أسلحة أو مواد بحرية للجنود الشرقيين. إلا أن هذا التهديد لم يوقف التجارة، بل بالعكس، كانت نتيجته زيادة التوسع فيها. وتضاعف عدد التجار الذين حرموا كنسيا بشكل كبير مما دعا إلى وضع ضوابط أخرى كثيرة للغفران (تكفل بذلك مجمع اللاتيران الرابع عام ١٢١٥).

وفى القرن الثالث عشر شمل الحظر التجارى كل السلع التى يمكن أن تساعد على دعم القوة العسكرية البحرية للجنود المسلمين: سلاح أو حديد أو سفن... الخ. وبمرور الوقت، أضيفت سلع أخرى من كل نوع، المواشى، والمنتجات الغذائية... الخ. وفى عهد البابا نيكولاس الرابع (أواخر القرن الثالث عشر) شمل الحظر جميع السلع بدون استثناء. وكان التجار فى إسبانيا قد تعودوا على هذه التجارة، وكذلك السكندريون، حيث أن الإسكندرية كانت الميناء الرئيسى فى مصر.

ومن المؤكد، أن الموضوع برمته كانت خلفيته مادية بحتة. ففى البداية كان رفع الحرمان الكنسى يتطلب دفع الأرباح الناتجة من الاتجار فى السلع المنوعة مقابل غفران الكنيسة. وبالتدريج وافقت الكنيسة على الحصول على نصف الأرباح ثم الربع، وفى النهاية الخمس، حتى يمكن تسهيل التوبة للآثمين وعودتهم إلى حضن مجتمعهم. وفى حقيقة الأمر فإن الحرمان الكنسى لم يكن يقتصر على التجار الخارجين على قانون الحظر بل تعداه إلى مجموعات السفن التى تنقل البضاعة وإلى الوسطاء وكل من شارك أو ساعد فى هذه العمليات، مما زاد من أموال الكنيسة. ففيم كانت تستخدم هذه الأموال التى تم تحصيلها؟ لقد كانت تنفق أساسا لتمويل الحملات الصليبية أو لاستعادة إسبانيا أو تحرير الأسرى المسيحيين من أيدى المسلمين.

وكان بإمكان الباباوات فى هذه الحالة عقد اتفاقيات خاصة تسمح بإرسال سفينة أو عدة سفن إلى الشرق، تحت أكبر ذريعة فى ذلك الوقت وهى هجوم الجنود المسلمين على ممتلكات المسيحيين أو مساعدة الحجاج للذهاب إلى الأراضى المقدسة، أو للذين يرغبون فى تحرير أسرى من أيدى المسلمين، على شريطة أن يصرح لهم البابا بأن هذا الاستثناء بهدف إنهاء أعمال تجارية.

وفى نهاية الأمر، كان التجار الذين يستخدمون قبرص كقاعدة لتجارتهم، قد اضطروا إلى إضافة الغرامة التى يدفعونها للكنيسة إلى قيمة السلع التى يبيعونها. وأصبحت بمثابة ضريبة مثل أى ضريبة أخرى. وبتطور التجارة وانتهاء الحروب الصليبية انتهى هذا التحريم، وعظمت ضغوط الطلب على السلع.

ويذكر الإنجليزى ماتيو بارى الذى كان من أكبر من انتقد روما والفرنسيسكان والدومنيكان لسوء استخدامهم النظام لمصلحتهم المالية، أن هذا البابا المريض أثار جنون رجال الدين الإنجليز والشعب. وروى ما قاله رجل الدين جروسيتى من لنكولن الذى اتهم وهو على فراش الموت البابا أنه يبيع الصلبان (علامة على الرغبة فى الذهاب للحرب الصليبية) ، كما كان اليهود يبيعون الخرفان والحمام فى حظيرة المعبد. وكان يقول عن الفرنسيسكان إنهم " صائدو النقود " وتنقصهم الإنسانية ولا يتورعون عن توزيع الصليب بدون تفرقة على الفقراء والمرضى والعجائز والنساء ، وفى اليوم التالى يتم تحصيل مقابل مالى فى حالة رغبتهم فى التراجع عن عهدهم. وكانت المبالغ المحصلة تعطى لممثل البابا أى ريتشارد دى كونرى.

كما كتب ماتيو بارى قائلا " بالنسبة للأشخاص البسطاء كان هذا شيئا لا يصدق ومثيرا للسخرية. فبدأت عقيدة عديد من الناس تفتر. فالصليب كان يباع مثل الخراف التى تباع لصوفها مما سبب فضيحة ليست هينة... "

وفى فرنسا، قال روبتوف فى أغنيته " شكوى القسطنطينية ":

" أقسموا على ارتداء شارة الصليب

الذى اعتقدوا أنه طريق الوصول إلى الجنة

تلك الجنة التى أعطيت للبابا

ماذا حدث للآخرين

مثل اليعقوبيين والقصر...

الذين تسلموا الصليب

و جميعهم يستعملونه فى غرض آخر

يجعلون منه رأس مالهم

ويبقى الله فى أراضٍ عبر البحار فى فقر

ووصل سوء استخدام الصليب إلى مرحلة جعلت البابا جريجورى التاسع ثم من بعده إينوسنت الرابع يتدخلان لدى القساوسة حتى يوقفوا الإجراءات الفاضحة الخاصة بالغفران بالنسبة لهؤلاء الأشخاص القادرين على حمل السلاح ، وكذلك الذين يرغبون فى إعفائهم من التجنيد مقابل دفع مبالغ نقدية.

وعلى الجانب المسلم، كان السلطان قد حرم أيضا بيع بعض السلع للفرنجة مثل الأسلحة.

ويسرد المؤرخ المقريزى حالة الوزير شودجاى الذى تم الإبلاغ عنه لبيعه كمية من السهام وأسلحة أخرى للفرنجة. وقد دافع شودجاى عن نفسه بأن الأسلحة كانت قديمة وبيعت بسعر جيد، وحققت ربحا معقولا جدا. ورد عليه المدعى بأن الفرنجة ترجموا تلك العملية التجارية كعلامة ضعف للسلطان المصرى الذى ضاق عليه الخناق ، حتى اضطر لبيع أسلحة لأعدائه ليحصل على تمويل. ولأن الموقف كان حساسا فى هذه القضية، اضطر السلطان لعزل وزيره ، وحكم عليه بغرامة كبيرة من الذهب.

مصر مفتاح التجارة

لم يكن فردريك الثانى ينكر أن مصر هى مفتاح التجارة مع الشرق. ولهذا كان يعطى دائما أهمية خاصة لعلاقاته مع سلطان مصر. فالبضائع التى تهم غالبية تجار أوروبا يتم التفاوض عليها فى مصر. كذلك كانت مصر أكبر سوق للصادرات الأوروبية ، وقادرة على جذب اهتمام المستهلكين الشرقيين.و الحرب الصليبية الأولى – وهى الوحيدة التى نجحت فى استرداد الأماكن المقدسة من المسلمين – لم تكن نتيجتها إلا تعزيز هذا التفوق المصرى. أما التجار السوريون الذين سرقهم الفرنجة فقد قاموا بتحويل تجارتهم إلى مصر. وتم تخصيص مستودع فى القاهرة وأطلق عليه اسم" دار الوكالة"، بعد فترة وجيزة من الحرب الصليبية الأولى. وكان التجار المصريون والسوريون يعرفون التعامل بورقة تشبه الصك والسند ، وكانت هناك مؤسسات شبه بدائية تضمن تحويل الأموال بين مصر والشام والعكس. ولكن هذه المؤسسة البدائية لا يمكن فى حقيقة الأمر مقارنتها بالقنوات المالية المنظمة التى نشأت فيما بعد بين الإيطاليين والإنجليز والفرنسيين والهولنديين.

وكان الفرنجة الموجودون فى الشام وفلسطين بعد النشوة الأولى للنهب الذى قاموا به، قد تفهموا أهمية تنظيم التجارة بتسوية مؤقتة مع أعدائهم. وكانت فلسطين معبرا إلزاميا للقوافل بين مصر والشام، كما كانت رسوم العبور قد فرضت منذ زمن طويل. واستمر تحصيلها، ولكن ذلك الاستمرار كان يوجب تأمين القوافل حتى فى وقت الحرب. وكان يحرم كنسيا كل من يغتصب حقوق الأفراد، ويتم معاملة من يتجرأ على مد يده على القوافل كخارج عن القانون. وترك للتجار حرية التنقل، فالتاجر ليس جنديا، ويجب احترامه وحمايته سواء كان مسيحيا أو مسلما.

أما الإيطاليون مثل الفرنسيين فقد أعادوا حساباتهم بسرعة، فبدون مصر، تصبح التجارة مع الشرق ومع المملكة الصليبية غير مربحة. فقد كانت أى سفينة إيطالية تقوم برحلة بين جنوة أو البندقية والإسكندرية تحقق ربحا معقولا. ولم يكن هذا هو الحال إذا ذهبت فقط إلى فلسطين أو الشام ؛ إذ كان يجب المرور على مصر للحصول على الربح المطلوب.

وحيث أن الأحداث فى البحر المتوسط لم تؤثر إطلاقا على التجارة بين مصر والمحيط الهندى ، فقد استمر التجار اليهود وغير اليهود من المغرب فى القاهرة ، وكانوا قد أبعدوا عن البحر المتوسط بسبب احتكار الإيطاليين والأسبان له، وأصبحت البضائع المستوردة من المحيط الهندى والمركزة فى القاهرة المقابل الضرورى لتحميل السفن الإيطالية القادمة إلى مصر أو الشام مباشرة، وكان من الضرورى للحصول على مكاسب العودة عن طريق مصر.

وكان ممنوعا على غير المسلمين الإبحار فى البحر الأحمر. وبعد الحملة المجنونة لرينو دى شاتيون(١) منع صلاح الدين اليهود وأقباط مصر من الإقامة على شواطئ البحر الأحمر. وهكذا أصبحت الاتصالات بين اليهود المصريين وإخوانهم فى عدن والتى كان يطلق عليها "ميناء الصين، " صعبة. أما الجاليات اليهودية فى عدن واليمن ففقدوا بالتدريج الدور الحيوى الذى كانوا يقومون به فى المبادلات التجارية بين مصر والهند.

(١) رينو دى شاتيون [إرناط فى المصادر العربية] عظيم كراك دى مؤاب ومونتريال (الذى يسميها العرب شوباك) والتى يسيطر عليها بداية من هذين الحصنين اللذين يقعان على الضفة الغربية للأردن ، ليس فقط طريق الحجاج إلى مكة ، ولكن أيضا طرق الاتصال بين مصر والشام . وفى عام ١١٨١ كان يسود سلامٌ كاملٌ ، وقد توغل مع رتل من الفرسان والجنود فى الصحراء العربية حتى واحة تاييم فى وسط الطريق من صحراء الأردن والمدينة ، وكان يريد بلا شك الاندفاع حتى هذه المدينة المقدسة الإسلامية حتى ينهبها ، وإذا أمكن انتهاك حرمة قبر رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، وهاجم قافلة آتية من دمشق وأخذ غنيمة تقدر – حسب المؤرخ أرنول بحوالى ٢٠٠٠٠٠ قطعة من الذهب . حفيد صلاح الدين « فاروق » اهتم فى دمشق بغزو أراضى رينو وأجبره على الارتداد إلى الخلف . شعر المسلمون بإهانة عميقة بهذا الاختراق المزدوج للسلام وقد أقسم صلاح الدين أن يقتل رينو دى شاتيون بيديه إذا واتته الفرصة ، وتلا ذلك نصر حطين بعد ست سنوات (١١٨٧) .

كانت البندقية سيدة طرق التجارة فى البحر المتوسط. ولما كانت حمولة السفن صغيرة، فقد كان من المفضل نقل البضائع الثمينة التى لا تحتاج لمساحة كبيرة. ولذلك كانت البهارات هى البضاعة المثالية. وكانت سفن البندقية التى تتوجه إلى الشرق الأوسط ترسو فى اليونان وقبرص (جزيرة السكر)، ومن هناك تتجه إلى الشاطئ السورى ثم طرابلس وحلب فى داخل البلاد، أو إلى بيروت وصور وصيدا أو فى اتجاه مصر إلى دمياط والإسكندرية وفى عام ١٢٥٠ بدأت تتجه إلى رشيد.

إن تطور صناعة الغزل والنسيج فى أوروبا خلق احتياجات جديدة فى مصر؛ فالسفن القادمة من البندقية تأتى للبحث عن الشبة اللازمة لتحضير الأقمشة للصباغة، بالإضافة إلى الزعفران والأرجوان وكل أنواع الأعشاب اللازمة للصباغة أو التلوين. أما العظماء والأحبار فلم يكن فى استطاعتهم الاستغناء عن البهارات. وكانت مصر توفرها لهم ، فقد كانت تشتريها من مناطق لا تستطيع السفن الأوروبية الوصول إليها. ويضاف إليها اللؤلؤ الوارد من الخليج الإيرانى أو من الهند ، والذهب من السودان ، والعاج من أفريقيا السوداء ، والأقمشة الحريرية والخزف الثمين الوارد من الصين. ومقابل ذلك، تأتى سفن البندقية بأخشاب من دلماشيا ، وكان لها قيمة خاصة فى مصر التى تخلو من الغابات كما كانت تأتى أيضا بالنحاس المنصهر من ألمانيا، وبالات الصوف من فرنسا، وفى بعض الأحيان النبيذ، وبضائع أخرى يتم تبادلها مع الفرنجة فى الشام ، بالإضافة إلى القمح. وكانت البندقية تسيطر على الإسكندرية، وهى الباب إلى القاهرة ، والمستودع لكل ما يأتى من العالم العربى وآسيا الوسطى والهند والصين وغيرها.

وفى القرن الثالث عشر كانوا يقدرون فى البندقية أنه إذا تمكنت أى سفينة من القيام بست رحلات من البندقية إلى مصر ذهابا وإيابا دون أن تتعرض لأية حوادث فإنها بذلك تكون قد سددت قيمتها بالكامل. ومن هنا يفهم لماذا تمسك فردريك الثانى مثل أهل البندقية بعلاقات طيبة مع عظماء مصر. فالتجارة أكثر فائدة من الحروب، التى غالبا ما تتسبب فى خسائر أكثر من المكاسب.

وكان حج المسيحيين يمثل تجارة ممتازة بالنسبة للبنادقة. فإذا كان رجال الدين يدفعون فى بعض الأحيان ببذخ للحج الشامل " الذى يغطى كل المصاريف " . فإن الحجاج العاديين كان عليهم تدبير وسائل السفر والمعيشة. وكانت بداية الربيع تشهد تدفق الحجاج بعد عبورهم الألب. وعادة ما كانت تتولاهم منظمة تضمن لهم المأوى والانتقال ، كما تضمن أيضا للحاج ألا ينفق شيئا غير ضرورى للسريانيين. وكان يتم توفير مترجم يعرف العربية، وهو ما اعتبر ضرورة لتسهيل الحج.

كانت مصر إذاً هى المفتاح الدائم أمام أهل جنوة والبندقية وتجار صقلية ومرسيليا وإسبانيا للوصول إلى ثراء الشرق الأدنى ، الذى لا يمكن أن يصل إليه المسيحيون. وسوف يستمر الصياح بأن الحرب من أجل أورشليم القدس ، ولكن تتأكد حقيقة واحدة ، أن مفاتيح القدس، فى القاهرة.

فـردريك الـثـانـى والإسـلام

كان فردريك الثانى ماهرا فى معرفة العقلية الإسلامية بفضل معلميه العرب، ومن المحتمل أنه كان الملك الأوروبى الوحيد الذى أقام وزنا للعرب.

فقد كان يعلم، مثلا، أن العرب لا يعرفون أية خصائص محددة عن الحرب التى سينخرطون فيها مع هؤلاء الفرنجة القادمين من وراء البحار. حتى مصطلح الصليبية كان غريبا عليهم[1] إن لم يكن غير مفهوم.أما الأسباب الدينية الحقيقية لكثير من الصليبيين، فلم تكن مفهومة لدى المسلمين، وكان من الصعب عليهم تخيل جيوش تعبر البحار من قارات بعيدة، وتواجه مخاطر غير معروفة، للصلاة فى الضريح المقدس. فلم يكن هناك أى ملك مسلم قد اعترض على ذهاب الحجاج المسيحيين للصلاة ، أو وضع عوائق أمام الثقافة المسيحية فى القدس ، أو قام بتغييرها ، فيما عدا بعض الاستثناءات (مثل، الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله). لذلك كان الفرنجة بالنسبة للمسلمين غزاة تماما مثل العشائر التى تنتشر فى آسيا الوسطى عبر إيران ، أو هضبات الأناضول. والذين كونوا دولة مسيحية فى الشام وفلسطين واستخدموا قواعد لقيادة حرب مستمرة ضد المسلمين. وفى كل مرة يتم توقيع معاهدة، تأتى الأساطيل من بلاد غير معروفة وينزل آلاف الجنود الجدد، متعطشين بجنون للقتل والنهب. وقد فسر القاضى "الفاضل" سلوك الصليبيين بطريقته إذ قال: إذا كان الجهاد (الحرب المقدسة) التى يقترح الفرنجة الدخول فيها قد وقعت نتيجة النية الخالصة للتضحية بالنفس من أجل الحصول على جائزة إلهية فلن يكون هناك من يستطيع "أن يتخطاهم فى الوصول إلى الجنة...."

(١) بعد عدة قرون من الهيمنة الفرنسية استخدم المترجمون اللبنانيون المارونيون وغيرهم مصطلح « الحروب الصليبية » أى الحرب المرتبطة بالصليب ، فى محاولة لإعطاء الحرب غاية محددة تختلف عن الحروب الأخرى التى قامت لأسباب أخرى غير دينية .

كان المسلمون يعتقدون أنهم لن يستطيعوا الإبقاء على علاقة دائمة مع الدولة التى أقامها الصليبيون الغرباء فى أراضيهم، وهى دولة ذات سيادة. ولن يكون هناك سوى علاقات عدائية بينها وبين جيرانها.

ويقول فردريك الثانى إن المسلمين أظهروا أنهم أكثر عقلانية من المسيحيين. فمنذ أكثر من قرن والمسيحيون يقودون حربا مستمرة على الإسلام باسم تماسك مسيحى مزعوم أدى إلى أن هب العالم الأرثوذكسى ضد روما بدون أخذ رأى الكنائس الشرقية الأقرب إلى المسلمين واللاتين. كل هذه الحروب الصليبية لم تؤد، حسب رأيه، إلا إلى خلق بعض الوكالات التجارية فى الشام. وكان من الأسهل والأقل تكلفة والأكثر فائدة ومن المؤكد أكثر كرامة، الدخول فى التفاوض على اتفاقيات تجارية بدلا من شن الحرب.

أما المسلمون من جانبهم فلم يفكروا أبدا فى حملات مضادة ضد الصليبيين، على الأقل لنجدة إخوانهم المطرودين من إسبانيا. وسكان هذه المنطقة فقط هم الذين واجهوا الصليبيين وعبأوا أنفسهم لحرب دفاعية بحتة.

ومرة أخرى أعطى السلاطين الثلاثة المنتصرون فى المنصورة، درسا فى الكرم للمسيحيين ، وأثبتوا رغبتهم الحقيقية فى العيش فى سلام. ولكن، هل تم استيعاب هذا الدرس؟ من الواضح، أنه لا، طالما عاد المسيحيون مرة أخرى لمحاربتهم بناء على نداء من البابا.

وقد رأى فردريك الثانى، فى حديقة قصره فى بالرمو، ما أتى به له المزارعون المسلمون: تقنيات تستخدم فى الرى مستمدة من بغداد ودمشق والقاهرة، تعطى خضروات وفواكه بوفرة ، وزهور غير معروفة فى الغرب ، وخرشوف وأسبيرج (نبات الزنقة) وخس وباذنجان وقرع وشمام وبطيخ وأجاص وخوخ وبرقوق وقصب السكر وشجر التوت والبرتقال والليمون وشجر الورد... إلخ. ثم قارن كل ذلك بفقر المزارع وحدائق الشمال فى مقاطعاته فى ألمانيا، وأيضا فى مملكته فى صقلية، فالعلاقة مستمرة مع علماء وفلاسفة وتجار مسلمين، مشبعين بالأدب العربى أكثر من اللاتين،

والخلاصة بالنسبة له واضحة: يجب التفاوض معهم، لأنه فى جميع الحالات، لن يستطيع غزوهم. ألم يأت الدليل الدامى بهذه الحقيقة؟ والمكسب الذى سوف يتحقق من التجارة أكثر بكثير مما سيتحقق نتيجة الحرب. فالحضارة العلمية، والفلسفة، والعلوم الإنسانية، والشعر وكل هذه الثقافات التى تتوهج فى غرناطة والقاهرة ودمشق أو بغداد تفوق ما هو موجود فى روما وباريس أيكس لاشابيل.

ولكن كيف التفاوض ؟ ومن أين البداية؟ هل كان لدى فردريك الثانى ما يمنحه للسلطان المصرى الكامل أيوب صاحب النفوذ ؟

فردريك الثانى، ملك أورشليم القدس

يبدو أن جان دى بريان البالغ من العمر ٧٥ عاما، هو الذى واتته الفكرة أولا بإعطاء ابنته يولاند البالغة من العمر ثلاثة عشر عاما فقط للزواج من الإمبراطور فردريك الثانى. ويولاند هى ابنة مارى دى مونتفران زوجته المتوفاة، والوريثة الشرعية لملكة أورشليم القدس، وهو اسم رمزى أكثر منه حقيقة ، حيث إن أورشليم القدس كانت فى أيدى المصريين ، و" المملكة اللاتينية " منحصرة فى بعض الأماكن على طول الشاطئ الفلسطينى أو اللبنانى. وفكر جان دى بريان بأن الإمبراطور الذى تورط فى مشاكل عديدة فى أوروبا، سيترك له بالتأكيد الوصاية على مملكته الصغيرة، على الأقل حتى تصل ابنته إلى سن الرشد. وقد أشار عليه بذلك هرمان فون سالزا. وأحس البابا هونوريوس الثالث الذى فاتحه جان دى بريان فى مشروعه بوجاهة هذه الفكرة، فكلف هرمان فون سالزا مستشار الإمبراطور بإبلاغه ذلك.

ولم يرحب فردريك الثانى فى البداية بهذا العرض. فهذه أول مرة سيتزوج فيها، وكان البابا إينوسنت الثالث قد اقترح عليه بإلحاح الزواج من كونستانس من أراجون، عندما كانت فى الحادية عشرة و ماتت الملكة وهى صغيرة السن ، والآن البابا هونوريوس الثالث يعرض عليه فتاة فى الثالثة عشرة، وتصغره بستة عشر عاما. ولكن فون سالزا لم يكف عن التلميح بالميزات التى سيجنيها الإمبراطور بضم الأراضى المقدسة إلى صقلية والإمبراطورية. وتساءل فون سيلزا ما إذا كان هذا الزواج، سوف يخفف من تلك الانتقادات الدائمة للفاتيكان؟ إذ كيف يوجه اللوم إلى ملك القدس بسبب عدم حمل الصليب ، وهو ملك الأراضى المقدسة؟ هل سيترك إقناع فردج هذه إلى أمير فرنسى أو إسبانى أو حتى إنجليزى؟ وبهذا تم إقناع فردريك الثانى .

وعلى أية حال، فمن الممكن أن يتيح له هذا الزواج أيضا الفرصة الدبلوماسية التى كان يبحث عنها بشدة.

قرر فردريك إذن الموافقة وأرسل فورا أسطولا من ست عشرة سفينة مزينة بسخاء، تحت قيادة هنرى من مالطة إلى عكا ، حيث تقيم ملكة المستقبل. وفور وصول الأسطول إلى الميناء وبمباركة من البابا، تم الاحتفال بزواج فردريك الثانى ويولاند دى بريان مونتفران بتوكيل فى كنيسة "سانت كروا (الصليب المقدس)" فى عكا. وفى يوم الأحد التالى ووسط الاحتفالات غير العادية تم تتويج يولاند ملكة على أورشليم القدس، ولقبت بالإمبراطورة فى كاتدرائية صور من قبل القس جيرو بطريرك الشرق. وتلقت احترام بارونات الشام ، ثم توجهت إلى قبرص لتودع عمتها أليكس دى لوزينبان وعمها جان دبيلان عظيم بيروت. وفى برنديزى التى وصلتها فى أكتوبر كان فى انتظارها فردريك الثانى وجان دى بريان جنبا إلى جنب. واحتفل مرة ثانية بالزواج فى برنديزى يوم ٩ نوفمبر ١٢٢٥ فى الكاتدرائية. ولكن فى المساء اشتكى الإمبراطور من هذه الفتاة الصغيرة وتركها وأمضى الليلة مع ابنة عم يولاند وكانت فتاة فى العشرين من عمرها وذات جمال باهر، فاستطاعت أن توقظ فيه " مشاعر عذبة ". أما يولاند فلم تكن إلا قطعة شطرنج فى السياسة. فهى علاقة لا تتخللها أى مشاعر حب ، ولكن كان من الواجب عليه على الأقل احترام المظاهر. لذلك أحس جان دى بريان أن هجره لابنته ليلة الزفاف إهانة له أكثر منها لابنته. إلا أن عتاب الأب قوبل ببرود من الإمبراطور الذى أشعره بجفاء أن المقابلة بينهما قد انتهت. وقال جان دى بريان " إنه لم يكن لديه شىء آخر يقدمه له، فقد أعطاه ابنته ". أما حلم إدارة مملكة القدس فقد ذهب أدراج الرياح. وكان فردريك الثانى يدرك تماما الهدف من زواجه، ولم يخف شيئا ولذلك مارس بنفسه كل سلطاته القانونية على مملكته وعلى زوجته. وبالنسبة لفون سالزا الذى عاتبه جان دى بريان كان رده أنه لم يعده بشىء ، وأنه لم يقل له إلا ما يريد سماعه.

ويقال إن بارونات الشام، المحيطين بجان دى بريان، كانوا فى الحقيقة السبب فى الشروط القاسية التى فرضها البابا على الإمبراطور و هكذا دقت ساعة انتقام الإمبراطور.

وقد تخيل بارونات الشام، أن الإمبراطور لن يمارس سلطاته كملك لأورشليم القدس إلا بعد وصوله كصليبى إلى الأراضى المقدسة. ولكن زواج الإمبراطور، قد

منحه لقب ملك القدس، فعدل الختم الإمبراطورى وأصر على إعادة تتويجه فى فوجيا . وكان جان دى بريان قد صدق هرمان فون سالزا الذى أكد له أنه سيظل ملكا على أورشليم القدس مدى الحياة. ولكن الإمبراطور اعتمد على حادثة سابقة مماثلة لجان دى لوزنيون، وكونراد دى مونتفيرات اللذين مارسا حقوقهما كأزواج لملكات. فوالد الملكة لم يكن له أهمية. ولذلك لم يكن أمام جان دى بريان إلا الشكوى للبابا، وهو ما حدث فعلا. أما بارونات الشام فلم يجرؤوا على رفض الاحتفال بالإمبراطور وتقديم الولاء لسيدهم الجديد الذى كان يمثل فى اعتقادهم تهديدا شديدا لقواعد الملكية فى القدس تتخطى التواجد المادى للإمبراطور فى فلسطين.

ومن ناحيتها عاشت يولاند منعزلة ليلا ونهارا رغم حياة البذخ التى كانت تحيط بها. فلم تكن ترى الإمبراطور إلا نادرا وخلال العام التالى للزواج أنجبت له فيه فتاة عاشت لمدة يوم واحد فقط. فهل كان مقدرا لها أن تموت بعد عامين كوالدتها ، وقبل أن تصل إلى سن الرشد؟ .

الإمبراطور والسلطان

بدأت المفاوضات مع سلطان مصر وسيد أورشليم القدس الملك " الكامل " الذى هزم جان دى بريان ، والذى كان يكن العرفان للإمبراطور لغيابه عن دمياط. وفى هذا الوقت، برزت أمامه مشكلة مع شقيقه " المعظم " سلطان دمشق، الذى كان يقاوم هيمنة شقيقه، فقد طلب مساعدته ضد العصابات التركية من الخوارزمية هؤلاء المقاتلين الشرسين الذين طردهم المغول من وسط آسيا وانتشروا فى كل مكان. وكانوا قد نهبوا ونشروا الرعب فى عدة مدن إسلامية. ورغم أن " الكامل " كان لا يخشى مواجهتهم، إلا أنه كان يفكر فى الإمبراطور ليساعده فى مواجهة هذا التهديد. وكان قد وعده بتعويضه بجزء من الأراضى المقدسة ، وربما كذلك القدس مقابل مساعدته ضد " المعظم ". وتم تكليف الأمير " فخر الدين " الوسيط المختار بين الإمبراطور والسلطان الأيوبى بإقناع الإمبراطور الذى كان يعتبر نفسه صقليا أكثر من كونه ألمانيا. وكان " فخر الدين " ينحدر من أصل إيرانى وقد هاجر إلى مصر . ويحكى المؤرخ ابن واصل عن هذا الوفد الرسمى قوله إن باليرمو بنخيلها وشجر البرتقال سحرت الأمير " فخر الدين ". كما كان الإمبراطور يتحدث ويكتب جيدا لغة الرسول، ولا يخفى إعجابه بالحضارة الإسلامية مقارنة بهمجية بربر الشمال، ولا يكن غير الازدراء لبابا روما . و كان حراسه الخصوصيون عربا. ووسط دهشة " فخر الدين " الكبيرة كان الحراس يسجدون فى موعد الصلاة ويديرون وجوههم ناحية مكة . ولا يصدم أحد فى باليزمو من سماع المؤذن يدعو إلى الصلاة ، بينما أجراس الكنائس التى أقامها فردريك تدعو للقداس. إنهم بعيدون عن نبذ الفرنجة الذين طاردوا غير المسيحيين من أورشليم القدس، المدينة المقدسة.

ارتبط " فخر الدين " والإمبراطور بصداقة عميقة كان مقدرا لها أن تدوم مدى الحياة. وبفضل " فخر الدين " تبادل الإمبراطور والسلطان الرسائل ، حيث الصداقة

الحميمة والالتزام السياسى والتجارى يمتزج فى المناقشات عن مذهب أرسطو وأعمال اقليدس وابن سينا ، عن أخلاقيات الروح أو نشأة العالم. وعندما عرف السلطان أن الإمبراطور مولع بالحيوانات الغريبة التى يربيها فى حديقة ملحقة بقصره، اهتم بأن يرسل له دببة وقرودا وفيلة وجمالا ومنها وحيدة السنام ، وأطلق عليها حديقة الحيوان العربية.

كما قدم له " فخر الدين " أيضا حقيبة مليئة بالذهب ، وأخرى مليئة بالفضة ، وأقمشة ثمينة وجواهر من مولاه. وفى المقابل أرسل فردريك الثانى لصديقه السلطان فرس القتال الخاص به وسرجه وثوبه الذهبى. وقد أصبح توماس الأكوينى (جد من سوف يصبح القديس توماس الأكوينى) وبيرار داكاستا أسقف باليرمو (ربما هو « برتو » العظيم " عند المؤرخين العرب؟) من سفرائه لدى السلطان. ويتساءل السلطان فى القاهرة: فردريك الثانى الذى يحمل لقب ملك القدس، لماذا لا يكون كذلك فى الحقيقة؟ وكانت فلسطين تقع رسميا تحت سيطرة أخيه " المعظم ". ولكن الشقيقين مختلفان ، والكامل هو الذى يحكم القدس . وهذا الأمير صديق له، وإن كان مسيحيا، ولكنه فى نظر السلطان له ميزات كثيرة. وقبل كل شىء لم يكن هناك سبب لحروب صليبية جديدة. وعلاوة على ذلك سيكون لمصر عند حدودها الشرقية دولة تعتبر صمام أمان يحميها من الغزوات القادمة من آسيا من الخوارزمة أو المغول والتيار الأسوأ منهم. وبالنسبة " للكامل " وهو رجل سنى شديد التدين فإن مدينة القدس لها بالتأكيد معنى دينى ومقدس. ولكنه كان يضع أمامه قبل كل شىء اعتبارات أخرى، مشكلة سياسية وعسكرية هامة. ألا يستحق وضع حد للحروب الصليبية التضحية؟ وكان عليه بالطبع إقناع الرأى العام المسلم المناهض لقضيته والحصول على تأييده ، حتى يتجنب مقاومة واعتراض الشخصيات الدينية المتطرفة ، وحتى لا يكون عندهم ذريعة للتدخل فى السياسة. وكان فردريك الثانى يفكر فى الشىء نفسه . فإذا كان يريد أن يعترف صديقه السلطان بلقبه كملك للقدس، فلن يكون ذلك بسبب رغبته فى الذهاب إلى القدس والركوع أمام قبر المسيح.وكان البابا هونوريوس الثالث قد مات، والبابا الجديد جريجورى التاسع - الذى كان يبلغ من العمر ثمانين عاما - كان عنيدا وهو عم إينوسنت الثالث الذى كان يتوافق معه فى الأفكار ، وكان حامى القديس دومينيك الذى

شجع الحرب الصليبية ضد الألبان. وطبقا لما ذكره أحد مؤرخي هذا العصر فقد كان " أكثر ما يكون ذئبا منه راعيا "، وكان مقتنعا تماما أن البابا يجب أن يفرض رغبته على كل ملوك أوروبا، وفي حالات عديدة حرم الإمبراطور العنيد كنسيا.

"ما أجمل الانتقام"، كان ذلك ما يردده فردريك الثاني، وهو يتخيل نفسه متوجا في القدس ليصبح ملكا حقيقيا لها، وليس فقط باللقب.

و كان السلطان الكامل قد طلب منه بإلحاح - برهانا للصداقة بينهما - أن يرسل له قوات في مواجهة شقيقه " المعظم ". وقد كلف الإمبراطور هرمان فان سالزا بالبدء في تعبئة هذه القوات. وفي عام ١٢٢٧ وصل أوائل الفرسان الألمان إلى فلسطين، واشتبكوا فورا مع جيش " المعظم ". وكان سلطان مصر سعيدا.

ولم يكن لدى فرد ريك الثاني الرغبة في قطع العلاقات مع دمشق في ذلك الوقت بدون محاولة إقناع "المعظم" بأهمية التحالف معه، فأرسل له برنارد من بالرمو. إلا أنه في خلال الحديث مع رسول الإمبراطور كان رد " المعظم " بنصيحة جافة إليه. " أبلغ سيدك أنني لست مثل الآخرين (وكان يلمح على شقيقه " الكامل ") " وكان هذا هو الرد الوحيد الذي سيحمله أسقف باليرمو لفردريك الثاني. حدث ذلك في أكتوبر ١٢٢٧ وبعد شهر في نوفمبر. توفي " المعظم " فجأة. فانقلبت الخارطة السياسية للمنطقة من جديد. " فالكامل " تحرر من عناد شقيقه. أما نجله " الناصر داوود " الذي لم يبلغ من العمر ٢١ عاما، فكان شابا تنقصه الخبرة، فبدأ يتقرب من عمه " الكامل " ويخضع لسلطانه.

في الوقت نفسه استمر الإمبراطور يجمع جيوشا في برنديز. ويستعد بأسطول كبير للرحيل للأراضي المقدسة مع مستشاره هرمان فون سالزا.

محروم كنسيا ولكنه يقود حملة صليبية

كان على الإمبراطور مغادرة صقلية على رأس أسطول مكون من خمسين سفينة. وفى ٨ سبتمبر ١٢٢٧، أقلع الأسطول تجاه لطران ، إلا أن وباء الكوليرا انتشر بين الجنود. وأصيب الإمبراطور نفسه بهذا المرض، مما اضطره إلى الرسو فى لطران للعلاج. وخشية من أن يفقد الموسم الذي يمكن الإبحار فيه وضع عشرين سفينة تحت أمر هرمان فون سالزا ودى جيرو بطريرك أورشليم القدس الجديد. واختار لقيادة هذا الأسطول هنري دى ليمورج لحين شفائه ورحيله إلى فلسطين. كما قام أيضا بإرسال المطارنة دي ريجيو ودى سبوليت إلى روما ليشرحا للبابا سبب تأخيره في التوجه إلى فلسطين.

ولكن جريجورى رفض أن يستمع إلى أحد. وفى نوفمبر ١٢٢٧ لاحظ أن الإمبراطور لم يحترم وعده بالسفر، فأصدر أمره الرسمى بحرمانه كنسيا. وفى المنشور الذى أعلن فيه هذا الحرمان، ذكر البابا أن الإمبراطور لم يحترم العهد الذى أعلنه فى عدة مناسبات. وحمل فردريك الثانى مسئولية مرض وموت عدد لا يحصى من الصليبيين فى برينديزى. واتهمه بأنه يفضل التمتع فى قصره فى بوزول حيث يقضى فترة النقاهة بعد شفائه، بدلا من قسوة الحملة فيما وراء البحار.

كان رد فردريك الثانى هو خطاب أرسله " إلى كل الصليبيين " يذكر فيه الحقائق الواضحة لاستعداداته للسفر ثم مرضه. وكان الغرض من وراء هذا الخطاب هو رغبته فى إثبات صدق نيته، كما أرسل إلى مواطنيه الألمان اللحاق به ليسافر فى شهر مايو التالى.

واخيرا، وفى ٢٨ يونيو ١٢٢٨ ترك الإمبراطور برينديزى على رأس أسطول مكون من أربعين سفينة رافعين الصليب. وفى ٢١ يوليو وصل الأسطول إلى ليماسول فى

قبرص حيث لحق الأسطول بالجيش الذى كان قد سافر فى أبريل من العام السابق. وفى ٢ سبتمبر ١٢٢٨ أبحر الجيش كله إلى عكا التى وصلها فى٧ سبتمبر، حيث كانت فرحة الجماهير تفوق الوصف.

وكان جميع بارونات الشام وكل أحبار الأراضى المقدسة موجودين بما فيهم جيرو بطريرك أورشليم القدس. وها هو ذا فردريك الثانى الذى تم حرمانه كنسيا موجود بحملته الصليبية فى الأراضى المقدسة .

وقام الإمبراطور بإرسال مبعوثين فورا إلى روما ليبلغوا البابا أنه أصبح صليبيا وفق اليمين الذى حلفه، فعلى البابا دعمه الآن.إلا أن البابا رفض رفضا باتا بحجة أن الإمبراطور سافر بدون إذنه وبدون طلب الغفران من آثامه. كما أن الذى يحرم كنسيا لا يمكنه ارتداء شارة الصليب. وأرسل البابا رسالة إلى جيرو عاتبه بشدة على استقباله الرسمى للإمبراطور عند وصوله إلى عكا. وذكره بممنوعات الكنيسة: لا سكن ولا طعام ولا علاج، كما يجب أن تغلق الكنائس والضريح المقدس أمام الإمبراطور إذا حاول زيارتها. بالإضافة إلى أن أفراد النظم الكهنوتية العسكرية أيضا يجب ألا تطيعه وألا تقاتل تحت إمرته. إن فردريك الثانى محظور عليه المسيحية ويجب أن يظل كذلك. وهكذا انقسم الجيش إلى مؤيدين ومعارضين للإمبراطور. فإذا تخلى النظام الكهنوتى العسكرى وبارونات الشام عن الإمبراطور، لن يكون فى استطاعته سوى الاعتماد على الفرسان الألمان وحراسه الخصوصيين المكونين من الفرسان التيوتون. وأمام هذه الظروف سوف يصبح السلطان " الكامل " مقبلا على الانتحار!...

إضافة إلى ذلك، استغل البابا جريجورى التاسع غياب الإمبراطور وأعد حملة صليبية مضادة على الأراضى التى تخص ما يسميه عدوه. فقد كان يريد الاستيلاء على صقلية وأبوليا ، وقد كلف البابا بهذه المهمة جان دى بريان والد زوجة الإمبراطور. وكانت الجيوش البابوية تحمل مفاتيح القديس بطرس كشارة مميزة لها، وليس الصليب كما يفعل الصليبيون ، وكان الصقليون يطلقون عليهم "جنود المفاتيح". واجتاحوا صقلية وعلى رأسهم جان دى بريان ، وأشعلوا النيران فى القرى ، وقتلوا السكان، وعذبوا مؤيدى الإمبراطور.

وكان أول ما فعله فردريك الثانى عند ما وصل إلى علمه ما حدث، هو اتخاذ قرار بالسفر فورا إلى صقلية. ولكن قباطنة سفنه أخبروه أن الأمواج عالية ولا تسمح بنشر القلاع. وبعد التفكير بهدوء قرر عدم السفر، وبدأ فى التفاوض مع السلطان محاولا استعادة أورشليم القدس.

وفى واقع الأمر، كان كل من السلطان " الكامل " والإمبراطور فردريك الثانى فى حاجة إلى الآخر. وكان من المفروض أن يتفاهما ، ولكن العوائق التى تحيط بهما والتى كان يجب التغلب عليها، سواء فى الشرق أو الغرب لم تكن بسيطة.

و كتب فردريك الثانى إلى " الكامل " قائلا:

> **" أنا صديقك، وأنت الذى شجعتنى على الحضور إلى هنا. الملوك والبابا على علم برحلتى، وإذا عدت بدون الحصول على شىء ، سأفقد كل احترام فى نظرهم. وعموما، أليست هذه المدينة، أورشليم القدس هى مهد المسيحية؟ بالله عليك أعدها إلىّ حتى أستطيع أن أرفع رأسى أمام الملوك... ".**

وحمل رد السلطان " الكامل " الأمير " فخر الدين " الذى كان صديقا شخصيا للإمبراطور ، وهو الذى سلح فرسانه وحمل شارة الإمبراطور على لباسه ، وكان اختيار الرسول يدل على الجواب. ولكن المباراة لم تكن قد انتهت بعد. فقد " شرح " فخر الدين للإمبراطور الموقف ، وأن السلطان يدرك جيدا محنة صديقه الإمبراطور ولكنه قال:

" القدس بالنسبة لنا نحن المسلمين مقدسة مثلما هى لكم أنتم المسيحيون. كيف أستطيع التخلى عنها للمسيحيين بدون معركة، كيف أتخلى عنها للفرنجة الكفار، وبها مسجد عمر الذى استرجعه صلاح الدين؟ من المؤكد أن خليفة بغداد سوف يلومنى ، وستكتسح ثورة دينية أسرتنا الحاكمة ... ".

وكانت الهدايا التى جلبها " فخر الدين " للإمبراطور فاخرة: إناث الجياد، ومهور للسباق، وفيلة، وأقمشة حريرية... وأما المشاكل فقد عرضت بصراحة ولكن بمشاعر من الصداقة.

لــم يكــن فـردريك أقــل ســخــاء، فـقـد خــلـع درعـــه وسـيــفـه وخــوذته وقــدمـهـا لفـخـر الــدين ، ورجـــاه أن يقدمـهـا لسـيــده. وكانت الحركة واضـحـة، سـأخلع درعى وسيــفى، إذًا لن يكــون هــناك مـعــركة بينــنا . وفـهــم الأمير بدبلوماسـة هذه الحركة فرد برقة:

" الحقيقة أننا لا نستطيع منحكم مثل هذه الهدية، لا نستطيع منح القدس للمسيحيين... ولكن أرجو أن تفهمنا إذا كان يوجد أى تهديد لسموكم، فيمكن لسيدى أن يشرح للشعب أن عقد اتفاقية بيننا وبينكم سوف يكون أفضل بكثير من قتال جديد ، حيث إن أول الضحايا سوف يكونون الصغار والفقراء... ".

وتم تكليف هرمان فون سالزا بإقناع الإمبراطور وتجهيز السيناريو المطلوب. فإذا عجز الناس عن فهم لغة المنطق، كان يجب حثهم بالقوة على قبول التسوية وتجنب إراقة الدماء من جديد.

رحل الأمير " فخر الدين " إلى القاهرة،وجمع فردريك الثاني كل ما تبقى له من قوات وأعلن أنه سيـتـوجـه إلى يافـا . ودخلهـا وتبـعـه في اليـوم الثـانى فـرسـان المعـبـد والرهبان الذين لم يرغبوا فى الاختلاط بصورة واضحة مع الجنود المحرومين كنسيا. وبدا الإمبراطور فورا فى بناء الحصون وجمع الأطعمة والسلاح كأنه يستعد لمعركة شديدة قادمة. وبالرغم من أن الجيوش المسلمة كانت أكثر عددا ، إلا أنها لم تهاجم ولم تقف ضـد هذه التـحـركـات. وأشـا ع السلطان أن الإمـبـراطـور ينصب له فـخـا وأن تعزيزات ضخمة شوهدت فى البحر سوف تضرب المهاجمين المسلمين من الخلف. وعلى الجانب الآخر، فإن العسكريين المحيطين بفردريك الثانى، والذين حكموا على تحركه إلى يافا بأنه مجازفة مجنونة، كانوا يرددون أن أعداء الإمبراطور الذين أثارتهم جرأته، لن يجرءوا على الهجوم عليه.

و هكذا بدا وكان استعراض القوة نجح في إقنا ع الأكثر عنادا من الجانبين. لذلك حان الوقت للجلوس على المائدة والتفاوض. واحتا ج الأمر شهرين من المباحثات المكثفة

بين الأمير " فخر الدين " وباليون ابن رينو من صيدا، البارون المستعرب الذى كان يمثل الإمبراطور ، حتى تم الوصول إلى اتفاق فى ١٨ فبراير ١٢٢٩ . فى معاهدة يافا. وأخيرا استطاع الإمبراطور دخول أورشليم القدس ليصبح أول ملك أوروبى يتمكن من ذلك. والأعجب من ذلك، لم ترق نقطة دم واحدة .

تكريس فردريك الثانى ملكا للقدس

حلف العاهلان اليمين لاحترام الاتفاق المبرم بينهما. وبناء عليه أمر السلطان " الكامل " المسلمين بتسليم أورشليم القدس للفرنجة ، ومغادرة المدينة حتى يستطيع الإمبراطور دخولها بدون وقوع أية حوادث . وصاحب هذا الأمر استنكار جماعى، وشكوى وصياح ودموع. حضر الأئمة والمؤذنون إلى معسكر " الكامل " ودعوا للصلاة فى غير موعدها للتعبير عن استنكارهم. وكان رد السلطان عليهم هو تجريدهم من ممتلكاتهم، بعد أن عاتبهم بشدة على سلوكهم.

و فى جميع البلاد المجاورة كان نقد هذا التصرف جماعيا وشاملا ، ففى دمشق، رفض السلطان "الناصر داود" الموافقة على المعاهدة وانتقد عمه الكامل " علانية. وأقيم حفل تأبين شعبى فى المسجد الأموى ، وقام الواعظ " الحافظ شمس الدين " بترديد المميزات الفريدة للمدينة المقدسة. وعبر الشعب عن غضبه بألفاظ مهينة لسلطان مصر، وبكى وصرخ ملايين المؤمنين حول المسجد ، وألقى " الحافظ شمس الدين " قصيدة من ٣٠٠ بيت ألفها عن عظمة القدس وإدانة تسليمها للفرنجة.

وفى أورشليم القدس نفسها، رفض الفلاحون الفلسطينيون الخضوع لأوامر السلطان، وثاروا، ولجأوا للمدينة ، ورفضوا مغادرتها. ووجب تدخل القوات المسلحة لطردهم.

ولأول مرة منذ صلاح الدين، أصيبت هيبة الأيوبيين فى الصميم.

دخل فردريك الثانى أورشليم القدس فى ١٤ مارس ١٢٢٩ على رأس وحدات من الفرسان التيوتونيون . وبأمر من السلطان " الكامل " كان المسلمون قد أخلوا المدينة حسب أوامر السلطان. وظل فى المدينة فقط من كانوا مسئولين عن رعاية المسجدين اللذين ظلا فى حماية الإسلام. وكان من الواضح أن السلطان الذى واجه استنكارا عاما أراد

تجنب أى صدام ، إلا إن عددا كبيرا من الصليبيين والحجاج الواثقين من عدم وجود أى خطر للحرب أو العنف، انضموا إلى الإمبراطور. وكان المسيحيون يفيضون حماسا. كما حضر قاضى نابلس، ممثل السلطان الذى كان قد اشترك فى المفاوضات بجانب "فخر الدين" لتحية الإمبراطور باسم سيده. ودخل فردريك الثانى أورشليم القدس ملكا.

أراد الإمبراطور أن يتوج نفسه مرة أخرى كملك لأورشليم القدس ألتى أصبحت عاصمة لمملكته. ولكن البطريرك جيرو رفض حضور الاحتفال رفضا باتا ، حتى إنه سافر إلى عكا. وعلى هذا فالتكريس الثالث بالنسبة لفردريك الثانى، كان يجب إذن أن يتم فى الضريح المقدس بدون البطريرك.

ظلت المدينة المقدسة مستيقظة طوال الليل. وكان السكان قد أشعلوا الشموع والمشاعل فى كل المدينة، وتم تزيين الشوارع بالغصون والنخيل. وأخيرا وفى ١٦ مارس ١٢٢٩، ذهب فردريك الثانى إلى الضريح المقدس وحوله الفرسان الألمان والمطارنة الصقليون. أما بطريرك القدس وبارونات الشام الخاضعون للبابا فقد تغيبوا عن الحضور. وكانت الجموع المتزاحمة حول الضريح المقدس ضخمة. ولأن البطريرك كان غائبا ، فقد رفض المطارنة الاشتراك فى احتفال القداس. ولم يرغب فردريك الثانى فى تحدى البابا على أرض الدين. وعلى المذبح وضع تاج ملوك أورشليم القدس. وتقدم الإمبراطور وأمسك بالتاج بيديه ووضعه على رأسه. وكان المساعدون فاغرى الأفواه ، حيث إن أحدا لم يجرؤ من قبل على الإقدام على مثل هذا الفعل الغريب. وبعد ذلك استعرض الإمبراطور بهدوء الفرسان التيوتونيين. ومر الواحد تلو الآخر من الفرسان تبعا لدرجتهم الكهنوتية أمام الإمبراطور وهم يسجدون باحترام أمامه ويقبلون معطفه وكان هذا منظرا عظيما ومؤثرا ومع نهاية الاحتفال انطلقت الجموع تصفق بشدة ، وعاد فردريك الثانى إلى قصره وسط سكرة حقيقية للجمهور ، ونجحت الخطة ، وبدا أن توجيهات جيرو لم يكن لها أى تأثير عملى بالرغم من أنها مدعمة بكل سلطات البابا. وكان على الكنيسة أن تتصرف وفى اليوم التالى للتكريس علم جيرو بالفرحة الشعبية التى غمرت جميع الذين حضروا الاحتفال، ففكر

فى جزاءات قاسية. أرسل أسقف قيصرية إلى أورشليم القدس وأمره بالتأكيد على منع زيارة الضريح المقدس والكنائس اللاتينية فى المدينة ، وكذلك المؤسسات الكنائسية فى مجموعها ، وغلق أبوابها أمام الإمبراطور المحروم كنسيا. ونزع محاور أبواب الكنائس، وكذلك سد الثغرات جيدا برزم من العليق ، وتم سلب المذبح من كل حلية حتى لا يضفى عليه أى طابع مقدس. وأصبحت الكنائس فى مجملها أبنية عارية من الروح.

كيف يمكن ضرب الحرم الدينى للضريح المقدس، قدس الأقداس، فى الوقت الذى استطاع فيه أمير مسيحى من غير المؤمنين استعادته .

وماذا تفيد إذاً الحروب الصليبية إذا كان المؤمنون لا يستطيعون الصلاة فى الضريح المقدس؟

لم تمر المسيحية من قبل بأحداث مثيلة لتلك الأحداث !

وكان فردريك الثانى، النافر، يريد السفر بدون تأخير ، ولكن كان ينقصه دعوة السلطان لزيارة الساحة المقدسة لليهود، جبل موريا، المكان الذى شيدت فيه قبة الصخرة والمسجد الأقصى فوق موقع معبد سليمان.

قام الإمبراطور مرتديا معطف الحجاج وبمصاحبته القاضى " شمس الدين " بزيارة طويلة لقبة الصخرة. وصمم على أن يستمر المؤذنون بالدعوة للصلاة مخالفا بذلك أوامر السلطان ، وقال هذا حتى يسمعوا أننى هنا وألقى اللوم بشدة على أحد الرهبان الذى دخل المسجد الأقصى أحد الأيام وفى يده الكتاب المقدس:

" من الذى سمح لك بالدخول إلى هذه الأماكن المقدسة؟ والله إذا جرؤ أحد منكم ووضع رجله هنا سأفقأ له عينه".

واهتم " شمس الدين " بتهدئته مؤكدا أن ذلك لا يتعدى حادثا ليس له أهمية.

أنهى فردريك الثانى زيارته، ولم يصبح هناك داع للبقاء فى أورشليم القدس. ورحل فورا إلى عكا حيث كان فى عجلة للقاء جيرو ليطلب منه تفسيرا لسلوكه. فوجد المدينة فى هياج، ورفض جيرو احترام السلام الذى وقعه الإمبراطور مع السلطان، وأعد جيشا بغرض " استعادة القدس " بالقوة ، واستخدم فى ذلك كل ما تركه ملك فرنسا من فرسان المعبد الذين جاءوا لحماية الحجاج عند الحاجة . وحبس جيرو نفسه فى قصره ، ورفض الاشتراك فى استقبال الإمبراطور. وكان واضحا أن الكنيسة ترفض سياسته، وإنكار كل أهمية لمعاهدة يافا، وعدم الاعتراف بتحرير الأماكن المقدسة المسيحية. وبصورة رسمية لم يكن هناك حرب صليبية سادسة، ولكن هذه المرة لم يكن لها معنى حربى. إنها حرب صليبية سلمية بقيادة إمبراطور محروم كنسيا وترفضها الكنيسة.

معاهدة يافا

أبرمت معاهدة يافا فى سرية تامة بعد مناقشات طويلة لم يدع إليها مندوب البابا، ولم يعلن عنها فردريك الثانى إلا بعد توقيعها ، وذلك لبعض بارونات الشام المسيحيين الذين وجدوا أنه من المستحيل خوض حرب ناجحة ضد السلطان والبقاء طويلا فى الأراضى المقدسة. ولكنه لم يعطهم نسخة من المعاهدة ، واكتفى بإبلاغهم بمحتوى البنود التى تخص تسليم القدس إليه، ما عدا قبة الصخرة والسماح له بتحصين المدينة ، وكذلك أبلغهم بالبنود التى تخص بيت لحم والناصرة وصور وصيدا والقرى التى تقع على الطريق الذى يؤدى من القدس إلى الساحل والتى فى صالحه. أما باقى البنود فظلت سرية. ومن القلق وبدافع من الحذر، وعلى عكس ما كان مقبولا فإن السلطان وافق على قبول قسم الإمبراطور وحده فيما يخص احترام بنود المعاهدة وتنفيذها. وكان من البديهى أنه لضمان تنفيذ بنود المعاهدة والتأكد من استمرار دعم الإمبراطور كان الآمر يتطلب وجود نسخة كاملة من المعاهدة حتى يضمن تنفيذها.

لم يذكر المؤرخون النص الكامل للمعاهدة ولكنهم ركزوا على كل ما يخص تسليم أورشليم القدس. أما المسلمون فلم يفهم أحد كيف تم التخلى عن القدس بدون معركة.

وفى اليوم التالى لتوقيع المعاهدة، أرسل فردريك الثانى خطابا دوريا للأمراء المسيحيين وبالطبع إلى البابا لإعلان إعادة الاستيلاء على أورشليم ونجاح حملته الصليبية.و أرسل هرمان فون سالزا نسخة إلى البابا مرفق بها رسالة شخصية. كما أرسل صورة أيضا إلى بطريرك القدس ومندوب البابا الذى قام بدوره بإرسالها إلى الفاتيكان وعليها ملاحظاته وانتقاداته ، ولكن النص الكامل للمعاهدة ظل فى سرية تامة.

وعلى ما يبدو فإنه لا يوجد نسخة كاملة من هذه المعاهدة اليوم ، سواء باللغة اللاتينية أو العربية، إلا إذا كانت هناك نسخة ما زالت محفوظة فى ركن منعزل فى

مكتبة بالقاهرة لم يتم العثور عليها. وهذا ليس بالمستبعد بالرغم من الأهمية الخاصة لمثل هذا المستند. وليس فى الإمكان إعادة بلورته إلا بالاستناد إلى المقتطفات المتضمنة فى خطابات بطريرك القدس وهرمان فون سالزا إلى البابا ، وكذلك فى الخطاب المرسل من فردريك الثانى إلى ملك إنجلترا ، كما يوجد بعض الإشارة إليها، ولكن ليس تسجيلا حرفيا فى عدة مصادر عربية ومسيحية.

لذا فمن المؤكد الآن أن محتويات معاهدة يافا كانت معروفة بما يكفى ؛ حيث إنه فى عام ١٢٩٠ أى بعد نصف قرن، قام السلطان المملوكى قلاوون بعقد معاهدة مع الملك ألفونس الثالث دى أراغون بالشروط نفسها المنصوص عليها فى المعاهدة الموقعة بين السلطان " الملك الكامل " والإمبراطور فردريك الثانى.

وقد نصت المعاهدة على أن العدو لطرف هو بالتالى عدو للطرف الآخر ، وكذلك الصديق لطرف يعتبر صديقا للطرف الآخر .ومن المرجح أن هذا الجزء من المعاهدة المثير للجدل فى نظر البابا، لم يذكر عن قصد فى النسخة المكتوبة باللغة الإفرنجية والمحفوظة فى أرشيف مدينة باليرمو. وبالتالى فإن الخطوط الرئيسية لمعاهدة يافا تبدو هكذا أكثر وضوحا.

ومن المؤكد أيضا أن المعاهدة تضمنت تسليم القدس للإمبراطور ومعها الناصرة وبيت لحم واللد والرملة والقرى التى تقع على الطريق المؤدى من القدس إلى عكا. وفى آخر لحظة تم إضافة أراضى صور.

ويقول المؤرخون العرب أنه كان محظورا على الإمبراطور أن يعيد بناء أسوار المدينة. إلا أن الإمبراطور ادعى العكس ليس فقط بالنسبة للقدس ولكن بالنسبة للمناطق الأخرى كذلك. وفى الحقيقة فإن صليبيين جدداً وصلوا إلى الأراضى المقدسة ولم يهتموا بالاتفاقات التى تم التوصل إليها، فقاموا بتحصين القدس، وفى عام ١٢٤١ استولى " الناصر داود " بن " المعظم " سلطان دمشق على المدينة وهدم التحصينات التى شيدها المسيحيون، وأصبحت القدس مدينة مفتوحة، والساحة المقدسة وقبة الصخرة والمسجد الأقصى فى أيدى المسلمين وظلت كذلك. وكان فى استطاعة الفرنجة

زيارتها والصلاة فيها. كما كانت الشعائر الإسلامية يتم الاحتفال بها بحرية بما فيها الدعوة للصلاة. وتم كذلك تبادل الأسرى بين الطرفين.

وقد تضمنت المعاهدة بالطبع شروطا تتعلق بالتجارة والملاحة. وأبرمت معاهدة لمدة عشر سنوات هجرية ابتداء من ٢٤ فبراير ١٢٢٩، وأقسم فيها الجانبان بأن يظلا أصدقاء. كما أكدت على عدم حمل أي طرف منهما السلاح ضد الآخر أو تقديم مساعدة لأعداء أي من الجانبين.

وفي واقع الأمر فإن فردريك الثاني أقام علاقات صداقة خاصة مع الحاكم في القاهرة في الفترة التي عاش فيها الملك " الكامل " أكثر مما أصبح عليه الحال مع وريثه " الصالح أيوب " وحتى بعد وفاة فردريك الثاني، أبقى أبناؤه على سياسة الصداقة مع مصر، بالرغم من حرمانهم بدورهم من بركة البابا. وقد تصرفوا بموجب معاهدة التحالف السياسي والعسكري التي ارتبط بها الإمبراطور على الأقل لفترة سريان المعاهدة، وذلك بعدم تقديم أية مساعدة بأي طريقة لكل من يدخل في معركة ضد سلطان مصر ، ومنع مواطنيهم من الاشتراك بأي وسيلة في أي مؤسسة موجهة ضد سلطان مصر، حتى في حالة حرب صليبية يدعو إليها البابا، إذا لم يكن في مقدورهم الإنكار الصريح لحقوق البابا في نظرته إلى ما يعتبره الإمبراطور متعلقا بسيادة خاصة به.

وقد رفض البطريرك جيرو الذي كان يعيش في القدس أن يصدق على المعاهدة، بل رفض من الأساس مبدأ التصديق على أي معاهدة مع السلطان. ولم يكن هناك أي شيء يرضيه. وبالنسبة له كما بالنسبة لآخرين، مثل فرسان المعبد، فإن هدف الحروب الصليبية هو" إراقة دماء الكفار " وليس الشروع في مفاوضات تعترف بأي حقوق للمسلمين في داخل القدس، مدينة المسيح. وقد أرسل للبابا ما يفيد اعتراضه على هذه المعاهدة وتسليم مدينة القدس للمدة المحددة في المعاهدة ، كما أنهم مهددون بتواجد جيوش المسلمين. بالإضافة إلى ذلك، فإن السلطان " الكامل " قد تخلى عما لا يملكه قانونا، فالقدس جزء من ممتلكات سلطان دمشق. وهذا الأخير رفض بشدة التصديق على المعاهدة والتصديق على إخلاء المدينة المقدسة وأخيرا لم يحافظ الإمبراطور أيضا

على حقوق الكرسى البابوى، بل إنه استفاد بصفة شخصية من تنظيم الحملة الصليبية للوصول إلى هدفه ، واستند على القديس بولس وخطابه الشهير للكورنثيين، وهذا يعنى العودة لأعراف الكنيسة، وأدان جيرو قصة فردريك الثانى.

ورفض البابا جريجورى التاسع بدوره معاهدة يافا، وأعطى أربعة أسباب يعتبرها من وجهة نظره أساسية:

- أن فردريك الثانى مذنب باستغلال مزدوج لسلطته. فقد اضطلع بقيادة حرب صليبية، ولم يقدها حتى النهاية، كما أوقف محاربة المخالفين فى العقيدة وتعهد بعدم رفع السلاح ضدهم.
- اعتبر البابا اعتراف فردريك الثانى بحقوق الجنود المسلمين فى " قبة الصخرة " أمرًا شنيعًا، ومن ناحية أخرى أشار بأن قبة الصخرة مبنية فوق معبد سليمان.
- وضع الإمبراطور ممتلكات المسيحيين فى الشام فى خطر، وخاصة طرابلس وانطاكية، فبنود المعاهدة تمنع مساعدتهم.
- وعلى عكس أسس التضامن بين المسيحيين، فقد أجبرت المعاهدة الإمبراطور على مساعدة السلطان ضد أى عدو مسيحى يجىء لغزو أراضيه، وهذا يعنى فى الحقيقة ضد أى حرب صليبية جديدة.

وكان البطريرك جيرو حكيما باستخدام الحرمان ضد فردريك الثانى الذى أرهق حصاره أساقفة القدس. فغادر الإمبراطور عكا متخفيا تقريبا، فقد أثار الرهبان الجماهير ضده.

وبعد أربعة أيام من مغادرته عكا، ألقى أسطول الإمبراطور مرساه فى برنديزى. وقد أحدث وصول الإمبراطور دويا هائلا، حيث أن مؤيدى البابا كانوا قد أشاعوا أنه مات. وكان خبر مغادرة الإمبراطور عكا لم يكن قد وصل بعد إلى روما. وكان البابا قد أرسل جان دى بريان لمساندة أسقف ألبى، وكذلك الكاردينال بيلاج وفرسان لوم بارد القادمين من ميلانو ومن بريسكيا ومن بليزانس. وكان جان دى بريان وبيلاج يعرف كل منهما الآخر جيدا ولكن لم يقدرا بعضهم البعض بتاتا، وقد كانت علاقتهما فى مصر

مضطربة. وكان هذا الاختيار طائشا. وأرسل بيلاج إلى كل قرى صقلية وفودا من رجال الدين المبشرين ليشرحوا للصقليين لماذا قام " جنود المفاتيح " بحرق وقتل كل من كان فى طريقهم.

اهتم فردريك بالاجتماع مع كل ما تبقى له من جيش. وحصل على دعم كبير غير متوقع ، فقد هبت عاصفة أجبرت كثيرا من الفرسان التيوتيين المسافرين إلى الأراضى المقدسة على اللجوء إلى موانئ بوى. حيث قوبلوا بترحاب شديد ، وكانت سرايا الفرسان العرب فى لوكيرا أوفياء بشدة للإمبراطور الذى عاملهم دائما معاملة جيدة. وقد أرسلهم فردريك الثانى إلى الخطوط الأولى. ودحر الجيوش البابوية. وفى خلال أيام تم طرد هذه الجيوش من صقلية. واضطر جان دى بريان للهرب إلى روما ولم يظهر بعد ذلك فى أراضى صهره. أما بالنسبة للكاردينال بيلاج فحبس نفسه فى حصن مدرسة الرهبنة فى مونت كاسينو التى كانت محاصرة بجنود الإمبراطور، ورفض أن يخرج إلا بشرط أن تعاد له أمجاد الحرب. وهو ما حدث. فلم يعد الكاردينال بعد ذلك مكلفا بالاهتمام بشئون الشرق.

البابا والإمبراطور

استقبلت جماهير صقلية إمبراطورهم " محرر الضريح المقدس " استقبال المنتصرين . و كان أمراء أوروبا قد التمسوا واستشاروا الفاتيكان، وأعلنوا بدون مراوغة بأن الاستفادة من غياب الإمبراطور فى الأراضى المقدسة لحث والد زوجته على سلبه بقوة السلاح يعد عملاً غير أخلاقى ولا يمكن الدفاع عنه. ووجد البابا جريجورى التاسع نفسه وحيدا بحقده الدفين للإمبراطور " ملك المصائب " وكل ما كان يمثله. ومرة أخرى قام هرمان فون سالزا بالتفاوض للوصول إلى اتفاق بين الرجلين. وتم توقيع السلام بين الاثنين فى سان جرمان وفى ٢٨ أغسطس ١٢٣٠، أما المحرومون كنسيا الذين ضربوا الإمبراطور فقد تم خلعهم وأطلق جريجورى التاسع على الإمبراطور " الابن العزيز للكنيسة ". وأرسل البابا رسالة إلى البطريرك جيرو فى القدس يأمره باسم الكنيسة بقبول واحترام معاهدة يافا بكل بنودها. كما تم إرسال أوامر مكتوبة لعظماء فرسان المعبد الإسبتارية يفرض عليهم احترام المعاهدة الموقعة بين فردريك الثانى وسلطان مصر والموافقة عليها. وأنه يجب عليهم بالأحرى مواجهة التتار الذين كانوا قد وصلوا إلى أبواب الشام.

ولأول مرة، منذ حوالى قرن، ساد السلام فى كل مكان بين الشرق والغرب. وكان فردريك الثانى منتشيا بالنصر ، إلا إن هذا لم يستمر طويلا!

ففى عام ١٢٣٩، نشبت معركة جديدة بين البابا جريجورى التاسع فردريك الثانى وتم حرمانه كنسيا مرة ثانية فى ٢٠ مارس ١٢٣٩، وتم تجديد هذا الحرمان بعد أربعة أيام ، وفى هذه المرة اتهم البابا الإمبراطور ببيع كمية كبيرة من السلاح لسلطان مصر وكذلك بيع جياد تستخدم فى المعارك ضد المسيحيين. وكانت صداقة الإمبراطور للجنود المسلمين علانية. حتى إنه تبنى أقوالا شائعة من بعض الشعائر الإسلامية كما

كان يحتفظ أيضا بحريم. ألم تستمر هذه الصداقة حتى بعد انتهاء مدة عشر السنوات للمعاهدة وإعادة القدس للمسلمين .

و كانت آخر شكوك جريجورى التاسع قد سقطت ، ومن الآن فصاعدا أصبحت الحرب ضد الإمبراطور المحروم كنسيا " حربا صليبية " حقيقية، ممولة من الضرائب التى يدفعها رجال الدين. وسوف يتم منح غفران كامل لمن يوافق على محاربة الإمبراطور. وذهب البابا لحث المجريين الذين أبدوا الرغبة فى ارتداء شارة الصليب والسفر إلى فلسطين على أن يغيروا أمنياتهم ويحاربوا فردريك. ولم يكتف بالحث على هذه الحرب الصليبية ضد إمبراطور مسيحى، وأول الأمراء المسيحيين، بل أعطى الأولوية لهذه الحرب على الحرب الصليبية فيما وراء البحار .

فى هذه الأثناء ظهر خطر آخر على أوروبا وقد حاول فردريك الثانى عبثا تحذير البابا والأمراء المسيحيين منه. وكان هذا الخطر يتمثل فى المغول القادمين من آسيا بعد أن عبروا روسيا وبولونيا على أبواب "الاودير ". وكانت القصص التى رواها من نجوا من شرهم لا تحتمل. وقد حاول جيش صغير مكون من بولونيا والمجر والفرسان التيوتين التجمع فى عجلة عند لايجنيتز، ولكن تم اكتساحهم وهم الفرسان الذين اضطروا إلى الاختباء فى الغابات الكثيفة من الجوع أو البرد. كانت الكارثة جماعية. وأصبح الأغنياء الذين تمتلئ بهم أوروبا بلا حماية. وكان من الواضح أن لا شىء يمكن أن يوقف المغول أو يصدهم. ولكن الغزاة بدلا من استمرار تقدمهم نحو الغرب، حولوا مسارهم بعد لايجنيتز وعبروا مورافيا ثم المجر وهم يدمرون كل شىء فى طريقهم. وكان قائدهم باتو حفيد جنكيز خان (مات عام ١٢٢٧) قد وصل إلى علمه أن الخان الكبير أوجوداى قد مات وأن هناك معارك شديدة تقع فى آسيا الوسطى على خلافته. قرر أن يغير طريقه حتى يستطيع الاشتراك فى المداولات الحاسمة لاختيار الإمبراطور. وأخيرا استطاعت أوروبا أن تتنفس الصعداء.

وبدون مضيعة للوقت، عاد جريجورى التاسع لفكرته القديمة، وأعلن نداء جديدا للحرب الصليبية ولكنه مات بعد عدة أشهر فى عام ١٢٤١، قبل أن يرى حلمه يبدأ فى التحقق. وقد اعتقد البعض أن الله لا يريد حروبا صليبية أخرى .

وقد ظل الكرسى البابوى خاليا فى كنيسة القديس بطرس لمدة ١٨ شهرا، ولم يستطع المؤيدون والمعارضون للإمبراطور الاتفاق. وأخيرا فى عام ١٢٤٣ تم انتخاب إينوسنت الرابع، وكان يكن لفردريك أيضا كرها شديدا، فحاول إثناء سلطان مصر عن تجديد الهدنة المنصوص عليها فى معاهدة يافا حتى لو أدى ذلك إلى إعادة استيلاء المسلمين على القدس ، وقد رد السلطان على البابا بكياسة شديدة بأنه سيستشير الإمبراطور حتى يعرف رأيه فى هذا الموضوع.إلا أن المعاهدة لم تمتد وسوف تعود القدس بدون معركة إلى سلطان دمشق. والنتيجة لم تكن متوقعة.

فى المجمع الدينى فى ليون المنعقد فى ١٧ يوليو ١٢٤٥ نادى إينوسنت الرابع من جديد " بتسليم القدس ". وكان الوحيد الذى استجاب لهذا النداء هو لويس التاسع ملك فرنسا. وفى الوقت نفسه، ألصق البابا بالإمبراطور المذنب حسب رأيه الاتهامات الأربعة التى سبق وأعلنها سلفه والتى لا يمكن تجاهلها أو غفرانها. " وقال إنه بالإضافة إلى ذلك فقد ارتبط بصداقة مكروهة مع الجنود المسلمين... إنه شىء بغيض جدا، أن يجد نفسه فى يوم ما فى هذه البلاد فيما وراء البحار، ويعقد معاهدة مع السلطان ويسمح بنطق اسم محمد علانية فى معبد الرب (قبة الصخرة).

وقد حمل راعى إحدى أبراشيات باريس، إعلان التحريم الدينى ، إلا أنه رفض أن يعطى رأيا وسط أعداء يملكون هذه القوة، فقرر ترك هذه المهمة الصعبة وترك إعلان التحريم يسقط من على منبره.

" لدى أمر بأن أعلن أن الإمبراطور محروم كنسيا. أنا أجهل السبب ولكن بلغنى أنه يوجد خلاف كبير بينه وبين البابا. ولا أعرف الحق فى أى جانب. ولذلك، وبكل قوتى فإننى أبارك الجانب الذى على حق وأحرم الجانب الذى على باطل... ".

عارض ملك فرنسا، لويس التاسع، بشدة عزل البابا للإمبراطور، وتدخل البابا فى شرعية سلطة الملك ، وذهب فى ٣٠ نوفمبر ١٢٤٥ لرؤية البابا فى كلونى ليرجوه العدول عن عزل فردريك الثانى والاعتدال فى تطبيق البراءة البابوية ، واستمرت الزيارة لمدة سبعة أيام، وفى خلالها، أتيحت الفرصة للويس التاسع لإجراء عدة محادثات خاصة مع البابا فى وجود والدته بلانش دى كاستيل. وكتب ماتيو بارى يقول إنه عندما ترك لويس

التاسع كلوني، كان حزينا وساخطا " لأنه لم يجد عند البابا، الذي هو في الوقت نفسه خادم للرب، أي شعور مسيحي حقيقي... " وهو حكم قاسي ضد أحد الباباوات يصدر عن ملك سوف تخلع عليه صفة القداسة مستقبلا ضد أحد البابوات .

أما فردريك الثاني فقد حذر من جانبه بشدة لويس التاسع من حمل الصليب والذهاب إلى مصر، ولكن بدون نجاح. وقد اتهم فردريك بأنه حذر سلطان مصر، " الصالح أيوب " بأن هناك استعدادات فرنسية، وأن الأسطول الفرنسي سوف يمر في موانئ صقلية، وفي ١٣ ديسمبر ١٢٥٠ في أحد القصور بالقرب من "فوجيا" مات الإمبراطور فردريك الثاني، وهو مؤمن إيمانا شديدا بالمسيحية. وتم دفنه في حفل كبير في كاتدرائية بالرمو. وكان قد تم تحنيط جسده عن طريق متخصص قادم من مصر مرتديا حلة القديس البيضاء والمطرزة بخيوط من الذهب على هيئة آية قرآنية بالحروف الكوفية، وعلى كتفه فرش معطف أرجواني ملكي، وشارة السلطة بالخيوط الذهبية تحمل نقوشا بحروف عربية. وأخيرا وضع على جسده سيفا من دمشق في جراب عليه نقوش عربية. وقد طلب منه مطران باليرمو – وكذلك بيرار دي كاستاكا الذي كان مخلصا للإمبراطور، وكان قد كلفه بعدة مهام في القاهرة – أن ينقشوا على الضريح كلمة قصيرة انتهت بكلمات " عاش ولم يعش " Vivit et non vivit .

وكان فردريك الثاني مذنبا في نظر الكنيسة أو على الأقل كما كانت الكنيسة في القرن الثالث عشر طبقا لرأي خمسة باباوات توالوا عليها، إلا أنه كان يتمتع بالذكاء الشديد وكانت ثقافته عالية واندمج في الفلسفة اليونانية عن طريق التفسيرات العربية، ولم يتردد في مناقشة فقيه مسلم أو حاخام يهودي أو رجل دين مسيحي. ومع كل منهم أراد أن يفهم الله لأنه كان يريد أن يعتقد فيما يفهمه. وتشير الدلائل إلى أن الله بالنسبة له ليس هو من يعبد في روما، إلا أن هذا لم يمنعه من أن يدعو القديس فرنسوا أسيس للمجيء ليشرح له وجهة نظره عندما كان يعتقد أنه في حاجة إلى ذلك، والتمسك بشدة بمحاكم التفتيش في بلاده، وكان بالتأكيد شخصية معقدة . وقد وضعه دانتي في النار في كوميدياه الإلهية. هل كان يستطيع وضعه في موضع آخر، هذا الأمير المسيحي الذي بذلت روما قصارى جهدها بدون توقف لحرمانه من بلوغ

مراده بخلعه عن العرش؟ بالنسبة لفردريك الثانى، كان يجب على الملوك أن يحكموا ويتركوا لله فقط الاعتناء بالاعتراف بالأشياء الخاصة به .

وعندما فشلت روما معه، قررت أن تنتقم بقسوة من خلفائه الذكور:

الأول : إنزو، الابن الأكبر للإمبراطور، والمفضل لديه، والذى يطلق عليه " الصقر الصغير " أسره البولونيون فى فوستيفالدا فى ٢٦ مايو ١٢٤٩ وألقوا به فى السجن رغم كل جهود والده، والفدية الكبيرة التى عرضها، والتهديدات التى لم تثمر عن شيء. وبعد موت الإمبراطور ظل فى السجن حتى مات فى ١٤ مارس ١٢٧٢ أى بعد ثلاثة وعشرين عاما من بدء نشاطه كفارس ورسول للإمبراطور. وقد خفف عنه فى سجنه أنه كان محبوبا ، كما أنه رزق بثلاث بنات خلال تلك الفترة.

والثانى : كونراد، وريث الإمبراطور مع شقيقه مانفريد وتم حرمانه كنسيا بواسطة إينوسنت الرابع . وقد أعد جيشا ضخما لسحق جوليف فى إيطاليا وألمانيا ، إلا أن مرضه فى لافيلو أوهن عزيمته وهو على وشك الدخول فى المعركة. وعندما مات تم نقل جثمانه إلى باليرمو ليدفن بجانب والده. وقد اندلع حريق بسبب غير معروف واحترق جسده! وقد ترك طفلا فى عامه الثانى، كونرادين، الشبل. وفى سن الرابعة عشرة أخذ هذا الأخير السلاح بدوره. إلا أنه نتيجة خيانة تم تسليمه إلى شارل أنجو، شقيق لويس التاسع. وبعد محاكمة صورية، كريهة ومثيرة للسخرية، تم قطع رقبته فى نابولى فى ساحة شعبية.

والثالث : مانفريد، اصطدم مع البابا الذى أراد تنصيب تشارلز أنجو فى صقلية. وقتل فى معركة فى بونيفون عام ١٢٦٥ فى حرب ضد خصومه الأنجونيين من أتباع شارل عظيمهم، وحيث إنه كان محروما كنسيا أيضا، فقد رفض البابا حتى دفنه فى ضريح خارج المدافن ونثر رفاته على الأرض .

وهكذا انطفأ عصر عائلة هوهنشتافن التى غرقت فى الدم.

ولكن ذكرى الإمبراطور الكبير ستظل حية. ويقال أن الكولونيل كلاوس فون ستاوفنبرج، بطل المقاومة ضد الهتلرية، كان معتادا حتى عام ١٩٤٣ أن يضع باقة زهور على قبر الإمبراطور فى يوم ذكرى وفاته.

وكان أحد الفرسان الفرنسيين فى بلاد الشام زمن الحرب الصليبية السادسة قد عاد إلى بلاده يحمل معه "زهرة دمشق" الأرجوانية وارتبطت باسمه وارتبط هو باسمها، وصارت تعرف باسم "زهرة بروفانس"، وهى من الزهور التى تزدهر عدة مرات على مدار العام. وهذا الفارس هو: تيبو دى شامبانى الشاعر الذى صار عشيقا لبلا نش دى كاستيل والدة لويس التاسع ملك فرنسا.

ثالثًا : الحملة الصليبية الفرنسية

شجرة الدر

(شجرة اللؤلؤة)

[الحملة الصليبية الفرنسية على مصر][1]

(١) تعرف الحملة الصليبية الفرنسية على مصر ، أو ما يطلق عليها فى فرنسا حملة القديس لويس الصليبية من خلال السيرة الرائعة لحياة القديس لويس التى كتبها « جوانڤيل » الذى كان رفيق السلاح والصديق الشخصى للملك .

ولد جوانڤيل فى عام ١٢٢٤ ، وتم تنصيبه فارسا فى ١٢٤١ فى الليلة التى سبقت سفره ليحارب فى الأراضى المقدسة . وقد بدأ رحلته فى عام ١٢٤٨ من « إيجى مورت » بصحبة الملك . وكانت سنه آنذاك تقرب من الرابعة والعشرين . وقد شارك فى جميع مراحل المعارك ضد مصر ، وجرح وتم أسره مع الملك لويس التاسع . وبعد إطلاق سراحه رافق الملك إلى الأراضى المقدسة وقد تدخل من أجل أن يبقى الملك لبعض الوقت فى فلسطين قبل أن يعود إلى فرنسا . كما أنه صاحب الملك والملكة فى عام ١٢٥٤ فى طريق العودة . إلا أنه رفض مرافقة لويس التاسع إلى تونس ، بعد أن حاول جديا إثناءه عن السفر إلى هذه المغامرة الجديدة .

وخلال مراسم إجراء تقديس لويس التاسع عام ١٢٨٢ تحدث جوانڤيل فى عام ١٣٠٠ بإسهاب عن سلوك وأعمال الملك . وقد طلبت منه الملكة زوجة فيليب لوبل ، أن يقوم بتسجيل كل الأحداث التى مرت به ، كما أنها كلفته بكتابة مؤلف عن الكلمات المقدسة والأعمال الطيبة للملك الذى أصبح قديسا . وبدأ جوانڤيل كتابه وكان عمره آنذاك أكثر من خمسة وسبعين عاما . وتملؤنا الدهشة أمام دقة التفاصيل ونقاء الانطباعات التى أوردها حيث إن الأحداث التى ذكرها كانت قد وقعت منذ خمسين عاما مضت فى أراضى المنصورة الموحلة ، ولم يسنح له الوقت حينذاك لكتابة أية ملاحظات عما كان يدور خلالها . ومن الممكن أن يكون قد اعتمد على الذاكرة وما تم تجميعه من أحاديث وروايات وعلى الأخص من قبل أسقف سان دنى الذى كان موكلا إليه جمع أعمال وسلوك ملوك فرنسا . وقد انتهى من كتابه بعد تسع سنوات من التكليف وكان عمره خمسة وثمانين عاما .

ومن الواضح أن هذا الكتاب كان مقدرا له أن يصبح قدوة يحتذى بها القارئ وأن يثير فيه نوازع الحب والإعجاب بالملك القديس . كما أنه كان نتيجة طبيعية لشهادته على أعمال الملك التى أدلى بها أثناء إجراءات تقديسه ، ولم يطلب من جوانڤيل ذكر الجوانب السلبية للملك . أما الانتقادات التى قيلت بعد ذلك فلم ينظر إليها نظرة إيجابية ولم يتضمنها الكتاب .

وكانت هذه الصورة التى رسمها جوانڤيل والتى تنطق إعجابا وإخلاصا وسذاجة هى التى أثرت على خيال الفرنسيين لدرجة أن عددا من المؤرخين الممتازين قاموا بنقلها حتى يومنا هذا دون أن يضيفوا إليها أى نوع من الانتقاد .

ارتداء الملك لشارة الصليب إيذانا ببدء الحرب

على عكس ما قيل أو كتب فإن فكرة ارتداء شارة الصليب كشعار لم ترد مباغتة إلى لويس التاسع، ففى نهاية عام ١٢٤٤، وبعد شفائه من مرض كاد يودى بحياته (دوسنتاريا حادة) أصابه نوع من التنوير الدينى يدعوه إلى احتضان الصليب والسفر إلى الأرض المقدسة ومحاولة استعادة بيت المقدس مرة أخرى من المسلمين ولم يكن هذا ثمارا لهلوسة أصابت روحه التى أنهكها المرض أو تحمسا صوفيا.

كانت الحملات الصليبية جزءا من التقاليد الدينية. وقد ولد لويس فى العام نفسه الذى ولد فيه دى بوفين وتغذى منذ طفولته على القصص البطولية التى كانت تروى عن الذين حاربوا من أجل تحرير قبر المسيح. وإذا كان والده، لويس الثامن لم يعبر البحار، إلا أنه على أضعف الأيمان كان قد كرس نفسه للصليب ليحارب ضد المخالفين فى العقيدة. أما جده فيليب أغسطس، الذى توفى ولويس فى سن التاسعة فقد كان قد هدهده بقصص مغامراته إلى جانب ريتشارد قلب الأسد فى مواجهة صلاح الدين فى الأراضى المقدسة. ومما لا شك فيه أن فيليب الأول لم يشارك مباشرة فى الحملة الصليبية الأولى حيث كان البابا أوربان الثانى قد عزله من الكنيسة بسبب الزنا وتعدد الزوجات ، وأيضا معاشرة أقارب من المحارم. وكان من غير المستحب التحدث عنه فى بلاط فرنسا، رغم أن قساوسة فرنسا كانوا قد تضامنوا مع الملك ضد البابا. إلا أن شقيق الملك " هيو" كان من أوائل الذين سافروا. وكان جده الأكبر لويس السابع أول ملك فرنسى يشارك فى حملة صليبية. وفى ذلك الحين لم يكن يمتلك أسطولا ولم يرغب فى اللجوء إلى روجيه الثانى، ملك صقلية بغرض تأجير أسطول. فقد فضل أن يأخذ طريق البر من جهة القسطنطينية برفقة زوجته اليانور من أقطانيا ، وقد توقف الزوجان الملكيان فى أنطاكيا فى الشام ونزلا ضيفين على الملك ريمون دو بواتييه. إلا أن معركة نشبت بين الرجلين بسبب ما قيل من أن عم الملكة أظهر لابنة أخيه اهتماما بالغا

يتعدى العاطفة العائلية الطبيعية. وقد شعرت إليانور بذلك أيضا إلا أنها لم تظهر امتعاضا. وفي قصة لأحد الرواة من ريمز أنه كان لها قصص حب حتى مع صلاح الدين، فقد كانت تشعر أنها قد تزوجت من راهب وليس من ملك

وقد أقنعها ريمون بأن كونها ابنة عم زوجها فإن زواجهما طبقا للعادة المتبعة في ذلك الوقت يعتبر محرما وعليه يصبح لاغيا. وفي أنطاكيا طالبت إليانور الطلاق من زوجها وتم تفرقة الزوجين الملكيين وعادا إلى فرنسا. وهناك قررت إليانور الزواج مرة أخرى من الكونت سيد إقليم أنجو، ملك انجلترا وأهدته دوطة عبارة عن مقاطعة أقطانيا التي نزعت بهذه الطريقة من مملكة فرنسا(٢)

وكان فيليب أغسطس هو الذي أرسل جان دي بريان إلى عكا ليتزوج من ماري من مونتفير وريثة مملكة أورشليم. وبعد فشل حملته على مصر، مكث جان دي بريان في بلاط باريس. وكان قد رافق لويس التاسع وبلانش دي كاستيل أثناء حروبهما. ومما لا شك فيه أن الفرصة قد سنحت له لكي يقص عليهما بالتفصيل كيفية الاستيلاء على دمياط ومعركة المنصورة ثم مفاوضاته مع السلطان الكامل. وعندما طلب البابا جريجوري التاسع من جان دي بريان أن يصبح حاكما لإمبراطورية القسطنطينية في عام ١٢٣١، ترك أولاده من زواج ثان تحت رعاية الملك لويس التاسع وكانوا يطلقون على هؤلاء الأطفال في البلاط اسم (أطفال عكا).

و في شهر يوليو ١٢٣٩، حمل عدد كبير من نبلاء فرنسا شارة الصليب بمباركة من لويس التاسع وبمساعدته المادية. وسافروا إلى الأراضي المقدسة. وقد سميت هذه الحملة الصليبية باسم" صليبية البارونات" إلا أن لويس التاسع لم يشارك فيها شخصيا. ورغم أن فكرة الحملة الصليبية كانت دائما في فكر هذا الملك المحب للمسيحية والمتمسك بالخط الذي سار عليه أسلافه، وبالرغم من عدم وجود أي صورة للملك لويس التاسع إلا أن المؤلفين يصفونه بأنه كان طويل القامة رشيقا يميل إلى النحافة ذا صحة ضعيفة. وكان شعره الأشقر الجميل قد دب فيه الصلع منذ وقت

(٢) يجب عدم الخلط بين إليانور التي سوف تصبح جدة بلانش دي كاستيل ، وبين إليانور ، الأخت الصغرى لمرجريت دي بروفانس ، زوجة لويس التاسع .

مبكر. وقد أصابته الدوسنتاريا في عام ١٢٤٢، في خلال حملة سانتونى وعاوده المرض نفسه في عام ١٢٤٤ مع " انتفاخ في البطن" وارتفاع في درجة الحرارة كاد يقضي عليه. ثم قاسي المرض مرة أخرى أثناء وجوده في مصر في عام ١٢٥٠ وقد عولج وشفى من مرضه على يد أطباء السلطان.

وكان لويس التاسع مصمما على إظهار حبه للكنيسة على الملأ. وكان داعيا لا يكل ولا يمل ؛ ومن أوائل أعماله التي تظهر إخلاصه للكنيسة كانت إقامة أسقفية دي رويومون، بالقرب من القصر الريفي الملكي في اينير سورواز. وقد شارك شخصيا في أعمال البناء التي انتهت في ١٣٢٦ وقام بدفن أطفاله الذين توفوا قبله في هذا المكان، وكان يحب أن يتصرف وكأنه أحد رهبان الدير. ثم قرر إعادة تهيئة سان دنيس. وكان أسقف هذه الكنيسة قد أخذ على عاتقه المهمة الكبيرة لجمع كافة إنجازات ملوك فرنسا في مخطوط واحد. وقد أعيد بناء المقبرة الملكية في سان دنى على الطراز القوطي. وأعيد ترميم مقابر داجوبير وشارل لوشوف (الأصلع). أما لويس التاسع فقد أعد مقبرته بجانب مقابر أسلافه فيليب أغسطس ولويس الثامن. وبامكاننا اليوم رؤية تمثال يرجع عهده إلى وقت شارل مارتيل الذي تصالح على ما يبدو مع الكنيسة تمشيا مع الروح التي كانت تسود الحملات الصليبية التي كان الملك يعد لإحداها. وقد استغرقت أعمال البناء في هذه المقبرة أكثر من عشرين عاما.

في عام ١٢٤١، بينما كان العمل يجري في كنيسة نوتردام دي باري وفي سان دنيس كما كانت تجري أيضا أعمال بناء هامة في سان جيرمان دي بري، قرر لويس التاسع بناء كنيسة جديدة ملحقة بالقصر الذي يسكنه يكون لها فناء عظيم.. وكان بلدوين الثاني إمبراطور بيزنطة قد باع في أثناء إحدى سفرياته للملك لويس التاسع المقدسات التي كان يمتلكها وقبض ثمنا باهظا لها. كما قام أيضا ببيع التاج المصنوع من الصلب على هيئة أشواك والذي كان الدومينكيون قد أحضروه من القسطنطينية في عام ١٢٣٩ وكذلك جزء من الصليب الأصلي الذي كان موضوعا داخل صندوق من الذهب وكان بلدوين قد رهنه لدى فرسان المعبد. وأحضر هذا الجزء إلى باريس ومعه جزء من رأس سان جان بابتيست (يوحنا المعمدان). وأضاف إلى ذلك المقدسات التي عثر عليها في الحملة الصليبية الأولى، وأيضا الرمح الذي اخترق جانب المسيح

والإسفنجة المبللة التى استقى منها ومقدسات أخرى كثيرة. وفى عام ١٢٣٩ توجه الملك إلى فيلنوف لإحضار التاج، وقد حمله حتى مدينة" سانس" وصاحبه فى سفره شقيقه الكونت دارتوا وكان الملك يمشى عارى القدمين على رأس الأساقفة والنبلاء والقساوسة. وتم وضع المقدسات فى داخل الكنيسة الصغيرة الملحقة بالقصر والتى اعتبرت بسيطة بالنسبة لاحتواء مثل هذه المقدسات العظيمة التى تعد من أعظم المقدسات الموجودة فى الدين المسيحى. وبعد الانتهاء من بناء الكنيسة تم تدشينها فى السادس والعشرين من أبريل عام ١٢٤٨ ، وكانت قد بنيت من قطع هائلة من الحجارة والزجاج المعشق. وقد تكلفت ٤٠,٠٠٠ ألف جنيه تورى (قيل إن هذا الثمن يساوى ثمن شراء أربع مقاطعات) وقد أضاف الملك لويس التاسع إلى المبنى ذهبا وأحجارا كريمة وفضة تساوى مئات الألوف من الجنيهات. وقد بنيت الكنيسة من طابقين، وكان مرافقو الملك يصلون فى الطابق الأسفل ، أما فى الطابق الأعلى وعلى الأضواء المتلألئة التى يعكسها الزجاج كان الملك يصلى ويتعبد بمفرده فى اتجاه المقدسات.

وحرصا على العدالة، فإنه سمح لليهود استثنائيا ببناء معبد جديد فى باريس – شارع تاشورى.[٣]

وفى عام ١٢٤٤، كان الملك فى موبيسون عندما داهمه مرض الدوسنتريا من جديد بحيث أشرف على حافة الموت. وبسبب معاناته من ارتفاع الحرارة حكم عليه الأطباء بأن حالته ميئوس منها. وأحضرت بلنش دى كاستيل بجانب قدميه " إشارة الآلام " وظلت تصلى بصوت عال. وكان لويس قد ودع المحيطين به. وظنت إحدى السيدات اللاتى كن يسهرن على راحته أنه قد مات فسحبت الغطاء على وجهه. وتم فتح أبوب الحجرة وبدأ رفاق الملك فى المرور على حافة سريره عندما سمعوه يتنهد ثم يئن، فقد كانت الحياة تدب فى جسده من جديد. وفى يوم ٢٣ ديسمبر أقيم فى سان دنيس عرض للمقدسات وجاء شعب باريس فى أعداد كبيرة للدعاء بالصحة للملك. وفى يوم عيد الميلاد عام ١٢٤٤ أعلن البلاط الملكى شفاء الملك!

(٣) فيليب لوبل ، ابن لويس التاسع الصغير . قرر بدوره طرد اليهود من مملكته ، وصادر هذا المعبد ووهبه لرعاة الخيول .

وهنا أعلن لويس التاسع أنه سيرتدى شارة الصليب ويسافر إلى الأراضى المقدسة فى أقرب وقت ممكن.

كان لويس التاسع يبلغ من العمر اثنى عشر عاما عندما توفى والده لويس الثامن. ولمدة ثمان سنوات لحين بلوغه السن القانونية، كانت والدته بلانش دى كاستيل الوصية على العرش، إلا أن سلطانها على الملك الصغير تجاوز هذه المدة. وكان لويس فى العشرين من عمره عندما اختارت له والدته زوجته مارجريت دى بروفانس التى كانت تبلغ من العمر آنذاك ثلاثة عشر عاما وكانت قد تعلمت عند والدها فى قلعة أيكس دى بروفانس كل معانى الحب، حتى تغنى الشعراء الجوالون بجمالها. وكانت أيضا متعلمة وذات جمال باهر ونادر فى هذا العصر. وبعكس شقيقتها إليانور، ذات الشخصية المتقلبة، وسوف تصبح مارجريت زوجة محبوبة ونادرة العيوب. وقد تركت منزل والدها وعاشت مع شقيقاتها اللائى كن يتميزن بجمالهن والمقرر لهن أن يصبحن بدورهن زوجات للملوك.(٤) وتم الاحتفال بالزواج فى ٢٦ مايو ١٢٣٤ فى كاتدرائية سانس. وبلغت الدوطة ١٠,٠٠٠ مارك فضة، ولم يتم دفعها قط. وكان لويس يحبها بشدة ولم يضمر لها أى حقد بسبب الدوطة التى لم يأخذها. بل قدم لها إطارا مشبوكا بزهرة الزنبق محفورا عليه هذه الكلمات " هل يمكن أن نجد الحب خارج هذا الإطار ".

وقد أمضى الملك الليالى الثلاث الأولى التى تلت عقد الزواج فى التعبد فى الكنيسة الملكية ولم يدخل حجرة زوجته إلا فى الليلة الرابعة، ولكنه لم يقض طوال اليوم بجانب زوجته. وتخيلت بلانش دى كاستيل أن ابنها قد وفى بوجباته الزوجية واستدعته لمنزلها.

وقد وصف جوانفيل علاقة مارجريت مع حماتها بأنها صعبة وأن غيرتها من بلانش وصلت حد المرض.

(٤) إليانور تزوجت هنرى الثالث ملك إنجلترا ، وسانتشى تزوجت ريتشارد دى كورناى الذى أصبح كذلك ملكا على إنجلترا، وبياتريس تزوجت شارل دانجو شقيق لويس التاسع وملك صقلية المقبل .

ويمكن القول بأن لويس كان يتنازل أكثر لرغبات والدته، وكانت تعلم، كما قال جوانفيل، كل شيء عنه وعن تحركاته ، حتى إنها كانت تراقب السلالم المؤدية لقلعة بونتواز التي توصل إلى حجرة زوجته. وفي الكنيسة المقدسة يمكن أن نرى الآن زهرة الزنبق الخاصة بملك فرنسا وقلعة كاستيل شعار والدته ولكن ليس اسم زوجته!... وعندما ماتت بلانش، بكت مارجريت بشدة وظلت لمدة طويلة في حالة حداد. واندهش جوانفيل لأنه يعلم الشعور الحقيقي الذي تكنه لحماتها، وقال لها:

صحيح أن الذي يؤكد أنه يفهم المرأة يخطئ ، لأنها كانت أكثر الشخصيات التي تكرهينها "

فأجابت إنها لا تبكي موت الملكة ولكن على حزن الملك.

وكان قرار لويس التاسع ارتداء شارة الصليب شيئا، والسفر على رأس جيش فيما وراء البحار شيئًا آخر، فهذه الخطوة تتطلب تفكيرا عميقا واستعدادات طويلة.

وكان رد بارونات المملكة معارضا لهذا القرار. حيث إن عددا كبيرا كان قد سافر منذ عدة أعوام ولم يعد. وعارضت بلانش دي كاستيل أيضا بعنف. ويقول الإنجليزي ماتيو باري:

"... واجه ملك فرنسا معارضة شديدة من سادة المملكة لأنه رفض أن يشتري الغفران لعدم تنفيذ نذره أو تبديله، كما طلب منه الكثيرون وعلى رأسهم الملكة بلانش ومطران باريس... الذي قال له ":

" عندما ارتديت الصليب وتعهدت بإنجاز مهمة بهذه الصعوبة، كنت مريضا جسمانيا ونفسيا... أما الآن فإن البابا سيعذرنا لأنه سيأخذ في الاعتبار حالة مملكتك وضعف صحتك... "

وردا على ذلك خلع لويس الصليب الذي كان يرتديه منذ ديسمبر ١٢٤٤ وأعطاه للمطران ، ثم طلب منه أن يرده له بطريقة لا تترك مجالا للشك في أن يقول أحد إنه أبدى رغبته وهو بكامل قواه العقلية.

بالنسبة للشعب كان التساؤل أكبر. ففكرة الحروب الصليبية أصبحت على مر السنين وعلى وجه التحديد منذ قرن ونصف تم نسيانها ولم تعد تشد الانتباه. وكانت صعوبة وخطورة هذه الرحلات البعيدة سواء برا أو بحرا معروفة للجميع. فالكثيرون ذهبوا ولم يعودوا. وأصبح معلوما كذلك أن من يصل إلى هذه الأراضى البعيدة عليه أن يحارب الجنود المسلمين الذين يرتبطون بعقيدتهم كما يرتبط المسيحيون بعقيدتهم. ثم إن فكرة الحروب الصليبية كانت قد استخدمت بطريقة عشوائية ضد كثير من البشر، وفى بعض الأحيان ضد المسيحيين المؤمنين أنفسهم، لأهداف بعيدة تماما عن السبب الحقيقى وراء ارتداء شارة الصليب. فباسم الصليبية تم قتل اليهود(٥) والاستيلاء على ممتلكاتهم بالرغم من عدم تخفيض الفوائد التى كانت تدفع لغير اليهود، ثم تم سلب مقاطعات بأكملها فى وسط فرنسا واحترقت مونتسيجور، وكان هناك سلب ونهب لمدن مسيحية فى دلماشيا، وفى المجر وفى قبرص وأضيفت إلى

(٥) فى عهد لويس التاسع تدخل البابوات فى عدة مناسبات لإخماد عداوة الملك ضد اليهود فى ٣ مايو ١٢٥٣ ، أرسل جريجورى الرابع قرارا بابويا لكل المسيحيين يذكرهم بأمثلة أسلافه جاليكسيت وأوجين وسيليستان وإينوسنت وأونوريوس وأشار إلى القرار البابوى Sicut Judeis وهو بيان خاص بحماية اليهود . فى ٩ سبتمبر ١٢٣٦ نشر البابا جريجورى التاسع نفسه ، القرار البابوى Lacrimabilem Judacoruñ Franciae الذى يبكى على الحالة المؤسفة لليهود . « حزن على عدم عدالة المسيحيين الذين بدلا من الاستعداد للحرب المقدسة .. يخترعون كل أنواع الوحشية ضد اليهود ليبيدوهم .. » ونصح المسيحيين كذلك بعدم المغالاة فى استخدام الدين كذريعة مميزة للحرية فى سلب ممتلكات هؤلاء الأبرياء ....

وفى قرار بابوى مؤرخ فى ٥ يوليو ١٢٤٦ فى ليون ، يوجد فى أرشيف كولونيا ، كتب البابا إينوسنت الثالث (١٢٤١ – ١٢٥٤) : « .... إننا ندفع من خلال هذا الكتاب كافة المعاملات السيئة الموجهة ضد اليهود ، حيث إن الارتداد لرحمة الله وبشهادة الأنبياء بأن من سيتبقى سيتم نجدته .. » .

فى عام ١٢٤٧ ، أرسل البابا إينوسنت الرابع من جديد لمطارنة فرنسا وألمانيا طالبًا منهم الحرص من اضطهاد اليهود الذى تولد بعد اتهامهم بقتل الشعائر

فى فالريا فى وسط فرنسا كان لرجال الدين الصغار السلطات للقيام بتحقيقات قانونية ، ضاربين بكل القواعد عرض الحائط ، حتى يؤكدوا أسطورة قتل الشعائر وإلصاق الجريمة باليهود ، ويتم تعذيبهم . الأب أرنو دار جوريل أشار إلى ما يتم من إخلالات فى ديج وكونها غير أخلاقية .

(انظر مراجع أخرى ، العالم الإسرائيلى ١٨٧٥ من ١٨٧٥/٣/١ رقم ١٣ صفحة ٤٠٥ . كذلك المؤلف د. إيانكو « اليهود فى البروفس » صفحة ١١٧ ... إلخ)

القائمة أخيرا القسطنطينية. وكانت النتيجة خلق أعداء كثيرين جدد أكثر من الأعداء في العقيدة، وظلت الأراضي المقدسة في حوزة الجنود المسلمين.

وقد أعلنت الأخبار القادمة من الأراضي المقدسة عن كوارث جديدة. فقد استحوذت مجموعات من الأتراك المطاردين من المغول على أورشليم القدس وانتهكوا حرمة الضريح المقدس. وفي ١٧ أكتوبر ١٢٤٤ استولى جيش سلطان مصر " الصالح أيوب " معززا بجنود من أصل تركي، على الخوارزمة، وهزموا جيش بارونات الشام والصليبيين الفرنجة وحلفاءهم المسلمين في دمشق في معركة حربية. وكانت الخسائر فادحة مقارنة بالخسائر التي مني بها الفرنجة عند نشوب معركة حطين. وعلى شواطئ غزة قتل خيرة فرسان الشرق وبلغ عدد القتلى ٣١٢ من فرسان المعبد من ٣٤٨ و٣٢٤ من طائفة التركمان و٣٢٨ من فرسان الإسبتارية من ٣٥١ و٢٠٠ من طائفة التركمان و٣٩٧ فارس تيوتوني من ٤٠٤ وقيل أيضا عدد غير محدود من فرسان كهنوتية القديس لآزار. وبناء على ما أورده أسقف أورشليم القدس كان أكثر من ستة عشر ألف جندي قد قتلوا أي أسروا. منهم ألف فارس بأسلحة ثقيلة وسبعمائة فارس بأسلحة خفيفة و٣٠٠ فارس من قبرص و٣٠٠ من إنطاكية – طرابلس ، كما قتل كل من جاء من يافا وتم إبادة جنود من الكهنوتية بالإضافة إلى الحرس المتواجدين في الأماكن الحصينة والذين لم يشاركوا في المعركة. ولأول مرة ظهرت أسلحة جديدة، وهي السهام التي كان يطلقها المصريون وهم ثابتون في مجموعات متلاصقة ، وبذلك نجحوا في تحطيم الفرسان الفرنجة دون أن يستخدموا سيوفهم. وكان هذا شيئا جديدا بالنسبة للفرنجة. كما أظهر الجنود المسلمون تنظيما في العمليات وتقنية كان من المعتقد أنهم غير قادرين عليها. وبعد هذا النصر المدوي استعاد المصريون وسط فلسطين وحتى الشمال، ووادي الأردن والساحل حتى غزة. وسقطت أورشليم القدس تحت سيطرة المصريين الثلاثة قرون التالية وانتهت " حرب البارونات الصليبية " في حمام من الدم.

علم لويس التاسع بهذه الكارثة بعد شفائه، مما عزز قراره بالسفر لنجدة المسيحيين الشرقيين، وما تبقى من المملكة اللاتينية لأورشليم القدس. وفي أثناء

الاجتماع الكبير الذى عقد فى باريس فى أكتوبر ١٢٤٥ تمت أخيرا الموافقة على خطته وتحققت آماله فى باروناته، وعدد كبير من السادة والأحبار المرتدين شارة الصليب. ومنعت كل الحروب المحلية لمدة ثلاث سنوات وتأجلت الديون وتم إيقاف الفوائد طوال فترة الحملة الصليبية.

وبدأت الاستعدادات للحملة الصليبية بقوة ، وأخذ لويس التاسع الأمور بجدية ويقظة فقد كان يريد أن ينجح حيث فشل الآخرون لذلك كان يتعين عليه التصرف بدقة وحذر للحصول إلى النصر الذى يتطلع إليه.

وفى انتظار الأنباء الواردة من الأراضى المقدسة التى تؤكد الكارثة، وفى ١٧ يونيو ١٢٤٧، استولى الأمير " فخر الدين " الذى يعمل لحساب سيده السلطان " الصالح أيوب " على طبرية من الفرنجة. ثم دار حول عسقلان بالقرب من غزة وتم حصار المدينة من الأرض والبحر. وفى ٢٥ أكتوبر ١٢٤٧ قام بالهجوم عليها ، وتم تدمير المدينة رأسا على عقب. وفى خلال ثلاث سنوات من عام ١٢٤٤ إلى ١٢٤٧ كانت الحملات الصليبية القادمة من أوروبا قد تم تدميرها بالكامل. وظلت أورشليم القدس مسلمة والتعهدات التى أعطيت لفردريك الثانى تم إلغاؤها. وما تبقى من الدولة المسيحية ينذر باندثارها بالكامل.

ووضح أن لويس التاسع هو الملك الأوروبى الوحيد الذى يهتم بكل هذه الأحداث.

غاز أم شهيد

بأى روح كان لويس التاسع يستعد لحملته الصليبية؟

كان الملك يحب أن يستند فى أحيان كثيرة إلى أقوال القديس فرنسوا أسيس الذى توفى عام ١٢٢٦ ، ولم يكن الملك يعرفه شخصيا، فهو لم يعرف " مجنون الرب " إلا من خلال تلاميذه ، وفى الوقت الذى غطت فيه الأسطورة على الحقيقة. فلم يكن يعرف شيئا عن رحلة فرنسوا إلى مصر إلا من خلال ما رواه بونافنتورا الرئيس الأعلى للكهنوتية الفرنسيسكانية الذى كان حكمه على السلطان قاسيا لأنه لم يشأ أن يقتل فرنسوا فحرمه بذلك من الموت شهيدا.

ولكن لويس اقتبس من حياة القديس الذى كان معجبا به خشوعه وكرمه، ومذاق الفقر. هذه الفضائل كانت بالنسبة له عوضا عن ثقل السلطة المطلقة التى يسبغها عليه التاج. كما كانت أيضا الترياق ضد سكرة السلطة. كان الملك يمارس هذه الفضائل علانية، ويحض المحيطين به على الحذو مثله. وكان يمارس الامتناع عن الشهوات، ويشير إلى العشاء الأخير، ويجثو ويخشع أمام المسيح، كما كان يسير حافيا من نوجان لوروا إلى شارتر ليتعبد فى الكاتدرائية الجديدة. وعندما سافر على رأس الجيش واضعا حياته فى خطر كان يحذو حذو القديس فرنسوا، وهو البحث عن النصر أو الاستشهاد.

هذه الفضائل التى كان يمارسها طوعا فى حياته الخاصة والعامة لم تفسد بأى حال الروح التي ارتدت شارة الصليب. فقد سافر بعكس ما فعل فرنسوا ليس للإقناع ولكن للغزو وسحق المخالفين فى العقيدة، أعداء المسيح. ولبلوغ هذا الهدف تصبح كل الوسائل مباحة. ولم تكن القواعد الموضوعة للفرسان تعنى بأن الحرب فيما وراء البحار

هى حرب حتى الممات تستهدف الخير ضد الشر. وقتل الأعداء هو الوسيلة للوصول إلى هذا الهدف الذى يجب اللجوء إليه طالما أنه يتم لمحو وجود هذه الفئة وسحقها.

إن محاولة فهم العدو لا جدوى منها كما أن معرفة طبيعته أو مشاعره تعتبر ضعفا ومجازفة. فليس من المعقول أو الممكن قتل شخص نحاول فهمه. وليست المباحثات مع العدو تساهلا، وتعنى قبول فكرة كوننا على غير حق وأن العدوان باطل. وفى هذه الحالة لا نقتل ولا نقبل الموت إذا كنا نعتقد أنه يمكن الوصول إلى حل .

إن هذا الملك الذى خلعت عليه البابوية لقب "قديس" كان رجلا عدوانيا متبربرا، تفوح من كلماته روح التعجرف الممقوت والعجرفة الفرنجية والهوس الدينى الذى كان من أسوأ رذائل الكنيسة الرومانية فى العصور الوسطى، وهى التى دعت إلى الحركة الصليبية العدوانية منذ البداية طمعا فى موارد الشرق ، وأيضا لنشر مذهبها الكاثوليكى بحد السيف.

وبالنسبة للويس التاسع، فإن روح الحملة الصليبية كما وصفها برنارد دى كلارفوه غير قابلة للتغيير. فقتل المخالفين فى العقيدة ليس إجراما، وإذا قتلنا فإننا على ثقة من دخول الجنة. وقد أنشد روتبوف "يمكن أن نكسب رضا الله بدون التحرك من بلدنا"، أما لويس التاسع فقد قرر ترك بلده للغزو أو الموت ومن خلال ذلك كسب الجنة كما زعم روتبوف .

وكان هذا التصلب الدينى الفظ هو نفس ما أظهره حينما سحق الهرطقة فى حريق مونتسيجور ، وظهرت هذه الفظاظة أيضا عندما أصدر أوامره بطرد اليهود من المقاطعة الملكية أو وضع محاكم التفتيش موضع التنفيذ فى وسط فرنسا ، لدرجة أن البابا اضطر إلى التدخل لنصحه بتخفيف هذه الأعمال الانتقامية وتجنب التطبيق التلقائى فى الحكم بالموت.

ولم يكن لدى لويس التاسع النية فى أن يكون أقل تشددا مع المسلمين الذين كان يجهل كل شىء عنهم تقريبا ، فيما عدا أنهم ليسوا مسيحيين وأنهم يحتلون خطأ كل ما هو حق أصيل للمسيحيين : أى الأماكن المقدسة وخاصة أورشليم القدس.

واستمرت الاستعدادات لمدة ثلاثة أعوام، وكرس لها لويس التاسع نفسه بجدية ودقة وهو يرسم خططه. العمل على تجميع جيش من عشرات الآلاف من الرجال بأسلحتهم ومعداتهم، والتأكد من وسائل نقلهم عن طريق البحر حتى قاعدة قريبة من قبرص، وتجميع المؤن والتعزيزات ثم نقلهم مرة أخرى للهدف النهائى فى الشام أو فلسطين أو مصر، والتفكير فى وسائل للرسو فى مواجهة مقاومة شديدة وعدائية. وتجميع الوسائل التى سوف يتطلبها الحصار، بجانب كل ما يلزم لاستمرار الحرب بعيدا عن قاعدته، كل هذا لم يكن سهلا ولكنه كان أبعد ما يكون عن الارتجاليات الخطرة كما كان الحال فى الحملات الصليبية الأولى. وكان من الضرورى أيضا أن تبقى المملكة الفرنسية بمنأى عن أية مطامع لغزوها : فالحماية التى توفرها الكنيسة بالنسبة للمشاركين فى الحملة لم تكن دائما كافية. وبعد الملك وجيشه عن البلاد، كان من الممكن أن يوقظ نوايا غزوات يجب التصدى لها، وبالطبع كان كل هذا يتطلب أموالا كثيرة. وأخيرا كان يجب على الملك عدم السفر بمفرده بل البحث عن حلفاء يشاركونه فى الحملة. كانت ألمانيا وإيطاليا اللتان كانتا دائما تشاركان بنصيب لا يستهان به فى الحملات الصليبية، مشغولتين بالشجار الدائر بين البابا فردريك الثانى، والذى انتهى إلى إعلان البابا حرمان الإمبراطور كنسيا. حيث كان الإمبراطور قد غزا ممتلكات الكرسى البابوى. أما لويس التاسع الابن البار للكنيسة فقد بقى على هامش هذه الشجارات. والآن فإن فردريك الثانى قد كتب لكل الملوك المسيحيين يحثهم على ارتداء شارة الصليب ضد المغول الذين كان يطلق عليهم اسم التتار. وكانوا قد توجهوا ناحية بولونيا وسيلسى وموارفيا والمجر ودمروا الجيوش المسيحية التى اجتمعت للوقوف أمامهم ومحاربتهم.

وقد كتب البابا إينوسنت الرابع الذى خلف جريجورى التاسع فى عام ١٢٤٣ " المجابهة ضد التتار" فى يوم الاجتماع الخاص بتحرير الأماكن المقدسة. ولكن كان فى إمكان مسيحيى أوروبا الوسطى والشام الاستجابة إلى طلب الإمبراطور فردريك الثانى لمحاربة التيار، وفى الوقت نفسه محاربة المسلمين فى فلسطين ومصر كما طلب ملك فرنسا الذى كان يستعد للسفر فى حملته الصليبية؟

كان يجب على المجمع الدينى فى ليون أن يوضح هذه المواقف غير المتوافقة. فقد أدان البابا فردريك الثانى الذى يؤخر استجابة المسيحيين أتباعه للوفاء بما أقسموا عليه. أما بالنسبة للحملة الصليبية فقد قرر المجلس تخصيص عشرين فى المائة من إجمالى دخل الكنائس المسيحية لتمويلها. ووافق المطارنة الفرنسيون طواعية بالمساهمة فى الحملة بتخصيص العشر من دخلهم. وأضيفت الأرباح الناتجة عن منح الغفران والنذور وكل ما يورث. ولكن لم يعرض أحد الانضمام إلى ملك فرنسا. فقط بعض السادة الإنجليز انضموا لبارونات فرنسا مثل الكونت سالزبورى، وهو أحد الأقارب غير الشرعيين للملك هنرى الثانى أما ملك إنجلترا هنرى الثالث فقد اختار أخاه غير الشقيق جى دى لوزينيان ليرأس البارونات الإنجليز، وكان ذلك يعنى أن الإنجليز قد ينتهزون فرصة غياب ملك فرنسا لمحاولة الأخذ بالثأر بسبب النزاع حول أقاليم أنجو وبواتو ونورماندى.

أما بالنسبة لألمانيا فإن المبالغ المخصصة للحملة تم استخدامها ضد فردريك الثانى. إلا أن دوقيات لورين وبورجنديا وافقتا على جمع ضرائب وتسليم الحصيلة لملك فرنسا الذى زاد من سلطاته الملكية فى هذه المقاطعات.

وهكذا ظلت الحملة الصليبية عملا فرنسيا بحتا. وحتى بارونات الشام وفلسطين، الذين تقلص عددهم نتيجة لهزائمهم الأخيرة فى جميع مقاطعاتهم، فلم يستطيعوا الانضمام للحملة إلا بمجموعات رمزية من الجنود.

وكان لويس التاسع الملك الوحيد من بين الملوك المسيحيين الذى استمر فى حملته الصليبية.

جيش وميناء وسفن للغزو !

حول الملك وراية سان دنيس ارتدى النبلاء شارة الصليب.

وفي الصف الأول كانت الأسرة المالكة: الأشقاء الثلاثة للملك، روبير دارتوا، وألفونس دى بوتييه وشارل دانجو. ثم كبار البارونات: هيو دوق بر جنديا وجيوم كونت دى فلاندر وهيو كونت سان بول الكونت دى لا مارش وابنه كونت دانجولام هيوبر دى بيجو ، القائد العام ريمون السابع من تولوز ثم السادة النبلاء الذين يتلونهم في الأهمية ورجال الدين مثل أسقف سيواسون.

كان من الضروري حشد أكبر عدد ممكن من الرجال للجيش. فالنذر للحملة الصليبية كان بدافع شخصي وليس فرضا إجباريا مثلما يكون الوضع لو أن الملك يحشد الجنود لحماية المملكة. لذلك كان المتطوعون فقط هم الذين يرتدون شارة الصليب.

وكان على الملك وكبار البارونات الذين كانوا يجندون مجاميع خاصة، أن يوفروا احتياجات ورعاية رجالهم، بالإضافة إلى المحاربين والفرسان من حاملى التروس والجنود المسلحين بالقذائف، والمراقبين الذين يحصلون جميعا على مرتبات فالجنود يتبعون سيدهم ويعتمدون عليه في إعاشتهم. ولما كان من المتوقع أن تستغرق الحملة الصليبية وقتا أطول مما كان مقدرا لها في الأصل، فإن بعض السادة مثل جوانفيل لم يكن في استطاعتهم مواجهة هذه النفقات. لذا كان من الواجب على الملك وبعض البارونات الأثرياء مساعدة غير القادرين على التكفل بهذه الأموال فمثلا من المعروف أن الملكة بلانش قد أقرضت من ريمون دى تولوز ٢٠,٠٠٠ جنيها ومثل هذا المبلغ لجيوم دى دومبيير.

وصل إجمالى الرجال الذين تم تجميعهم من خمسة وعشرين ألفا إلى خمسة وثلاثين ألف شخص من بينهم ألفان وثمانمائة فارس محاطون بخمسة آلاف تابع وحامل سلاح. وكان الجنود المسلحون بقذائف حوالى خمسة آلاف وقدر عدد المشاة عند بداية السفر بعشرة آلاف رجل. وتم تحميل السفن بجياد من أوروبا يتراوح عددها ما بين سبعة آلاف إلى ثمانية آلاف جواد. وبالمقارنة فإن فيليب أغسطس كان قد سافر على رأس ستمائة وخمسين فارسا وألف وثلاثمائة جندى مشاة أما ريتشارد قلب الأسد فلم يكن لديه عدد أكبر عندما سافر عن طريق البحر.

وكانت الحملة الصليبية ضد الألبجنزيين قد سمحت لملك فرنسا بالإبحار عبر البحر المتوسط ، ولكن لم تمنحه ميناء ليرسو فيها. وكانت مرسيليا والبروفانس من المقاطعات التى تخضع للإمبراطور فردريك الثانى، الذى كان لا يميل كثيرا إلى تشجيع حملة صليبية. وكانت مقاطعة نيس تحت سيطرة أهل جنوة. وكانت أراضى اللانج دوك تحت إدارة ألفونس، شقيق الملك، ولكن لم يكن بها ميناء. لذا كان من الضرورى التفكير فى إنشاء ميناء جديد وهو ميناء إيجى مورت.

ولم يكن الموقع المختار للميناء الجديد مثاليا، وخاصة فى الصيف ، فقد كان مليئا بالناموس الذى يسبب مرض الملا ريا. ولكن الملك لم يكن لديه خيار آخر. إذ كان من الضرورى أن يكون الميناء فى الأراضى الملكية، ولم يكن الملك يمتلك سوى اثنى عشر كيلومترا من الشاطئ بين أراضى الكونت دى بروفانس التى تخضع للإمبراطور فردريك الثانى وملك أراجون. ويذكرنا هذا الموقع بموقع مدينة البندقية، حيث لا يسبب اللسان الممتد فى البحر أضرارا عند القيام بإنشاء ميناء. فالمستنقعات والرمال تعتبر حماية طبيعية من الأعداء فى الداخل والخارج. وخلف ميناء إيجى مورت يمكن القيام بأعمال الزراعة وتربية المواشى الكبيرة. وعند وضع ركائز بينها فإنه يصبح لإيجى مورت مرسى طبيعيا مزدوجًا فى مواجهة العواصف ، ويصبح الملح هو المصدر الطبيعى الأكثر أهمية لثرائها. ويمكن تصديره عن طريق نهر الرون فى اتجاه الشمال ومن الميناء لجميع موانئ مدن البحر المتوسط. كما يمكن للسكان فى المدينة الجديدة ممارسة الصيد وهو النشاط التقليدى لسكان السواحل.

فى عام ١٢٤٨ طلب السكان من الملك بناء طريق فى اتجاه فوفير لتجنب المستنقعات والفيضانات. وتم بناء الطريق. ومنذ ذلك الحين أصبح الطريق الطبيعى للوصول إلى المدينة والذى سيحمى فى المستقبل برج شاربونيير.

ومنذ بداية الرحلة أصبح لإيجى مورت تخطيط متجانس يعود الفضل فيها إلى أودس دى مونترويل كبير مهندسى الملك الخصوصيين فإيجى مورت سوف تمتد حوالى ١٤ هكتارا، وكانت على هيئة مستطيل تبلغ مساحته ١٦٤٠ مترا. وشيدت الأسوار والبروج على الميناء لصد أى ضربة سواء من البر أو البحر ,وبذلك أصبح لملك فرنسا ميناء صغير صار علامة واضحة بالرغم من بعده عن باريس. وبلغ ارتفاع أسوارها اثنى عشر مترا فى حين كانت القاعدة ثلاثة أمتار. وسوف يتعدى ارتفاع العشرين برجا الخمسة عشر مترا ومن ضمنها خمسة أبراج ضخمة سوف تسد الأبواب الخمسة الرئيسية للمدينة.

هذه الطريقة الهندسية التى استخدمت تذكرنا، وليس مصادفة، بدمياط وعكا وخاصة إنطاكية التى تركت انطباعا خاصا على الصليبيين الأوائل. ومن المحتمل أن فرسان المعبد الذين كانوا موجودين بكثرة فى لانج دوك كان لهم تأثير عند تنفيذ هذا التخطيط.

كل هذا لم يحدث نتيجة لمعاهدة أو حتى بتحفيز من لويس التاسع الذى كان فى عجالة لاستخدام الميناء لعلمه بأهميته وقد تم تشيد الأجزاء المهمة من الميناء أثناء حياته. وقد استغرق إنشاء الأسوار حوالى قرن. وسارت عملية البناء فى المدينة ببطء طبقا للوضع القائم والإمكانيات المادية.

ولما كان عدد السفن المتاحة لا يكفى، فقد كان من الضرورى الحصول على المزيد من أى مكان يمكن فيه بناؤها. فأصدر الملك أمرا ببناء ست عشرة سفينة فى جنوة وعشرين سفينة فى مرسيليا. وكان اثنان من بنائى السفن فى جنوة وهما أوجو لوكارو وجاكوبو دا لفنتو قد سبق لهما التعامل مع لويس التاسع وحصلا ولأول مرة فى فرنسا على لقب أميرال أسطول الملك (هل كان الملك يعلم أنه يستخدم لقبا عربيا، وأن كلمة أميرال كانت المناظر للكلمة العربية " أمير البحر "؟) وقد قام بعض رجال البنوك من

بليزانس في إيطاليا بتمويل هذه العمليات بضمان الموارد المالية الملكية. أما البارونات الآخرون فقد طلبوا بناء سفن حيثما وجدوا ، وبعضهم لم يتردد في الذهاب حتى إلى أنفرنس في شمال اسكوتلاندا بحثا عنها.

وكانت السفن الحربية المتميزة هي السفن المسطحة التي يمكن أن يصل طولها من ثلاثين إلى أربعين مترا وبعرض ستة أمتار وصفوف من عشرات المجاديف ، وهي سفن تتميز بالسرعة وسهولة الحركة ولا تعتمد فقط على الرياح. ولا ترفع القلاع إلا إذا سمح الهواء بدفعها في الاتجاه الصحيح. وكان يمكن للسفينة أن تصل إلى سرعة السفن التجارية التي تعتمد على الرياح. وعلى ظهرها تنقل البضائع الأكثر قيمة.

أما البواخر فقد كانت إمكانياتها أكبر، وكانت تستخدم في نقل البضائع ذات الأوزان الثقيلة: مثل القمح والسكر والملح... الخ. وهي سفن نموذجية للصليبيين. وكان من الممكن أن يصل طول السفينة من خمسة وعشرين إلى أربعين مترا وعرضها من عشرة إلى خمسة عشر مترا. وبها برجان أحدهما في الأمام والآخر في الخلف وساريتان وشراعان. وكانت الدفة عادة في يمين السفينة ولكن في بعض السفن كان يوجد اثنان واحدة على كل جانب.

وسارت الأعمال في إيجي مورت بهمة ونشاط وتم تخصيص برج كوستانس لإقامة الملك. وقد استخدم هذا البرج كفنار أيضا وفيما بعد تحول إلى سجن للنساء البروتستانت. أما المناطق الأخرى فقد كانت مخصصة للأشخاص الأقل نبلا. وتم الانتهاء من الحفر في ممر الملك الذي يصل الخليج بالبحر.

وكان من المتوقع منذ بداية الحملة الصليبية أنها سوف تتكلف مبالغ ضخمة تصل إلى حوالي مليون جنيه ونصف تقريبا. وكانت الميزانية الملكية في ذلك الوقت لا تتجاوز مائتين وخمسين ألف جنيه سنويا ومخصصة لمصروفات لا يمكن ضغطها. فبذلت محاولات لتوفير هذه النفقات مع زيادة الغرامات النقدية كلما أمكن. وتمت الاستعانة بالطرق المعهودة وهي مصادرة ممتلكات اليهود، وبيع المزايا (مثل السماح للكنيسة

باختيار الأساقفة) ثم اللجوء إلى البرجوازيين ورجال الدين للحصول على تمويل. بحيث تدفع كل مدينة نصيبها. وبذلك نجحوا فى جمع حوالى مائتين وخمسين ألف جنيه فى عام ١٢٤٨ ، وقد ساهم رجال الدين الفرنسيون بحوالى مليون جنيه خلال ثلاث سنوات!... وهكذا تم حل المشاكل المالية نوعا ما. وهنا كان على لويس التاسع تحديد الهدف من الحملة للصليبيين وأيضا إعداد خطة الحملة.

بدأت العملية تخرج من حدود رؤية متصوف لتنفتح على الحقيقة السياسية.

دمشق - سبتمبر ١٢٤٨

ملأت الإشاعات المختلفة المدينة. وكان الصيف الحار جدا على وشك الانتهاء وأصبح الليل لحسن الحظ أكثر طراوة ويسمح بسهرات طويلة تعوض ساعات النهار الحار. المتسكعون يتجولون على طول نهر البردة يلتمسون بعض النسيم العليل ويغتنمون الفرصة لتبادل الأخبار.

وكان بعض التجار قد وصلوا من إيطاليا، ولم يكن معهم أية بضائع. وعند نزولهم في الفنادق بجانب الجامع الأموى، أشاعوا بأن لديهم أموالا كثيرة وأنهم مكلفون بشراء العديد من السلع لحساب سيدهم فى جنوة. وفى الشارع الذى يسكنون فيه كان الناس يستوقفونهم لسؤالهم عن الأخبار الجديدة من أوروبا. هل حقيقى أن هناك استعدادات لحملة جديدة؟ وكان بعض المسافرين الآخرين قد ذكروا أن البابا أصدر منذ سنتين أو ثلاثة نداء لحملة صليبية. ولكن لم يحضر أحد لتعكير السلام فى الشام أو فلسطين منذ أن قام السلطان " الصالح " بسحق جيوش الفرنجة من الشام إلى غزة.

وفى رطوبة الليل كان الساهرون على أبواب منازلهم يتحدثون بينما آخرون ينامون على الأسطح أو فى الأفنية فى الهواء العليل، هاربين من حرارة الداخل. وبالرغم من الوقت المتأخر، كان هناك متسكعون على طول نهر البردة يبحثون عن بعض النسيم على شاطئ تنساب فيه المياه. وفى الفجر توجه التجار الإيطاليون إلى المقر الصيفى للسلطان " الصالح أيوب " الابن الأخير للسلطان " الكامل " المتوفى. وعند وصولهم إلى البهو الذى تتوسطه نافورة تنساب منها المياه لتلطيف جو القاعة، كان السلطان يجلس على أريكة، تحيطه وسائد من الحرير الملون و كان يقف بجانبه رجل واحد فقط. وبينما الخدم يقدمون المشروبات المرطبة وينسحبون، يتعارف الضيوف. ويقول ابن واصل إن هذا اللقاء تم فى القاهرة بينما يقول المقريزى إنه تم فى دمشق :

وكان الإمبراطور فردريك الثانى قد أرسل لصديقه سلطان مصر أحد رجاله متخفيا فى زى تاجر ليخبره بالاستعدادات الأوروبية بشن حرب جديدة على مصر. وقد أرسل رسالة شفهية ورسالة مكتوبة. وكانت الرسالة تتضمن حديثا دار بين الإمبراطور فردريك الثانى ولويس التاسع ملك فرنسا، وحيث سأله الإمبراطور عن وجهته فأجابه ملك فرنسا " بمشيئة الله، بالطبع مصر وأورشليم القدس ".

- " فرد عليه الإمبراطور، هذا لا يناسبك، لا تذهب إلى مصر، راجع ذلك مع نفسك ومع الأمراء... لقد ذهبت قبلك عندما كان يحكمها السلطان " الكامل " والد السلطان الحالى. وأخذت أورشليم القدس من المسلمين وكل القرى الواقعة بين المدينة ومدينة عكا. واتفقت مع " الكامل " بأن هذه المواقع سوف تصبح من ممتلكات الفرنجة ولن تبقى أى قوات مسلمة فى أورشليم القدس. وإذا كنت قد صممت على ذلك فلأننى قد أدركت استحالة محاربة الأمراء وكل الجيوش المتواجدة فى البلاد. فكيف تريد إذاً أن تستولى على دمياط وأورشليم القدس ومصر؟"

وصدم الملك الفرنسى وهو يستمع إلى هذا الكلام، إلا أنه قال للإمبراطور:" لا تكمل! بمشيئة الله وحقيقة إيمانى لن يمنعنى شىء من الهجوم على دمياط وأورشليم القدس ومصر. ولن يثنينى عن عزمى إلا موتى ومن معى ".

وقد وافق الإمبراطور على تمويل الأسطول الفرنسى الذى رسا فى صقلية، ولكنه قرر الكتابة للذى يعتبره " كابن أخ " سلطان مصر ليحذره. وقال له:

" هذا العام وصل ملك فرنسا إلى بلادى وبرفقته جمع غفير لا نهاية له... سيدى، حافظ على نفسك واعلم أن نية الجنود المهاجمين الاستيلاء على أورشليم القدس، ولتحقيق ذلك يجب القضاء أولا على مصر... ملك فرنسا مقتنع تماما أنه سيستولى على مصر فى عدة ساعات... وهذا الفرنسى هو أقوى ملك فى الغرب، والغيرة تنهشه على المسيحية، وارتباطه بدينه يفوق أى شىء آخر... ابن أخى، لقد حاربت مشاريعه، وكنت أريد أن أحذره من المخاطر التى سيواجهها إذا هاجمك، وللتأثير عليه، أكدت على عدد وقوة المسلمين وعلى استحالة الاستيلاء على أورشليم القدس إذا لم يتم القضاء على مصر، وهذا مستحيل. ولم يأخذ الفرنسى برأيى، وعدد الذين يتبعونه

يتزايد باستمرار. ويزيد العدد الآن عن ستين ألفا، وخلال العام سوف يصلون إلى جزيرة قبرص ".

وعندئذ قدم السلطان الشخص الواقف بجانبه، إنه الأمير " فخر الدين " الرسول السابق للسلطان لدى الإمبراطور فردريك الثانى فى صقلية، والذى انتصر على الفرنجة فى عسقلان واستولى عليها (١٥أكتوبر ١٢٤٧). وكان الإمبراطور يكن له احتراما كبيرا حتى أنه منحه لقب فارس بنفسه دون أن يطلب منه نبذ ديانته. وشكر السلطان الإيطاليين على رسالتهم وأبلغهم بأنه سيأخذ حذره الشديد، ويكلف الأمير " فخر الدين " باتخاذ كل الإجراءات اللازمة فى هذا الشأن. وكان عليه أن يغادر دمشق فورا بالرغم من حالته الصحية الحساسة وذلك ليسوى خلافا نشأ بين الأمراء الأيوبيين فى حلب وحمص فى شمال الشام. ورحل التجار الإيطاليون محملين بالهدايا واتجهوا ناحية الساحل حتى يبلغوا سيدهم بما تم فى مهمتهم.

أما السلطان من ناحيته فقد ذهب إلى الحريم ليبلغ زوجته وكاتمة أسراره " شجرة الدر " برسالة الإمبراطور.

وكان من الواضح أن السلطان لديه ثقة شديدة فى إمكانيات جيشه للدفاع عن مصر وبدا له أن وجوده شخصيا غير مهم فى هذا الوقت. إلا أن الأحداث سوف تكون مخيبة للآمال.

السلطان والمماليك

كان السلطان " الصالح أيوب " مختلفا تماما عن والده السلطان " الكامل " الذى انتصر فى المنصورة. فلم يكن لديه براعته الدبلوماسية ولا ثقافته الواسعة. وكان مولدا فهو ابن جارية سودانية. ولم يكن لديه أى رغبة فى الدراسة أو تلقى العلم. وكان عنيفا، جشعا غير تقى، ولم يكن يتردد فى قتل أمرائه للاستيلاء على ممتلكاتهم تحت ذرائع مختلفة. وبعكس التقاليد الأيوبية، فقد أمر مماليكه بشنق أخيه غير الشقيق " العادل الثانى " فى السجن حتى يستولى نهائيا على سلطاته. ويقدر المقريزى أن هناك خمسة آلاف شخص ماتوا فى سجونه بدون إحصاء الذين قتلوا أو أغرقوا. وقد نجح فى خلال سنوات أن يبيد الأمراء الأكراد من عائلته والاستيلاء على ممتلكاتهم، وبذلك فقد السند الأساسى للعصر الأيوبى. كان طاغية حقيقيا وكان يحكم بالعنف والقتل.

وكانت قوته تكمن فى حرسه الخاص الذى يثير الرعب والذين يطلق عليهم المماليك. وكان ما زال أميرا عندما وضع أسس التجنيد الإجبارى لأعداد كبيرة من عبيده الذين ينحدرون من أصول تركية أو شركسية. وهذا الجيش الكبير سمح بصد المغول الذين كانوا قد دمروا دول أسيا الغربية والصحراء الروسية. وكان المغول قد غزوا روسيا الوسطى وطاردوا السكان المتواجدين بها. وهرب الكثيرون منهم ووقعوا فريسة سهلة لغزوات الجنود وتجار الرقيق.

وكانت أهم أسواق الرقيق فى القرن الثالث عشر فى كريمى وسيواس فى الأناضول الوسطى، حيث كان تجار الرقيق يجلبون الشباب الأقوياء والأصحاء من سيركازى وجورجيا ومن الجنس الأبيض ، وفى بعض الأحيان كانوا مسيحيين. هؤلاء العبيد الذين كان يشتريهم " الصالح أيوب " وهم صغار كانوا يتخصصون منذ صغرهم فى حمل السلاح، ويعتنقون الإسلام وكان يتم تلقينهم أسس الدين والأخلاق.

وعندما يصلون إلى سن البلوغ كان يتم تحريرهم ، ولكن حتى بعد تحريرهم يظل المماليك مرتبطين بسيدهم، فقد كانوا يدينون له بكل شىء، فهو الذى يستمر فى رعايتهم ويدفع لهم رواتبهم. ويصبحون جزءا من عائلته وعشيرته. وكانوا يدينون له بالطاعة والاحترام التام، ولا يعرفون سلطة أخرى غير سلطته. ولأن المماليك أنفسهم من أصل واحد فقد كانوا يتجمعون كإخوة، ولم يكن الشذوذ مستبعدا بينهم.

وكانت الطبقة الحاكمة هى التى تملك وتستخدم المماليك. أما الأشخاص العاديون فلم يكن لديهم المقدرة على ذلك.

وقد جمع "الصالح أيوب " حوالى ألف من المماليك النخبة. وقد احتفظ المماليك بلغتهم الأصلية، وهى التركية، رغم أنهم كانوا يتكلمون ويكتبون العربية. وكانوا يتجنبون الاختلاط بالشعب. فقد كان لديهم نظام اجتماعى خاص بهم، لا يأخذون أوامرهم إلا من رؤسائهم وأسيادهم. وكانوا يتدربون ليل نهار على كل طرق القتال سواء مترجلين أو راكبين جيادهم، فهم ذوو قدرات عالية، وكانت شجاعتهم أسطورية فى أثناء المعارك، إلا أنهم كانوا يتصفون بالحدة النابعة أحيانا من العنف وأحيانا من وحشية خالصة. ولم يحاولوا الاندماج مع شعوب البلد التى يعيشون فيها، بالرغم من أن سيدهم لا يطلب منهم ذلك.

ومع ذلك، فالشعب الذى كان يعانى ويشكو أحيانا من طلباتهم غير القانونية، لم يكن يعتبرهم فى العادة أجانب أو غرباء عنهم، فإيمانهم واحد وهو الإسلام ويعبرون عنه باللغة العربية مما يعطى لهم حق الانتماء إلى المجتمع نفسه. ولهذا السبب فإنهم فى مواجهة الأعداء " من غير العقيدة " ، سواء فرنجة أو مغول، فإن البلاد بأكملها تتكتل معهم لترسم أسطورة الشجاعة.

وعندما أصبح " الصالح أيوب " سلطانا استمر فى تجميع المماليك. وخصص لهم معسكرا متميزا للتدريب فى جزيرة الروضة، شمال القاهرة القديمة (الفسطاط). ووضعهم قريبا من القصر الذى بناه فى وسط الحدائق.

وكانت هذه الجزيرة هى المكان المفضل للقاهريين للتنزه فيه بعد ظهر أيام الصيف. وفى الحقيقة وجد " الصالح أيوب " القلعة مكانا قاسيا للإقامة فيه وكان

يفضل شاطئ النيل. لذلك فقد بنى فى عامى ١٢٤٠/١٢٤١ قصرا فخما ومحصنا فى مكان كان يضم مبانى قديمة وقصراً قديماً وكنيسة تم هدمها. وفى هذا العصر لم يكن النيل قد أحاط بجزيرة الروضة بالكامل. لذلك فقد اضطر السلطان الصالح إلى تحويل أحد أفرع النهر حتى يضمن توافر المياه طوال العام حول ما أصبح بعد ذلك جزيرة. وبنى جسرا بين القاهرة القديمة والجزيرة، وخصص هذا الجسر للأمراء لاستخدامه فى تلبية احتياجات خدمات القصر. واحتراما للسلطان لم يكن مسموحا بعبور الجسر على الدواب، فكان العبور سيرا على الأقدام.

وكان القصر محاطا بسور به ستون برجا. واستخدم فى أعمال البناء عدداً كبيراً من المساجين المسيحيين الصليبيين الذين أسروا فى الشام. وكان من ضمنهم الحرفيون المتخصصون فى تقطيع الحجارة التى كان السلطان يفضلها على الطوب. واستخدم الأعمدة التى أخذها من آثار العهد الفرعونى أو اليونانى الرومانى. هؤلاء الحرفيون المسيحيون شيدوا له بوابة كبيرة على الطراز القوطى. وقد تكلفت هذه الأعمال مبالغ ضخمة.

وفى حظيرة القصر أنشأ ثكنة لإيواء من ثمانمائة إلى ألف مملوك. وعندما انتهت الأعمال فى عام ١٢٤١، انتقل مع حاشيته وحريمه إليها.

أما المماليك الذين ألحقوا بالقصر فقد أطلق عليهم " البحرية " لأن ثكناتهم كانت بجوار الماء (البحر) وهو مكان للنخبة من جيش السلطان وحرسه الخاص.

وتحت حكم " الصالح أيوب " تم إبعاد وسلب الأمراء التقليديين المصريين من العرب والأكراد، وأصبح زعماء المماليك يشكلون الطبقة الراقية الحقيقية فى البلاد، وتقاسموا الموارد المالية والإيرادات الناتجة عن آلاف الأفدنة من الأراضى.

وكان المتبع أنه بعد أن يتجاوز المماليك صعوبة البداية كعبيد ينتهى تعليمهم ويتحررون ويتلقون نصيبهم من العمل فى البلاط: حجابا وسقاه... الخ. وعند الترقية يصبح المملوك أميرا على عشرة أو مائة رجل، ويتلقى منحة تتناسب مع درجته. وكتقليد منذ أيام الفراعنة فإن الأرض لم تكن ملكية خاصة ولا تورث. بل كانت ملكا للسلطان الذى يوزعها على أمرائه ويحق لهم فقط الحصول على عائداتها، حتى لا يمكنهم الإقامة

فيها (هذا الحق يسمى إقطاعًا) وهذا يعنى أنها لا تورث بل يستطيع السلطان استردادها فى أى وقت. وهذا يخالف حقوق الإقطاعيين على أراضيهم فى فرنسا أو إنجلترا.

وكان كبار الضباط كذلك يتمتعون بدخول كبيرة. وكانوا يتميزون عن بقية أفراد الشعب ويتبعون الكثير من عادات السلطان. ولكن هذا الثراء لم يكن مضمونا استمراره. فالسلطان الذى يمنح كل السلطات، يمكنه سحبها عندما يسبب له مستخدموها أى قلاقل. وكان لكل ضابط كبير حرسه الخاص به الذى ينتمى إلى بيته، ولكن عندما يتوفى أو فى حالة زوال السلطة لا يتورع العساكر أو السكان عن سلب هذه الأماكن التى لم يكن عليها أى حماية.

كان كبار العسكريين يمثلون المجموعة الاجتماعية المسيطرة فى مصر منذ عهد صلاح الدين والسلاطين الأيوبيين. ومع تدفق الأعداد الكبيرة من المماليك، وكان ذلك يعتبرشيئا جديدا وكان هؤلاء يمثلون عنصرا بشريا مختلفا، مما أدى إلى تغير التكوين الاجتماعى باستمرار ، وكان التعامل الفظ لهذه الفئة سواء كانوا من الأتراك أو الشراكسة وأحيانا اليونانيين مع السكان المحليين الذين أصبحوا فى خدمتهم بالرغم من عدم مشاركتهم سواء فى اللغة أو الثقافة. فبالنسبة للمصريين سواء فى الريف أو المدن كانت السلطة دائما لمن يحمل السلاح ويمتطى الجواد. ولكن هؤلاء المسلمين الجدد تميزوا شيئا فشيئا بلغتهم وثقافتهم وكذلك بتصرفاتهم عن الضباط الأيوبيين المجندين محليا ولهم ثقافتهم ولغتهم العربية . وبهذا تشكلت الشخصية الفاصلة للجيش. كان المماليك يتكلمون التركية، وهى لغة غير معروفة تقريبا فى هذا العصر. وتمسك السلاطين الأيوبيون وخاصة " الصالح أيوب " بهذا الاختلاف وهذا التميز. فالمماليك يمكن استخدامهم أيضا ضد الشعب فى حالة العصيان. ولهذا السبب كان إصراره على تمتعهم المؤقت بالامتيازات الممنوحة لهم. وتجنب أن يرغم أبناء المماليك المولودين فى البلاد على التجنيد الإجبارى بسبب كونهم قد اندمجوا مع الشعب وتعلموا عاداته. وكان يفضل أن يندمجوا فى نشاطات مدنية وتجارية. فالتجنيد فى الجيش كان لعبيد جدد أو عند التعاقد مع مرتزقة جدد. وبذلك لم يكن للجيش شخصية قومية.

وكانت السلطة المركزية تعانى من الخوف والتمرد أو من نهاية الإقطاعيات الكبيرة. فكان حق الـ IQTA يفى بهذا الغرض ويضمن ولاء كبار التابعين. ونتيجة لذلك ضمن المستفيدون من هذا الحق بقاءه واستمراره من خلال الضغط بأقصى قدر على التابعين لهم، وكانوا غالبا الفلاحين الذين يثورون أحيانا، وكانت هذه الثورات تغرق فى الدماء بموافقة وتعاون السلطة المركزية.

إلا أنه كانت توجد عقبة أخرى لهذا النظام ، هى أن السلطان، بسلطاته ونزواته، لم يكن يستطيع الاعتماد على ولاء جنوده ، حيث أنهم كانوا يطالبون دائما بامتيازات خاصة ، فإذا ما رفض السلطان، كان يجازف بوقوع ثورة من حرسه الخاص. وبذلك أصبح عدم الاستقرار فى السلطة سائدا فى تلك الفترة.

وقد كتب " أسامة بن منقذ " فى كتابه المعنون " *الاعتبار* " *الذى ترجمه الأستاذ / أ. ميشيل* يتعجب من أن الملك عند الفرنجة لا يستطيع اتخاذ قرار إلا بعد استشارة فرسانه ، كما لم يكن غريبا أن يعارض هؤلاء بشدة قرارا اتخذه ملكهم، دون أن يفسر ذلك على أنه ثورة أو حركة فظة ضد الملك. وإذا كان قد حدث مثل هذا فى بعض الأحيان فى عهد صلاح الدين، إلا أن حكم الملك أصبح قاعدة مع " الصالح أيوب " ومماليكه.

وكان الصليبيون قد فرضوا على الملوك الفاطميين أولا ثم الأيوبيين من بعدهم نقلة عميقة لجيشهم. فمن الناحية التقليدية كان للجيش الإسلامى شخصية مؤقتة ومتقلبة. وكما يحدث فى الغرب فكل سيد كان عليه تزويد الملك بعدد من الفرسان والجنود، ولكن لفترة محددة (كانت فى المقاطعة الفرنسية أربعين يوما). وكان يجب أولا التأكيد على ضرورة العمل فى الأرض، كالزراعة وجنيها بعد الانتهاء من العمليات العسكرية ، وفى وقت يمكن فيه التوفيق مع المحاصيل وتقسيمها بين المستفيدين المختلفين: السلطان والأمراء المستفيدين من IQTA وأخيرا الفلاحين. وكان المرتزقة يؤيدون الإبقاء على هذا النظام ولكن عددهم كان محدودا. فلم تكن مهنة الجيش إذًا قائمة بذاتها.

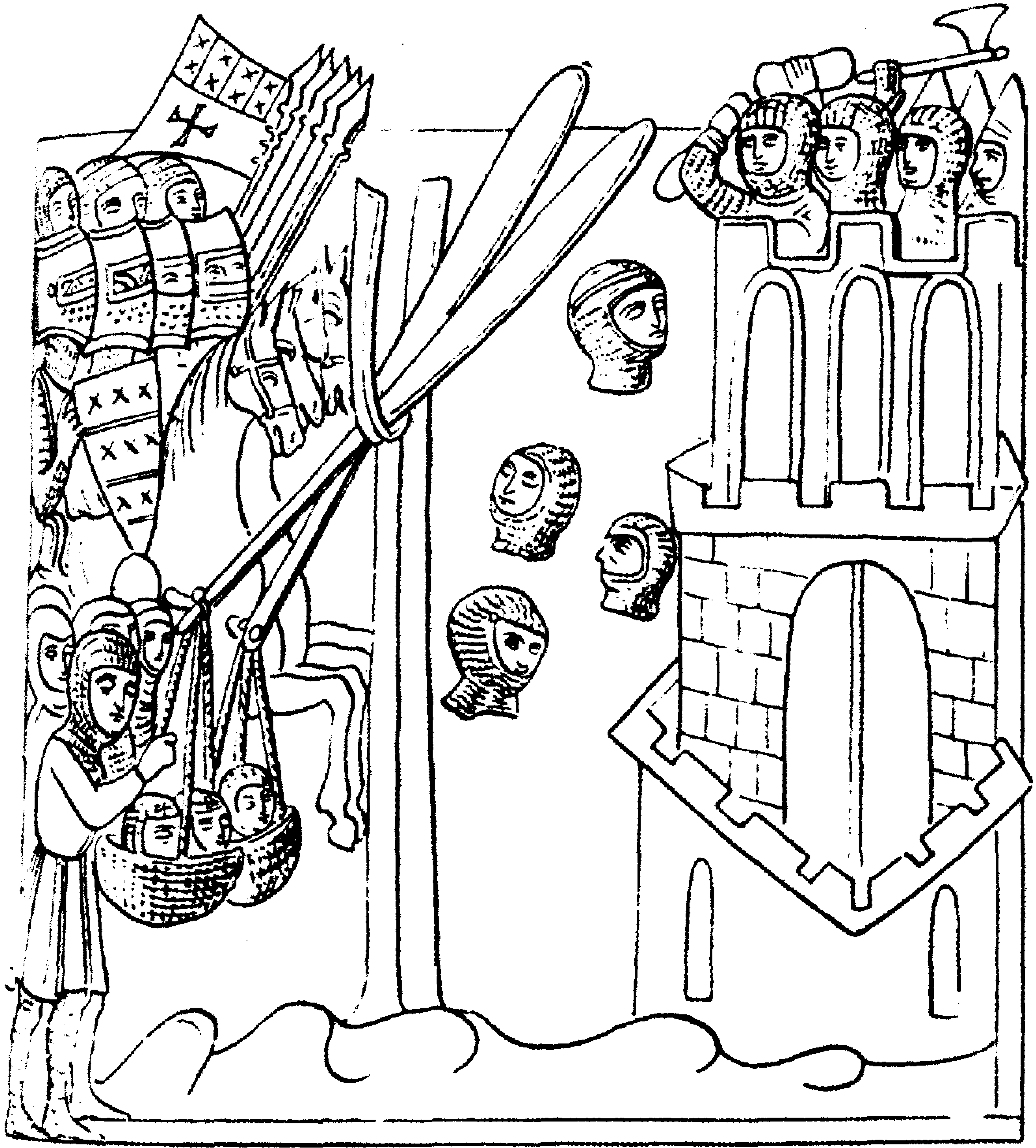
وقلب الصليبيون هذا الوضع تماما ، فقد جاءوا إلى الشرق بدون تحديد وقت محدد، ولعدة أعوام بدون الأخذ فى الاعتبار مواسم العمل فى الأرض. وكان لهذا فائدة

كبيرة، خاصة فى بداية الحروب الصليبية، وقلب رأسا على عقب الحياة فى الشرق الأوسط. كيف يمكن الحصول على جيش يحارب طوال العام ويكون قادرا على المقاومة بهذه الطريقة الهجومية؟

الإجابة كانت جديدة، وهى تأسيس جيش مهنى، تحت قيادة محلية.

وكان العدد الكبير للمماليك المجندين من قبل السلطان " الصالح أيوب " له فاعليته وتأثيره ؛ فقد أعطى قوة أكيدة لاحتراف الجيش وطور من تكوينه العرقى. مما أثار بالضرورة ردود أفعال عميقة فى الشرق كله وليس فقط فى مصر.

أما لويس التاسع فقد غادر إيجى مورت متوجها إلى قبرص وما زال أبعد ما يكون عن التوجس والخوف.



الصليبيون فى حصار أنطاكية يرفعون رءوس الملحدين الذين قطعت : من رسم فى القرن الثالث عشر لأن . بى

(مجموعة فيوليه)

قـــــبرص

غـادر الأسطول إيجى مـورت فى ٢٥ أغـسطس ١٢٤٨ إلى قـبـرص. ورافق الملك زوجته مـارجريت دى بروفانس وشقيقيه روبرت دارتوا وتشارلز دانجو وزوجة الأخير. ولم يستطع جميع من رافقوا الملك ركوب السفن، حيث أن عدد السفن المتاح كان غير كـاف، وكـان الصليبـيـون عـددهم كبـيراً . فـسـافـر بعض المسلحين بمـفـردهم ، وكـذلك الشـقيق الثالث للملك ، ألفـونس دى بواتييـه مع رجـاله. كـانت قبـرص مكان التجـمع بالإضافة إلى صقلية التى كانت نقطة انطلاق ضرورية للتموين

تكدس الصليبيون فى السـفينة الضـيقة التى أقلت الملك ومن معـه. وكانت سـفينة شراعية لها جسران طولها حوالى ٣٠ مترا، وعرضـها ١٢ مترا، وارتفـاعـها ٥ أمتار. ويمكنها حمل من خمسمائة إلى ثمـانمائة رجل أو مائة جواد، إذا لم تكن مسافة الرحلة طويلة. وكـان الجزء الأعلى يسـمى قصـرا، ويوجد فى مقدمة السفينة وآخر أكثر ثباتا واستقرارا فى مؤخرة السفينة، وقد أقام فيهمـا المسافرون المميزون. وخصص للملك غرفة كبيرة، كما ألحق بغرفة الملكة غرفة لوصيفاتها ومصلى صغير. أما الآخرون فكان لديهم مكان محدد غير مريح، وحمل كل مسافر صندوق أمتعة به لباس رسمى، وفراش وفى بعض الأحـيـان تابوت!... وبرمـيل صـغـيـر به مـاء عـذب، وبعض الطعـام، وإناء للاحتياجات الطبيعية ومصباح. وكان المسافرون الأغنياء فقط لهم الحق فيما يشبه وجبة غذائية أسفل القبة. أما الآخرون فيأكلون ما يتـاح لهم وغالبا ما يكون خبزا ثم يشربون النبيذ ويلعبون لعبـة النرد بالعظام. ويغنون ويصلون. وعلى بعض السفن كان الحجاب يعتنون بالجياد. كما كان يوجد بوابة كبيرة فى مؤخرة السفينة تستخدم عـادة لتحميل الحيوانات. وفى الداخل كانت الجياد تعلق بأحزمة تمر تحت صدورها وبطونها لتمنع الاصطدام أو السقوط نتيجة لحركة السفينة.

ولم تكن الرحلة بدون مخاطر، فمخاطر الإبحار كثيرة. فالرياح لا تجيء دائما كما تشتهى السفن. فالسفن يمكن أن تجنح على مصاطب من الرمال أو تصطدم بصخور غير مرئية تحت الماء. ويمكن لأى عاصفة غير متوقعة أن تغرق سفينة بأكملها وتضيع سنوات من الاستعدادات. كما يمكن أن تجبر السفن على خوض معركة بحرية ضد أسطول السلطان أو ببساطة ضد القراصنة. وأخيرا فى بعض الأحيان وقبل الرسو يجب محاصرة ميناء العدو أو مواجهته على الشاطئ.

منع لويس التاسع طبقا للروح الصليبية، الشتائم ولعب النرد أو أى ألعاب قمار أخرى، كما منع ارتداء الملابس الفاخرة المحلاة بالفرو أو الحلى. وكانت السيدات يشكلن مشكلة خطيرة، فقد كان مسموحا فقط فى البداية للغسالات بمرافقة الأسياد، حيث كان لا غنى عنهن. وكان من المفضل أن يكن متقدمات فى السن، حتى لا يثرن شهوات الرجال. ولكن هذا لم يمنع سيدات كثيرات من كل المستويات من الانضمام لهم، فالنقود السهلة تسمح بالخوض فى كل المخاطر.

كان يلزم ٢٣ يوما لاستكمال الرحلة وهى مدة معقولة بالنسبة لهذا الزمن. ولم تكن كل السفن التى غادرت إيجى مورت قد وصلت إلى مكان الموعد. فقد دفعت رياح معاكسة البعض منها إلى شواطئ أفريقيا. وإذا كان الملك لم يواجه صعوبات فى صقلية وفردريك الثانى لم يجرؤ على رفض تمويل السفن التى رافقته، فقد واجهت سفن أخرى منعزلة صعوبات كثيرة. ولم يوافق الإمبراطور على أن تنسب له أى حملة كان قد أعلن عدم رضاه عنها صراحة، مما اضطر لويس التاسع للانتظار فى قبرص لتجميع السفن المشتتة. كان الوقت فى الخريف ولم يكن هناك إمكانية لمواجهة حملة فى الشتاء، فالربابنة كانوا يعملون حسابا للبحر المتغير من شهر نوفمبر حتى نهاية فبراير. فكان يجب إذاً بدء العمليات فى بداية ربيع ١٢٤٩ .

كان الملك بعيد النظر. وكان هناك تكدس كبير للذخيرة والمؤن بالاتفاق مع آل لوزينيان عظيم قبرص.

وكان ريتشارد قلب الأسد قد خلص قبرص من " طاغية " أرثوذكسى تابع لبيزنطة منذ أكثر من نصف قرن، وسلمها لجى دى لوسينون، الملك المخلوع من

أورشليم القدس والذى أسس مملكته تحت زعامة فردريك الثانى. ولكن البابا إينوسنت الرابع فى العام السابق لوصول لويس التاسع، كان قد أحل اللورينيان من خضوعهم للإمبراطور المحروم كنسيا، انتقاما منه. كما وافق وبدون أى عقبات على استقبال ملك فرنسا وجيشه. وكانت للجزيرة – وهى على أبواب مصر وفلسطين – المساهمة فى المعركة كمخزن للسلاح وكقاعدة خلفية للجيش، بالإضافة إلى سيطرة الأسطول على المياه.

كان الشتاء قاسيا، وخلف الأمراض لعديد من الضحايا من بينهم كونت دى فاندوم، وجون دى مونتفور. وشجع وجود ملك فرنسا لاتين الشرق، فرغما عن الخسائر القاسية التى أصابتهم قبل ذلك، فقد أتوا مع رجالهم لسد الفراغ. أما فرسان فرنسا الذين اضطروا لدفع أجر رجالهم الذين لم يقوموا بأى عمل، فقد كان عليهم الاستدانة من فرسان المعبد. وكان فرسان المعبد يدفعون لقبرص ويرهنون ممتلكاتهم التى تركوها فى فرنسا. وفى عكا، تصاعدت المعارك التقليدية بين التجار من جنوة وبيزا إلى معارك حقيقية بالحجارة والمنجنيق. كما أن أطقم السفن الذين انشغلوا بالحسابات، فقد تم حجز سفنهم فى الأراضى المقدسة، بدلا من الرسو فى قبرص لحمل الجيش. واستلزم الأمر شهرين من المفاوضات والوساطة للوصول إلى السلام.، وتأجل السفر من شهر إلى آخر حتى مايو ١٢٤٩

وفى خلال ذلك الوقت، استقبل لويس التاسع فى ١٤ ديسمبر ١٢٤٨ مسيحيين من مقاطعة الموصل، حاملين رسالة من خان المغول الأكبر. وهما بدى سابدين داود ومرقص النسطورى من الموصل الذى يتحدث العربية. كان قد أرسلهما الزعيم المغولى أولتشيجيداى برسالة مكتوبة باللغة الفارسية. أما النص الموجود حاليا فهو مشكوك فيه. ومن الممكن أن يكون الرسولان قد أعادا كتابته كما كان يحدث فى كثير من الأحيان وكان نص الرسالة كالآتى:

" إننا لا ننشد إلا ما يمكنه ان يفيد المسيحية كما نتطلع أيضا إلى تعزيز قوات الملوك المسيحيين إذا سمح الله لنا بذلك. وأطلب من الله أن ينصر جيوش ملوك المسيحية على أعدائهم الذين يمتهنون الصليب... ".

وفى بلاط الملك لويس التاسع، اعتقدوا فى مصداقية الرسالة التى كان لها أثر كبير فى نفوسهم. وما قاله داوود وزميله زاد فى تضخيم معناها. وكانت أم الزعيم المغولى مسيحية تم تعميدها. وتم إسناد مهمة لثلاثة من الدومنيكان يرأسهم أندريه دى لونجيمو ورافقه جنديان وضابطان من ضباط الملك، إلا أن المهمة باءت بالفشل الذريع. وكان الخان قد مات فى هذه الفترة. فأجابت أرملته " أوجود " الوصية على العرش على الرسالة بطلب بسيط وهو الاستسلام الكامل. ولكن هذا الرد الذى أكده فيما بعد جيوم دى بروك لم يصل إلى لويس التاسع إلا بعد وصوله إلى فلسطين، وبعد حملته على مصر. وفى الوقت الذى كان بلاط الملك يحلم فيه بتحالف مع المغول " المسيحيين " ضد المسلمين المخالفين فى العقيدة... كان لويس التاسع قد صنع قبة كنيسة مزينة بصور من حياة المسيح وكلف أندريه لونجمو بحملها إلى الخان، وطلب منه أن يتعبد فيها. وأضاف بعض قطع الصليب الأصلية كدليل على الأهمية المصاحبة لهذا السفير. وكانوا يحلمون كذلك بتقارب بين اليونانيين واللاتين إلا أنه بعد ما وقع من نهب القسطنطينية فقد كان ذلك يعتبر أمرا مستحيلا...

ولكن السؤال الكبير الذى كان يجب الفصل فيه كان وضع خطة حملة محددة، فسلطان مصر كان سيد أورشليم القدس ودمشق. وابن عمه سلطان حلب يرفض سيطرته. بالرغم من إبلاغه بخطر وصول الفرنجة، فقام السلطان " الصالح أيوب " فى خلال شتاء ١٢٤٨ / ١٢٤٩ حين كان الجيش الفرنسى فى قبرص، بمحاصرة حمص، وهى مدينة فى شمال الشام ومستقلة عن سلطان حلب.

هل يجب استغلال الفرصة للرسو مباشرة فى الأراضى المقدسة، واقتراح تحالف مع أحد أبناء العم ضد الآخر؟ ثمن التحالف قد يكون أورشليم القدس. وكان فردريك الثانى قد مارس هذه اللعبة فى عام ١٢٢٩، كذلك حاول الفرنجة مع نفس السلطان ولكن بدون نجاح فى الفترة من ١٢٣٩ وحتى ١٢٤١ وكان هذا أكثر الطرق مباشرة وأقصرها. فقد كان فرسان المعبد على اتصال مع التجار المصريين، وكانوا يتباهون بأنهم جعلوا السلطان يوافق على تحالف أو معاهدة مع الفرنجة، مما أدى إلى تحطيم سلطان حلب. وقد تم إبلاغ لويس التاسع بهذه الاتصالات ولكنه غضب وأذهل فرسان المعبد باتباع سياسة مختلفة وإبلاغ سلطان مصر بأنه يخشى مواجهة معه.

أما البارونات فقد عارضوا ذلك حيث أن حرباً صليبية فى أرض يهودا يمكن أن تكون صعبة وخطرة . إذ لا يجوز نسيان دروس الماضى. إن لويس ما زال يتذكر جده فيليب أغسطس وهو يحكى كيف كان الفرسان يموتون من العطش فى هذه الأراضى القاحلة، ويحترقون بلهيب الشمس الحارقة وهم تحت دروعهم الثقيلة، وعاجزين عن مواجهة الفرسان العرب، الذين يرتدون ملابس خفيفة ويمتطون خيولا سريعة ومعهم القوس والسيف.

وكانت مصر غنية وخصبة، والبلاد منبسطة والمياه والطعام وفيرين. والمدن لم تكن محصنة فيما عدا المنصورة، التى تقع فى منتصف المسافة بين البحر والقاهرة. والذى يستولى على القاهرة وثرواتها يستولى على كل مصر. سيد مصر أصبح سيد أورشليم القدس وجزءاً من الشام. وكان من الممكن الاستمرار فى الحلم مع الكردينال بيلاج وجان دى بريان. فمن الموانئ المصرية على سواحل البحر الأحمر يمكن خلال بضعة أيام غزو البلاد العربية وهدم الأماكن المقدسة للإسلام، مكة والمدينة. وأخيرا سيرتفع الصليب على ضفتى البحر المتوسط وربما إلى أبعد من ذلك.

هل سيحقق النجاح فيما فشل فيه جان دى بريان ومندوب البابا . ولكن النجاح فى ماذا؟ ولأى هدف سيتم احتلال كل جزء من مصر؟ هل يجب أخذ رهائن لمحاولة الحصول مقابلها على أورشليم القدس والأماكن المحتلة من مملكة أورشليم القدس القديمة؟ هذا ما كان جان دى بريان ينادى به ومندوب البابا الكاردينال بيلاج يرفضه. ألم يكن هدف الحرب الصليبية هو تحرير أورشليم القدس وبالتالى ضمان الأمان؟

ولكن لماذا تم جمع كل هذه العربات والمحاريث فى إيجى مورت، لماذا كان الاستعداد ليس فقط للغزو بل للاحتلال وحرث الأرض؟ حسم لويس التاسع هذه المناقشات. "سنذهب إلى مصر ونهاجم دمياط ميناء الدلتا". ثم بعد ذلك سنرى ما نفعل.

وفى يوم الأربعاء ١٣ مايو ١٢٤٩، يوم صعود العذراء رفع الأسطول أشرعته فى اتجاه مصر يحمل الملك وجيشه والآلات والمؤن والجياد والعربات والجميع وذلك تحت

شعار القديس دينيس ومقدسات الصليب الحقيقى، وطبقا للتقاليد المرعية أرسل ملك فرنسا إلى سلطان مصرالرسالة التالية :

" ... أنت لا تنكر أننى زعيم المجتمع المسيحى. وأعترف كذلك أنك زعيم المجتمع المحمدى. ولا تستطيع أن تنكر أن المسلمين فى الأندلس يرسلون لنا النقود والهدايا ونحن نطاردهم أمامنا كقطيع من الأبقار. نقتل رجالهم ونرمل زوجاتهم، ونأسر بناتهم وأولادهم. ممتلكاتهم أصبحت خاوية. لقد شرحت لك كل ذلك وأعطيتك كل النصائح الممكنة. والآن حتى لو كنت على استعداد أن تقسم على التأكيد لى بإيمانك، وحتى لو وافقت على مصاحبة الرهبان والشيوخ، ولو حملت شمعة احتراما للصليب، كل هذا لن يمنعنى أن أصل إليك، وأقاتلك فى الأماكن الغالية لديك. فإذا استوليت على بلدك فسوف يكون هذا شيئا جيدا بالنسبة لى. ولكن إذا حدث العكس، فسوف تظل البلاد مكسبا لك وتحرز النصر، وفى هذه الحالة تستطيع أن تمارس كل سلطاتك على. كذلك أنذرتك ولفت نظرك إلى أن الجيوش التى تحت إمرتى تملأ السهول والجبال وعددها أكبر من حجر الأرض وسوف يرتمون عليك بالسيوف لتلقى مصيرك ...»

القاهرة عام ١٢٤٩

حينما وصل " الصالح أيوب " إلى القاهرة من دمشق كان مريضا . وكان يعلم أنه سيواجه جيش الفرنجة القوى بقيادة ملك فرنسا الذى كان من المنتظر وصوله إلى الإسكندرية أو دمياط. وكأن التاريخ يعيد نفسه بعد ثلاثين عاما . كانت وداعة والده " السلطان الكامل " التى كانت بعكس أشقائه قد منعته من اختراق قوات الفرنجة المتورطين فى وحل المنصورة بحد السيف. وكان " الصالح " يعتقد أن إنقاذ حياتهم وتسليمهم أورشليم القدس بدون معركة مع الإمبراطور فريدريك الثانى لم يفد بشىء . فهذا التسليم الذى أثار غضب جميع المسلمين ضد البيت الأيوبى، من المفروض أن يكسب امتنان الفرنجة ويمنعهم من التفكير فى غزو مصر. إلا أن هذا كان خطأً مأساويا وضعفا غير مغفور حيث عاد الفرنجة بجيش أقوى من جيشهم السابق وأكثر تمسكا من السابق لغزو مصر.

ولكن السلطان لم يكن قلقا . وكلف الأمير " فخر الدين " الاضطلاع بقيادة الجيش المخصص لحماية دمياط. وكان الأمير " فخر الدين " دبلوماسيا محنكا وقد أثبت ذلك بجدارة فى محادثاته مع الإمبراطور فريدريك الثانى. كما كان جنديا باسلا، فقد أوقع هزيمة دامية بالفرنجة فى عسقلان. وكانت شجاعته أسطورية كما كان أيضا ذا فطنة وولاء ويكن احتراما كبير لمليكه.

وكان " فخر الدين " يجهل ما سيفعله الفرنجة وهل سيهاجمون الإسكندرية أو دمياط، فقد كان السلطان قد ركز قواته ناحية الجنوب، فى وسط دلتا النيل. ولم يترك فى دمياط إلا حامية الحراسة وللأمير " فخر الدين " سوى مجموعة من الجنود تكفى لتغطية المدينة، وتلقى الصدمة الأولى من قوات الأعداء.

وكان الدفاع عن المدن حتى دمياط موكولا لجنود من عشائر بنى كنانة وهى عشائر مشهورة بالشجاعة والمقدرة القتالية لرجالها وكانت تحت قيادة الفاطميين. ويحكى : أنه بين بنى كنانة كان يوجد رجل أسود يسمى "على أبو فراج" على رجله بثرة مدمية. وانفصل الإصبع عن الرجل وبدأت تنتشر فيها رائحة خبيثة. فأعلن الجراحون: " لا يوجد شيء آخر يمكن عمله لهذا الرجل إلا بترساقه. وإلا سوف ينتهى "

أخذ " على " منشارا من الجراح وقام بقطع رجله فسال منه دم كثير وفقد الوعى. وعندما أفاق، استمر فى نشر رجله من جديد وفى النهاية قطعها ثم عالج الجزء الباقى وشفى.

كان صلاح الدين قد حصن دمياط. والفرنجة الذين استولوا عليها فى فترة السلطان " الكامل " كانوا قد عززوا التحصينات ، فهى قلعة منيعة ، وبدفاعاتها الجيدة كان يمكنها المقاومة لمدة طويلة أمام جيش كبير العدد ومسلح جيدا بمتطلبات الحصار.

وفى قصره بجزيرة الروضة فى القاهرة وصلت إلى السلطان رسالة ملك فرنسا، وعندما تليت عليه أغضبته بشدة. فلم يجرؤ أى ملك قبل ذلك أن يوجه مثل هذه الرسالة لملك مصر والشام، وصاح: " إنا لله وإنا إليه راجعون " ثم وجه كلامه إلى كبير مستشاريه وكلفه بكتابة الرد المناسب. متضمنا الآتى :

بعد التحية التى تلت اسم الله الرحمن الرحيم، الغفور وطلب الرحمة لنبيه محمد وأتباعه، قال موجها كلامه إلى ملك فرنسا:

" لقد وصلتنى رسالتك، إنك تهددنى بجيوشك الضخمة والعدد الكبير من البواسل. نحن أيضا رجال سيوف. لم يسقط أحد من رجالنا فى معركة إلا وخرج آخر ليحل محله. لم يهددنا طاغية إلا وحطمناه. يا أحمق!... إذا استطاعت عيناك أن ترى سيوفنا الباترة وعظمة معاركنا، وعدد حصوننا والضفاف التى شيدناها، وكل ما

حطمناه عندكم، ستقرض أظفارك من الندم. وسوف تستسلم لا محالة. وسوف يكون اليوم الأول فى صالحنا واليوم الأخير سيشاهد هزيمتك. حكمك خاطئ لأنه مكتوب :

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (صدق الله العظيم) [سورة النحل / ٣٣] .

عندما تقرأ خطابى تصرف مثلما جاء فى سورة النحل :

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (صدق الله العظيم) [سورة النحل / ١] .

بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [سورة ص / ٥٦] .

وهكذا نعيد كلمات الله التى لا يوجد أصدق منها ، إننا نثق فى الحكمة التى تقول "المتكبر سوف ينهزم. الغطرسة ستهينك وستغرقك فى العدم" .

والسلام .

معجزة فى دمياط ، يونيو ١٢٤٩

فى الساعة الثانية من يوم الخميس ٥ يونيو ١٢٤٩ (أو ٢٠ صفر ٦٤٧ هجرية) ألقى الأسطول الفرنسى مرساه أمام دمياط. المدينة تقع داخل الأراضى، على الفرع الشرقى للنيل. والسفن الفرنسية لم يكن لديها فتحة طبيعية يمكن أن تحمى الجيش من أى عاصفة مفاجئة. لذا كان يجب أن تلقى مرساها بعيدا قليلا عن الشاطئ ثم تقوم بإنزال مراكب صغيرة فى المياه حتى يمكنها الرسو. وكان يمكن للسفن الشراعية فقط ذات المجاديف الاقتراب من الشاطئ ليرسو الجنود.

وعلى الشاطئ كان عدد من الفرسان المسلمين يذهبون ويجيئون برماحهم وسيوفهم وهم يصيحون على صوت الطبول وأصوات حشود الجنود. وكان قائدهم المميز بدرعه الذهبى الذى يلمع فى الشمس يشجعهم.

واستدعى الملك الذى كان على السفينة " منتجوا" وهى السفينة القائدة للأسطول، باروناته للاستماع إلى نصائحهم فيما يجب عمله. وكان من الواضح أن الجنود المسلمين كانوا فى انتظارهم ، ولم يكن هناك أى عامل للمفاجأة التى يمكن أن تسهل الرسو السريع للجنود الفرنجة.

يروى ماتيو بارى أن رسالة أرسلت من ألفرو معلم الفروسية الفيكونت دى ميلون إلى أسقف شارتر جاء فيها أنه كانت هناك نية لمهاجمة الإسكندرية أكثر من دمياط إلا أن العاصفة التى هبت وجهت الأسطول إلى شاطئ دمياط.

فضل العديد من البارونات المستشارين انتظار وصول السفن الأخرى للأسطول حيث إن الملك لم يكن يصاحبه فى هذا الوقت إلا حوالى ثلث قوته، ولكن الملك رفض الاستماع لهذه النصائح التحذيرية. فقد كانت السفن التى تعرضت لرياح العاصفة،

والتى نادرا ما تهب فى الصيف، تجعلها تجنح ناحية الرمال، مما يجعلها تفشل أو على الأقل تتشتت على طول الساحل. وأكثر من ذلك، فإن كل تأخير يعطى الفرصة للعدو لتعزيز شواطئه مما يصعب من عملية إنزال الجنود. لذا تقرر أن ينزل الملك على رأس قواته إلى الأرض فى إليوم التإلى " الجمعة " يصاحبه فيلق سان دنيس ويقوم بالهجوم على الجنود المسلمين.

بدأت عمليات الإنزال فى صباح إليوم التإلى وسط ما يمكن وصفه بالارتباك العام. واستخدم الفرنسيون كل السفن الصغيرة والكبيرة التى يمكنها الاقتراب من الشاطئ. وألقى الجنود الفرنجة الذين يرتدون الخوذات بأنفسهم فى المياه حيث يستطيعون الجرى نحو الجنود المسلمين المواجهين لهم. وكان الجنود الأوائل يحملون علم سان دنيس مما مكنهم من التجمع.

وجاء الملك فى سفينة شراعية واقترب من الشاطئ مع مندوب البابا. وعندما شاهد علم سان دنى على الأرض ألقى بنفسه فى الماء الذى كان يصل حتى إبطه ، وأخرج سلاحه واندفع فى وسط المعركة وتبعه باروناته وهم يتصايحون، وعندما وصلوا إلى الأرض وحتى يتمكنوا من تحطيم الروح المعنوية للفرسان العرب غرسوا شعار سان دنيس فى الرمال وجعلوا أطراف حرابهم موجهة إلى الخارج.

كما اندفعت الجياد أيضا معهم ونجحوا فى عمل رأس جسر، ليكون نقطة رسو سريعة للجنود الذين كانوا يهرعون من كل السفن الراسية.

واستمرت المعركة بشراسة طوال اليوم. وقتل فيها الأمير " نجم الدين " ابن " شيخ الإسلام " الرفيق الوفى للسلطان " الصالح الأيوب"، وكان على رأس جيشه.

وكان المسلمون قد رأوا ملك فرنسا على رأس جيشه وهو يحارب بعزم وسيفه فى يده. وكان من المفروض أن يكون سلطانهم موجودا أيضا على رأس جيشه. ولكن الجميع كان يعلم أنه مريض، وليس فى استطاعته الوصول إلى دمياط. فبعد مغادرته القاهرة توقف فى أشمون-طناح على القناة المتفرعة من المنصورة ناحية الشرق. ومن ثلاث جهات، تم إرسال حمام زاجل لإبلاغ السلطان برسو الفرنجة وعلى رأسهم ملك

فرنسا، ولكن لم يصل أى رد إلى معسكر المسلمين. وقيل إن السلطان قد مات. وجاء الليل، وأعداد الفرنجة ترسو متكاثرة بدون انقطاع، فقرر الأمير " فخر الدين " قائد الجيش الموجود حول دمياط، الانسحاب نحو الجنوب حتى يتجنب مواجهة العدو. وفكر فى إقامة معسكره فى جنوب دمياط، وهى المدينة الحصينة التى توفر للرجال كل ما يحتاجونه من المؤن الموجودة بوفرة مما يمكنهم من الصمود أمام الجيش الفرنسى كما حدث قبل ثلاثين عاما.

لقد تم نسيان دروس الماضى. وقد ثبت بالنسبة للفرنسيين والمسلمين، إن وجود العاهل وسط جيوشه أثناء المعركة له تأثير قاطع.

عندما شاهد سكان دمياط فى المساء فرسان " فخر الدين " وهى تنسحب نحو الجنوب بدون سبب واضح، تاركين الشواطئ خالية أمام الأعداء الفرنجة التى كانت تتدفق بكثرة، ظنوا أن السلطان قد مات. أو، طالما أنه لا يوجد سلطان فلا يوجد جيش خاصة أن " الصالح أيوب " لم يكن له وريث مباشر لعرش مصر. ولم يعد أحد يعرف من يطيع إذا كان القائد الأعلى قد مات، والأمير " فخر الدين " انسحب مع جنوده بدون أى كلمة تفسير، فاجتاح الذعر المدينة، وظن سكان دمياط أنه تم التخلى عنهم، وأنهم مضطرون إلى تحمل قسوة حصار طويل دون أن يعرفوا أى عاهل سيأتى لنجدتهم. وازداد الذعر أكثر فأكثر، واضطر السكان إلى ترك كل ممتلكاتهم والاندفاع وسط الجنود الذين بإمكانهم حمايتهم. وفى عدة ساعات خلت المدينة من سكانها. وكان بنو كنانة المسئولون عن الدفاع عن الأسوار قد هربوا مع المهاجرين الهاربين من المدينة. لم يفكر أحد فى القيام بقطع الطريق على السفن التى تصل المدينة بالشاطئ الغربى حيث رسا الفرنجة. وأشعل اللصوص النار فى المخازن التى يوجد بها المؤن من جميع الأنواع. واستولى الذعر على الجنود الذين ظنوا أن السلطان قد مات. وبقيت جموع المهاجرين من الرجال والنساء والأطفال ينتقلون فى الليل بين الجنود الحائرين، دون أن يتمكن أحد من إيقافهم واتجهوا بالفطرة إلى معسكر السلطان فى أشمون-طناح. أما الأمير " فخر الدين " فكان وسط جنوده وقد أصابه اليأس والقنوط.

وفى اليوم التالى، السبت، شاهد الجنود الفرنجة النيران ترتفع فوق دمياط، إلا إن الجسر الذى يربط الشاطئ الغربى بالمدينة لم يتحطم، ولا يوجد أى جنود ظاهرة للعدو تحول بينهم وبين دخول المدينة. وتم إبلاغ الملك لويس التاسع بما يحدث، فأرسل فارسا يعرف المدينة جيدا. وعاد الفارس بسرعة ليبلغ الملك بأنه دخل المدينة حتى قصر السلطان دون أن يقابل إلا عدداً قليلاً من السكان الذين أفهموه بخوف بأن المدافعين قد رحلوا. فغادروا دمياط وهو لا يصدق ما شاهده. كان من الواضح أن السلطان قد مات وآثر الجنود الانسحاب.

أرسل الملك لويس فى طلب مندوب البابا لإطلاعه على هذه الأخبار السارة التى يمكن وصفها بالمعجزة وعزوا ذلك إلى وجود المقدسات (الصليب المقدس) فى وسط المتحاربين. وفى اجتماع مع الأحبار، أنشد الملك بصوت عال "أيها الرب"، ثم دخل إلى دمياط وهو محاط بباروناته بينما كان الجنود يحاولون إطفاء الحرائق.

وفى اليوم التالى، الأحد، أخلى الملك المسجد الكبير فى المدينة وكذلك كل أماكن العبادة الإسلامية الأخرى. وحولها إلى كنائس ووهبها لرجال الدين المسيحى. وقد وجدوا ثلاثة وخمسين سجينا من الرقيق المسيحيين الذين قالوا إنهم مسجونون منذ عشرين عاما فتم تحريرهم. أما المسيحيون السوريون الذين كانوا يقطنون المدينة فلم يهربوا مع المسلمين، بل قدموا أنفسهم للملك ومندوب البابا وهم يحملون صلبانهم، فلم يتم إيذاؤهم وتركت لهم منازلهم.

وقد تم قتل جميع المسلمين الذين لم يهربوا، وتم تقسيم ما بالمدينة من كميات كبيرة من القمح واللحوم المملحة والبهارات والأقمشة والخشب والأسلحة الخفيفة والثقيلة بين الغزاة الذين دخلوها بدون صعوبة.

وعين الملك الكاردينال مندوب البابا راعيا للكنيسة التى كانت فى الأصل الجامع الكبير. وتم تقسيم المدينة بين بارونات فرنسا ومن أتى معهم من وراء البحار.

ثم قام الفرنجة بعد ذلك بتعزيز تحصينات المدينة، وإصلاح الخنادق وتشييد الحصون الأمامية فى الأماكن التى تحتاج إلى تحصينات. فقد أراد الملك أن يجعل

من المدينة حصنا حصينا سواء من طريق البر أو البحر ووضع أساسا متينا للعمليات اللاحقة.

وجذب نبأ احتلال دمياط وثراء الغنائم الرجال من جميع البلاد الذين هرعوا من الشام وكل الموانئ المسيحية الأخرى فى إيطاليا وفرنسا. أما النساء اللاتى كن يحلمن بالربح السهل فقد تدفقن بإعداد كبيرة لخدمة آلاف الرجال العاطلين.

أما البارونات الذين أثروا ثراء فاحشا فقد كانوا يعيشون فى رفاهية ويقيمون الحفلات الصاخبة وينفقون ببذخ ويحتفظون بالنساء سيئات السمعة. وكان الجنود يقلدونهم حتى إن بيوت الدعارة تم فتحها على بعد خطوتين من خيمة الملك.

وقد أراد لويس التاسع الذى كان معروفا بتقشفه الطبيعى، بعد ما رأى من انهماك باروناته فى الملذات، أن ينتقل إلى الضفة الأخرى من النهر، أمام المدينة، من الجانب الآخر للجسر الموجود على النيل حيث كانت السفن راسية. وحذا الكاردينال حذوه وكذلك عدد من البارونات الذين مكثوا فى خيامهم، وبالنسبة لجو مصر كان محتملا، رغم أن الصيف بالنسبة لهؤلاء الرجال من الشمال كان شاقا، فلم يكونوا معتادين على الحرارة العالية والذباب والبراغيث. كما أن ملابسهم وطعامهم لم تكن تتناسب أيضا مع هذا الجو.

إلا إن المشكلة الرئيسية التى كانت تشغل ملك فرنسا بعد غزو دمياط كانت تعميرها. وقد كتب شاهد عيان مسيحى يقول:

" لم يكن هناك ما يشغل الملك أكثر من عدم وجود عدد كاف من الرجال للمحافظة على احتلال البلاد التى غزاها أو التى سوف يغزوها. وكان الملك قد أحضر معه العربات وأبواب الحصون والمعازق وآلات الحرث، مما كان قد أثار سخرية سلطان مصر ".

وعندما شاهد المسلمون أن الفرنجة المعسكرين حول دمياط لم يحاولوا التحرك نحو الداخل تشجعوا وقاموا بمهاجمتهم فى معسكرهم فى النهار والليل. وخاصة البدو اللصوص الذين كانوا يتمتعون بالجسارة، فكانوا يتسللون فى المساء تحت الخيم ويطعنون الحراس والجنود وهم نيام ويسرقون كل ما يستطيعون حمله.

ومع حلول نهاية الصيف، بدأ فصل العواصف فى البحر، وواجهت السفن التى كانت تبحر بين قبرص ودمياط الكثير من الصعاب وسافر كثير من الرجال على مراكب هشة تتلاشى فى المياه. وفى هذه الأثناء وصل إلى قبرص الشقيق الثالث للملك، ألفونس دى بواتييه مع مجموعة من الرجال والمؤن الوفيرة. وبعد أن استراح فى ليماسول عدة أيام، سافر ألفونس دى بواتييه ومعه رجاله إلى دمياط حيث وصل وسط فرحة عامة. وبذلك أصبح الصف الأول والصف الأخير الذين تعلموا القتال فى فرنسا فى دمياط مع مؤن وفيرة وعتاد متفوق عن العتاد الذى أخذوه معهم فى المرة الأولى. كان الملك إذًا يستطيع متابعه حملته بثقة.

أما بالنسبة للمسلمين، فإن الاستيلاء على دمياط كان كارثة لا مثيل لها لأنه لو كان السكان وبنى كنانة قد دافعوا عن الجسر وأغلقوا موانئ المدينة، لحال هذا بين الفرنسيين والرسو أمام المدينة وكان سيعطى الفرصة والوقت الكافى لجيوش السلطان التى تتفوق عددا على جيوش الفرنجة للمجىء إلى دمياط ونجدتهم وتحريرهم.

وفى القاهرة، كان السكان يرددون : إذا كان الله يريد أن يفرض محنة على المؤمنين، فمن يستطيع منعه؟

فى القاهرة ، شجرة الدر

نشأ عن ترك المسلمين لدمياط واحتلالها من جيوش الفرنجة طوفان مستمر من المهاجرين إلى القاهرة، وسادت المدينة حالة من الحداد، واعتراها خوف حقيقى، كما إن الإشاعات ضخمت من الحدث. سقوط دمياط بحصنها الشهير، هل هو دليل على نهاية الإسلام فى مصر؟ من يستطيع الآن هزيمة الفرنجة الملاعين وملكهم بعد أن وضعوا أيديهم على ميناء حصين يحميهم ويمكن عن طريقه وصول كل التعزيزات التى يحتاجون إليها. كيف يمكن التضييق عليهم ولديهم مؤن كافية وملابس وسلاح وآلات حربية ويمكن لسفنهم التحرك بحرية فى البحر أو حتى الصعود فى النيل؟ ، من الذى يستطيع حماية مصر والإسلام فى هذه الساعات العصيبة؟ ليس السلطان المريض بالطبع، والذى كان غيابه السبب الأول لوقوع الكارثة.

وبالرغم من ذلك كان على السلطان الصالح أيوب فى هذه الظروف الصعبة أن يثبت قوة وشجاعة غير عادية. وقد تم نقله وهو مريض إلى القاهرة ليتمكن من إعداد مقاومة منظمة ضد الغزاة. وهناك اجتمع مع أمرائه فى قصره فى الروضة فى جلسة مهيبة وجاء له قادة "بنى كنانة" الذين كانوا قد تخلوا عن مواقعهم فى المعركة فى دمياط. فسبهم السلطان علنا، ووصفهم بالجبن وأمر بإعدامهم، وشنق خمسين من أمرائهم فى مكان عام. وحاولوا الدفاع عن أنفسهم أو على الأقل تبرير تصرفهم، وقالوا : ماذا يمكن أن نفعل وجنودك وأمراؤك قد هربوا من ميدان المعركة وتم حرق المخازن فى المدينة؟

إلا إن السلطان رفض الاستماع إليهم، وبعد مشاورات مع كبير القضاة صدق على الحكم بالإعدام الفورى: الموت شنقا لخمسين منهم فى ميدان عام لهروبهم من أمام

العدو. وارتمى أحد الأمراء من كبار السن من قادة بنى كنانة، وكان قد حكم عليه بالموت هو وابنه، ارتمى تحت قدمى السلطان وقال له متوسلا:

" عدنى ألا أرى ابنى يشنق وذلك بأن أموت قبله "

ولكن السلطان – بعد أن طلب رأى مستشاريه فى القانون الذين أكدوا له أن الاثنين يستحقان الموت – كرر القول: " اشنقوا الابن قبل الأب " وهو ما حدث، فالوقت لم يكن يحتمل الشفقة.

ولكن هذا المثال لم يكن كافيا فى نظر السلطان، فقد كان يود أيضا أن يقطع رأس الأمير " فخر الدين " قائد الجيش الذى يحترمه الجميع. وأحضره أمام الأمراء المجتمعين ووجه إليه اللوم حتى أنه سبه قائلا:

" عار عليك ألا تستطيع الصمود ساعة واحدة أمام الفرنجة ! كل ما استطعت أن تفعله هو أن تنقل خبر وفاة نجم الدين الشجاع ".

ثم انسحب السلطان للمشورة. وفى هذا الوقت تدخلت زوجته المفضلة " شجرة الدر " لتهدئته. وكانت رفيقته الوفية الشجاعة أثناء الأوقات العصيبة التى مرت فى حياته. وكان السلطان يحترم آراءها ونصائحها لثقته أنها سوف تقف بجانبه لتساعده فى اجتياز الصعوبات. وقالت له إن الوقت غير مناسب بتاتا لإثارة البلبلة بين صفوف كبار ضباط الجيش. فالأمير " فخر الدين " رمز للعديد من الانتصارات العسكرية والنجاحات الدبلوماسية وله كثير من الأنصار. ألم يكن الأمراء الذين بجانبه فى دمياط مذنبين أيضا؟ كيف يمكن إذا جمع الجيش، ونفخ الهمم وحثه على الرغبة فى القتال وتنظيم المقاومة العامة ضد الفرنجة؟

وقد رأت " شجرة الدر " أن الإدانة العلنية " لفخر الدين " هى عقاب كاف، وكان يجب على السلطان أن يبعث فى استدعائه ليطلب منه العودة وإعادة ترتيب الجيش لمواجهة تهديدات الفرنجة. وفضل السلطان الذى يرقد فى فراشه ولا يستطيع الحركة من شدة الألم أن يطلق ليدها العنان والتصرف بالطريقة التى تراها

استقبلت " شجرة الدر " شخصيا " فخر الدين " وأخبرته أنه أعيد إلى قيادة الجيش وعليه أن يكون صلبا ويمسك الجيش بيد من حديد ، وأن يهدئ الأمراء الذين بدأوا يتآمرون على قتل السلطان. وقالت إنها سوف تتولى تهدئة زوجها المريض وامتصاص غضبه.

أدرك فخر الدين أنه وجد الحليف النموذجي فى " شجرة الدر ". وأقسم لها على إخلاصه وولائه ، لإنقاذها حياته بعد أن كان موته محققا ، وجمع ضباطه الرئيسيين وقال لهم:

" قابلت السلطانة " شجرة الدر ". هى تفهمنا وتؤيدنا. وأكدت لى أن السلطان مريض جدا وقريبا سوف يخلصنا الموت من جبروته. فإذا كان هذا هو الوضع فلا داعى لأن نفعل شيئا! وإذا لم يكن ، فسوف يكون السلطان بين أيديكم ".

إلا إن العدو كان قد كسر باب مصر آنفا. وكان الموقف يستلزم نسيان الإهانات والعفو عن الأخطاء.

شجرة الدر

من هى " شجرة الدر " التى تدخلت بهذه الصورة المباشرة فى أمور الدولة فى هذا الوقت الحاسم من تاريخ مصر؟

جاءت " شجرة الدر " – هذه الفتاة الجميلة – من مكان ما فى أرمينيا أو جورجيا، وتم بيعها وهى صغيرة فى سوق العبيد. وكانت من نصيب الأمير " نجم الدين " ابن سلطان مصر " الكامل ". وكان الأمير حاكما لحصن كيفا فى العراق، حيث كان أبوه قد نفاه فى هذه المقاطعة البعيدة.

الجمال الصارخ والذكاء وقوة الشخصية لفتت نظر الأمير لهذه الجارية الشابة التى ألحقها بحريمه.

وفى هذا العصر لم يكن من المعتاد تعليم الفتيات. كن يحفظن فقط آيات القرآن، أما القراءة والكتابة فكانت من نصيب الأولاد. وكتب ابن رشد الذى كان من أشهر الفلاسفة العرب والذى كان يدرس فى قرطبة يقول:

" ... فى البلاد الإسلامية لم تكن قدرات النساء ومهاراتهن معروفة، وكانت فائدتهن تنحصر فقط فى الإنجاب. فهن مسخرات فقط لخدمة أزواجهن ورعاية الأطفال وإرضاعهم. مما يوقف أنشطتهن ويضع الحمل بأكمله على كاهل الرجال وهذا هو سبب الفقر الذى يعم البلاد... لذلك يجب تعليمهن بالقدر نفسه الذى يتعلم به الرجال... "

وهذا ما فعله الأمير الشاب الذى كان من المفروض أن يحكم مصر فى وقت لاحق تحت اسم " الصالح أيوب ". ولم يكن هذا استثناء ؛ فقد كانت الحرائر من النساء عموما غير متعلمات أما النساء من العبيد فكن يتعلمن إذا أظهرن مهارات معينة. ولم يكن هذا إلا زيادة فى الخدمات التى يقدمنها لأسيادهن ويرفع سعر الجارية فى السوق. فلم يكن من النادر إذاً أن ترى نساء من العبيد يجدن القراءة والكتابة، ويكتبن الشعر ويتلون أبياته، بل ويستطعن مناقشة العلماء فى مختلف أفرع الدين والفلسفة. كما كان يوجد أيضا التاجرات اللاتى يستطعن استثمار ممتلكاتهن بعيدا عن أزواجهن، وكان هذا حقا لهن طبقا للشريعة الإسلامية. إلا إن النساء كن بعيدات عن الأعمال العامة ، ولا يتقلدن مناصب رسمية تضعهن فى معاملات مباشرة مع الرجال. ومع ذلك لم يكن هذا حائلا دون بسط نفوذهن خفية فى شئون الدولة. وكان ذلك يتوقف على رغبة الزوج، الذى إذا أراد أن تشاركه جاريته المفضلة، كان عليه إما الزواج منها أو أن تصبح خليلته، أو أن يعتقها. وهكذا يمكن استشارتها ويمكنها بعد ذلك التأثير عليه. وكان هذا ما حدث بالنسبة " لشجرة الدر "، فكانت جارية عند الأمير ثم أصبحت المفضلة لديه ثم جارية معتقة منه ثم زوجته التى لا تفارقه. وهو الذى أطلق عليها اسم " شجرة الدر ".

هل يمكن الحديث عن الحب فى هذه الظروف؟ لم لا؟ فقد كان على " شجرة الدر " أن تتسلل إلى قلب زوجها وتقبع فيه، فعندما أصبحت الجارية المفضلة لديه ثم بعد ذلك أقرب زوجاته إليه لم يشأ أن يعرف نساء غيرها. وكان هذا الوضع استثنائيا ويجب الإشارة إليه.

نشأت " شجرة الدر " فى كيفا بين عدد من الأولاد العبيد مثلها. وكان قد تم بيعهم فى سوق الرقيق . وهم "أيبك" و"آقطاى" و"بيبرس" و"قلاوون". وقد دربهم الأمير " نجم الدين " على فنون القتال وأراد أن يضمهم إلى حرسه الخاص. وشجعته " شجرة الدر " بكل قوتها وكانت تشهد دائما فى صالحهم وتساعدهم بكل قوة. وهؤلاء الأربعة سوف يصبح لهم مستقبل كبير ، وسوف يبرهنون على أنه حتى العبيد يمكنهم أن يتصفوا بالوفاء والإخلاص.

ويحكى فى القصص الشعبية أن ساحرا عجوزا اقترح على شجرة الدر والمماليك الأربعة الذين كانوا معها فى كيفا أن يقرأ لهم الكف. وبعد دراسة متأنية، ركع أمام الخمسة وقال لهم بدهشة:

" لا أستطيع إلا أن أسجد أمام ما أرى. سوف تصبحون أنتم الخمسة واحدا تلو الآخر سلاطين وملوكا لدولة كبيرة ".

وضحك العبيد الخمسة أمام هذا العجوز المجنون الذى تنبأ لهم بمملكة يحكمونها، ليس واحداً منهم فقط بل جميعهم . كيف سيصبح هذا ممكنا؟ يجب على التاريخ أن يهتم بهذه النبوءة غير العادية.

لم يصل نبأ موت سلطان مصر " الكامل " فى القاهرة إلى الخليفة فى بغداد إلا فى وقت متأخر. وكان العرش فى القاهرة قد تم شغله من " العادل " الأخ غير الشقيق " لنجم الدين ". بالرغم من أن الأخير كان الأكبر سنا، والوريث الشرعى لعرش أبيه. ودام الصراع على السلطة طويلا وكان معقدا. وكان " نجم الدين " فى طريقه إلى القاهرة مع جاريته المفضلة ومماليكه الشباب حين تم حبسه لمدة سبعة أشهر فى حصن كراك دى مؤاب فى الأردن. وقد أفرج عنه بفضل زوجته التى تفاوضت وهو فى السجن مع سيد كراك على تحالف ينص على أن يساعد زوجها فى اعتلاء عرش مصر مقابل أن يسمح له الملك بالاستيلاء على السلطة فى دمشق.

وصار دخول " نجم الدين " الذى أصبح السلطان " الصالح أيوب " القاهرة بجانب زوجته " شجرة الدر " نصرا. وأنجبت " شجرة الدر " طفلا سمى " خليل " وأصبح اسمها " أم خليل " وأصبح ابنهاالأمير الوريث. ورسخت مكانتها بجانب

زوجها، وأصبحت تشاركه في كل القرارات الهامة، وبحس سياسى نادر على خلاف زوجها. وكانت " شجرة الدر " بيضاء البشرة حالكة سواد الشعر وكانت تحب أن تجمعه بدلال تحت قلنسوة مدببة، أما السلطان فكان أسمر اللون يقترب من السواد، عبوسا، منعزلا، تعوزه البشاشة وسعة الأفق وحب العلم ولم يرث روح عمه الكبير " صلاح الدين " أو نباهة وفطرية ودبلوماسية جده " العادل " أو أبيه " الكامل " وكانت زوجته فقط هى التى تستطيع أن تجعله يبتسم. كما كان يثير رعب من حوله ويشل كل المبادرات التى تقدم إليه. ولم يكن أى وزير يجرؤ على اتخاذ قرار قبل استشارته وأخذ رأيه كتابة إذا أمكن.

وقد استعصى مرض السلطان على أفضل الأطباء. فقد كان يعانى من صعوبة التنفس ومن وهن القوى وكانت شخصيته السوداء تطغى فى ذلك الوقت، وفقد ثقته فى الجميع. وعندما أحس الأمراء الذين كانوا يمارسون سلطاتهم فى المقاطعات، بأن السلطة المركزية تضعف بدأوا يتحررون منها بدورهم. وشيئا فشيئا أصبح السلطان لا يثق إلا فى حرسه الخاص من المماليك الذين وزع عليهم الضياع والأقاليم.

مات الأمير الصغير " خليل " بسبب مرض عضال، وكان ألم الأمومة الثكلى عظيما على " شجرة الدر " إضافة إلى كونها لن تستطيع الإنجاب بعد ذلك. وتضاعفت المشكلة السياسية، فقد كان العرش يجب أن يؤول إلى أحد أبناء السلطان من إحدى زوجاته الأوائل: مثل الأمير " توران شاه " الذى لم يحببه أبوه قط وكان قد نفاه إلى حصن كيفا فى العراق ومنعه وهو على فراش المرض من دخول مصر.

وتسبب وصول لويس التاسع ملك فرنسا إلى دمياط والتهديد الذى شكله الفرنجة على مصر، فى تعقيد وضع كان فى الأصل مرتبكا. فالبلاد بدون زعيم، وكان يجب عليها مواجهة جيش قوى للأعداء. والسلطان مشرف على الموت، ووريث العرش مجهول ومنفى فى حصن بعيد، والأمراء يتقاسمون الخوف وفقدان الأمل، والجيش فقد روحه وعزيمته . من يستطيع إذن إنقاذ مصر من هذه الكارثة؟

هدف الفرنسيين

الإسكندرية أم القاهرة أم .. أورشليم القدس ؟

انتهى الصيف وانتهى معه موسم فيضان النيل(١). وكان شهر أكتوبر لطيفا فى شمال مصر لذا كان يجب اغتنام الفرصة للاستعداد للحملة.

وكان الاستيلاء على دمياط الذى يشبه المعجزة قد أجبر الملك أن يحدد خطة غزوه. هل تكفى دمياط لإجبار سلطان مصر على التفاوض؟ لقد كان من المستحيل أن يعيد إليه دمياط، التى تعتبر أهم من عكا، بلا مقابل. فما العمل إذاً ؟

اجتمع مجلس حرب فى دمياط لوضع استراتيجية جديدة وتحديد الأهداف المراد الوصول إليها. بيير موكلارك كونت بريطانيا، اقترح غزو الإسكندرية، وكما قال، " حتى

(١) النيل فى نظر الفرنجة ·

يجب أولا التحدث عن النهر الذى يخترق مصر وينبع من جنة الأرض . هذا النهر يختلف عن سواه من الأنهار . عندما نركب الأنهار تجد فى أسفل النهر عند مهابطه جداول ومجارى . ولكن النيل ليس لديه أى خط فرعى . يصل إلى مصر فى خط واحد ويمر فى كل البلاد إلى أن ينقسم إلى سبعة أفرع تروى البلاد . فى الصيف هذه المجارى المائية السبعة تبعث بمياهها الصاعدة وتنتشر فى الوادى والسهول . وعندما تنحسر المياه يحرث الفلاحون الأرض بعربات بدون عجلات . ويزرعون القمح والشعير والكمون والأرز بكميات كبيرة . لا أحد يعرف من أين يأتى الفيضان إلا أنها إرادة الله . إذا لو لم يكن هناك فيضان ، لماتت البلاد لأن الشمس تحرق كل شىء . الذين يريدون الماء للشرب يأتون فى المساء باللوز المقشر أو بعض الفول ، وفى اليوم التالى يصبح الماء صالحا للشرب . عندما كنا نضع الماء فى الأوانى الفخارية التى تصنع فى البلاد ونعلقها بالحبل على الخيمة ، فى الوقت الذى تشتد فيه الحرارة فى النهار يكون الماء بارداً مثل مياه الينابيع . ويقال فى هذه البلاد إن السلطان أراد أن يعرف من أين يأتى هذا النهر فأرسل رجالا يحملون معهم فطائر – نوع من العيش يتم طهيه مرتين ، مثل اسمه – أكلوا من هذا العيش حتى عادوا إلى بلاد السلطان . يحكى أنهم صعدوا فى النهر ووصلوا إلى جنادل كبيرة من الصخور التى لا يمكن لأحد عبورها، النهر يأتى من هذه الصخور ، ويبدا لهم أن القمة مغطاة بالأشجار وقابلوا حيوانات متوحشة بكميات كبيرة : أسوداً وثعابين وفيلة كانوا يأتون للفرجة عليهم على شط النهر – أحد أفرع النيل ينتهى عند دمياط والآخر عند الإسكندرية وآخر عند تنيس وواحد آخر إلى رشيد (جوانفيل ، مقتطفات ، طبعة لابلياد ، ص ٢٤١) .

نأكل عيني مصر ". وكان تفوق الأسطول البحرى للفرنجة يؤكد أن نجاح عبور الطريق من دمياط إلى الإسكندرية ليس صعبا. فإذا تم الاستيلاء على الإسكندرية فمن المؤكد أن السلطان سيطلب الرحمة.

أما شقيق الملك، روبير دارتوا، وكان فارسا شجاعا، جريئا فى تصرفاته، ومتطرفا فى مواقفه فقد رفض بدون أى حس سياسى، هذا الاقتراح، وقال نتجه مباشرة إلى بابليون " لنضرب الثعبان فوق رأسه ".

وفى أثناء الاجتماع جاء رسول من قبل السلطان باقتراح للسلام. وبشهادة المؤرخ الإنجليزى ماتيو بارى وأيضا عظيم فرسان المعبد ، جيوم دى سوناك، جدد السلطان " الصالح أيوب " للويس التاسع ملك فرنسا العرض الذى كان قد قدمه والده السلطان " الكامل " لجان دى بريان والكاردينال بيلاج:

" أعد إلينا دمياط واتركوا مصر. وسنرد لكم عسقلان وأورشليم القدس وطبرية ".

وكان روبير دارتوا، شقيق الملك، هو الذى آثر رفض هذا الاقتراح، فقد قال:

" لماذا نتفاوض مع كافر مهزوم ومشرف على الموت؟ ".

ألم يكن واضحا أن السلطان بعد أن بلغه وصول تعزيزات من فرنسا شعر بأنه غير قادر على مقاومة جيش الفرنجة؟ إذا كان الملك بثلث رجاله قد استطاع أن يهزم جنود المسلمين ويستولى على مدينة جميلة وحصينة كدمياط، فماذا يستطيع أن يفعل بجيشه وهو كامل العدد؟

ولم يكن صوت جان دى بريان موجودا هذه المرة لإحداث التوازن المطلوب. ولذلك لم يتردد لويس التاسع، وتم طرد رسول السلطان واعتمدت الخطة التى اقترحها روبير دارتوا.

نشوة القوة ومعجزة النصر، تغلبت على كل الحكم السياسية. وبالرغم من أن لويس التاسع قد سمع بأذنيه كل المناقشات التى دارت مع الكاردينال بيلاج. إلا أنه فى كل مرة كان الملك الذى ارتدى شارة الصليب " لتحرير أورشليم القدس " يرفض

مفاتيحها فى مقابل دمياط. وأصر لويس التاسع على الاستيلاء على القاهرة بالقوة ووضع كل مصر تحت سلطته.

وكان الطريق إلى ما يطلق عليها بابليون هو نفسه الذى سلك منذ ثلاثين عاما. إذ كان على الجيش بأكمله أن يعبر إلى الجانب الشرقى من النيل بجانب دمياط، وبدأت المسيرة إلى عاصمة مصر فى ٢٠ نوفمبر ١٢٤٩ .

ولكن كان يجب أولا الاستيلاء على المنصورة التى تقع فى منتصف الطريق بين القاهرة ودمياط، والتى هزمت فيها جيوش السلطان " الصالح أيوب " .

فـى مـعـسـكـر المنـصـورة - مـوت الـسـلـطـان

تم إعادة النظام فى القاهرة، وجمع السلطان " الصالح أيوب " جيشه الذى كان على استعداد تام وذهب إلى المنصورة حيث نصب معسكره فى المكان نفسه الذى كان والده السلطان " الكامل " قد اختاره. وكان قد علم أن الجيوش الفرنسية قد بدأت فى التحرك نحو الجنوب، فى الجانب الشرقى لنهر النيل الذى يتجه إلى دمياط.

وللوصول إلى المنصورة كان على الجيش الفرنسى عبور جسور النيل الذى ينبع من شمال المنصورة ويتجه إلى أشمون - طناح فى الغرب وكذلك عبور العديد من القنوات التى تعبر الدلتا فى كل الاتجاهات .

استقر السلطان مع زوجته " شجرة الدر " فى القصر الكبير الذى كان قد بناه والده على ضفاف النيل. وشيد خيمة حتى يمكنه أن يكون بالقرب من أمرائه عند الضرورة. وكان المماليك البحرية بقيادة " أقطاى " على أهبة الاستعداد وفى انتظار أوامر المعركة، وهم يؤكدون على حماية السلطان.

وعمل الجيش على تقوية مواقعه، وتم إصلاح الحاجز الموجود على النيل وحمايته ببوابات. كما تم تصويب مجانيق كثيرة مزودة بالحجارة على جانبى النهر. وعزز الجنود مؤنهم وكذلك النفط لإشعال النيران الإغريقية. ورست السفن الشراعية ذات المجاديف والسفن التى تستخدم لإحراق سفن العدو والمكتظة بالمحاربين رماة الأسهم جميعها أمام المدينة لمحاربة سفن الفرنجة التى تصعد فى النيل.

وتم تكليف بعض الفرسان على جيادهم السريعة وكذلك البدو بإرهاق الفرنجة.

وخلال شهرى يوليو وأغسطس، بينما كان الفرنجة ينتظرون التعزيزات فى دمياط، تم أسر بعض الجنود، ولرفع الروح المعنوية للجماهير أرسلوا إلى القاهرة لكى

يمروا فى شوارعها. وفى ١٣ يوليو، تم عرض ٤٦ أسيرا من بينهم فارسان على الجماهير ثم ٣٩ آخرين ثم ٢٢ وأخيرا ٣٥ بينهم ثلاثة فرسان. ووصل خبر جديد من دمشق: جيش السلطان تحرك نحو صيدا، حيث تراجع الفرنجة بعد إرهاقهم من كل جانب. وفى ٣٠ أغسطس مرت مجموعة مكونة من ٥٠ أسيرا فى الشوارع مما زاد من الحماس العام.

وتقدم آلاف الرجال الأصحاء للاشتراك فى جيش السلطان. وكانت الشعائر فى المساجد تطالب الجماهير بالجهاد لطرد الفرنجة الذين غزوا الأرض الإسلامية. وأمام العدو، تم حشد البلاد كلها واستعادت شجاعتها.

فى هذه الأثناء اشتد مرض السلطان، وخارت قواه يوما بعد يوم. وكان الأطباء الذين مكثوا بجانبه ليل نهار يائسين من شفائه. ورغم ذلك احتفظ " الصالح أيوب " بعقل جلى وقوة روح وشخصية سليمة. وكانت القرحة التى يعانى منها فى ثنية الفخذ قد انتشرت فى الفخذ الأيمن. وكان يعلم أن مشكلة من سيرثه ستكون حادة. فابنه "توران شاه" كان أحمق ومهتز الشخصية وغير قادر على حكم مصر وخاصة فى هذه الفترة التى تتعرض فيها البلاد لهذه المحنة. وكان قد أبعده إلى كيفا محذرا إياه بألا يضع قدمه فى مصر إلا بعد مماته. وعلى أية حال كان " توران شاه " الوريث الشرعى، مما أثار كل الأمراء الأيوبيين، بالرغم من وجود الفرنجة داخل مصر.

أرسل السلطان وهو فى فراشه فى استدعاء الأمير " فخر الدين " قائد الجيش، والأمير " جمال الدين محسن " أقرب الناس إليه. وجعلهما يقسمان على الولاء لابنه " توران شاه " وذكرهما بتوصياته التى كان قد أعطاها لابنه: المحافظة على شرف " شجرة الدر " التى خدمت السلطان بولاء وإخلاص، وأن يضعها فى مقام أمه وأن يتركها تدير شئونها وممتلكاتها. ولا يفعل إلا ما تنصحه به وما تقرره.

ومات " الصالح أيوب " أخيرا فى ٢٣ نوفمبر ١٢٤٩ فى المنصورة عن ٤٤ عاما. وكان قد حكم لمدة ٩ سنوات و٨ شهور و٢٠ يوما.

وكان من الممكن أن يترتب على إعلان نبأ موته آثار وخيمة. فقد أصبحت مصر بلا زعيم. والجيش المصرى يمكن أن ينهار بموت السلطان. فلقد رأينا ما دفعته دمياط ثمنا لغياب السلطان. حيث لم يستطع أفضل القادة أن يحل محله. فقد كان الرمز الذى له قيمة.

وهنا ظهرت قوة " شجرة الدر " وحسها السياسى، فقررت أن تتكتم خبر وفاة السلطان. وكلفت أحد أطبائه الخصوصيين بتولى مراسم الدفن. وتم نقل النعش بسرية تامة إلى قصر الروضة بجانب القاهرة. وبعد ذلك شيد له ضريح فى الصالحية فى "مدرسة" صلاح الدين فى القاهرة.

ولضمان السرية المطلوبة، أكدت بأنها ستتولى أمور الدولة التى تعرف جيدا كل آلياتها، كما أكدت أنه لن يساور أحداً فى البلاط الشك فى غياب العاهل.

وكانت الخطابات والأحكام التى تحمل ختم السلطان أو توقيعه مفوضة إلى مستشاريه كالعادة. ولم تكن تخرج بتوقيع السلطان منذ فترة. أما التعليمات لأمراء الجيش فكانت تحمل كالعادة توقيع العاهل. وعندما كان أحد الأمراء يطلب مقابلة السلطان كان طلبه يجاب بهدوء، ولكن بعد مرض السلطان كان يطلب منه تأجيل طلبه. وبعد ذلك، تم تقليد توقيع السلطان بدقة بتعليمات من " شجرة الدر " بواسطة خادم وفى يسمى " سهيل " وكل من رأى التوقيع لم يشك لحظة فى أنه مقلد.

فقط الاثنان الذين تم إبلاغهما بنبأ وفاة السلطان كانا الأمير " فخر الدين " و" جمال الدين محسن " المساعدين المقربين للسلطان المتوفى. وقد أكد قائد الجيش " لشجرة الدر " أنه سيحتفظ بالسر وبولائه لها. وقال لها " جمال الدين محسن ":

" إذا كانت سموك شجرة در، فإن قلبك ماسة نقية ".

كانت " شجرة الدر " تعلم أنه يمكنها الاعتماد على الأمير " فخر الدين " و" جمال الدين محسن " كما يمكنها أيضا الاعتماد على المماليك البحرية، رفاقها على مدى الزمن. فأرسلت فى استدعاء قائدهم " أقطاى " الذى كان يعرف بأنه العبد الصغير للخليفة وكلفته بسرعة الذهاب إلى العراق للبحث عن الأمير " توران شاه ". وكان يجب

التـأكـيـد على أن إرث السلطان سـيكون لوريثـه الشـرعى لتجنب الفـتنة بين المطالبـين بالعرش مما كـان سيمـثل خطرا مميتـا على البلاد. وكـان جـيش الفرنجـة قـد خـرج من دمياط متوجـها إلى المنصورة. و" أقطاى " كان مكلفا بمـهمة حسـاسـة، وهـى العودة إلى مصر بأى ثمن وبكل الطرق وبأسرع ما يمكن ومعه الأمير "توران شاه".

سـافر " أقطاى " فى اليـوم نفسـه ، تاركا قيـادة كتيـبة المماليك البحرية، لرفيقه " بيبرس " البندقدارى، بناء على طلب عاجل من " شجرة الدر "

كـان " بيبرس " يصـغر " شـجرة الدر " باثنى عشـر عـامـا، وكمـا يبدو فـقد أسـره المغول وهو فى الرابعة عشرة من عمره. وبيع كعبد بأربعين دينارا بسبب عيب فى عينه، ثم عرضه أحد التجار على أمير سورى رفض أن يحتفظ به لأن والدته قالت له إنها رأت الشـر فى عينيه. وفى النهاية تم بيعـه للأميـر " نجم الدين أيوب " الذى أدرك بسـرعـة صفاته المميزة وضمه إلى المماليك.

فى هذه الأثناء كان الجيش الفرنسى قد غادر دمياط واتجه بحذر نحو المنصورة. إذ المعركـة الحـاسـمـة تقـتـرب. وجـمعت " شـجـرة الدر " الأمـراء الموجـودين فى مـعسكر المنصورة وقالت لهم:

" يطلب منكم السلطان، فى ليلة المعركة، أن تقسـموا على ولائكم له ولابنه " توران شاه " الوريث الشرعى للعرش من بعده. ويطلب منكم الطاعة والسير خلف قائد الجيش الذى وكلت له أعمال الدولة ".

كل الأمراء الذين حضـروا الاجتمـاع اسـتجابوا لهذه الأوامر كمـا فعل بعد ذلك الجنود والمماليك.

كمـا كـتـبت " شـجـرة الدر " باسم السلطان إلى حـاكم القـاهرة والأمـيـر " حـسـام الدين " ليـفـعلا الشـىء نفسـه والشـروط نفسـهـا مع الفرق التـى تحـرس القـاهرة وكـبـار مسئولى الدولة. وقد استقبل كبير القضاة ورئيس المستشارين الجموع من كل الفئات الذين حضروا إلى القصر.

وفى صلاة الجمعة وفى مسجد الأزهر بالقاهرة، تلا الإمام من فوق المنبر خطابا فصيحا كان قد جاء من معسكر المنصورة والذى بدأ بالآتى:

" بسلاحكم الثقيل والخفيف، كافحوا لنصرة الله. ضحوا من أجله بممتلكاتكم وأرواحكم لأنه مكتوب: هذا أفضل لكم، إذا استطعتم أن تعوا ... ".

الخطاب يحث المؤمنين على محاربة الكفار الذين غزوا مصر بغرض هزيمتها. وكان شهر رمضان على الأبواب، وبالرغم من الصيام، تطوع آلاف الرجال.

وفى هذه الأثناء بدأ بعض الأمراء يشككون فى توقيع السلطان. وبدأت الإشاعات تنتشر بموت العاهل، وخاصة عندما رأوا الأمير " فخر الدين " ينظم بنفسه تجارة الكتان والسكر مع الشام، وهو مجال مقصور على السلطان. كان يساورهم الشك ولكن لم يجرؤ أحد على الإباحة به صراحة.

وكان من الواضح أن مصر كلها معبأة وراء عاهلها، ونسوا مشاكلهم الداخلية حتى لا يكون فى تفكيرهم سوى حمايتها.

ومن جهتهم علم الفرنسيون بموت السلطان، ولكنهم كانوا يجهلون ما يحدث فى المنصورة أو فى القاهرة، أو بمعنى آخر لم يكن يهمهم، وأسرعوا خطاهم نحو هدفهم، المنصورة.

الجيش الفرنسى أمام المنصورة

صعد الجيش فى الضفة اليسرى للنيل التى تصب فى البحر عند دمياط تماما كما فعل جان دى بريان منذ حوالى ثلاثين عاما. وتبعته على مرمى النظر فى النهر سفن خفيفة تحمل المؤن من دمياط. كانوا يتقدمون بتؤده وببطء. ورغم أن الشتاء كان لطيفا إلا أن حرارة الجو لم تكن تناسب الجنود القادمين من الشمال.

كانت العوائق الطبيعية لشبكة الطرق التى تعوق المدافع تقطع الريف فى كل اتجاه. وبالرغم من أن البلاد كانت مسطحة، إلا أن الطرق لم تكن متوفرة. فالعربات الثقيلة والجياد كانت تخوض فى أوحال الدلتا، حيث الأرض السوداء الخصبة كانت قد ارتوت بإفراط. أما الفلاحون الذين شاهدوا مزارعهم تنتهك من هذه الجموع السائرة فكانوا يلعنونهم ويهربون إلى الجوار. ولم تكن القرى أو الضياع المكونة من بيوت متواضعة من الطين المجفف حيث يقيم الرجال والنساء والأطفال والحيوانات صالحة لحماية الفرنجة.

ولعبور القنوات كان يجب باستمرار إما طمر أو بناء خنادق أو كبارى وكان هذا عملا مرهقا يجب تكراره كل يوم. لذا كان يجب إعطاء تنازلات جديدة وأيضا هبات للذين يقومون بهذا العمل الشاق.

وفى ٧ ديسمبر ١٢٤٩ قامت مجموعة من ستمائة فارس مسلم بمهاجمة الفرنجة بين فارسكور وشاريسما. وطاردهم مجموعة من فرسان المعبد، بعيدا عن الجزء الأساسى من الجيش بالرغم من أوامر الملك. أما الفرسان المسلمون فقد هاجموا الجزء المعزول من الجيش الذى كان يتقدم فى صورة طابور طويل لعدة كيلومترات. وتضاعفت الضربات المميتة. ولجأ المسلمون إلى كل أنواع الحيل. فقد نجح أحد الجنود المسلمين فى وضع رأسه فى بطيخة كبيرة بعد تفريغها ، وسبح فى الماء نحو الفرنسيين، وعندما

رأى الجنود البطيخة تطفو وكانوا يموتون من العطش ارتموا فى الماء فى محاولة للحصول عليها. وعندما أحس الجندى المسلم أن هناك من يحاول أن يشده خارج الماء، أمسك به وجذبه رفاقه مع أسيره إلى الضفة المواجهة.

وكانت هناك مصايد منصوبة ممتدة على النهر. وتمكن الجند المسلمون من مفاجأة إحدى السفن الفرنسية وأسر مائتى جندى على متنها. وتم إرسالهم إلى القاهرة وجرهم فى شوارع المدينة، وكان ذلك يرفع الروح المعنوية للجماهير. وكان المسلمون يستهدفون الجياد لخفض القوة الهجومية للأعداء. إلا أن الملك كان قد أمرهم بتوخى الحذر الشديد، لأنه لم يكن يرغب فى معركة لا يختار بنفسه وقتها ومكانها.

وفى ٢١ ديسمبر ١٢٤٩ وصل الفرنسيون أخيرا إلى مشارف المنصورة. وقد استغرق تقدمهم شهرا ليقطعوا خمسة وسبعين كيلو متراً. وأقام لويس التاسع معسكره على ضفة قناة أشمون، أو فرع "رِسى" كما يسميه الفرنسيون. وفى الوقت نفسه وقفت سفن الفرنجة القادمة من الشمال أمام السفن الإسلامية الراسية أمام المنصورة. وبدأت المناوشات فى النهر وعلى الأرض. فقد هاجم الفرسان المسلمون بصفة مستمرة، وضاعفوا من ضرباتهم، وكانوا يطلقون السهام القاتلة ويعبرون بجيادهم السريعة الخفيفة لجذب الفرنسيين خارج معسكرهم. وبعد هذه الهجمات أمر لويس التاسع بحفر خنادق عميقة حول معسكره من النيل وحتى القناة. وبعد أن أصبح المعسكر محاطا بالمياه أصبح الدفاع عنه أسهل.

وفى الجانب الآخر لم يكن من الممكن القيام بأية مناورات. فقد كان يجب عبور القناة أو النيل لمواجهة العدو. وكان جيش السلطان محتشدا على الجانب الآخر من المياه مما يصعب معه المرور بسبب عرض النهر فى هذا المكان.

وحيث إنه لم يكن من الممكن استمرار هذا الوضع، فقد قرر الملك بعد استشارة معاونيه أن ينشئ ممرا على قناة أشمون يسمح بمرور الفرسان ثم الجنود نحو الأعداء. وأمر بإنشاء برجين من الخشب للرد على هجمات الجنود المسلمين. وكان هؤلاء قد شيدوا ستة عشر برجا ترتفع أمام الفرنسيين على الضفة الأخرى.

تم إسناد بناء ثمانية عشر برجا إلى جوسلين دى كورنو، مهندس الملك، لتسمح بإلقاء الحجارة على العدو، كما كان الجنود المسلمون من جانبهم يلقون الحجارة على الآلات التى أمامهم. ولم يظهر لذلك نتيجة واضحة.

وكان يجب على الجنود الفرنسيين ملاحظة ما يتم من أعمال ليلا ونهارا، حتى يمنعوا الجنود المسلمين من تدمير ما يقوم به عمال الحفر من إنشاءات. وكان أحد أشقاء الملك قد أعطى المثل أمامهم وعمل نظام مراقبة نهارى بينما الفرسان يراقبون ليلا.

وقد أتاح المكان المغطى للعمال نقل الأتربة دون التعرض لحجارة أو سهام العدو، وانتهى العمل فى عيد الميلاد. وهكذا أصبح فى الإمكان البدء فى بناء الجسور فى ظروف آمنة ومقبولة. ولكن المسلمين الذين كانوا يشاهدون ما يحاول أعداؤهم تنفيذه تركوهم يعملون ، ثم عندما وجدوا الجسور قد تطورت، فتحوا من ناحيتهم منفذا لماء النهر مما جعل عرضه يزيد عما كان. وفى ليلة واحدة تم إزالة ثمرة ثلاثة أسابيع من الحفر الشاق. ولم يعد من المستطاع إقامة هذه الجسور.

ومن وقت لآخر، كان يمكن أن يشاهد على الضفة الأخرى من النهر قائد الجيش الإسلامى، الأمير "فخر الدين". وكان من السهل التعرف عليه بدرعه الجميل ولباسه الذى يحتوى على عدة أربطة، وعلى إحداها شارة فردريك الثانى التى كان يتفاخر بها كفارس. وكان الأمير قد أنعم عليه بلقب فارس رغم أنه ظل مسلما، وهو ما لم يحدث من قبل.

وفى إحدى الليالى، بدا أن الجنود المسلمين الذين كانوا يستخدمون الحجارة عادة، قد أضافوا شيئا جديدا وهى النيران الإغريقية. وكانت القذائف تبدو مثل البراميل. وكان ذيل النيران الذى يتصاعد يشبه سيفا مشتعلا. وعندما تسقط القذائف كانت تدوى كصاعقة. كما كان ضوءها يحيل الليل إلى نهار. وأصاب الرعب كل الجنود ولكنهم كانوا مضطرين لإطفاء الحرائق التى اشتعلت فى كل مكان بالمعسكر. ولحسن الحظ إن الماء كان متوفرا. ولم يجرؤ أحد على البقاء على الأبراج المصنوعة من الخشب والتى كانت معرضة للنيران فى أى وقت.

وسبب ذلك انخفاض الروح المعنوية للجنود. وكان الملك يدعو الله وهو مذهول بصوت عال:

" يا إلهي، احفظ لي رجالي ".

وطال أمد الانتظار، دون وجود حل مرضي يسمح باستئناف التقدم إلى الأمام.

الهجوم على الجنود المسلمين

ومع طول فترة الانتظار دون جدوى لم يكن هناك أى شخص قادر على اقتراح خطة يمكنها النجاح ، و فى هذه الأثناء وقع حادث غير متوقع، مما يعتبر " معجزة حقيقية ".

فقد جاء القائد دى بجو وقال للملك إن فلاحا من قرية مجاورة يسمى " سلمون " على استعداد مقابل خمسمائة قطعة من الذهب، أن يرشدهم إلى معبر يسمح بمرور الجياد والرجال لقناة أشمون ومواجهة الجيوش الإسلامية مباشرة من خلف معسكر الأمير " فخر الدين ". وخشى الملك أن يكون هذا كمينا أو عملية نصب وتردد فى القبول، ولكن فى النهاية، وبعد رفض الفلاح أن يتكلم قبل أن يتم إعطاؤه الذهب، أصدر الملك أوامره بدفع المبلغ . و كان الرجل يقول الحقيقة، فعندما حل الليل حدد بدقة معبرا يسمح باجتياز القناة.

وقرر المجلس المجتمع حول الملك استغلال هذه الفرصة المفاجئة فورا وأخذ المسلمين على غرة فى فجر اليوم التالى. وهكذا أصبحت المعركة على وشك أن تقع.

تقرر أن يعبر فرسان المعبد المعبر أولا لضمان عدم وجود أى شرك على الضفة الأخرى. ثم يتبعهم شقيق الملك روبير دارتوا مع فرسان فرنسا، كما تم الاتفاق على أن ترافقه الفرقة الإنجليزية، على أن يتبعهم الملك مع شقيقيه الآخرين وجيشه الرئيسى.

أما هيو الرابع، دوق برجنديا، فسوف يظل مع الجنود فى المؤخرة، ومعه خدم المعسكر من رجال ونساء. فى حين يبقى فرسان الشام وقبرص لحراسة المعسكر ، أما الجنود المسيحيون حاملو القاذفات فسوف يعبرون المعبر بعد الملك.

وفى الفجر وضباب الشتاء ما زال يلف الريف النائم، تقدم الخيالة أولا بأقل قدر من الضوضاء. وكان هذا فى ٨ فبراير ١٢٥٠ وفى وقت الرحيل كان رجال الدين يباركون أعلام من يغادرون، وطلب الملك منهم أن يظلوا متجمعين، ولا يطاردوا العدو طالما هو وجيشه الرئيسى لم يعبروا ، وذلك حتى لا تتشتت القوات ويسحقهم هذا العدد الكبير من المسلمين.

تحركت الجياد بحذر فى مجرى القناة، الذى كان شديدا فى هذا الاتجاه. ولم يكن فى استطاعتهم إلا السير ببطء، وخطوة بخطوة حتى لا ينزلقوا فى الوحل. وهذا ما حدث لجان دورلين، فقد انزلق جواده ثم انتصب حتى لا يغرق، بينما وقع الفارس بملابسه الثقيلة فى الماء وغرق فورا، ولم يستطع أحد أن يقدم له نجدة، فقد كان يجب استمرار المسيرة.

عبر فرسان المعبد ونظموا أنفسهم وتجمعوا على الضفة المقابلة فى انتظار مرور فرسان فرنسا. ومر هؤلاء بدورهم وعلى رأسهم روبير دارتوا الذى لم يعجبه قرار شقيقه بأن يترك فرسان المعبد فى المقدمة. فقد كان يريد الهجوم على معسكر المسلمين بدون تأخير، قبل سطوع الشمس مستغلا عنصر المفاجأة. وحاول فرسان المعبد أن يثنوه عن عزمه وأن يتمالك نفسه ويصبر. ولم يكن الجنود قد بدأوا فى المرور بعد، إلا إن أحد الفرسان، وهو فولك دى مارل، الذى كان أصمٌ فلم يسمع الأوامر، رأى روبير دارتو يضرب الأرض برجليه بدون صبر وهو على فرسه فلم يفهم لماذا ينتظرون، فأنزل القناع على وجهه وعدل رمحه واندفع نحو معسكر المسلمين، وهو يصيح " لنقاتلهم ، لنقاتلهم ". وكان لهذه الصيحة رد فعل بين الفرسان. فعندما رأى روبير دارتوا زميله يندفع اندفع وراءه دون انتظار وتبعه فرسانه ثم بقية الفرسان بدون تردد. وعدا وراءهم جميع الخيالة، ولم يستطع فرسان المعبد سوى متابعتهم.

كانت المفاجأة تامة فى معسكر المسلمين، نوبة الصحيان لم تكن قد دقت ، وضوء شمس الشتاء الخافت لم يكن قد ظهر بعد. وكان الحراس على ضفة النهر أمام جيش الفرنجة. وهاهم الخيالة يعدون نحوهم، رافعين الأعلام فى الضفة المواجهة للمعسكر

الفرنسى، وهرع الحراس لتحذير جيش المسلمين. وكان الجنود إما نائمين وإما قد استيقظوا لتوهم ولكن بدون سلاح. وبدأت فعلا مذبحة مع بداية اليوم.

أما قائد المسلمين " فخر الدين " فكان قد استيقظ لتوه، وكان فى الحمام. وحلاقه الخاص يسوى لحيته على مهل. وفوجئ بصياح الجنود يقولون بأن الفرنجة يهجمون على المعسكر، فخرج عاريا من خيمته ووجد جوادا، فامتطاه وحاول بشجاعة أن يجمع الفارين، وتنظيم المقاومة. ولكن أحد الخيالة من فرسان المعبد فاجأه برمح أصابه فى جنبه وأسقطه تحت جواده. ومات بطعنة سيف. وهرب الجنود وهم يشاهدون موت قائدهم. وغزا الفرنسيون معسكر المسلمين، وشتتوا بضربات سيوفهم القوية كل ما كان يشكل الصف الأول من المسلمين المواجهين لمعسكرهم. واستولوا على منحدر الجديلة حيث كانت المعدات الحربية التى منعت المهندسين الفرنجة من بناء جسورهم. ونجحت الضربة تماما، وتم احتلال المعسكر، وقتل قائد العدو. أما المسلمون الذين لم يقتلوا فقد تفرقوا وهم يعدون فى الريف متوجهين لمدينة المنصورة.

أما عظيم فرسان المعبد فقد قال للكونت دارتوا أنه كان عليه أن يوقف فرسانه وينتظر الملك طبقا للأوامر الرسمية المعطاة له. ثم استرسل قائلا "لقد أنجزت أكبر وأعظم وأجرأ ضربة فروسية منذ زمن بعيد فى أراضى فيما وراء البحار".

وأضاف " كان من الأفضل التجمع عند المعبر وانتظار الجيش، لأن عددنا كان بسيطا إذا قورن بجيش المسلمين ".

وكان روبير دارتوا وفرسانه مجتمعين حوله وكانوا سكارى من نشوة النصر. فكانت نداءات " المهور " لهم بتوخى الحذر يعتبرونها نداءات ساذجة:

"هل يمكن العثور دائما على فرو الثعلب؟ صاح أحدهم. لو أن فرسان المعبد وفرسان الإسبتارية قد رغبوا لكان قد تم غزو أرض هذه البلاد بأكملها ".

وقال فارس آخر:

" سيدى، ألا ترى أن الأتراك قد هزموا ويهربون بسرعة؟ ألا يصبح عارا وجبنا إذا لم نطارد أعداءنا؟ " .

كلمات رنت فى أذان روبير دارتوا، واستدار ناحية عظيم فرسان المعبد ووصفه بالجبان وصاح فيه إذا كان خائفا فما عليه إلا المكوث فى الخلف فى انتظار الملك.

وفى أثناء مناقشتهم، وصل فرسان من طرف الملك وقالوا للكونت دارتوا، بألا يتحرك حتى وصول الملك.

ولكن روبير دارتوا الذى وجد نفسه منتصرا بمفرده على جيش المسلمين قال لهم إن الأعداء قد هزموا ولن يبقى هنا ليراقبهم وهم يهربون ولكنه سيطردهم من المنصورة.

فقال عظيم فرسان المعبد:

" سيدى، لا أنا ولا إخوانى نعرف الخوف. ولن نبقى فى الخلف. بل سنذهب معك. ولكن اعلم جيدا أنه لا نحن ولا أنت سنعود أبدا ".

كما حاول كونت سالزبورى، جيوم لونج أيبى، هو الآخر أن يثنيه عن رأيه دون جدوى فلم يجد بدا من أن يقول له سوى ماردده عظيم فرسان المعبد نفسه .

وقد وجد روبير دارتوا والفرسان الفرنسيون أن الطريق إلى المنصورة خال أمامهم. وكانت الشمس قد سطعت وانتشرت أشعتها. الجنود المسلمون يعدون بسرعة أمامهم على الطريق الذى يؤدى إلى بابليون (القاهرة).

وقبل أن يعطى جياده فترة راحة، أنزل روبير دارتوا وفرسانه الأقنعة على وجوههم والسيوف فى أيديهم، وأسرعوا ناحية المنصورة فى أعقاب الفارين. وتابعهم فرسان المعبد والفرسان الإنجليز، بدون تردد نحو مصيرهم.

انتصار المماليك فى المنصورة

كانت " شجرة الدر " تدير شئون الدولة من القصر الذى كان السلطان " الكامل " قد بناه قبل ثلاثين عاما فى قلب مدينته الجديدة المنصورة.و كانت شجرة الدر تظهر فى وسط الجيش بعد أن حلت محل السلطان الذى كان قد توفى منذ ثلاثة أشهر وكان الجميع يعتقدون أنه مريض ولكنه ما زال على قيد الحياة .

وفى غياب " أقطاى " الذى كان قد سافر إلى العراق لإحضار " توران شاه " الوريث الشرعى للعرش. كان نائبه وصديقه " بيبرس البندقدارى "، وهو الجندى المسلح بقاذفة، هو الذى يرأس المماليك البحرية . و كانت " شجرة الدر " هى التى أمرت شخصيا أن تكون له قيادة حرسها الخاص الذى تثق فيه، والمكون من صفوة الجند. فقد كان بينهما شعور متبادل بالثقة والتفاهم الكامل والصداقة ، وكان هذا الشعور قد توالد أثناء وجودهما سويا فى الأسر. وكانت شجرة الدر تشعر بأن وجود بيبرس على رأس القوات يتساوى مع وجودها هى شخصيا. وبجوار المماليك البحرية كان هناك أيضا فيلق من المماليك البرية، وهم من صفوة المماليك وكانوا يشكلون الجند الاحتياطى.

استيقظت " شجرة الدر " فى ذلك الصباح منذ الفجر. وكان الفرنجة قد نجحوا فى عبور قناة أشمون وباغتوا معسكر " فخر الدين " الذى قيل إنه قتل أثناء المعركة وهو يحارب.

وارتدت شجرة الدر زى الجنود وحملت الدرع والسلاح، وطافت بصفوف المماليك يصاحبها بيبرس الذى كان يمدها بشعور من الشجاعة والتفاؤل. وكان يرى جنود الفرنجة وهم يتقدمون بعجالة نحو مدينة المنصورة. لقد حانت ساعة الهجوم المضاد.

وقرعت الطبول ونفخ فى الأبواق. نذيرا بالحرب وعلا الصياح فى شوارع المدينة ليستعد المسلمون للدفاع عن حياتهم ودينهم ضد الفرنجة الملاعين.

كان فرسان الفرنجة قد انتشروا فى المدينة وهم يمتطون جيادهم فى شوارعها الضيقة والمتعرجة. وهناك فوجئوا بمعركة فى الشوارع لم يكونوا مستعدين لها. فقد انقض عليهم الرجال وهم يمسكون بالهراوات أو الحبال ويوقعونهم من فوق جيادهم ويطرحونهم أرضا. كما كانت أصوات النساء تتعالى من النوافذ وهم يلقون أمام الجياد بقطع من الخشب وكل أنواع الأثاث الموجود فى منازلهن مما جعل الفرنجة يتعثرون. ولم تنجح الجياد الثائرة فى المناورة فى مثل هذا المكان الضيق. فاضطر الفرسان إلى الترجل فى محاولة لأن يبعدوا بسيوفهم هذه الجموع الملتفة حولهم. إلا أن المماليك انقضوا عليهم بسيوفهم المعقوفة وخناجرهم وهم لا يرتدون إلا الدروع الخفيفة مما جعلهم يتفوقون على الفرنجة. وكانت براعة المماليك شديدة عند الالتحام وجها لوجه. وحاول الفرسان الدفاع عن أنفسهم بسيوفهم التى كانوا يحركونها بدون توقف ليحمى كل منهم الآخر. إلا أنه من هول الصدمة وتحت وقع ضربات الفرسان أصبح الفرنجة غير قادرين على الالتحام أو التستر خلف دروعهم. ونجح روبير دارتوا ورفاقه المقربون فى اللجوء إلى داخل أحد المنازل آملين فى الاختباء لحين وصول نجدة. إلا أن المماليك كانوا يتتبعونهم حتى لا يهرب أحد منهم، وتمكنوا من قتل دارتوا، وعندما شاهدوا الدرع الفاخر البراق والمزخرف الذى كان يرتديه، ظن أحد المماليك للحظة أنهم قتلوا ملك فرنسا، وهنا عم الصخب المدينة بأن ملك فرنسا قد مات. وحمل المماليك الدرع وألقوه تحت قدمى شجرة الدر. وبعد ذلك قامت المدينة الهائجة بمطاردة آخر من بقى من الفرسان الفرنسيين الذين كانوا لا يزالون يقاومون الجند. وتم تجريد الفرسان الفرنسيين من سلاحهم وكبلوا بالحديد وألقى بهم فى السجن.

أما بعض الفرنجة الذين بقوا على قيد الحياة والجرحى الذين نجوا قبل أن يمروا فى شوارع المدينة فقد قصوا على رجال الملك أحداث ذلك اليوم. ووصل الملك مع قواته وقرر احتلال معسكر " فخر الدين " وتعزيز قواته بالارتكاز على منحدر الجديلة حيث كانت معدات الحرب التى تم الاستيلاء عليها من المسلمين فى ذلك الصباح عند بدء

العمليات. وهنا جاء القائد هامبرت دى بوجو ليبلغه ما كان من الكونت دارتوا شقيقه الأهوج الذى كان يرأس جميع القوات الأمامية المتجهة نحو المنصورة.

ووصل المماليك فى أفواج متتالية ممتلئين بنشوة النصر الذى حققوه على فرسان فرنسا، والذى كان الملك لا يزال يجهله حتى تلك اللحظة، وألقوا بأنفسهم بدون خوف على الخطوط الفرنسية. وكان واضحا أن الملك وجيشه مثل « قلب زهرة النسرين » وهنا أدرك لويس التاسع بأن فرسانه لم يكونوا مستعدين لمواجهة المماليك كما كان من الواضح أنه فى موقف سيئ وفى مواجهة عدو خفيف الحركة من الصعب ملاحقته. فأمر جميع مرافقيه وضباطه وجنوده بأن يلتفوا حوله ويواجهوا العدو. وبدأ يصلى بصوت عال كما كانت عادته ، مرددا أنه لا ينبغى أن يخشوا هذا العدد الكبير من الكفرة حيث إن سيدنا المسيح هو الأقوى والأقدر.

وهاجم الفرسان المسلمون منتصف الفيلق والبوكسان ، وكان يصاحبهم دق الطبول بصوت يصم الآذان ، وألقوا بكميات ضخمة من السهام من كل الأنواع حتى إنها حجبت السماء. وكان الرجال والخيول يقعون تحت وطأة ضربهم بالسهام، وكلما تنتهى سهام مجموعة كانت تنسحب إلى الخلف وتحل محلها مجموعة أخرى تلقى بسهام أكثر من الأولى، ثم تنسحب لتحل محلها مجموعة أخرى تلقى بسهام أكثر من سابقتها. وكان يمكن إبعاد الجنود المسلمين فقط بقاذفة ولكن الذين عبروا الممر كانوا لسوء الحظ قد ذهبوا إلى المنصورة، والمجموعة الأساسية كان عليها أن تكون آخر من يعبر المعبر ولم يكن من المنتظر وصولهم قبل حلول الليل.

وبيقائهم كذلك بدون حركة تحت الدروع، لم يكن أمام جنود الفرنجة سوى فقد الرجال والجياد. وهنا قرر الملك إعادة جميع الفرسان الذين التفوا حوله ومحاولة القيام بهجوم جماعى لإبعاد رماة الأعداء. أمر بالتقاط المهاميز والانقضاض على المهاجمين. واختلط الجميع. كان الضرب بالسيوف ولكن على الأقل كانوا فى مأمن من السهام. وكان المماليك يضعون الأقواس أسفل أذرعهم اليسرى ويمسكون بالخناجر والسيوف ثم يندفعون بدورهم نحو الفرنسيين. وقد واجه الملك هجوم العدو بالصمود وعدم

التراجع. فقد كان يعلم أن حياة رجاله تتوقف على يقظته . و قد كتب جوانفيل الذى كان يرافقه وموجودا بجانبه، فيما بعد:

" لم أر فى حياتى فارسا جميلا مثله، كان ظاهرا فوق الجميع، ويعلوهم، وكان يضع خوذته الذهبية على رأسه، والسيف الألمانى فى يده ".

وقد استمر التلاحم الدامى حتى بعد الظهر، وبالرغم من فصل الشتاء كانت الحرارة شديدة وغير محتملة. وطلب الملك من باروناته التجمع حوله للاستشارة. وكان رأى الجميع الانسحاب إلى المعسكر حتى يمكن التنسيق مع الجيش الاحتياطى الذى تبقى. فأمر الملك حامل راية سان دنى وحاملى أعلامه بالرجوع إلى النهر. وبناء على هذا الأمر دقت الأبواق بالأمر بتنظيم المناورة، وبدأ الجيش فى الانسحاب إلى قناة أشمون.

ولكن فض اشتباك جنود الفرنجة الذين كانوا ما يزالون فى المؤخرة مختلطين بالجنود المسلمين لم يكن أمرا سهلا. فطلب ألفونس دى بواتييه، شقيق الملك والكونت دى فلاندر الذى كان فى المقدمة وأصبح محاصرا فى المؤخرة من الملك ألا يتخلى عنهم وأن يبطئ تحركه. وطبقا للقصص التى سمعها من الفارين من المنصورة ذكر القائد همبرت دى بوجو للملك أن شقيقه مع بعض المرافقين محاصرون داخل أحد المنازل فى المدينة ويطلب نجدته. وأن هناك مخاطرة فى أنه من الممكن أن يستسلم تجاه هذا العدد والخوف يملأ روحه، ولكن الملك أدرك أنه لا يستطيع أن يفعل شيئا لنجدة شقيقه.

أما الجنود الذين كانوا قد وصلوا حتى النهر بعد تضييق المسلمين الخناق عليهم بالإضافة إلى جنود آخرين حاولوا المرور فقد ألقوا بأنفسهم فى الماء. وسحب التيار الجياد المرهقة والتى فقدت القوة على السباحة وغرق الرجال وامتلأ النهر بالسهام والنقود.

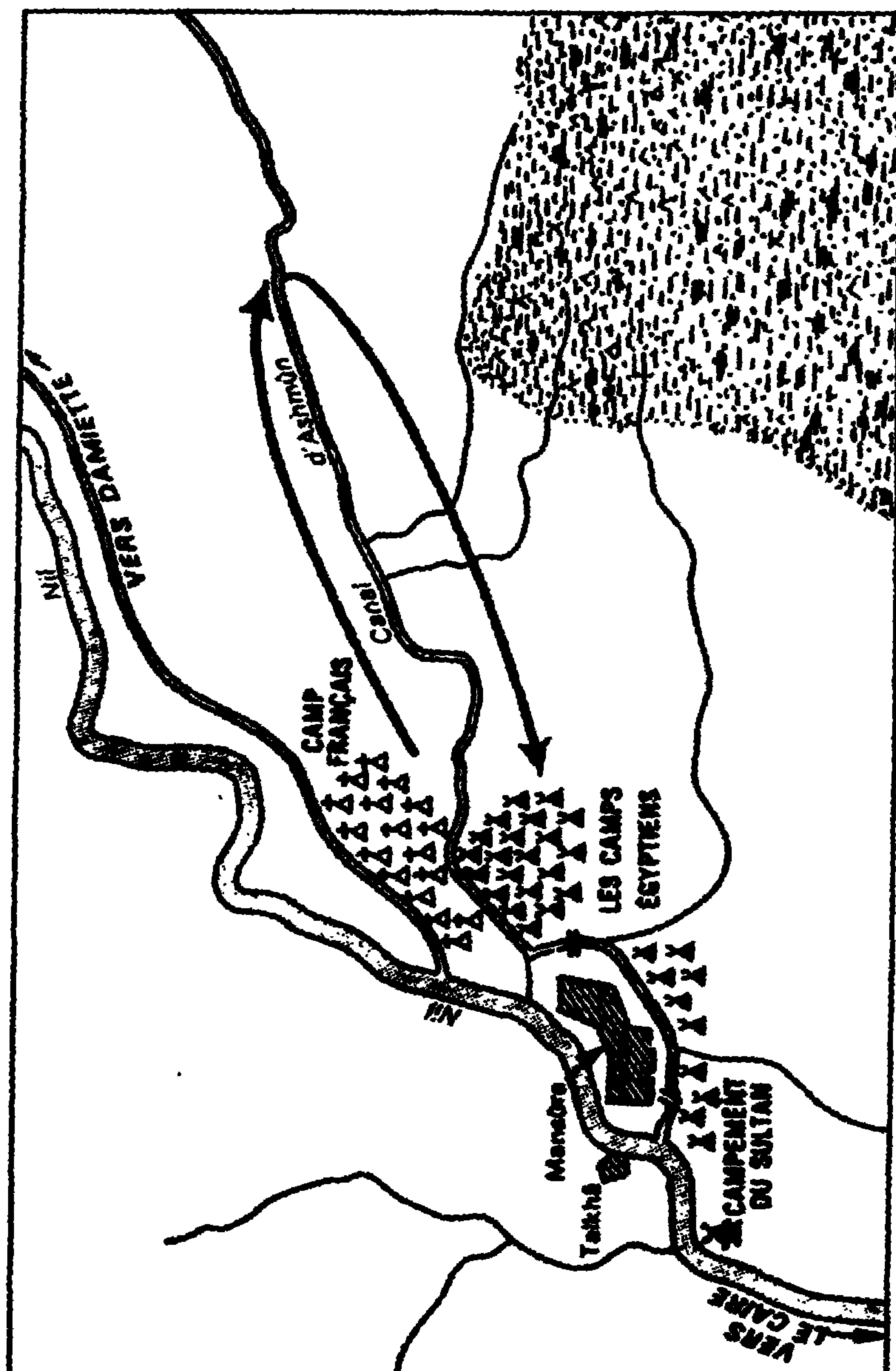
أما الجزء الآخر من الجيش الذى وجد فى المعسكر فى الجانب الآخر من النهر فقد كان عاجزا وهو يشاهد الكارثة التى وقعت للفرسان. ولم يعد الأمر محاولة عبور المعبر مترجلين فى مواجهة السهام والمسلمين المسلحين بالقذائف الموجودين على

الضفة الأخرى. وحاول القائد إقامة جسر على النهر بمساعدة الآلاف وطلب المساعدة. وهنا هرع الرجال المترجلون والأشخاص والمدنيون من غير الفرسان الذين كانوا يرافقون الجيش فى جمع قطع الخشب وأية معدات حربية ، وأقاموا ممرا أسفل المعبر ليتمكنوا من خلاله من المرور سريعا لمساعدة الملك، وفى المساء بقى قاذفو السهام فى المعسكر واستطاعوا أخيرا الاقتراب من مجال المعركة. وعندما رآهم الجنود المسلمون يتقدمون بالقرب من القذافين انسحبوا ناحية مدينة المنصورة. وتركوا معسكرهم القديم للملك. أما الفرنسيون المنهكون فقد عسكروا فى موقعهم تاركين معسكر القائد فخر الدين الذى مات فى صباح هذا اليوم نهبا للبدو .

وبالنسبة لجوانفيل فقد كانت معركة المنصورة التى بدأت بعدم التنظيم وجنون القوات الأمامية قد انتهت بنوع ما من النصر. ولم يكن هناك شك فى أن الملك لويس التاسع اعتبرها كذلك. أما جان دى رونيه نائب رئيس فرسان الإسبتارية، حين هنأ الملك بنجاته فى هذا اليوم قام أيضا بالمهمة الحزينة وأعلن للملك وفاة شقيقه روبر، قال : "أنا متأكد أنه الآن فى الجنة " وعندما رأى الملك يبكى لوفاة شقيقه أضاف:

" سيدى، استرح لأن مثل هذا الشرف لم يصب أى ملك آخر من ملوك فرنسا. فقد عبرت النهر سباحة وهزمت أعداءك وطاردتهم من ساحة المعركة واستوليت على معداتهم وخيامهم التى تنام فيها هذه الليلة أيضا ".

وفى واقع الأمر، إن النصر كان أساسه نجدة الجيش كله من كارثة تامة. حيث إن الجيش كان قد فقد دعائم قوته فقد تم القضاء على الفرسان، فرسان المعبد وفرسان الإسبتارية من الوجود منذ الصباح. والخيالة الذين بقوا مع الملك عانوا خسارة فادحة. وعلى وجه الخصوص الجياد التى تم قتلها أو إغراقها.


VERS DAMIETTE
Nil
Canal d'Ashmûn
CAMP FRANÇAIS
LES CAMPS ÉGYPTIENS
Nil
Mansûra
Talkhâ
CAMPEMENT DU SULTAN
VERS LE CAIRE

معركة المنصورة

(المملكة اللاتينية فى أورشليم القدس - CNRS- J. Prawer باريس ١٩٧٥)

وبصفة عامة ، لم يعد للفرسان الفرنسيين وجود ، وكانت النتيجة الواضحة لعمليات ذلك اليوم أن الحملة الفرنسية التى غادرت دمياط لغزو القاهرة أصبحت محطمة بالتأكيد. وأصبح من المستحيل استمرار الجيش فى الهدف الذى حدد له: وهو فتح الطريق إلى القاهرة وغزو مصر.

إلا إن لويس التاسع تجاهل هذه الحقيقة مما نتج عنه أن تحول نصر المنصورة إلى كمين مميت له ولجيشه.

وعلى الجانب الآخر فى معسكر المسلمين كانت هناك أسباب أخرى للإشادة بالنصر.

أولا، وفى مواجهة هذا الصراع الدموى ، فقد كان الجميع يعلم وكذلك الفرنسيون أن السلطان قد مات. ولكن فى البلاط وفى القاهرة وفى مصر كلها كانت اللعبة مستمرة. فلم يكن هناك أحد يناقش الأوامر التى توزعها " شجرة الدر " كل صباح باسم ديوان السلطان. وكانت الأوامر تحمل توقيع السلطان الفقيد. ورغم أنهم لم يكونوا بغافلين عن هذه الحقيقة إلا إنهم كانوا يطيعون الأوامر وهذا هو المهم. أما الجيش الذى حرم من سلطانه، ثم حرم من قائده العام فإنه لم ييأس أو يتشتت.

بعد مفاجأة الصباح، تم تنظيم المقاومة، وحمل شعب المنصورة الصغير سلاحه. وكانت كتيبة المماليك الذى أطلق عليها ابن واصل " فرسان المعبد المسلمين " قد هزمت الفرسان الفرنسيين وعاملت جيش الأعداء بعنف. وإذا كان " بيبرس " قد ظهر لأول مرة كقائد حربى بصورة غير معتادة ، فإن النجاح السياسى يرجع بدون شك إلى " شجرة الدر " التى أعدت ونظمت للنصر. وإذا كان الفرنسيون قد صدقوا أن موت

السلطان وإبعاد ابنه الوريث الشرعى للعرش سوف يفتح لهم الطريق للقاهرة، فإن معركة المنصورة لا بد أن تكون قد خيبت آمالهم بشدة .

وبالنسبة للمصريين، فإن معركة المنصورة كانت انتصارا مصيريا، فقد حددت نهاية الاعتداء الفرنسى وأيضا نهاية كابوس غزو الفرنجة.

وعندما قام الفرسان الفرنجة بمهاجمة المنصورة فى الفجر، كان الحمام الزاجل قد نقل الخبر إلى القاهرة. وتملك القاهريين الخوف ودعوا أن ينصر الله المسلمين. وفى المساء ظلت الأبواب مفتوحة لاستقبال فلول المهاجرين الهاربين من أرض المعركة. وفى اليوم التالى حمل الحمام الزاجل نبأ سحق المماليك للفرنجة وكذلك تأكيد موت " فخر الدين " فى المعركة.

وتم إعلان نبأ النصر على دقات الطبول فى الميدان الكبير للجامع الأزهر. وتصايح الجميع من شدة الفرحة ، وسرعان ما عمت أجواء العيد المدينة. ولم يصبح لموت الأمير " فخر الدين " أهمية فى خضم هذه الفرحة.فقد ثبت أن هناك أيدى قوية تمسك بمقاليد السلطة وأن الجيش الإسلامى وجد قادة بواسل. وكان من المؤكد أن " فخر الدين " كان من الممكن أن يستمر فى تقديم خدمات جليلة للدولة. ولكن الله كان قد قرر شيئا آخر. مات شجاعا إلا أن عبيده ومماليكه عندما علموا بموته ولم يعد هناك من يطيعونه، قاموا بسرقة منزله، وحطموا خزائنه ونهبوا ممتلكاته وجياده، وبعد السلب والنهب أشعلوا النيران فى منزله.

ولكن كما سبق وذكرنا فإنه فى خضم الفرحة العامة، لم يكن كل هذا إلا حدثا ليس له أهمية. فبالنسبة للمصريين حتى إذا لم يكن قد تم إبادة الجيش الفرنسى فعليا فإنه على الأقل قد فقد قدرته الهجومية.

أما دمياط التى كانت لا تزال محتلة فقد كانت بالطبع تمثل ورقة رابحة فى أيدى الفرنجة ، ولكن آمال الفرنجة انتقلت إلى المعسكر الآخر الذى بدأ يستعد للانتقام، فقد كان سلطان جديد، شاب، من البيت الأيوبى المجيد فى الطريق.

حصار الجيش الفرنسى

وفى الليلة نفسها تم استئناف المعركة التى استمرت حتى اليوم التالى أيضا. وعند بزوغ الفجر شوهد " بيبرس " على رأس فرسانه وهم يتقدمون حتى الصفوف الأولى من جيش الفرنجة، وكان يتفقد مواقع العدو ويصدر الأوامر لإتمام حصار جيش ملك فرنسا. ثم أرسل بيبرس ٣٠٠٠ من البدو لمناوشة معسكر الدوق دى بورجنى الذى بقى فى الجانب الآخر من القناة، وكان الهدف من ذلك هو أن يمنع الدوق من إرسال تعزيزات لملك فرنسا. أما البدو فقد وعدهم بيبرس بأن تصبح كل الغنائم التى يستطيعون الاستيلاء عليها ملكا خالصا لهم. وهكذا أبقوا المعسكر الفرنسى تحت ضغط مستمر، وكان شعورهم هو أن الفريسة أصبحت فى قبضة أيديهم.

وعندما انقشع الضباب وارتفعت الشمس فى السماء استئنف الهجوم على صوت الطبول. وكان الفرنسيون قد استعادوا فى الليل جزءا من قوتهم. وبعد تجميعهم فى خطوط قتالية كانوا فى انتظار المعركة. كان اليوم هو الجمعة، وبعد إطلاق البخور بدأ الجنود المسلمون فى قذف وابل من السهام والحجارة على الأعداء. ومن وجهة نظر المحاربين ممن كان لهم خبرة بالحرب فى البلاد الأجنبية فقد قالوا أنهم لم يروا أبدا مثل هذه الكميات الكثيفة من القذائف. وبعد هذه القذائف أغار المسلمون على المعسكر الفرنسى.

وقد قال جون سارازان، حاجب الملك، الذى كان بجواره " كانوا يرهقوننا بكل الطرق، ولمدة طويلة، وبطريقة مرعبة لا تطاق، واستمر قائلا إن من كان لهم خبرة بالقتال فى البلاد البعيدة قالوا إنهم لم يروا مثل هذه التحديات والقسوة ولا هذه الوحشية المفزعة فى أى بلاد أخرى، وكان من الواضح أن المسلمين لا يهابون الموت ويعتبرونه كأنه لا شىء. وإذا ما أحس أحدهم بالإرهاق يحل محله آخر. لم يكونوا

رجالا ولكن حيوانات متوحشة غاضبة. وكان جنودنا معرضين للسهام وهم فى خنادقهم. و كان الملك يصلى من أجلهم وكان يمتدحهم بطريقة تثير الإعجاب ، وقد كان وجه الملك يعبر عن خلو قلبه من الخوف والشك والقلق... ".

وقد خاطر شقيق الملك، تشارلز دانجو، بالموت أو الأسر فى ذلك اليوم، وأخذ جيشه الذى كان فى المقدمة الصدمة الأولى. فقد ماتت الجياد وحارب هو وفرسانه مترجلين تحت وابل من النيران الإغريقية. وقد ذهب لويس التاسع بنفسه لخلاص شقيقه بينما رقبة جواده تحترق من نار الأعداء.

وقد دافع بعض الإخوان من فرسان المعبد الذين لم يهلكوا فى المنصورة عن الآلات التى تم الاستيلاء عليها من الأعداء عند منحدر النهر. وكان جيوم دى سوناك قد انسحب من المنصورة بعد أن فقد إحدى عينيه ثم قتل هو وجميع أشقائه ؛ وقد ذكر جوانفيل أن السهام اخترقت جسده، حتى إنه من كثرة القتلى لم يكن فى استطاعتهم أن يروا الأرض من حولهم.

استمرت المعركة طول اليوم، الفرنسيون مترجلون، والمماليك على جيادهم.و فصل الليل بين المتحاربين. وبعد ذلك هدأ الجنود المسلمون، إلا من بعض المناوشات هنا وهناك. وقد اشترك جوانفيل فى المعركة وحارب بشجاعة وجرح، وعندما سئل عن الأعداء الذين هاجموه كتب عن هؤلاء " الرجال الغرباء "، الذين أخذوا إلى " أرض غريبة " لبيعهم فى مصر وإلحاقهم بقوات السلطان. ويقول كانوا كلهم شبابا ويطلق عليهم " بهاريز " وعندما تنبت ذقونهم يجعلهم السلطان فرسانا ويعطيهم سلاحا من ذهب يشبه سلاحه. و يطلقون على هؤلاء هولوكا وهو اسم أخذ من " كالك " (أى رجال السلطان). وكان جوانفيل يجهل معنى مصطلح "مملوك ". وهو يوضح ولاء هؤلاء الفرسان الهولوكا للسلطان الذى أحاطهم بنعمه ، ويقال كذلك إن السلطان كان يخشى أن يعزلوه. لذلك عندما يصبح هؤلاء ذوى نفوذ قوى فإن السلطان كان يحرص على تجريدهم من ثرواتهم، ثم يأمر بقتلهم أو سجنهم. ولكن جوانفيل لم يذكر " بيبرس " الذى لم يكونوا يعرفونه، وأيضا " شجرة الدر ". ومن الواضح أن الفرنسيين كانوا يجهلون من يحاربونهم. والمدهش أن جوانفيل كتب تاريخه بعد أربعين عاما من هذه

الأحداث، بعد أن أصبح " بيبرس " سلطان مصر وقام بتصفية معظم مؤسسات الفرنجة فى الأراضى المقدسة.

كان الفرنجة محاصرين فى معسكرهم! وقد حاولوا بقدر الإمكان التحصن بقوة. وسهر " بيبرس " على قطع طرق الإمدادات التى كانت تأتى من دمياط عن طريق النيل. ولهذا كان قد تم بناء السفن فى الإسكندرية ونقلت على ظهور الجمال إلى الفرع الميت من النيل قرب المحلة وأنزلت السفن للماء وعليها المقاتلون، وتم الاحتفاظ بها كاحتياطى لمواجهة سفن الفرنجة الآتية من دمياط. وفى الوقت نفسه تم إنزال الأسطول المسلم الموجود فى المنصورة إلى النهر لمواجهة فوج من السفن الفرنسية قادما من دمياط.

ونجح الكمين ولكن قرب المحلة وحوصرت القافلة بين أسطولين للأعداء، وهجمت فلول المقاتلين على القافلة ، كما تم أيضا اعتراض سبيل اثنتين وخمسين سفينة وعلى متنها ثلاثة آلاف رجل وكل المؤن المرسلة على وجه السرعة من دمياط. ويقص أحد المؤرخين المسلمين: " فى يوم الاثنين، وهو يوم الوقوف بعرفات (وهو يوم كريم بالنسبة للمسلمين) هاجمت السفن المسلمة سفن الفرنجة المملوءة بالمؤن. وحدثت المعركة بالقرب من مسجد النصر، وتم الاستيلاء على٣٢ مبنى بالإضافة إلى سبع سفن ". وكانت هذه الضربة قاسية بالنسبة للفرنسيين، وهكذا قطعت كل وسائل النجدة سواء من الرجال أو المؤن.

وعندما علم الملك بهذه الأنباء جمع باروناته حوله فى محاولة لمواساتهم وجعلهم يتلون صلاة لله الذى مكنهم من الاستيلاء على معسكر السلطان وقدر لهم الوقوف فى وجه هجوم مثل هذا العدو الشجاع، فى حين كان الفرنسيون مترجلين والجنود المسلمون على جيادهم.

وكانت هجمات الأعداء أقل كثافة وعددا ولم يعرف سبب ذلك وقيل إن السلطان الجديد قد وصل وإن البلاد تحتفل باستقباله. وأخيرا تمكن الفرنسيون من تنفس الصعداء وتضميد جروحهم.

أرعن وسفيه فى السلطة

كان " توران شاه " يبلغ من العمر خمسة وعشرين عاما حين بلغه من " آقطاى " ورفاقه القادمين من القاهرة نبأ وفاة والده السلطان " الصالح أيوب ". وكان يكره والده الذى نفاه فى كيفا. وكان " توران شاه " يعيش عاطلا وفى فراغ.

وبناء على تعليمات " شجرة الدر " فقد حثت " آقطاى " على السفر بسرعة إلى مصر حيث الوضع خطير، وحيث يتوجه إليها جيش فرنسى قادما من دمياط بغرض معلن وهو غزو القاهرة. وغياب وريث للعرش يمكن أن يشعل الطمع فى العرش فى الداخل وحتى فى البيت الأيوبى.

أسرع " توران شاه " على رأس خمسين فارسا من أتباعه متجها إلى دمشق، وكان ذلك فى شهر رمضان. فقد كان يريد أن يعلم كل الأسرة الأيوبية فى الشام بحقوقه قبل أن يذهب إلى القاهرة. كما كان يعلم أن عددا كبيرا من الأعداء يراقبونه فى الطريق، سواء لقتله أو سرقته، فتجنب الأماكن المأهولة، مفضلا الصحراء مع المخاطرة بالموت عطشا. إلا أن " آقطاى " لم يتركه. وفى دمشق، استقبله حاكم المدينة بحفاوة، وقدمه للأمراء الذين أعدوا حفلا للإعلان عن ولائهم له وإعلانه سلطانا على مصر والشام.

وكان" توران شاه " مبذرا مجنونا، فوزع على الأمراء كل الذهب الذى وجده فى قلعة دمشق، والذى كان يزيد على ٣٠٠٠٠٠ دينار. وكان يعتقد أن هذا غير كاف فأرسل يبحث عن الذهب الموجود فى قلعة كراك فى الأردن، وكان ينفق وبدون حساب. كما أطلق سراح الذين كانوا فى السجون بأمر من والده، وكانت هذه وسيلته لبلوغ السلطة. كما قام بتثبيت وضع حاكم دمشق فى وظيفته وأغدق عليه هدايا قيمة. أما رئيس القضاة، الذى كان مفضلا لديه، وهو مسيحى من الشام فقد وعده بمنصب

وزارى فى القاهرة إذا أشهر إسلامه وقد قبل القاضى ذلك بدون تردد. فاستنكر دينه وتلا آيات القرآن وأعلن اعتناقه الإسلام أمام السلطان. فقام السلطان بتعينه وزيرا للخزانة فى كراك فى الأردن.

استأنف " توران شاه " طريقه إلى القاهرة. وكان " آقطاى " يستعجله ويؤكد على خطورة الوضع الذى توجد فيه البلاد. وفى غزة بالقرب من الحدود المصرية حضر وفد رسمى من القاهرة على رأسه كبير القضاة فى البلاد لتهنئته بسلامة الوصول. وأبلغ السلطان بنبأ هزيمة الفرنجة فى المنصورة. وأخيرا وفى ٢٨ فبراير ١٢٥٠ وصل " توران شاه " إلى القاهرة وأخذ مكانه فى قصر والده فى جزيرة الروضة.

أعلن نبأ وفاة السلطان " الصالح أيوب " رسميا. وأخيرا سلمت " شجرة الدر " السلطة للوريث الشرعى للعرش، العرش الذى نجحت فى إنقاذه والإبقاء عليه.

ولكن حتى يتخلص السلطان الشاب بسرعة من وصاية زوجة أبيه، بالرغم من التوصية المكتوبة من والده وجدارة " شجرة الدر " الفائقة، إلا أنه كان يريد أن يمارس سلطاته فورا. فبعد بضعة أيام من الاحتفالات الرسمية فى القاهرة قرر أن يذهب إلى المنصورة حيث يوجد الجيش. وكانت تدور معارك شرسة مستمرة هناك ضد جيش الفرنجة المحاصر، الذى كان يقاوم بشجاعة وفاعلية.

استقبل " توران شاه " فى قصر والده واستقر فيه بعظمة مع حاشيته من الشباب الذين رافقوه خلال فترة نفيه فى كيفا، ثم قاموا بمرافقته إلى القاهرة. وكان أول عمل له هو الاستيلاء على ممتلكات " فخر الدين " وكذلك مماليكه بدون مقابل. و هكذا حرم عائلة الأمير من قيمة ما سلبه وهو مبلغ يساوى ١٥٠٠ دينار ذهبًا. وكان رد فعل ما قام به توران شاه هو إحساس عميق بالظلم تجاه ذكرى خادم كبير للدولة، مات بشجاعة فى المعركة. ولعن " توران شاه " ذكرى فخر الدين علنا، دون أن يأخذ فى الاعتبار أنه كان قائدا للجيش وما زال له العديد من الأصدقاء. وردد أمام مستشاريه أن " فخر الدين " كان يحكم كأنه السلطان . حرر تجارة السكر والمنسوجات مع الشام. وكان يوزع الأموال كما يحلو له. وفتح أبواب السجون. فماذا ترك لى لأفعله؟. وقد نسى ببساطة جيش الأعداء الذى كان ما زال فى مواجهة المنصورة. ثم بدأ يقرب إليه

بالتدريج كل من خدمه فى كيفا على حساب من كان فى خدمة والده ، وحتى من أكدوا إخلاصهم للبلاد فى غياب والده. وعين فى أكبر المناصب أحد عبيده السود من الحبشة وكان هذا العبد لا يملك أى كفاءة للوظيفة المختارة فقد كان أميا. فطلب منه أن يتقلد عصا غليظة من الذهب كرمز لسلطاته وطلب من كل البلاط أن يطيعه وأمضى ليله ونهاره فى احتفالات بين أعوانه ومع العاهرات، متجاهلا أمور الدولة والمعارك الدائرة كل يوم على أبواب المدينة. وحل فصل الربيع.

وبدأ الأمل المعقود على الشباب فى صورة السلطان الشاب يتضاءل فى سرعة تبدد الضباب تحت شمس مصر الحارة .

لم يعد الله يشاء هذه المهمة

" جميع المسيحيين، مهما كانوا، يجب أن يشعروا في قلوبهم بأسى وغم كبير مما سيحدث فيما بعد. يجب أن نقص بأسى ودموع ورعشة شديدة على كل من يحب بقلبه شرف امتداد العقيدة المسيحية، ما حدث للملك والجيش الذى كان موجوداً فى المنصورة والذى هزم بقوة المسلمين فى المعركة النهرية، وكل ما حدث منذ ذلك الوقت، مضاد ومخالف لرغباتهم.. ".

هذا ما قاله حاجب ملك فرنسا جون سارا زان.

تم إلقاء أجساد كل من قتل خلال معركة المنصورة فى النهر. وبعد عدة أيام طفت الجثث المنتفخة على سطح الماء، ووصلت إلى الحد الذى أصبحت تفصل فيه بين جزئى الجيش الفرنسى. وكان النهر مليئا بالجثث من الضفة إلى الأخرى مما استحال معه المرور فوق الجسر. لذلك استأجر الملك مائة حفار قبور وطلب منهم حفر حفرة كبيرة. وكان يجب بعد ذلك سحب الجثث واحدة تلو الأخرى لدفنها. كان منظرا أليما: وكان الفرسان والجنود يحاولون التعرف على أصدقائهم ورفقائهم من بين الجثث المتعفنة والتى التهمت الأسماك جزءا منها، ولكن نادرا ما كان ينجح أحد فى التعرف على أحد.

ولأن الوقت كان وقت الصوم الكبير فقد كان أكل اللحوم محرما وكان الطعام الذى يقدم هو الأسماك التى يتم صيدها من النهر هذه الأسماك الشرهة التى كانت تتغذى على الموتى. وكان من الواضح أن هذا الغذاء غير الصحى هو السبب فى المرض الذى انتشر بين الجيش. فأصبحت جلودهم سوداء بلون الأرض وجف لحم أرجلهم بالكامل وتعفنت لثتهم. وفى أخر مرحلة للمرض كان الدم يبدأ فى السيل مما ينذر باقتراب الموت. وكانت المؤن الآتية من دمياط قد قطعت: فسفن النجدة تم اعتراض سبيلها والسطو عليها وقتل من فيها. وفى عيد الفصح ارتفعت أسعار السلع الموجودة

فى المتاجر. وأصبح سعر البقرة ٨٠ جنيها والخروف ٣٠ جنيها وقارورة النبيذ ١٠ جنيهات. كان الوقت فى أبريل وقد مر شهران على عبور المعبر وغزو معسكر " فخر الدين " وكارثة المنصورة. وزادت الرياح المحملة بالأتربة من وطأة المرض. وارتفعت الحرارة ثم هبت فجأة سحابة من الرمال قادمة من الصحراء وحلت على المزارع. وأصبح من الصعب التنفس حيث غطت الرمال كل شيء ، وفى العاصفة كانت الرؤية لا تتعدى الأمتار. وبالرغم من المجاعة لم يكن فى استطاعة أحد مغادرة المعسكر خوفا من القتل أو الأسر. وازدادت المجاعة، فتم ذبح الجياد وأكلها ثم الحمير ثم البغال. وأصبحت الكلاب والقطط وجبة مختارة. وأصاب الإحباط كل الشجعان، ولم يعد أحد يرغب فى بذل أى مجهود للحفاظ على المنحدر الذى يحميهم. ولم يعد هناك أموال فى خزينة الملك لدفع مرتبات الجنود، وطلب النجدة من دمياط ظل بدون إجابة. وكل يوم يتتابع السطو والمناوشات الصغيرة والكبيرة.

المشكلة الكبيرة التى كانت تشغل الملك هى أعداد الصليبيين الذين كانوا يهربون ويذهبون للجنود المسلمين حفاظا على حياتهم. أما الآخرون، وعددهم أكبر، فلم يخشوا أن يقولوا بأصوات مرتفعة أن هذه المهمة لم تعد تهمهم لأنه من الواضح أن الله لا يرغب فيها. وكانوا يتساءلون عن الغرض الإلهى تجاه غير المؤمنين. وكان سؤالهم لماذا لا يريد الله النصر للصليبيين وكيف وافق على ضياع أورشليم القدس. وكان رجال الدين يردون بالابتهال إلى القديس برنارد. فقد كان الله يعاقب الصليبيين على خطاياهم. فالحملة الصليبية كانت لها قوة منقذة بصرف النظر عن نتائجها. فالعدالة الإلهية تبررها. إلا إن هذا التفكير كان بعيدا عن المفهوم وتقبل الأشخاص الذين درجوا على الاعتقاد فى " حكمة الإله ". فلعدة قرون كان الاعتقاد أن الله دائما ينصر الحق. والذى يفوز والسلاح فى يده كان من المؤكد أن الله أراد ذلك. فإذا كان الجنود المسلمون قد انتصروا فى ذلك اليوم فهذا لأن الله اعتبر أن الحملة على مصر لم تكن مستحسنة وأن المسيحيين ارتكبوا خطأ وإنما بعدم تحرير أورشليم القدس، كما اقترح السلطان. ولكل هذه الأسباب ، فإذا كان من المستطاع مغادرة هذا المكان فيجب العودة إلى بلادهم وعدم المكوث فى هذه الأرض ، كما سرد جوانفيل كلمات امرأة من الشعب قالتها للويس التاسع، قالت له:

" ليس لديك سوى الإخوة الصغار والإخوة الوعاظ "

أخذ الملك بالنصيحة، وبدأ فى سحب الجيش لضم الصفوف وتوحيد مقاتلى دوق برجنديا. ولكنه لم ينجح فى ذلك بدون ألم أو خسارة. حيث إن الجسر الصغير كان لا يكفى. وكان الجنود المسلمون يحاربون ويستولون على كل من يحاول المقاومة فى الخلف لحماية المرور.

وفى النهاية كان الحل هو التفكير فى التفاوض على عقد معاهدة. فأرسل الملك فيليب دى مونتفور كرسول للسلطان الجديد. ولكنه لم يقابله، ولم يستطع الرسول سوى مقابلة الأمير " زين الدين "، حامل سيف السلطان وكذلك القاضى ".بدر الدين سنجارى ". واقترح الفرنسيون ما كانوا قد رفضوه منذ عدة أشهر وهو إعادة دمياط والحصول مقابلها على أورشليم القدس وجزء صغير من شاطئ فلسطين، الساحل. لم يتلق الرسول سوى إجابات تسويفية: سيتم عرض هذا الاقتراح على السلطان الذى سيدرسه وسيرد عليه فى الموعد المناسب.

وفى هذه الأثناء كان المرض قد بدأ ينتشر فى الجيش. وكان يطلب من الحلاق قص اللحم الحى فى اللثة حتى يمكن ابتلاع الطعام. مما كان يسبب ألما شديدا لم يتحمله حتى الشجعان "الذين كانوا يوصفون بأنهم مثل الأطفال وهنا قرر الملك تنظيم الانسحاب إلى دمياط.

بدأ التحرك فى مساء يوم الثلاثاء، عند بداية الليل، وبعد اليوم الثامن من عيد الفصح. وأمر البحارة بأخذ الجرحى والمرضى على متن السفن. وكان على المهندسين تدمير الكبارى التى تسمح للجنود المسلمين بمتابعتهم بسهولة. أما الملك فسوف يذهب هو ورجاله برا إلى دمياط. فقد رفض بشدة كل الاقتراحات التى عرضت عليه بالهروب بجواد سريع إلى دمياط. وهكذا فمن بين الاثنين والثلاثين فرقة التى يتكون منها الجيش والتى غادرت دمياط بفخر لم يتبق غير ما يكفى لتكوين ست فرق ولكن فى أية حالة؟. منهكين ومرضى. وكان الجنود يستطيعون بالكاد الدفاع عن أنفسهم. أما المهندسون الذين كان عليهم حمل ثقيل فقد نسوا قطع الجسر على كوبرى أشمون. وبذلك استطاع الجنود المسلمون أن يندفعوا وراء الغنائم عند أول حركة خارج

المعسكر. كانوا يصيحون، ويدقون الطبول والأبواق. وكان الصوت مرعبا. وحوصر الفرنسيون فى الخلاء من كل جانب من الفرسان الذين كانوا يمطرونهم بوابل من السهام. ولم يستطيعوا الصمود طويلا أمام هذا السيل من الجنود المسلمين الذين يلقون بأنفسهم عليهم. وبدأ المماليك فى قتلهم وتقطيعهم حتى أصبحت الأرض مغطاة بالقتلى من الرجال وبالدماء التى تسيل فى كل مكان.

أما المماليك البحرية التى كان يرأسها " بيبرس " فكانت الأفظع وكانوا لا يتعبون أو يكلون.

تم اعتراض وسلب السفن المسيحية. المرضى والجرحى تم قتلهم، والأسياد الأغنياء تم أسرهم. مياه النيل أصبحت حمراء من دماء الفرنسيين.

كان الملك فى المؤخرة. وقد وقع مريضا وكان قد أصيب بالتهاب فى العظام إلى جانب معاناته من الدوسنتريا وبالكاد يستطيع ملاحقة رجاله. وفى المساء أغمى عليه عدة مرات، وكان الطاهى الخاص به، إيزنبار، يسنده كما كان يجب قطع سرواله فى كل مرة يحتاج الذهاب لقضاء حاجته. وكان يمتطى جوادا صغيرا ولم يبق حوله غير جوفرى دى سيرجين، وهو تابعه الذى كان يحميه كل مرة من الجنود المسلمين كلما اقتربوا منه. وقال لويس التاسع فيما بعد إنه هو الذى كان يحميه مثلما يحمى الخادم تسريحة شعر سيده من الذباب. وأخيرا وصلوا إلى منطقة صغيرة مرتفعة تسمى " تل الموانية " حيث كان يوجد بيت صغير. وتوقفوا عنده وتركوا الملك المرهق، بلونه الشاحب كالموتى لينام فى حضن إحدى البرجوازيات الباريسيات. وكان الكثيرون يشكون فى أنه سوف يعيش حتى الصباح. وفى هذا الوقت وصل فيليب دى مونتفور الذى قال للملك إنه استطاع مقابلة الأمير " زين الدين " وحاول التفاوض معه لعقد معاهدة. وإنه من الممكن أن يستطيع مقابلته مرة أخرى ويستأنف المفاوضات. فأمره الملك أن يعود إليه. وعندما رآه الأمير رفع قبعته وقدم له خاتمه كعلامة الموافقة على عقد المعاهدة.

وفى هذه اللحظة صاح أحد الجنود ويسمى مارسيل فى الفرسان:

" أيها السادة الفرسان، استسلموا، إن الملك هو الذى يطلب منكم ذلك، لا تتسببوا فى قتل الملك "

وهنا ظن الجميع أن الملك يريد منهم وقف القتال، فسلموا سيوفهم للجنود المسلمين واستسلموا. وأصبحت أى مقاومة غير مجدية. وعندما رأى الأمير ذلك قال لفيليب دى مونتفور إن المعاهدة لم يعد لها أهمية، وأن جميع الجنود الفرنجة قد استسلموا.

استسلم الملك " لجلال الدين صالحى " وتم وضع القيود فى يديه وحبسه فى المنصورة فى منزل القاضى " فخر الدين إبراهيم بن لقمان ". وكذلك تم أسر أشقائه والعظماء النبلاء الذين كانوا يرافقونه. ووقعت الرايات والأعلام المقدسة وختم الملك فى أيدى المسلمين.

انتهت حملة لويس التاسع، ملك فرنسا، فى طمى دلتا النيل بكارثة تامة. وكان المسئول عن ذلك قواد الحملة والملك القائد المسئول الذى اتخذ شعار الصليب بالرغم من كل المعارضين حوله. ودفن كل البارونات وخيرة الفرسان الفرنسيين دفنوا فى مصر أمام أعين كل الأمراء المسيحيين. وعلى الجانب الآخر، فقد كان الأسلوب الذى أديرت به الحملة وسياستها يستهدفان احتلال مصر أكثر منه استعادة أورشليم القدس. فإذا كان الهدف فقط استعادة المدينة المقدسة كما شرح جان دى بريان فقد كان يكفى الاستيلاء على دمياط. فقد كانت معجزة حقيقية أن يتم ذلك بدون إسالة نقطة دم وبدون مجهود. وكان من السهل التفاوض مع السلطان الضعيف المريض والمهتم بتأكيد إرثه أكثر من الاحتفاظ بأورشليم القدس المدينة المفتوحة غير المحصنة.

ومن نشوة المعجزة التى كانت فى صالح لويس التاسع، رأى أنه أصبح سيد مصر التى يجهل عنها كل شىء. وكان يفكر فى الذهاب إلى بابليون(القاهرة) التى يجب أن تكون فى طريقه. وبذلك ارتكب أول أخطائه التى كانت أكبر من الخطأ الذى ارتكبه الكاردينال بيلاج وكذلك جان دى بريان الذى رواها له شخصيا مع توابعها المهلكة. وكان خطؤه الثانى أنه لم يدرك فى اليوم التالى لمعركة المنصورة ضرورة أن يراجع هدفه من الحملة. فرغم أن جيشه كان قد أصيب بخسائر فادحة إلا إن روحه القتالية

لم تكن قد هزمت بعد. فقد كان فى إمكانه الاستمرار فى القتال.وأثبت ذلك فعلا. ولكن إجباره على المكوث فى معسكر محاصر لمدة شهرين بدون مؤن فى حين إن العدو حوله يحصل يوميا على تعزيزات ومؤن من كل البلاد المعبأة ضد الكفار، كان أكثر من خطأ. فالمكوث فى وسط مثلث من المياه، هدفاً لكل الضربات بدون حتى التفاوض اعتقادا بأنه من الممكن التقدم للأمام، كان وهما كبيرا.

أما التفاوض لاستبدال أورشليم القدس بدمياط رغم أنه كان من الواضح أن جيشه على وشك أن يفقد قوته.، فإن المصريين كانوا يعلمون جيدا حالة يأس عدوهم وذلك عن طريق الهاربين الجياع الذين ينضمون لصفوفهم. فإن طلب الملك من المسلمين رد أورشليم القدس، وهى المدينة المقدسة بالنسبة لهم مثلما هى بالنسبة للفرنجة، بالإضافة إلى المدن الواقعة على الساحل الفلسطينى فذلك أيضا كان وهما كاملا.

ومع من التفاوض؟ الفرنسيون كانوا يعلمون أن السلطان قد مات ، وكانوا يعلمون أن ابنه قد وصل لتوه ولم يثبت أقدامه بعد فى السلطة. ولم يخطر على بال لويس التاسع أنه عليه التفاوض مع امرأة " شجرة الدر " الملكة الحقيقية للبلاد.

لم يكن أمام الملك وهو مريض وسجين سوى شراء حريته وحرية رفقائه الأغنياء. وهذه المفاوضات الأخيرة كانت تجرى فى بلد ضحية لانقلابات سوف تصبح علامة لقرون عديدة قادمة.

لم نعد بين فرسان

لا يمكن إلا أن تصيبنا الدهشة إذا قارنا الاختلاف الرئيسى بين مبدأ استسلام جان دى بريان منذ ثلاثين عاما مضت وبين استسلام لويس التاسع ملك فرنسا.

بادئ ذى بدء لا يمكننا مقارنة الملك الصغير لبضعة مقاطعات تجارية على الساحل السورى والذى فقد عاصمة بلاده أورشليم القدس وبين ملك فرنسا القوى. حتى إذا كان المسلمون فى هذا العصر يعرفون عن فرنسا أقل مما كان يعرفه الفرنسيون عن مصر، إلا إنهم مع ذلك كانوا يعلمون جيدا أن لويس التاسع يمثل بلدا قويا يستطيع إرسال أسطول كامل وعشرات الآلف من المحاربين فى فترة ثلاثين يوما. وبالرغم من ذلك كان السلطان " توران شاه " بالرغم من صغر سنه وحماقته فى الغالب موجها من " شجرة الدر " ومستشاريها، لم يتنازل لاستقبال أو زيارة سجينه الشهير. وهذا ضد كل الأعراف والتقاليد. وذلك بعكس السلطان " الكامل " الذى أصر على أن تتم المفاوضات على أعلى مستوى، أى بين الملوك، وقبل استضافة جان دى بريان فى مقره، واستقبله وعامله كعاهل، الند للند.

وبعد أن انتهى الاتفاق مع لويس التاسع، الملك الأسير المريض، كان من الواضح أنه سوف يتم الاعتناء به وسيشفى بسرعة. وفعلا تولاه طبيب السلطان لأنه يمثل رهينة هامة فى المفاوضات القادمة. ولكن لم يناسبه أى علاج معروف، فتم فصله عن الأسرى الآخرين ووضعه فى المكان الملائم.

احتجز الملك فى منزل صغير فى محيط المدينة وليس بعيدا عن النيل، ووضع فى حجرة صغيرة فى الدور الأول من المنزل تطل على الشارع، وبها نافذة ضيقة تمكنه من رؤية ما يجرى فى الخارج بينما الباب يطل على الفناء الداخلى للمنزل. وكان الحراس فى الدور الأرضى، وأصحاب المنزل فى الجانب الآخر من الفناء.

لم يكن الملك يستطيع الشكوى من أى مضايقات. وبالنسبة للمفروشات كان هناك صندوق عليه سرير من الخشب ، إنه بسيط ولكنه ليس زنزانة أو سجناً حقيقياً ، ولكن المعاملة الخاصة انتهت عند هذا الحد لأن باقى السجناء يعرفون السجن الحقيقى والزنزانات والقيود الحديدية والرعب من الموت الرابض فوق رءوسهم.

لماذا إذن هذه التفرقة بين عادات الفرسان، وعادات الأيوبيين فى التفاوض مع " رجال من المستوى نفسه "؟ واقع الأمر أن هذه بالضبط كانت التقاليد التى تبرأ منها حكام مصر الجدد بعد أن اتخذوا العظة من السياسة الأيوبية التى انتهجها "صلاح الدين" والسلطان " الصالح " فى البحث بصبر وبدون ملل عن تفاهم مع الفرنجة. لم يكن "صلاح الدين " يريد غزو أو تصفية حصون الفرنجة على الساحل اللبنانى- السورى، بل كان يفكر فى عقد اتفاقية وحدة تجارية مع الفرنجة فيما وراء البحار. والنتيجة أن أصبحت هذه الأسواق نقطة انطلاق لغزوات جديدة عسكرية موجهة ضد الإسلام. كما إن السلطان " الكامل " رفض أن يقتل جيش الفرنجة وكان فى مقدوره أن يفعل ذلك. وفضل أن يتركهم يرحلون بدون أذى بل وزاد على ذلك تحرير الأسرى الفرنجة فى مصر والشام.

كما إن مفاوضاته مع الإمبراطور فردريك الثانى الذى كان واقعا تحت ضغوط بابوية قاسية، وكذا موافقته على تسليم المدينة المقدسة أورشليم القدس بدون معركة، كل ذلك قد أدى فى النهاية إلى زعزعة دعائم العرش الأيوبى.

فماذا كانت نتيجة كل ذلك؟ رؤية ملك فرنسا لويس التاسع يرسو على رأس جيش ضخم بغرض معلن وهو غزو مصر. إذن بماذا أفادت التنازلات التى قدمها صلاح الدين والكامل؟ لا شيء، وكان الشعور السائد فى القاهرة أن هذه المرة يجب وضع النهاية، فلن يتحول الموقف إلى مسألة متاجرة ومناقشات بين فرسان على الطريقة الأيوبية. فملك فرنسا لن يستطيع حتى رؤية من هزمه. ولن يعرف اسمه. بل ولن يعرف حتى لمن يتوجه ومع من يمكنه التخاطب. ملك فرنسا لا يتفاوض على قدم المساواة مع الذى هزمه. يجب عليه أن يدفع ثمنا غاليا للهزيمة وأن يشعر بالامتنان للإبقاء على حياته وحياة باروناته ورجاله.

وفيما بعد كان يتعين عليه أن يشرح ما حدث وكيف أنه بالرغم من صموده وتعلقه بالكنيسة وتعاليمها وبالرغم من وجود مقدسات الصليب الأصلى بين قواته وبالرغم من كل ذلك لماذا تخلى الله عنه؟

فالكفاح الضارى الذى بدأ فى المنصورة واستمر حتى تصفية كل أملاك الفرنجة فى الشرق الأوسط ترجم الشعور العام للمسلمين بأنه لم يعد من الممكن ترك دولة على ساحل البحر الأبيض المتوسط تختلف جذريا عنهم. فالرفض لم يكن موجها إلى دولة مجاورة حاول الأيوبيون تأسيس علاقات جيرة جيدة معها، ولكن الرفض كان لجسم غريب ويصر على أن يبقى كذلك، ولهذا وجب رفضه إلى الأبد.

اغتيال السلطان

كان السلطان الجديد " توران شاه " مثل الأطفال ينسب لنفسه شرف الانتصار على الفرنجة ، ولتثبيت هذه الحقيقة خصص أحد خدمه لحراسة ملك فرنسا. وكتب رسالة خطية لمحافظ دمشق لإبلاغه باستسلام الفرنجة وأرسل له المعطف الفرو للملك. ووضع في سياسته تغيير كل الأمراء الذين كانوا على رأس الإدارة في البلاد. فعزل الأمير " حسام الدين أبو على " حاكم القاهرة ، وعين بدلا منه أحد المقربين له. مما يعنى أن الأمير الذى خدم " شجرة الدر " بأمانة عندما توفى السلطان "الصالح"، وذهب إلى معسكر الجيش فى المنصورة، أهين بشدة فثار ضد هذا الغبن وسانده رفاقه. وبدءوا فى انتقاد السلطان ومستشاريه الجدد.

وأخيرا ارتكب السلطان " توران شاه " المنهمك دائما فى ملذاته والذى كان بعيدا عن أعمال الدولة الخطأ الذى ضيعه ، فقد هاجم مباشرة " شجرة الدر " فكتب لها يطلب حسابات إدارة أمواله منذ وفاة والده مطالبا بإعادة النقود والمجوهرات التى تركها السلطان المتوفى، متناسيا الحرب والتضحيات التى قدمتها للحفاظ على عرشه.

ذهلت " شجرة الدر " من نكران الجميل الذى أظهره توران شاه واستدعت المماليك البحرية لتذكرهم بما فعلته لخدمة الدولة، وأن السلطان يطلب منها الآن تقديم حسابات بالمبالغ التى أنفقتها لضمان العرش الأيوبى، وأحس المماليك بالسخط عليه خاصة قائدهم " أقطاى " الذى وعده السلطان بمنحه لقب أمير كاعتراف بخدمته ومكافأة له على مهمته فى كيفا، وقال إن السلطان لم يف بما وعده به وأنه من الواضح أن " توران شاه " لا يحب مماليك والده بالرغم من دورهم الحاسم فى هزيمة الفرنجة.

لم يكن " توران شاه " يخفى شعوره. ففى أثناء جلساته مع رفاقه وهم يحتسون الخمر وكان يخرج سيفه ويقطع الشموع الطويلة التى تنير خيمته وهو يصيح: " هذا ما سأفعله بالمماليك البحرية " ويطلق أسماءهم الواحد تلو الآخر وهو يقطع الشموع. ولم تكن الرسالة بحاجة إلى إيضاح بل كانت مفهومة تماما.

قرر المماليك سبق الأحداث. السلطان كان فى فارسكور، فى منتصف الطريق بين المنصورة ودمياط وكان يتمنى أن تجرى المفاوضات قريبا مع ملك فرنسا لتسليم المدينة. وكان قد بنى سرادقا من الخشب قرب النهر حيث نصب خيمته، وكان يدعو كل ليلة المقربين له للشراب والعشاء. وبأوامر من " توران شاه " تم نقل الأسرى النبلاء بما فيهم الملك على متن سفينة رست فى فارسكور بجانب سرادق السلطان. وكان يفكر فى استخدام هؤلاء الأسرى لمفاوضة من تبقى فى دمياط لاسترداد المدينة. وعندما جاء الليل تم إنزالهم وحبسهم فى بهو سرادق السلطان بجوار بهو الطعام، كان تاريخ هذا اليوم هو السادس عشر من محرم ، وبعد العشاء تقدم بيبرس قائد نصر المنصورة للسلطان بحجة واهية. ثم دخل إلى الخيمة وسحب سيفه وضرب السلطان به. وبحركة غير إرادية تراجع السلطان فأصاب السيف يده التى سال منها الدم بغزارة. وصاح طلبا للنجدة وحاول الهرب مع ثلاثة من رجال الدين الذين كانوا يتناولون العشاء معه وأغلق عليه سرادقه. إلا أن المماليك الذين تجمَعوا فى الخارج هاجموا الخيمة وصاحوا بأنهم سوف يشعلون النار فى السرادق إذا لم ينزل. ورد السلطان بأنه لن يفعل إلا إذا ضمنوا له الإبقاء على حياته. فرفضوا وألقوا بنيران إغريقية على البرج المكون من أفرع الشجر ومغطى بأقمشة من القطن. فاشتعلت النيران بسرعة وأسرع السلطان بالنزول متوجها ناحية النيل. وكان المماليك فى انتظاره فضربوه بسيوفهم وعندما وصل إلى النهر بصعوبة بجانب سفينة الأسرى الفرنسيين صاح:

" لا أريد المملكة. اتركونى أعود إلى كيفا. أيها المسلمون ألا يوجد رجل بينكم ليساعدنى؟ ".

لم يعره الجنود المتجمعون على ضفة النهر أى اهتمام، فاضطر السلطان الجريح إلى إلقاء نفسه فى النهر وتبعه " أقطاى " وشقه بسيفه وأخرج قلبه، واستدار نحو البهو الموجود به ملك فرنسا ورفاقه الشهود على المنظر، وقال للملك

" لقد قتلت عدوك الذى كان سيقتلك حتما لو أنه بقى حيا ".

وبذلك مات آخر الأيوبيين من نسل الناصر صلاح الدين " جريحا ومحترقا وغريقا ".

ظل جثمان السلطان على شط النيل لمدة ثلاثة أيام دون أن يجرؤ أحد على الاقتراب منه. وأخيرا رحمه ممثل خليفة بغداد فى مصر وأقام له جنازة محترمة. حكم " توران شاه " لمدة ٧١ يوما. وشاء القدر أن من يقوم باغتياله هم الذين كلفهم والده " الصالح أيوب " بقتل أخيه ومنافسه " العادل الثانى " الذى حبسه فى سجن بالقاهرة. وكان من ضمنهم " أقطاى " و" بيبرس ". وانطفأ العصر الأيوبى فى مصر بعد ٨١ عاما و ٨ سلاطين. وبدأ عهد جديد فى البلاد.

شجرة الدر ، سلطانة مصر

ملكة المسلمين[(١)]

فى الليلة نفسها سافر " أقطاى " و" بيبرس " إلى القاهرة بعد أن أمرا بوضع السجناء الفرنسيين تحت حراسة مشددة فى فارسكور. كان يجب على المماليك التشاور بعد هذه الأحداث، وتم استدعاء الأمراء إلى قصر السلطان فى جزيرة الروضة وأيضا كل النبلاء وكبار المسئولين فى الدولة.

ووجه " بيبرس " كلمة للمجلس:

" إن مدلول موت السلطان بالنسبة إلىَّ أنه لم يعد هناك وريث شرعى للعرش. لا يوجد أحد منا جدير بالحكم بالرغم من مكانتنا والشرف الذى نحمله. وفى رأيى أنه يجب أن ننحنى لسلطانتنا ونرجوها أن تستمر فى السلطة ".

ويقص المؤرخ " أبو الفدا " هذا المشهد ويضيف أن أحد الأمراء وقف وقال لبيبرس :

(١) سلطان : الملوك المسلمون لم يكونوا يحصلون على لقب سلطان « مصر » أو الشام ... إلخ . هذه الألقاب من أصل أوروبى . ملوك المسلمين يعرفون بهوية جغرافية معينة حتى لو كانت موجودة منذ قرون مثلما هو فى مصر . كان يطلق عليهم « سادة القاهرة » أو دمشق أو حلب بدون أن يستتبع ذلك [تملكا] لأرض محددة بالمعنى نفسه للدول ، أن يكون هناك سلطان فى مصر مثل سلطان تركيا أو شاه إيران .

أمير المؤمنين ، وملك الإسلام ، وسيد الأراضى المصرية والشام ... إلخ كانت ألقاباً دارجة وأكثر قبولاً لآذان المسلمين ، والمسلمون من جانبهم كانوا يتفهمون بطريقة سيئة الألقاب التى تطلق على ملوك أوروبا ، وحاولوا ، بدون جهد ، تطبيق سلطة قوية مثل البابا كالخليفة (الخليفة وريث النبى) ، إمبراطور المانيا كان « قيصر » ثم جاء « ملك فرنسا » ... الخ .

الأوروبيون كانوا يفضلون تعريف أعدائهم بالقيم أو تحديد أهميتهم المتعلقة أو حدودهم الملكية فى التاريخ الأوروبى . تغلبت ألقاب « سلطان مصر » وسلطان تركيا أو شاه إيران .

- ماذا ستفعل بالتقاليد؟ لم يحدث أن حكمت امرأة فى الإسلام .

قال " بيبرس " : التقاليد من فعل الرجل، والرجل يمكنه أن يغيرها. ولا ينبغى أن تسجننا .

وفى النهاية اتخذ القرار بالإجماع. ورغم أن الشعوب الإسلامية أكثر من أى شعوب أخرى لا يقبلون بطيب خاطر أن تحكمهم امرأة، إلا أنه تمت الموافقة على أن يطلب من " شجرة الدر " الموافقة على قبول عرش مصر.

ومن أجل استقبال الوفد الرسمى، فتحت " شجرة الدر " القاعة الكبيرة بقصر الروضة أو قاعة العرش التى كان يستخدمها السلطان فى الاحتفالات الكبرى. هذه القاعة كانت تمثل بشكل غير مسبوق إحدى الإنجازات الأكثر جمالا فى الفن الإسلامى. وكانت على شكل مستطيل ويعلوها قبة تستند على أعمدة من الجرانيت الأحمر، أما العتبة فكانت تحملها عوارض معرجة بالذهب، وكان السقف والجدران مزينين بأشكال من الزهور، بينما كتبت آيات القرآن على طول الحوائط مرصعة بالعاج والرخام الأسود والأخضر ومغلفة بقشرة من الذهب. أما الأرضيات فكانت من الموزاييك الذى يكمل هذا التناسق البديع.

وتحت القبة كان هناك التخت حيث تقام الاحتفالات، وكان من الذهب، ومغطى بديباج من حرير الشرق. وتحته سجاجيد قيمة من إيران والمساند من الحرير الصينى بألوان زاهية. وعلى الجانبين يقع جدار ذهبى مغطى بالسجاجيد ينتظر الزائرين.

حضرت " شجرة الدر" الاجتماع، محجبة إذا صح القول كسيدة فى مكانتها بين الرجال. لم يكن هذا غريبا، فقد فعلها رجال من قبلها، مقدرين بلا شك شخصيتها المقدسة: ملوك الفرس، وأباطرة القسطنطينية أو بعض الخلفاء العباسيين. امرأة وملكة، كانت ترى وجوب التحجب أمام الرجال الذين ينحنون أمامها ويقبلون الأرض تحت أقدامها. وتقدم أحد الضباط إليها وطلب منها الإذن بتقديم الوفد الذى طلب مقابلة السلطانة. وكان الوفد مكونا من أعلى خمسة ضباط فى الجيش من ضمنهم " أيبك " و"أقطاى " و" بيبرس " المماليك البحرية الثلاثة الذين يمثلون قوة الجيش.

وتقدموا للملكة بهذه العبارات:

" الأمراء الحاضرون هنا يقدمون للسلطانة ولاءهم الصادق وتعبيرهم عن تأثرهم الشديد بنهاية السلطان توران شاه . ولكن أحدا لا يستطيع الفرار من مصيره، حتى إن كان ملكا. سيوفنا الأمينة فى خدمتك".

قال " أقطاى ":

" الأمراء يودون تقديم الولاء لرجاحة العقل والبصيرة للسلطانة، ويريدون إثبات عرفانهم الدائم لك، لذلك قرروا منحك السلطة العليا ".

وأضاف:

" الشجاعة الأدبية والسياسية التى أكدتها دائما زوجة السلطان الصالح ووالدة المغفور له الأمير خليل خاصة فى الأوقات الصعبة يؤهلها للعمل الملكى ".

واختتم " بيبرس " قوله:

" الأمراء والأعداء الغازون موجودون دائما بجوارنا فى دمياط ويجب علينا تطهير المكان. وشجرة الدر لا تنسحب أمام نداء الواجب. ألم تنقذى مصر والإسلام فى أصعب الأوقات؟ وبمنحك السلطة العليا لا نفعل أكثر من تأكيد موقف حقيقى ".

فأجابت " شجرة الدر ":

" ثقتكم تشرفنى. ولكم ثقتى كما لى ثقتكم ، وبدون مساندتكم فالواجب الذى تكلم عنه بيبرس منذ قليل سيصبح ثقيلا جدا بالنسبة لى ".

ثم وقف الأمراء لتقديم الولاء للسلطانة " شجرة الدر " أم خليل. وسحب " بيبرس " سيفه ووجه نصله ناحية قدمى الملكة، وقال:

" شجرة الدر ، أقسم بالله وبشرفك وبشرفى أن يدافع هذا السيف الوفى ضد جميع الأعداء حتى الموت "

أجابت :

"ستعمل شجرة الدر على تلبية كل أمنياتكم وستكافئ ولاءكم بشرف ".

وفى نهاية الاجتماع، كان فى اعتقاد الأمراء أن سيدة لا تستطيع شخصيا قيادة الجيش، وهو الدور التقليدى للسلطان، فقالوا لها:

" اقترح الأمراء المجتمعون تنصيب الأمير أقطاى عز الدين قائدا للجيش. فهل يلقى هذا الاختيار موافقة سموك ".

أجابت ببساطة: " بالطبع ستحصلون على موافقتى طالما هذا اقتراحكم ".

وبذلك أصبحت " شجرة الدر " المرأة المسلمة الوحيدة فى مصر التى حكمت مباشرة باسمها. ومن هذا اليوم حملت كل الأوامر الرسمية اسمها: أم خليل يعقبها الصالحية (اسم عائلة زوجها الصالح) و"ملكة المسلمين". وكان الدعاة يقيمون الصلاة باسمها ويدعون الله أن يحفظها. وذكر المؤرخ الكبير "ابن خلدون" عنها أنها:

" ماكرة وداهية، وهى صفات مشتركة بين النساء ولا تقارن بالرجال ".

هكذا كانت " شجرة الدر " السلطانة الجديدة لمصر.

وكان أول عمل رسمى قامت به هو تعيين الأمير " حسام الدين محمد بن على " الذى كان " توران شاه " قد أبعده بدون حق لاستئناف المفاوضات مع لويس التاسع ملك فرنسا.

أما جوانفيل فكان يتكلم عن السلطان بدون أن يشك لحظة بأن الذى يحكم مصر الآن سيدة ، وأن خروج ملك فرنسا وجيشه المعتقل يتوقف عليها.

استئناف المفاوضات

بالنسبة للملك لويس التاسع، الذى كان يرى فى نفسه راعيا للحق الإلهى المقدس للملوك، والملك والفارس المغوار والمدافع عن هيبة الملكية، فإن المشهد الرهيب لقتل السلطان كان شيئا مقززا ولا يحتمل. إلا أنه فى مصر لم يكن خارجا عن المألوف. وبالرغم من ذلك فإن الأسياد الجدد للبلاد، وهم الملوك الذين لن يتمكن من مقابلتهم أبدا سوف يكونون أكثر ولاء له من السلطان الذى تم اغتياله.

أراد " توران شاه " أن ينسب النصر النهائى على فرنسا لشخصه بالرغم من أنه عند الهجوم على المنصورة كان ما زال بعيدا عن مصر. إلا إنه كان قد تم تنصيبه ملكا على مصر حينما أسر ملك فرنسا. وكان يرغب فى أن ينسب إلى نفسه الفضل فى النصر والقيام بالمفاوضات وبما عرف عنه من مساوئ عدم الرزانة وسوء النية كان يريد الحصول على الفدية وعلى دمياط فى الوقت نفسه ، ولو تأكد بعد ذلك من عدم وجود غنائم فليس هناك مانع من قيامه باغتيال ملك فرنسا ومرافقيه.

ويقال إنه بعد أسر لويس التاسع فى المنصورة احتفل " توران شاه " بهذا الحدث وكان مبتهجا وروحه المعنوية عالية. وكان يردد أنه بإمكان الملك لويس التاسع أن يقول للمسيح فى يوم الحساب إنه عانى بسببه. ألم تكن الهزائم من عند الله حتى يضع من يؤمنون به تحت الاختبار؟ كان يجب على المسيحيين أن يقتدوا باليهود الذين لا يتوقفون عن الصلاة حتى فى أحلك الأوقات وهم واثقون أن الله سوف ينصرهم فى نهاية الأمر كما يزعمون. وبالنسبة للويس التاسع فلم يكن هناك داع لفقدان الأمل.

فى بداية اللقاءات مع الملك الأسير، كان مبعوث السلطان قد وعد رسميا بالإبقاء على حياة كل الأسرى. إلا إن هذا لم يمنع " توران شاه " من تكليف أحد المقربين له

الذين قدموا معه من كيفا بقتل مجموعات صغيرة من الأسرى الفرنسيين الذى كان عجزهم عن دفع فدية ذات قيمة واضحا. ويشهد جوانفيل من ناحيته أنه كان يسمع، يوما بعد يوم، عن أسرى فرنسيين يؤخذون من سجونهم وهم يصرخون قبل إعدامهم.

أما الملك الذى كان قد أبعد عن باقى الأسرى فلم يكن يشك فى رياء السلطان. وكان يعامل معاملة جيدة نسبيا. فكان يرقد على سرير فى منزل صغير مرتديا لباسا من الحرير الأسود بأزرار ذهبية ومحلى بفرو حقيقى ، كما كان الكاهن الخاص به جيوم دى شارتر يرافقه ، وكان يزوره أيضا أحد القساوسة الأقباط. وكمجاملة خاصة به، كان طباخه الخصوصى " إيزامبارد" يعد له طعامه ويقوم بخدمته. إلا أنه كان يجهل الكثير عن رفقائه من الفقراء ، كما كانت معلوماته أقل بالنسبة لما كان يجرى فى القاهرة. وقد تمت العناية وعلاج الأسرى من النبلاء الذين كان هناك أمل فى أن يدفعوا الفدية. أما بالنسبة للمرضى والجرحى الذين كانوا على متن السفن، فقد تم التخلص منهم وإلقاؤهم فى الماء. وعلل المسلمون ذلك بأنهم لا يستطيعون رعايتهم جميعا ويخشون انتقال المرض لجيوشهم. وإذا كان بعض المسلمين عاملوا أسراهم بإنسانية كما كان الحال بالنسبة لجوانفيل شخصيا، إلا أن معظم الأسرى الآخرين عانوا من القوانين الصارمة للغزاة، فقد ألقى بهم فى الزنزانات، بالكاد يحصلون عل طعام، ولا يعرفون إذا كانوا سوف يقتلون أو يباعون كعبيد أو يستخدمون فى تبادل الأسرى. أما الأسرى المسلمون لدى الفرنجة فى فلسطين فكانوا يعاملون بطريقة أسوأ.

وكانت المباحثات الأولية قد بدأت مع الملك فى سجنه بالمنصورة.إلا إن لويس التاسع لم يتفاوض مع السلطان الذى لم يقابله أبدا. كان اللقاء مع موظف ليس له صلاحيات حقيقية فى اتخاذ القرار. وقد سأله هذا الموظف فى بادئ الأمر ما إذا كان يوافق على مبادلة حريته بأملاك الفرنجة فى فلسطين. ورد عليه الملك بأنه لا يملك هذه الأماكن حيث إن هذه الملكة خاصة بزوجة صديقهم الإمبراطور فردريك الثانى إمبراطور ألمانيا وصقلية. ثم طلب منه إذا كان مستعدا للتنازل عن الأماكن المحصنة

لفرسان المعبد والإسبتارية والتى لا تخضع للإمبراطور. فأجاب بأنه لا يوجد أحد يستطيع ذلك لأن فرسان المعبد والإسبتارية قد أقسموا بعدم الإذعان لأى ضغط جسدى قد يؤدى بهم إلى التخلى عن أية قصور أو قلاع يكونون قد استولوا عليها مهما كان الأمر، وأن المسلمين قد مروا بهذه التجربة حيث أنهم قد أسروا أحد عظماء فرسان المعبد ولم يتمكنوا من انتزاع موافقته على تسليم أى من الحصون الموجودة تحت سيطرة الفرسان. كما أن زملاءه لن يخضعوا لأى أمر بالاستسلام. وهنا توعدوا الملك بالعذاب وكسر عظامه وحرقه ببطء فوق جمر النار طالما أنه ليس لديه أى سلطة. وأجاب الملك بهدوء أنه تحت رحمتهم وليفعلوا به ما يريدون.

جلب مندوب السلطان طلبات جديدة من سيده وسأله عن المبلغ الذى يريد أن يدفعه كفدية له ولرفاقه إضافة إلى إعادة دمياط. فأجاب ملك فرنسا بأنه إذا كان السلطان يريد أن يحدد مبلغا مناسبا فسوف يوكل الملكة الموجودة فى دمياط فى دفع هذا المبلغ. وبعد استشارة السلطان عاد المندوب ليقول للملك أنه سوف يطلق سراحه إذا دفع فدية قدرها مليون دينار بيزنطى ذهبًا (ما يعادل ٥٠٠,٠٠٠ جنيه). أجاب الملك بأنه إذا أقسم السلطان على احترام هذا الاتفاق، فإنه سيدفع عن طيب خاطر المبلغ المتفق عليه لإطلاق سراح رجاله. أما بالنسبة له، كملك لفرنسا، فلا يوجد مبلغ يعادل ثمن حريته ومع ذلك فهو مستعد لإعادة دمياط كثمن لحريته.

وعندما علم السلطان " توران شاه " أن الملك قد وافق على دفع مليون دينار ذهبًا بدون مساومة قال: " حقا إن هذا الفرنجى سخى جدا. لم يساوم فى هذا المبلغ الكبير من المال. اذهب وقل له إننى موافق على خفض القيمة بمائة ألف ... ".

وبهذا تم إعداد الملك وباروناته للسفر إلى دمياط لتنفيذ الاتفاق. وكان هذا قبل خميس الصعود بيوم. وكانت السفن الأربعة التى تقل الأسرى الفرنجة الأساسيين قد رست فى فارسكور أمام سرادق السلطان. وكان قد تحدد يوم السبت قبل " خميس الصعود " لتنفيذ تبادل مدينة دمياط مقابل إطلاق سراح الملك. إلا إن اغتيال " توران شاه " غير الأوضاع كلها.

اغتالت المماليك البحرية السلطان وتلا ذلك ارتباك شديد. وتوجه القائدان " أقطاى " و" بيبرس " سريعا إلى القاهرة حتى يبلغوا " شجرة الدر " بما حدث وحضور المجلس الذى سينعقد لاختيار ملك جديد. فى حين ظل الأسرى الفرنسيون فى حراسة ثلاثين مملوكا كان من الواضح أنهم لا يعلمون ماذا يفعلون بهذه الرهائن الثمينة. وقال بودوان دبيلان الذى كان يجيد العربية : إن الأسرى كانوا يتناقشون فيما بينهم لمعرفة إذا كان سيتم قطع رقابهم الواحد تلو الآخر أو فى مجموعات أو لا. وحضر المماليك وسيوفهم فى أيديهم وكذلك الفئوس الدانمركية فى أعناقهم. وظن الفرنسيون أن ساعتهم قد حانت. فأسرع بعضهم للاعتراف لأحد رجال الدين وآخرون اعترفوا فيما بينهم ومنحوا غفرانا متبادلا. والحقيقة أن المماليك كانوا يريدون إعادتهم إلى السفن. وتم حبس المساجين فى قاع السفن وهم ملتصقون ببعضهم. بينما كان حراسهم ينتظرون أوامر من القاهرة. وفى اليوم التالى حضر الربان وقال لهم إنه قد تم اختيار الأمير " حسام الدين " لاستئناف المفاوضات التى بدأت مع السلطان السابق. وأخبرهم بأنه لو كان السلطان " توران شاه " ما زال على قيد الحياة فإنه كان سيأخذ الفدية ثم بعد ذلك يقطع رأس الملك وكل النبلاء. وكان من الواضح أن هذه حقيقة وأن أقطاى الذى قال عنه جوانفيل "إنه من أكثر الفرسان نبلا" وأن السلطان الذى كان بدون شرف لن يحترم الاتفاق وأنه بعد دفع الفدية كان سيقتل الجميع، ألم يعدم كل يوم عددا منهم ويرسل آخرين إلى القاهرة لبيعهم كعبيد؟

ولقد سنحت لى فرصة للذهاب للمنصورة وزيارة المنزل الصغير الذى احتجز فيه لويس التاسع ملك فرنسا. المنزل مصون جيدا وتم دهانه من جديد وهو شىء نادر هذه الأيام فى مصر. وقد تم تحويله لمتحف صغير. وهناك لوحة من الرخام وضعت على مدخل المنزل وكتب عليها باللغة العربية ما يفيد بأن ملك فرنسا كان سجينا فى هذا المنزل منذ سبعة قرون مضت. ولا يوجد أى كتابة باللغة الفرنسية.

ولا أعلم ما إذا كان هذا هو المنزل الذى تم حجز ملك فرنسا فيه أو لا، فلا يبدو عليه القدم وأنه موجود منذ سبعة قرون. وربما تم ترميمه طبقا للتصميم القديم، أو أعيد بناؤه فى المكان نفسه .

فى البهو الرئيسى الذى كان يقضى فيه صاحب الدار أوقاته، نرى بعض الأثاث حيث يوجد السرير الذى كان ينام عليه الملك، وبعض الصور التى تسجل معارك شعب المنصورة والمماليك ضد الفرسان الفرنجة الذين يسهل التعرف عليهم من دروعهم الثقيلة.

والغريب أنه بجانب تمثال نصفى " لشجرة الدر "، تمثال معمم للسلطان "توران شاه" الذى لا يستحق بدون شك هذا الشرف. فإن النص المكتوب على اللوحات التى تصاحب الصور تجعل من "توران شاه" المنتصر فى معركة المنصورة، أما اسم "بيبرس" فلم يذكر. وهكذا يمضى التاريخ...

النيل يتدفق بجلال على بعد أمتار من المنزل، والشارع الذى يقع فيه المنزل القديم للقاضى "ابن لقمان" تم توسيعه ليصبح طريقا عاديا. وتم بناء مسجد على اليسار وعمارة جديدة بواجهة حديثة على اليمين ، مما جعل المنزل الصغير لا يتوافق مع هذه البيئة. وفى الوقت نفسه تقع فى الخلف المدينة القديمة بمنازلها المهدمة وشوارعها المليئة بالحفر وعوائق من الحطام. وهناك شعب كامل يعيش ويعمل وسط العدد الكبير من السيارات والدراجات البخارية التى تندفع بسرعة، والعربات القديمة التى تجرها الخيول أو الحمير التى يمتطيها الرجال والنساء أو الحمولات المختلفة. إنها مصر التى تحمل خلفها قرونا لا نهائية من التاريخ.

دمياط الملك فرنسى

كان الأمير " حسام الدين" حاكم القاهرة هو الذى كلفته " شجرة الدر " باستئناف المفاوضات مع ملك فرنسا وكانت التعليمات التى أعطيت له هى احترام أسس الاتفاق السابق. فتم معاملة الأسرى الفرنجة بإنسانية أكثر ولم يتم قتل أحد منهم أو بيعهم كعبيد.

واستبشر الملك لويس التاسع خيرا فى الرجوع من جديد لمقترحات الملك الصالح أى إعادة دمياط مقابل أورشليم القدس والمناطق الإسلامية فى فلسطين. إلا أنه تلقى ردا جافا وقيل له إنه كان عليه أن يقبل الاقتراحات الأيوبية أثناء حياة السلاطين الأيوبيين. ولم يكن الوقت فى صالح الدبلوماسية والحلول الوسط. لقد اختار الصليبيون الحرب، فى عالم متقلب ولم يعد فى مصر سوى حكم القوى الغاشمة. ففى عهد السلاطين الأيوبيين كانت هناك معاهدة تؤدى إلى معاهدة أخرى، وقسم صداقة نابعا من التقدير والاعتراف بالجميل، وعلاقات أقل تصارعا، كانت قد بدأت مع المهيمنين على المملكة اللاتينية فى فلسطين. ثم جاء رجال حرب مثل جان دى بريان، وملك فرنسا من الغرب ليضعوا حدا لكل ذلك. فالسلام الذى بدأ مع فردريك الثانى انقلب إلى معركة بدون رحمة بين الصليب والهلال. الملوك الفرنجة فى الشام وفلسطين رفضوا كل أشكال الجيرة الحسنة مع الملوك المسلمين وأصبح ذلك أساسا لكل الحروب ضد الإسلام. وكان يجب أن تنتهى هذه الحالة وبسرعة.

أعاد الأمير " حسام الدين " الطلب على ملك فرنسا، ادفعوا لنا ٢٠٠,٠٠٠ دينار ذهبا وأعيدوا دمياط.عندئذ سيصبح الملك ورفاقه من النبلاء أحرارا ويرحلون عن طريق البحر. وكان على الملك أن يقسم أنه سيرسل من عكا ٢٠٠,٠٠٠ دينار ذهبا لتحرير رفاقه البالغ عددهم ١٢١١٠ رجلا. أما المرضى فكان يمكنهم المكوث فى دمياط

كضمان. وبالنسبة للمعدات والمؤن الموجودة فى دمياط فستظل فى حوزة ملك فرنسا الذى سيرسل لأخذها.

المؤرخ ابن واصل يحكى أحد مشاهد المفاوضات كالآتى :

قال الأمير " حسام الدين": يا ملك فرنسا(هكذا كان يطلق المصريون على لويس التاسع) ملك الفرنجة كان رجلا حكيما ونبيها. قلت له أثناء إحدى مناقشاتنا: كيف للملك أعرف نباهته وحسن إدراكه أن يركب سفينة من الخشب ويبحر فى المياه ليأتى إلى بلد مملوء بالسكان المسلمين وعدد كبير من الجنود، ويظن أنه يستطيع غزوها؟ مثل هذا العمل يدل على أنه مملوء بالزهو بقوته وقوة رجال مملكته. وضحك الملك ولم يجب. فقلت له: طبقا لقوانيننا، الذى يواجه البحار هكذا بهذا الزهو والخيلاء يجب أن يكون مختلا ولا يستطيع أن يدير أمور ممتلكاته وشهادته لا يمكن قبولها فى المحاكم. فسألنى الملك متعجبا: ولكن لماذا ترفض شهادته ؟ فأجبته : " لأن أفعاله ستدل على عدم حكمته والذى تنقصه الحكمة لا يمكن أن يكون شاهدا للعدالة ". فضحك الملك وقال لى: " معك حق، الذى يقول ذلك يتكلم جيدا والذى يحكم كذلك لا يخطئ ".

وظلوا يعالجون نص القسم الذى يجب على الأمراء تلاوته أمام الملك، وأخيرا وافقوا على النص التالى:

" إذا لم يحترموا الاتفاقيات المرفقة، فإنه سيتم التشنيع بهم مثل الذى يدان بذهابه للحج إلى مكة ورأسه عارية أو مثل الذى طلق زوجته ثلاث مرات ثم استعادها ".

وأضاف القسم أنهم إذا لم يحترموا اتفاقهم سيتم التشنيع بهم مثل المسلم الذى يأكل لحم الخنزير...

قبل الملك نص هذا القسم لأن سيد عكا نيقولا الذى يعرف جيدا لغة وعادات البلاد قال إنهم لا يستطيعون أن يفعلوا أكثر من ذلك.

وعندما ينتهى قسم الأمراء سوف يضعون بدورهم القسم الذى يجب على الملك أن يقسم به، طبقا لما أشار به المجتمعون من رجال الدين. ويقول القسم أنه "إذا لم ينفذ الملك تعهداته فسوف يلعن مثل المسيحى الذى تبرأ من المسيح وأمه، وسيحرم من الاثنى

عشر تلميذا للمسيح ومن كل القديسين والقديسات". ووافق الملك على هذا النص. ولكن الجزء الأخير من النص كان ينص على أنه "إذا لم يتمسك بكلمته، فلسوف يتم التشنيع باسمه مثل المسيحي الذي تبرأ من المسيح وقانونه والذي غلظ بالمسيح، وبصق على الصليب وداس عليه".

وعندما سمع الملك ذلك قال إنه لا يرضى بهذا القسم أبدا، مما جعل الأمير يرسل في استدعاء السيد نيكولا ليقول للملك: سيدي، الأمراء غاضبون لأنهم تلوا القسم الذي طلبته منهم بينما لا تريد تلاوة القسم الذي طلبوه منك. تأكد من أنك إذا لم تقسم سيقطعون رأسك ورءوس كل رجالك. ورد الملك بأنه لا يستطيع قبول ما يريدون لأنه يفضل أن يموت كمسيحي جيد عن أن يعيش بغضب المسيح وأمه.

وكان بطريرك القدس روبير، مطران نانت السابق رجلا عجوزا يبلغ من العمر الثمانين عاما ، وقد قدم لمساعدة الملك في التفاوض لإطلاق سراحه. وكانت العادة بين المسيحيين والمسلمين أنه عندما يموت الملك أو السلطان فإن رسوله سواء كان مسيحيا أو غير مسيحي يلقى في السجن ويصبح عبدا. ولما كان السلطان الذي وافق على البطريرك كممثل للملك قد مات فقد أصبح البطريرك بالتالي سجينا مثل باقي الفرنسيين. وعندما أكد الملك رفضه لصيغة القسم، قال أحد الأمراء أنه وضعه بناء على مشورة البطريرك. وقال للآخرين: " إذا أردتم تصديقي، سأجعل الملك يقسم لأنني سأقطع رقبة البطريرك في حضوره ". فخطفوه وأوثقوا يديه بشدة بعمود في السرادق خلف ظهره بحيث تورمت وأصبحت في ضخامة رأسه والدم يسيل من أظافره. وهنا صاح البطريرك للملك: "سيدي، بالله عليك، اتل القسم وسأتحمل كل الخطايا طالما أنك تنوي عدم الإخلال به". وأخيرا تلا القسم، ولا يعرف كيف، ولكن الأمراء استراحوا بقسم الملك والنبلاء الذين معه.

وبعد هذا القسم تقرر أن يفرج عن الفرنسيين في اليوم التالي فور تسليم دمياط كما هو متفق عليه. وفي مساء الخميس رست السفن الأربع في وسط النهر أمام دمياط ونصبوا خيمة أمام الميناء حيث نزل الملك.

وقبل استرداد المدينة كانت الملكة مارجريت قد غادرتها على إحدى السفن القادمة من جنوة. وقد اضطلعت أثناء غياب الملك بمهامه بشرف وشجاعة. وكانت حاملا ووضعت طفلا في دمياط، بمساعدة فارس عجوز يبلغ الثمانين عاما، وهناك علمت بالكارثة التى حلت بالجيش وأسر الملك. فأطلقت على ابنها تريستان (الحزين)، لأنه ولد كما قالت فى غمرة الحزن والأسى. أما الفرنسيون الذين كانوا ما زالوا موجودين فى دمياط وفى حالة يمكنهم تحمل مشقة السفر فقد غادروها أيضا إلى عكا وبقى المرضى فقط فى دمياط. ولم يكن قد تم إطلاق سراح الملك بعد.

عند بزوغ شمس يوم ٧ مايو ١٢٥٠، ذهب السيد جيوفرو سيرجين إلى المدينة وسلم مفاتيحها إلى الأمراء. وضع شعار السلطان على الأبراج. ودخل الجند المسلمون المدينة وبدأوا فى الاحتفال بالمناسبة احتفالا صاخبا. وقال جوانفيل أن أحدهم جاء إلى السفينة والسيف فى يده ملطخٌ بالدماء وقال إنه قتل ستة فرنسيين. ومما لا شك فيه أن المرضى الذين ظلوا فى المدينة تم قتلهم جميعا.

أعيدت المدينة وتم إطلاق سراح الملك، وكان يجب عد الفدية وهى مبلغ الـ ٢٠٠,٠٠٠ دينار التى كان يجب دفعها قبل مغادرة الميناء، كانت الملكة قد جمعت الجزء الأكبر من المبلغ وكان ينقصه ٣٠,٠٠٠ دينار. وبسبب هذا النقص طلب المماليك احتجاز شقيق الملك ألفونس دى بواتييه كرهينة، فاضطر الملك إلى أن يطلب من قائد فرسان المعبد إتيان دوتريكور ومارشال الكهنوتية رينو دى فيشيه، الموافقة على منحه سلفة يردها فى عكا. ورفض الاثنان بحجة أن المبلغ الموجود فى خزائنهم على إحدى السفن الراسية فى الميناء ما هو إلا مقدم حجز لا يستطيعون التصرف فيه ، وأحس الملك بالاختناق من هذا الرفض الذى يوحى بعدم المسئولية حيث إن هذا التصرف يغامر بوضع حياة جميع الأسرى فى خطر. فأمر جوانفيل بأن يذهب إلى السفينة الأم لفرسان المعبد والاستيلاء على المبلغ حتى لو اضطر إلى استخدام القوة معهم. وهنا صاح مارشال المعبد: " إننا نرى بوضوح أنكم سوف تستعملون القوة لذلك سوف نسلمكم المفاتيح ". وبهذا استطاع الملك استكمال مبلغ الفدية، ورفض استغلال خطأ موظف الخزينة المسلم الذى كان يمكن أن يوفر له ١٠,٠٠٠ دينار وذلك ما نصحه به فيليب دى نمور، هذا الموظف الغافل قد أخطأ فى الحساب!

بالرغم من العهود المقطوعة، فإن المعدات الحربية التى كان يجب المحافظة عليها تم تحطيمها. كذلك اللحم المملح تم إلقاؤه بعيدا لأنه كان يتضمن لحم خنزير. ثم تم تجميع قطع المعدات الحربية واللحوم المملحة وجثث الموتى وتكديسها وإشعال النيران فيها. واستمرت هذه النيران أيام الجمعة والسبت والأحد.

استقل أخيرا الملك ورفاقه إحدى السفن القادمة من جنوة وأقلعوا ناحية عكا. وكان لويس التاسع قد قرر بدلا من الذهاب إلى فرنسا التوجه إلى الأراضى المقدسة لتعزيز ما تبقى من المملكة اللاتينية.

وفى بعلبك بالشام كان المسيحيون قد أقاموا حدادا عندما علموا بأسر الملك لويس التاسع. وتم طلاء التماثيل فى كنائسهم باللون الأسود. بينما أمر حاكم المدينة بعد أن استولى عليه الغضب بضرب يهود المدينة...

المؤرخ أبو شامة، الذى أرخ هذا الحادث يقول إن كنيسة القديسة مريم فى دمشق انتهكت حرمتها وتم تسليمها للراقصين والمطربين.

وفى فلورنسا كان الجبيليون (أتباع الملك فردريك الثانى فى إيطاليا) قد احتفلوا باستسلام دمياط وأطلقوا الألعاب النارية، فقد هزم الفرنسيون وسوف تعود الأمور إلى ما كانت عليه مع مصر. وساد غم كبير أهل جنوة الذين فضلوا الاتحاد مع الفرنسيين أثناء احتلالهم لدمياط.

أما فى باريس فكانت هناك شائعات وأقاويل. الجيش دمر والملك وأشقاؤه وباروناته إما قتلوا وإما أسروا، والأعلام والمقدسات وقعت فى أيدى المسلمين، من يصدق ذلك؟ الملكة بلانش كانت تستبعد كل من يروج هذا الصخب. ولكن الرسائل الواردة من الشرق أكدت النبأ الحزين. وسقطت فرنسا كلها فى غمرة من الحزن والأسى.

وكتب المؤرخ ماتيو بارى:

" والأدهى أن يتم اتهام الله بعدم العدل ويتحول الألم إلى الكفر بالله، واهتزت عقيدة الكثيرين... "

ويفيد ساليمبان بأنه بالنسبة للفرنسيسكان كما هو بالنسبة للصليبيين أعطى الشعب صدقة إلى آخر "باسم محمد الأقدر من المسيح" الله نفسه لم يساند الحرب الصليبية.

وكان من أول القرارات التى اتخذتها السلطة المملوكية فى القاهرة هو التدمير الكامل لدمياط وتدمير حوائطها الكبيرة وأبراجها. وترك المسجد الكبير فقط كما تم إخلاء السكان نحو الجنوب. أما دمياط الحالية فهى مدينة جديدة، تم إنشاؤها جنوبا بطريقة تجعل من المستحيل غزوها من البحر. والميناء أصبح أكثر صعوبة فى الدخول إليه. وفقدت المدينة أهميتها، واتجه جزء من تجارتها إلى الإسكندرية. ومصانع النسيج التى خلقت مجدها تحولت إلى المحلة فى الدلتا. وفضلت مصر إغلاق أحد موانئها بدلا من الغزوات المتكررة لها. وفى لبنان، ولقطع كل الطرق على التعقيدات المسيحية، فقد رحل السكان المارونيون المحليون من الساحل وتم نقلهم إلى الجبال فى داخل البلاد. وانتهت الحملات الصليبية إلى تدهور وضع وعلاقة المسيحيين فى الشرق، وكذا علاقاتهم مع الأغلبية المسلمة. السياسة نفسها اتبعت فى فلسطين، فالمماليك الذين غزوا كل موانئ الفرنجة قاموا بهدمها رأسا على عقب، وطاردوا الأجانب وحضوا السكان المحليين بما فيهم المسلمون على السكن فى داخل الأراضى. أما الأراضى المقدسة التى كانت لمدة قرنين تقريبا سوقا هامة للتجارة العابرة بين أوروبا والشرق فقد تقلص نشاطها بشدة. فساحات المعارك التى دارت بين الغزاة من كل نوع ؛ الأوروبيين والأسيويين – والمدافعين سواء مصريين أو سوريين، والتى استؤصل سكانها الأصليون. وأصبحت فلسطين طريق مرور لجيوش الأعداء وفقدت أوروبا اهتمامها بها.

الحروب الصليبية كانت مميتة![1] وأورشليم القدس لم تعد إلا مكانا للحجاج من رجال التقوى، مسيحيين ويهود ومسلمين. وقل عدد الحجاج بشدة. ويقوم اليهود وهم مرتدون اللباس الأسود بالصلاة وهم يترنحون أمام حائط المبكى. أورشليم القدس،

(١) حتى بعد الفشل المأسوى للحملة الصليبية للويس التاسع فى تونس تم تشكيل حملات عسكرية أخرى وأطلق عليها « الصليبية » حتى يمكن جمع الجيوش. وكانت محدودة ولم تكن لديها أية فرص للنجاح فى غزو الأراضى المقدسة. وآخرون قاموا بضربات صغيرة أقرب لقطاع الطرق منها للحروب الدينية.

أكثر هذه الحملات الشبه صليبية شهرة هى « الحملة القبرصية » فى عام ١٣٦٥، والتى قادها بيير الأول ملك قبرص وبيير توماس. قامت لسلب وتدمير الإسكندرية. وانتقم المصريون فى عام ١٤٢٥ بغزو قبرص وسجن آخر ملك من سلالة لوزينيان. مملكة الصليبيين فى قبرص انتهت إلى الأبد.

مدينة المقاطعة الصغيرة، نامت. ولم تعد رهانا فى لعبة السياسة ولا يريد أحد أن يتذكر أنها كانت رهانا للمعارك الكثيرة الدامية. ويحتاج الأمر إلى عدة قرون وفكر سياسى واقتصادى مختلف تماما حتى تهتم أوروبا لنشاط جديد فى الإطار الواسع بما يسميه الأوروبيون " مسألة الشرق ".

القاهر فى عيد

كان للنصر القاطع على جيش الفرنجة وأسر ملك فرنسا ووفاة " توران شاه " وتتويج " شجرة الدر " فرصة لاحتفالات كبيرة. والطريق الرئيسى فى المدينة القصبة، ازدان بألف علم. وفى الليل لا يستطيع أحد النوم. ويتلألأ الطريق بعدد لا يحصى من المشاعل كأنه فى وسط النهار. وإذا نظرنا إلى المدينة من أعلى جبل المقطم خلف قلعة صلاح الدين لا نعرف ما إذا كان عدد المشاعل أكثر من النجوم فى السماء.

يقع طريق القصبة فى الجزء الجنوبى من المدينة عند باب يطلق عليه باب زويلة ويتجه إلى مسجد الأزهر حتى القصرين الفاطميين. وينتهى الطريق عند ميدان بين القصرين. وهو أقل رحابة مما كان عليه أيام الفاطميين بسبب المنازل الجديدة التى تم بناؤها لأن حجمها كان ضخما. كان من الممكن لكتيبة كاملة من الفرسان أن تتحرك فيه بحرية. وقد صمم الفاطميون هذا الشريان المركزى ليصبح العمود الفقرى للمدينة. وعند حضور أحد السفراء إلى القاهرة لمقابلة الخليفة فإنه يترجل من على جواده ويلمس الأرض بقدميه خارج أسوار المدينة ويقبل الأرض. ثم يمر من أحد الأبواب ويسير فى طريق القصبة ليصل مترجلا إلى قصر الملك. وإذا تعرض أحد الأشخاص لغضب الخليفة، كان يعدو فى طريق القصبة فى الاتجاه المعاكس وبدون غطاء رأس، ويصل إلى باب المدينة ويصيح طالبا المغفرة من الملك. فإذا تم الصفح عنه يعود إلى القصر سيرا على الأقدام سالكا الطريق نفسه .

فى هذا العام أقيم الحفل على شرف فصائل من المماليك البحرية وعلى رأسهم " أقطاى " و"بيبرس " وصاحبهم تصفيق حاد من الجموع التى أسكرتها النشوة. وتم استعراض المماليك أولا، وسيوفهم تومض فى الضوء ثم بعد ذلك تبعهم أفضل الفرسان الذين تسابقوا من ميدان الصالحية الذى بناه السلطان " الصالح أيوب " عام ١٢٤٣

وفى النهاية طاف رماة الرمح الذين تنافسوا فى التصويب والشجاعة. أما فرق الخيالة فقد تنافسوا ونظموا مباراة فى دائرة مغلقة (الحلبة) وهى اللعبة المفضلة للمماليك.

وكانت المنح الموزعة من " شجرة الدر " أهم هذه الأحداث. فلم تنس أحدا من الأمراء حتى أصغر جندى وذلك حتى تعوضهم عن عدم عدالة " توران شاه " فى معاملته معهم. ونال المماليك البحرية أكبر قدر من هذه المنح كما نالوا الإقطاعيات الأكثر ثراء. ومنذ هذه اللحظة ظهرت طبقة جديدة فى السلطة ومارستها مباشرة.

استمرت الاحتفالات الشعبية فى ميدان بين القصرين. واتسع الطريق الفرعى ليصل إلى باب النصر فيما انتهى الفرع الثانى إلى جامع الأقمر عند باب الفتح حيث جامع الحاكم بأمر الله المتاخم لسور المدينة.

ومن مدخل الحسين (الحسينية) حتى ضريح السيدة نفيسة ، وعند باب زويلة وعلى جانبى الطريق كان يوجد آلاف من المتاجر جنبا إلى جنب مما جعلها متعة للنزهة والتسوق، فالمأكولات من كل نوع، والمشروبات من كل الألوان، وسلع من كل الأنواع، ولا يمكن حصر تفاصيل كل ما يعرض للبيع. وأمام هذا الكم الهائل من السلع، طابور مستمر من المارة، على ظهر الحمير أو الجياد، لا يكفون عن الصياح حتى ساعة متأخرة من الليل. ويمكن القول إن المتاجر لا تنام أبدا. فى الفجر تجدهم فى متاجرهم يعدون لعرض بضائعهم. وفى الساعات المتأخرة من الليل تجدهم موجودين تحت أضواء المشاعل الملونة، يعرضون سلعهم على المارة ويشيدون بجودتها، وفى بعض الأحيان يخلدون للنوم لساعات فى الهواء الطلق على مقربة من متاجرهم.

الناس يساومون فى الأسعار بدون نتيجة حاسمة. وفى المساء الشباب والرجال الأكثر شبابا يتتبعون النساء أو الأولاد الصغار ويمطرونهم بكلمات رقيقة أو فكاهات. ويقال إنه فى بعض الأحيان لا يتورع بعضهم عن لمسهن فى الخفاء ولكن كنوع من المرح أثناء سيرهم، الإلحاح شديد، وعين كل منهم تتوقف على أشياء مختلفة.

وبالرغم من كل ذلك، كان النظام يسود كل شىء. المارة الذين يتسكعون فى جهة اليسار يستطيعون العبور بلا صعوبة مثل طابورين من النمل فى اتجاهين مختلفين. كان المؤرخ " المقريزى " يندهش ويعتبر أن هذا شىء فريد فيسأل أحد المتحدثين عن السبب فى أن القاهريين يسيرون على جهة اليسار. فأجابه إن كون القلب على جهة اليسار، فإن الناس يتجهون بالطبع ناحية القلب.

خارج القصبة آلاف الرجال والنساء يجوبون شوارع المدينة طوال النهار يبيعون كل الاحتياجات من الطعام، والفاكهة، والجبن واللحوم المطهية والنيئة أو المشوية، مياه نقية أو معطرة بماء الورد أو زهر البرتقال، عصير الليمون المرطب أو البرتقال أو الرمان. الحلاقون يعرضون خدماتهم لقص الشعر أو الذقن فى الشارع. المجبرون يعرضون مساعدة من سقط من على جواده أو كسرت رجله أو ذراعه. وعلى باب الجامع بجانب بائعى الكتب الدينية كتبة عموميون يعرضون خدماتهم لقراءة الخطابات للسيدات حيث أنهن كن عموما أميات، أو الرد بصيغة جيدة على رسالة واردة لهن. الشعراء يتلون قصائدهم الجديدة. وفى هذا العام كان كل الشعراء يكتبون عن انتصار الجيش الذى هزم الفرنجة الغزاة وأنقذوا الإسلام فى مصر. الرواة يتجمع حولهم الكثيرون. وأنغام الربابة تصاحب قصصهم، وهم يروون حكايات البطل فى العصر الجاهلى عنترة بن شداد أو الحب الضائع لمجنون ليلى، مع صيحات التشجيع من المستمعين. ويثيرون الخيال بقصص مجد بغداد أثناء حكم الخليفة هارون الرشيد. وفتوحات الأبطال وأساطير الرحالة الكبار، ووصف ثراء الخلفاء وجمال نساء الحريم، كانوا يحلمون وينسون بؤسهم الحالى. وعندما يتوقف الراوى يصيح الجميع، (كمان، كمان)، ولا يكتفون أبدا طالما أن البطل انتصر على كل أعدائه أو المجنون قد وصل أخيرا إلى ليلى. وعندما يحين وقت الصلاة، ويسمع صوت المؤذن، لا تعرف كيف تحدث هذه المعجزة حيث يكف كل هذا الصخب ويتجه الجميع نحو الشرق فى اتجاه مكة ويتلون الفاتحة ويسجدون للخالق. وعندما تنتهى الصلاة تعود الضوضاء مرة أخرى ويعود الحشد للتحرك .

وعند القصبة تتفرع شوارع ضيقة وممرات ترابية بين المتاجر حيث توجد محلات الحرفيين. وهنا تتنافس الحمير فى المرور وتثير الأتربة التى تحرق العيون والرئة. وبالكاد يمكن تنفس هذا الهواء الثقيل عندما تمتزج رائحة جبن الماعز برائحة عرق الرجال والفضلات الموجودة أمام المنازل والمتاجر. المنازل العادية مبنية من البوص وعلى الأرض وترتفع لدور أو دورين ولا يترك بينها سوى مساحة رفيعة حتى يمكن مرور الهواء والضوء. وشعاع الشمس لا يكاد يخترق المنازل ويقلل من الحرارة الموجودة فى الأماكن الواسعة مثل بين القصرين.

هل يوجد فى العالم مدينة مكتظة بالسكان، وكبيرة وغنية مثل القاهرة؟ كانت البضائع عديدة متنوعة حتى إنه تم تخصيص سوق خاص لكل مهنة. سوق البهارات كان فى هذا العصر أكبر سوق فى العالم، وكانت تعرض فيه أكبر تشكيلة من البهارات تأتى من بلاد بعيدة مثل الصين والهند أو جزر الجنوب (إندونيسيا). وكانت الرائحة المميزة لهذه البهارات، مثل رائحة الزعفران المصرى القوية أو الروائح العطرية لجوزة الطيب أو القرفة التى يلتقطها شعر الرأس والذقن والملابس.

سوق الصاغة ممتع للنظر. الذهب معروض فى أشكال مختلفة كثيرة، وخاصة الأساور من كل الأحجام والأوزان. مجوهرات عديدة حيث يختلط الذهب بالأحجار الكريمة الملونة، والياقوت باللؤلؤ الوارد من الخليج الفارسى ليجذب النساء وإعجاب الرجال.

كل مهنة لها سوقها الخاص، وتخضع لقانونها المنظم لها.

لم ينسوا الأطفال، ففى سوق الدواجن، محل خاص ببيع العصافير التى يشتريها الأطفال بقطعة من النحاس حتى يطلقوا سراحها. وكان الآباء يقولون للأطفال إن من يطلق سراح عصفور يدخل الجنة. لذلك كان كل طفل يحتفظ بقفص للمستقبل.

المشكلة فى هذه الأسواق كانت فى شوارعها الضيقة التى بالكاد تستطيع السير فيها. الأشخاص المهمون على جيادهم وأمامهم اثنان من العبيد يحملون العصيان ويصيحون أمام سيدهم " وسعوا الطريق للسيد فلان..." ولا يتورعان عن توزيع

الضربات بالعصيان للذى لا يخلى الطريق برضاه. ومن تعب التجوال يبحث الرجال والنساء عن الحمير التى توجد فى كل ركن، ويركبون على ظهورها ووراءهم تابع يسير وراء الحمار، ويهمزه بدون توقف ويصيح لتوسيع الطريق.

الآلاف يرشون الشوارع بالمياه محاولة منهم لتهدئة الأتربة. ولكن فى القصبة وخاصة فى أيام الأعياد يجب تغطية قرب المياه حتى لا تمتص الأتربة التى يثيرها المارة أثناء سيرهم. وحمالون آخرون يعلقون القرب حول رقابهم وتتصل بها خراطيم من القماش يبيعون الماء للشرب فى أكواب من الفضة أو النحاس، وصياحهم يملأ الشوارع بالحياة.

المطاعم وباعة العصير يتركون محلاتهم مفتوحة لساعة متأخرة من الليل، فمن عادة القاهريين التجمع عندهم. يأكلون ويتحدثون، يتناقلون الأخبار والشائعات ويغنون ويتلون الشعر، وكل ذلك أمام الجميع وفى الشارع. هذا إرث القهاوى، اختراع مصرى أصيل.

وفى الأعياد، ينتعش سوق تجارة الشموع، فالمشاعل المعطرة بمناسبة النصر تزين بالورود والورق المزركش. والأطفال يقبلون على شراء مشاعل صغيرة تناسب أحجامهم، حتى يمكنهم عمل مواكب فى المساء كما هو الحال خلال ليالى شهر رمضان. وبجانب المشاعل يتم بيع كميات كبيرة من الشمعدانات والشموع للإضاءة، فالجميع يحبون الاشتراك فى نشر الضوء. وفى الليل يكون هذا السوق مكانا لالتقاء الفتيات اللاتى يطلق عليهن فاسقات المولد. والسلطات تجبرهن على ارتداء زى خاص وإبراز علامة واضحة حتى يمكن تمييزهن. وهن يرتدين عادة أثوابا فضفاضة واسعة عليها غطاء ويلبسن نعالا من الجلد الأحمر. ويمارسن البغاء نظير دفع ضرائب خاصة. ولا يخشون الشباب لأنهن يخفين تحت ثيابهن قطعة من الحديد للدفاع عن أنفسهن.

أما المطربات والراقصات فلديهن مكان مختار فى كل هذه الحفلات تصاحبهن فرقة موسيقية حقيقية مكونة من عشرات العازفين. والجمهور يحتفل بأشهرهن ويتحدون واضعى القوانين الذين ينصحون بتوخى الحذر من المطربات. ألم يقل النبى محمد: " لا تصلوا على من يموت وفى حوزته جارية مطربة "؟ ولكن هذا القول غير

مؤكد(*) . ويحكى كذلك عن رجل تم اعتقاله فى القاهرة لأنه تزوج من مطربة، ورغم أنه أجبر على طلاقها إلا أنه سجن. ولم يمنع كل هذا شهرة المطربات الواسعة.

وقد وجدت الدولة أن المطربات والعاهرات يدفعن ضرائب بدون حساب، تجمعها منهن سيدة تسمى " كفيلة المغنى "، هذه السيدة تدفع للدولة مبلغا من المال كل عام، وفى المقابل تتولى جمع الضرائب التى يجب أن تدفعها المطربات والعاهرات. وكانت تربح كثيرا. فقبل الاحتفال بحفل خاص، سواء كان عرسا أو طهورا يجب دفع عشر المبلغ المتفق عليه للكفيلة حسب المكانة الاجتماعية للمحتفلين، وكان على الأقل ٥٠٠ درهم فضة. ولا تستطيع المطربة أن تحيى الحفل أو حتى الدخول إلى المكان المقام فيه أو حتى التزين قبل أن تدفع الضريبة المقررة. وكانت مندوبات الكفيلة من النساء يتجولن كل ليلة على بيوت المطربات المسجلين لتسجيل غيابهن.

وتقوم الكفيلة كذلك بتحصيل الضرائب التى تدفعها العاهرات مقابل حمايتهن التى تتكفل بها شرطة الدولة. وتحصيل هذه الضريبة لا يتضمن من يقوم بزيارة الحى الذى يقمن فيه بدون التمتع بخدماتهن، وإلا كان عليهن أن يدفعن ضرائب أكثر من عدد الزوار المتمتعين بخدماتهن. والفضوليون ليس لهم مكان! ويبدو هذا شيئا فريدا لضريبة لا تدفعها إلا النساء ويتم جمعها بواسطة النساء فقط لصالح الدولة.

على كل حال الحفل لم يكن كاملا. وفى الحقيقة لم تتبع " شجرة الدر " التقاليد بالمرور عن طريق القصبة حتى يعرفها الجماهير ويصفقون لها كما هو متبع لكل سلطان.

فقد كانت التقاليد تفرض عندما يعتلى سلطان أيوبى العرش، أن يرتدى ثوب الاحتفال خارج أسوار المدينة. ثم يدخل المدينة راكبا جواده ويتبعه وزيره حاملا بين يديه ومرفوعا فوق رأسه المرسوم الموقع من خليفة بغداد، أمير المؤمنين، الذى يمنح فيه

(*) لا أصل لهذا القول فى كتب الحديث ، لا الصحيحة ولا الضعيفة ولا الموضوعة . ولكن روى الديلمى عن على : « من مات وله قينة فلا تصلوا عليه » قال الأزدى : « ضعيف جدا » . (التحرير)

عرش مصر للسلطان ويؤكد شرعيته. ثم يتبعه الأمراء والجنود وحراس السلطان مترجلين حتى خارج المدينة عند باب زويلة. وعندما يصل السلطان لهذا الباب كان مسموحا للضباط والجنود بركوب جيادهم.

وكان "صلاح الدين " أول من بدأ هذا الحفل التقليدى. وحذا حذوه خلفاؤه. كما فعل الشيء نفسه السلطان " الصالح أيوب" زوج " شجرة الدر ". وكان مرسوم تكليف الخليفة مجرد شكليات حيث إن عاهل بغداد لا يمارس أى سلطة حقيقية فى القاهرة. وعلى كل حال كان توقيعه بصفته أمير المؤمنين يعطى شرعية للسلطان الجديد فى التقاليد الإسلامية للخليفة.

ولم يكن خليفة بغداد قد أرسل " لشجرة الدر " التكليف لأن السفراء الذين أرسلتهم إلى بغداد بالهدايا لم يكونوا قد عادوا بعد برداء الاحتفال. ولم ترغب " شجرة الدر " فى تأجيل موعد الاحتفالات. كذلك تم إقامة الحفل بدون العرض التقليدى. أما الشعب فقد استهوته عروض الفرسان المماليك وشجاعة رماة السهام والرماح. وكانت الفرحة فى كل القلوب. وسنعرف الباقى فيما بعد .

« لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة »(*)

(حديث - للنبى محمد صلى الله عليه وسلم)

كانت القاهرة فى انتظار عودة سفرائها الذين سافروا إلى بغداد. وكان عليهم العودة بالمرسوم الموقع من الخليفة ورداء الشرف ذى اللون الأسود، وهو لون العباسيين، المهيأ للسلطان الجديد.

وفى انتظار هذا الاعتراف الرسمى بالسلطانة. بدأت المساجد فى مصر وأولها مسجد الأزهر تتلو خطبة ما قبل الصلاة باسم السلطانة الجديدة " شجرة الدر ". ومن على المنبر فى بداية الصلاة، قال الخطيب أمام جموع الحاضرين:

" ليحم الله جارية " المعتصم " (اسم خليفة بغداد) " والصالح أيوب " (اسم الزوج المتوفى) ملكة المسلمين، حامية العالم والدين، أم خليل، أميرة المؤمنين ".

وهناك نص آخر:

" ليحم الله الجارية النبيلة للمعتصم، ملكة المسلمين وحامية العالم والمسلمين، سيدة الرداء الملكى الفريد، والدة المغفور له خليل، زوجة الصالح نجم الدين أيوب ".

خصص " لشجرة الدر " الألقاب السامية، التى كانت قاصرة على الخلفاء أو السيدات النبيلات، للدلالة على أن خلف هذا الرداء امرأة أكثر رفعة.

(*) فى الأصل المترجم عنه . Jamais un peuplene prospérera s'il confie l'auroritéà une femme... « لن يزدهر شعب أبدًا إذا عهد بالسلطة إلى امرأة » . إشارة إلى هذا الحديث الذى رواه البخارى بسنده عن أبى بكرة ، فى صحيحه ، كتابى «المغازى » و « الفتن ». ورواه أحمد بنحوه . ولم ترد فيه رواية صحابى آخر لا فى الصحيح ولا فى المسند ولا فى غيرهما ، فهو « حديث آحاد » ، ويتناول موت كسرى وتولية ابنته من بعده . (التحرير)

ولكن فى حالتها، كانت البدعة الجسورة الجديدة فى العالم الإسلامى هى اختيارها على رأس الدولة، ليس كزوجة للسلطان الراحل ولكن بشخصيتها وخصائصها الجوهرية مما يؤهلها للتمتع بكل الامتيازات التى ترتبط بمنصب السلطان، فيتم الدعاء باسمها فى الجوامع، وتسك النقود بصورتها، وتحتفظ لديها بختم اعتماد التعيينات للمناصب العليا، والسفراء، أو توزيع الإقطاعيات للأمراء، وباختصار كل ما يتعلق بالملكة. وكان من المثير للفضول هو اختيار سيدة لهذا المنصب، فى الوقت الذى يستبدل فيه الفرسان المحاربون الأيوبيون من سلالة النبلاء، والمثقفون بالثقافة العربية، والمؤدبون والنبلاء أمثال "صلاح الدين" أو "الكامل"، والذين اجتازوا الثقافة العسكرية كأبطال القوة الجسمانية، بعبيد محررين، بالكاد يعرفون العربية، ويتميزون بالوقاحة والتوحش فى تصرفاتهم. وفي الوقت الذى يسود فيه فى الجيش الفئة الأكثر قسوة والأكثر إدمانا لثقافة القوة الجسمانية. فى هذا الوقت بالذات يتم منح الثقة عن رضى لسيدة اعترافا من الجميع بمميزاتها ، ولأنها كانت فى ذلك الوقت العصيب للبلاد وللإسلام " أفضل من الجميع ".

أدار الممآليك بوعى ورضا ظهورهم للتقاليد المتوارثة عن الإسلام التى جعلت الهيمنة دائما للرجال. لم يحدث من قبل أن السلطة العليا فى مصر، البلد الإسلامى، أن تمنح لامرأة برضاء كامل من الرجال. ولم يفكر أحد فى مصر، على الأقل فى هذا الوقت، بالاعتراض على " شجرة الدر ". فقد كان لها شعبية واسعة وكان الجميع يثقون فى ذكائها وحكمتها. وقد قامت " شجرة الدر بإرسال الكسوة المقدسة إلى مكة فى احتفال كبير، واستعدت للذهاب للحج فى الأراضى المقدسة الإسلامية. وكانت هذه هى المرة الأولى التى يذهب فيها ملك مصرى للحج أثناء توليه السلطة. وقصدت بذلك رفع شأن مصر فى العالم الإسلامى. ومنذ ذلك الوقت أصبح إرسال الكسوة المقدسة من القاهرة إلى الأراضى المقدسة عادة سنوية.

إلا أن الاعتراف الرسمى من الخليفة بسلطتها أصبح ضروريا " لشجرة الدر ". فالأمراء الأيوبيون فى الشام بدأوا فى إثارة القلاقل مع من تبقى من الفرنجة فى الأراضى المقدسة والذين تجمعوا فى عكا حول لويس التاسع. ألم يعلموا كذلك أن ملك

فرنسا قد أرسل رسولا للخان الكبير للمغول يقترح عليه التحالف ضد الإسلام؟ وذلك، حتى قبل أن يدفع بقية الفدية ومقدارها ٢٠٠,٠٠٠ دينار للإفراج عن جنوده الموجودين فى سجون القاهرة؟

وصل السفراء الذين أرسلوا إلى بغداد منذ شهرين، واستقبلتهم " شجرة الدر " فى حضور مستشاريها الأساسيين وطلبت منهم قراءة خطاب الخليفة المعتصم. وكان هذا الأخير ضعيفا لا يملك سلطات كبيرة ولا يعرف ماذا يفعل مع المغول المتجمعين على أبواب بغداد. إلا أنه تذكر أن " شجرة الدر " كانت ضمن حريمه وهو الذى وهبها "للصالح أيوب" ، وألم يستخدمها على الأقل مرة للترفيه عن "الناصر داود"، المبعد ووالد الخليفة؟ كيف يستطيع الآن الاعتراف بها سلطانة وسيدة القاهرة؟ لذا كتب لأمراء مصر للإعلان عن دهشته فى اختيار سيدة، والذى فى الحقيقة ليس له سابقة فى الإسلام. وأضاف:

" إذا كان هذا الاختيار مفروضا من قلة من الرجال عندكم، أعلمونى به حتى أرسل لكم رجلا من عندى... ".

وفى الحال، أصبحت مصر فى أزمة من جديد. فالسنيون الذين كانوا قد أعربوا عن تحفظهم عند اختيار شجرة الدر "، بدأوا فى رفع رءوسهم. هل سيتخذون موقفا هذه المرة ليس فقط ضد قول الرسول ولكن ضد رغبة خليفة بغداد، حامى العقيدة؟ كيف يمكن أن نكسب أنصارا فى الشام لمواجهة الأمراء الأيوبيين؟ كان يجب إيجاد حل سريع. فمعارضة الأمراء الأيوبيين فى الشام لم تكن كاملة النمو ، لذلك قرروا احتلال دمشق، كتحذير رسمى لسلطانة مصر.

وعندما وصل هذا النبأ إلى القاهرة، بعد وقت قصير من وصول رسالة الخليفة، اجتمع الأمراء وقادة المماليك لتقرير ما يمكن عمله ، وكان رأيهم هو مطالبة " شجرة الدر " باختيار زوج لها حتى يمكن إنقاذ الموقف، وفى هذه الحالة سوف يمنح لقب السلطان ولكنها فى واقع الأمر ستستمر فى الحكم كما تفعل الآن بموافقة الجميع. ولم تستطع " شجرة الدر " فى ضوء الظروف غير المتوقعة ، فخضعت لهذا القرار

الجماعى. وتقرر اختيار زوجها من بين المماليك البحرية مؤسسة بذلك تقليدا سيستمر لمدة طويلة بعدها. فقد كان المماليك يتزوجون دائما من داخل مجتمعاتهم والاستثناءات كانت قليلة جدا. ووقع الاختيار على الأمير " أيبك التركماني " الذى كان أكثر الأمراء مناسبة للعب الدور الذى حددته ، وكانت قد عينته بنفسها قائدا للجيش عند تنصيبها. وقد سبق لها أن تعرفت عليه فى كيفا حين كانت جارية من الجوارى لمن أصبح بعد ذلك زوجها الأول. وكان " أيبك " " جاشينكار " أى أنه كان يجب عليه أن يتذوق الطعام قبل أن يقدم للسلطان حتى يتأكد من أنه غير مسموم. وكان رفيق "آقطاى" و"بيبرس". ويمكن أن تثق فيه. كما كانت تعرف أنه ليس له طموحات شخصية فى إدارة أمور الدولة وأنه سوف يتركها تحكم. وطلبت منه أن يطلق زوجته ويبعد أبناءه منها حتى تحرمهم من الإرث، وهو ما كان يقلقها. ولم يواجه الزواج أية عقبات وتم فى القاهرة فى احتفالات جديدة. وأصبحت الخطبة باسم السلطان الجديد "عز الدين أيبك الصالحى" ولتعزيز شرعيته قرر ضم أمير أيوبى صغير يعيش فى القاهرة عمره ست سنوات وأطلق عليه الوصى ، ولكن هل سيكون ذلك كافيا لتهدئة الأمراء الأيوبيين فى دمشق؟ وكان الجواب بالنفى ؛ ففى عكا، استراح لويس التاسع عندما وجد جيش الشام الأيوبى وعلى رأسه الأمير "ناصر" فى طريقه إلى فلسطين فى شهر رمضان للهجوم على المماليك فى مصر. وكان أيبك فى انتظاره على رأس جيشه فى غزة. دارت المعارك إلا أن نهايتها لم تكن واضحة، وبعد عدة معارك انتصر المماليك. وقد وطد هذا النصر سلطة المماليك فى مصر لعدة قرون واختفاء آخر الأيوبيين فى الشام. ومنذ هذه اللحظة وفى كل الشرق الأوسط هيمنت العناصر التركية وأذابت عناصر شخصية الثقافة العربية.

اقتنع لويس التاسع الآن وتفاوض دون ضعف مع النظام فى القاهرة ضد الأيوبيين فى دمشق. وفى القاهرة كذلك كانوا يفضلون ضغط الفرنجة فى الشام من أن يروا هؤلاء يعززون الأعداء الأيوبيين. وطبقا لرواية جوانفيل ومخطوط روتلان تم الاتفاق على موافقة سادة القاهرة على إطلاق سراح الفرنجة المحتجزين فى مصر بما فيهم الأطفال الذين اعتنقوا الإسلام. كما وافقوا أيضا على رد رءوس المساجين الذين قطعت رءوسهم وتم عرضها على أسوار القلعة فى القاهرة حتى يمكن دفنها فى الأراضى

المقدسة. وأخيرا بناء على طلب لويس التاسع وتم إعفاؤه من باقى الفدية وقيمتها ٢٠٠,٠٠٠ جنيه وأعلن لويس التاسع ، عن رضائه بذلك.[١]

وهكذا انتهت الحملة الصليبية الفرنسية فى مصر. وكانت هذه آخر محاولة جادة قبل القرن العشرين لاستعادة أورشليم القدس والأراضى المقدسة.

(١) كتب جون سارازان:

« ... ورءوس كل المسيحيين المعروضة على أسوار بابليون والقاهرة وكل الحصون المصرية تم إنزالها وأرسلت للملك و ٤٠٠,٠٠٠ دينار بيزنطى والتى كان مدينا بها كفدية تم إرسالها للسودان ... » .

وبناء على ما كتبه سارازان ، الفدية أو على الأقل النصف المتبقى منها تم دفعها وإرسالها للسلطان وحيث إن جون سارازان بصفته حاجب الملك كان مسئولا عن كل حساباته ومراقبة المصروفات وطلبات الملكة ، يجب أن نصدقه عندما يقول إن هذا المبلغ قد أرسل للسلطان . (انظر جون سارازان ، صفحة ٢٠٤ فى القديس لويس – ملك فرنسا ، ذكرى للقرون ، أسسها جيرار وولتر ، طبعة ألبين ميشيل ، ١٩٧٠ ، باريس) .

« قلبى فى الشرق
وأنا على حدود الغرب»(١)

فى بداية القرن الثالث عشر، اختار عدد قليل من اليهود مغادرة بلادهم الأصلية استجابة للأمر المقدس بالذهاب للعيش فى الأراضى المقدسة.

وفى الشرق كان أعظم الشعراء اليهود فى اللغة العبرية، يهودا هيلفى، قد زار مصر ولم يختر العيش فى فلسطين. أما الميمون الذى هرب من الاضطهاد فى المغرب، فقد زار فلسطين ولكنه اختار العيش فى مصر. وكانت الصلاة الموجهة لله والدعوة بأن يتمكن اليهود من العودة إلى سيون، مدينة ذات قيمة روحية وليس ثقافية بالنسبة له. ولم يخش المعلقون الفرنسيون على التلمود الذين يطلق عليهم "توسافيت" أن يؤكدوا بأنه لا توجد أوامر تجبر اليهود على الاستيطان فيما يسمونه " أرض إسرائيل ". وبالنسبة لراشى سيد تروا (١٠٤٠-١١٠٥) فيذكر أنه لم يكن أمرا ولكنه وعد.

وكان للصليبيين دور مؤثر على هذا الوضع فى أوروبا الغربية. فقد اتبعوا عادة رسخت منذ بداية الحملة الصليبية الأولى فى نهاية القرن الحادى عشر، وقبل الذهاب إلى الأراضى المقدسة لمحاربة غير المؤمنين، وهى قتل الكفار الموجودين بينهم، أى اليهود. وكانت الضحايا هى الجاليات اليهودية الموجودة فى شرق فرنسا وفى ألمانيا على طول نهر الراين الذى يمر عبره الصليبيون. وبالرغم من حماية بعض كبار رجال الدين فإن مجازر وقعت فى ورمز وميونخ وكولونيا ومتز وبراج وراتيسبون... الخ. بحجة دينية محضة (كون اليهود طبقا لأقوال بعض رجال الدين هم المسئولين عن موت المسيح) بالإضافة إلى الحجج الأخرى التى تتعلق بالجوانب الاقتصادية الهامة.

(١) يهودا هيلفى ، شاعر لغة عبرية - توفى عام ١١٤٠ .

وكانت الديون المستحقة على الملوك والعظماء والبرجوازيين الصغار لليهود كبيرة. فقد كان يجب تمويل الحملات الصليبية وزاد ذلك من الديون المستحقة لليهود مما شكل عذرا قويا لسلب الجاليات اليهودية (تأجيل الفوائد وإلغاء الديون أو وقف القضايا ضد المدنيين المشاركين فى الحملات الصليبية... الخ) وأحيانا كانوا يلجأون إلى إبعادهم أو قتلهم خاصة وأن البرجوازيين فى المدن الألمانية كانوا مرتبطين مع الصليبيين فى الجباية غير القانونية لليهود ، وبالتالى تقليل تزاحم المضاربة من قبل اليهود. أما سلوك كبار رجال الدين الكاثوليك فكان أقل. وإذا كان بعض المطارنة مثل برنارد دى كليرفوه قد رغب فى التخفيف من حدة الصليبيين، فلم يكن مستعدا، أمام شراسة المهاجمين أن يضع ممتلكاتهم أو أسقفياتهم فى خطر.

كان النصر الساحق لصلاح الدين على الصليبيين فى حطين وسقوط أورشليم القدس فى أيدى المسلمين قد أثر تأثيرا شديدا فى الجالية اليهودية فى أوروبا الغربية ، فقد تحملوا قسوة الاضطهاد المستمر ، فلماذا لا يرون علامة الانتقام الإلهى ومعاقبة أعداء إسرائيل؟ ولكن هذه الفرصة لم تكن مواتية خوفا من اضطهاد جديد طالما أن حملة صليبية جديدة يجب أن ترحل لمحاولة استعادة أورشليم القدس من المسلمين.

وكان الملك فرانس فيليب أغسطس أول من أصدر مرسوما فى عام ١١٨٢ بطرد اليهود من الإقطاعيات الملكية. التى لم تكن كبيرة فى ذلك العصر ، لأنها كانت تتضمن فقط فرنسا وأورليان. فى عام ١١٩٨ تم إعادة اليهود بمقابل مادى. وهذا الحدث الذى تمثل فى إبعاد اليهود لم يحدث فى فرنسا منذ خمسة قرون على الأقل، أى منذ عهد الملك داجوبير فى القرن السابع(٢).

(٢) هيرلكيوس الذى كان قد حصل على السلطة فى القسطنطينية فى عام ٦١٠ كان قد علم من المنجمين أن إمبراطوريته سوف تدمر بوساطة شعوب يمارسون عادة الختان وكان يظن أنهم يعنون اليهود ، ولم يكن يتصور غزوا من العرب ، لذلك أرسل إلى الملك داجوبير الذى كان يحكم ما سمى بعد ذلك بفرنسا ، بأن يتم تعميد كل يهود مملكته وهو ما فعله داجوبير .

(مؤرخ يسمى فريدى جير ، قصة (محمد) لماكسيم روديسون ، صفحة ٨٥ ، طبعة لوسوى ، ١٩٦٨)

وفى انجلترا وفى نفس يوم تتويج الملك ريتشارد قلب الأسد فى وستمنستر يوم ٣ سبتمبر ١١٨٩ بدأت مأساة اليهود خاصة فى يورك حيث كان سوء معاملة اليهود فظيعا(٣).

وكان البابا إينوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦) هو الذى تمادى فى التفرقة الاجتماعية والاقتصادية لليهود. ، ولم يكن الخلط جائزا بين حياة اليهود وغير اليهود، رجالا ونساءً وورد ذلك خاصة فى الاجتماع الرابع للاتيران (١٢١٥) حيث طلب من اليهود تخفيض الفوائد على قروضهم مع عدم تخفيض الضرائب الواجب عليهم دفعها، وارتداء ملابس خاصة لتمييزهم عن المسيحيين، ومنعهم من الدخول فى مهام شعبية، وطلب منهم التخلى عن عاداتهم وتقاليدهم حتى فى حالة اعتناقهم المسيحية.

أما البابا جريجورى التاسع (١٢٢٧-١٢٤١) فذهب إلى أبعد من ذلك. ففى عام ١٢٣٩، طلب من ملوك فرنسا وانجلترا وإسبانيا والبرتغال كتابة الاستيلاء على التلمود - الكتاب المقدس لليهود - الذى يتضمن شرحا للتقاليد الشفهية لإسرائيل وتعليقات الحاخامات على القانون - للتأكد من عدم احتوائه على سب ضد المسيح أو والدته. وكان لويس التاسع ملك فرنسا فقط هو الذى أمر فى مارس ١٢٤٠ بالاستيلاء على

(٣) مقتطفات من المؤرخ رابى إليزا بارتان - توس فى مصر أفيست الشهير - ولد عام ١٠٩٠ وتوفى عام ١١٧٠ ومعروف كذلك باسم رابى ليزار دى مابنس (يهودى تقى يسمى شاماريا كان قد تم القبض عليه مع زوجته وأولاده وتم سجنهم معا فى انتظار إعدامهم فى اليوم التالى) . .. فى خلال الليل استيقظ شوماريا وخنق زوجته وأولاده وحاول الانتحار ولكنه لم ينجح وجرح نفسه . أغمى عليه ولكنه لم يمت . دخل الفلاحون فى الفجر الزنزانة ظنوا أن شاماريا فعل ما كان يتعناه . وجدوه مغمى عليه ، فأفاقوه وقالوا له : « طالما أنك تصرفت ضدنا فسنبقى على حياتك إذا وافقت على عقيدتنا وإلاّ ستموت ميتة فظيعة ، سندفنك حيا مع من خنقتهم » ، فأجابهم « لتحمنى السماء من إنكار الله الحى من هذا الهيكل العظيم والموت » حضروا القبر ودخل شاماريا ووضع أبناؤه على يساره وزوجته على يمينه وألقى عليهم التراب وهم يسألونه من وقت لآخر : ألم تغير رأيك ؟ فيرفض أن يتنازل عن عقيدته لإرضائهم . وفضل أن يستمروا فيما يفعلون وهم يتوقفون كل فترة ويسألونه إذا كان قد غير رأيه . ولكنه كان يرفض . وأخيرا غطوه بالتراب بالكامل متجاهلين صراخه . ظل صراخة يسمع طول النهار . يا إلهى متى ستسمح بانتهاء ذلك ؟ لقد تحملنا كل هذا العذاب المكتوب وغير صراخه . وروحنا تعذبت . إلى متى يا إلهى ستظل غاضبا علينا ؟ وإلى متى سيظل غضبك يمتد من جيل إلى جيل ؟ (اليهود والصليبيون ، تأريخ اليهودية للحرب الصليبية الأولى والثانية ، صفحة ٩٠ مطبعة جامعة وسيكنسون ، الولايات المتحدة الأمريكية ، مترجم من العبرية إلى الإنجليزية) .

التلمود فى كل الإقطاعيات الملكية. أما بلانش دى كاستيل والدته فقررت أن المسألة كانت كافية لإشعال معركة مضادة بين رجال الدين ومدرسة الحاخامات والتى كان يرأسها مدير المدرسة التلمودى لباريس، رابى يحيل. ويرجع تاريخ هذا الخلاف التاريخى إلى ٢٥ يونيو ١٢٤٠ وأشرفت عليه بلانش دى كاستيل بنفسها. وقد تمت ترجمة مقتطفات من التلمود كما فى القرآن بعد قرن من الزمان تحت رعاية الحبر دى كونى ببير.

وكان الاتهام صادرا من يهودى أصيل من روشيل - يدعى نيكولاس دونين - بأن بلانش دى كاستيل حكمت بأن المسيح الذى كان فى التلمود ليس هو السيد المسيح للمسيحيين وأنه ليس له الحق فى هذا اللقب. ولكن الجدل لم يكن قد أغلق. واستمر لمدة عامين، وفى النهاية، اتهم رجال الدين فى فرنسا التلمود. وحملت أربع وعشرون عربة كل ما تمكنوا من العثور عليه من هذا الكتاب وتم حرقها فى ميدان دى جراف فى باريس ، وأحس يهود فرنسا بهذه الإهانة بشدة ، ولجأوا إلى البابا الذى طلب إعادة النظر فى هذه المسألة. التحريم الدينى ثم تجديده فى عام ١٢٤٨ وطلب الملك من باروناته حرق التلمود فى مقاطعاتهم.

فى القرن الثانى عشر وبداية القرن الثالث عشر كانت حالة اليهود فى مصر أفضل بكثير من أقرانهم فى أوروبا الغربية أو الشرقية. وتحت حكم الأيوبيين بدءا من صلاح الدين نفسه لم يكونوا يلعبون دورا محدودا فى إدارة الدولة. لم يستثاروا من المعاملة ، ألم يكونوا فى كل مرة حانت لهم الفرصة يقتلون بالأسباب نفسها التى يقتل بها المسلمون؟ وكانوا مندمجين تماما فى البلاد ولم يخفوا شخصيتهم الخاصة. كانت لهم دور العبادة الخاصة بهم ومدارسهم التلمودية. ورغم أن اللغة المشتركة هى العربية، إلا أن العبرية ظلت لغة حية تستخدم فى طقوس العبادة مثلما هى لغة للدراسة والتخاطب الشخصى بين الجالية اليهودية.

والمستندات التى وجدت فى الجنيزا بالقاهرة واضحة تماما فى هذا الخصوص ، وتدل على أن اليهود مثل المسيحيين كانوا مجبرين على دفع ضرائب الجزية، وهى الضريبة التى نص عليها " عشيرة الكتاب " فى أرض الإسلام وذلك مقابل ضمان

حماية السلطان. ولم يكن مسموحا لهم بحمل السيوف وكانوا معفيين من الخدمة العسكرية. وقد وجد الميمون الذى كان من أصل كردى، ومضطهدا فى المغرب، ملجأً له فى مصر. وكتب أهم مؤلفاته وخاصة رائعته " دليل التائه ". وكتب على السواء باللغة العبرية واللغة العربية ولكنه كان يفضل فى كتاباته الفلسفية استخدام اللغة العربية التى وجدها أكثر دقة. وكان طبيبا ذا موهبة، وأحد المعتادين على التردد على بلاط الملك. ألم يقل إن ريتشارد قلب الأسد عندما مرض طلب من صلاح الدين أن يرسل له الطبيب المشهور؟ ونسى أنه قبل أن يرحل للاشتراك فى الحملة الصليبية كان قد ترك يهود إنجلترا يقتلون وينهبون. ورفض صلاح الدين الافتراق عن الميمون الذى رفض هو الآخر أن يترك مصر للذهاب إلى المملكة اللاتينية فى عكا.

بعد استيلاء صلاح الدين على أورشليم القدس وطرد الفرنجة طلب السلطان خاصة من اليهود أن يعيدوا تعمير الأراضى المقدسة. ولم يبد من هذا النداء أن صلاح الدين لديه تأثير كبير على يهود مصر. وعلى كل حال لم يشر أى مؤرخ على حركة لها معنى ليهود مصر تجاه أورشليم القدس. فقد استقر يهود عسقلان فى أورشليم القدس لأن مدينتهم كانت قد تمت إزالتها بالكامل وكان عليهم أن يجدوا مكانا آخر. ويبدو كذلك أن يهودا حضروا من المغرب وكان الحكام المحليون يطاردونهم باستمرار.

الحقيقة التى لها معنى هى وصول مجموعات من يهود فرنسا وإنجلترا إلى الأراضى المقدسة. هذه الموجة من الهجرة ذات العدد المحدود حدثت بين أعوام ١٢٠٩ – ١٢١١ وكان على رأس الفرنسيين الحاخام جوزيف بن الحاخام باروش وشقيقه رابى مائير. كذلك قدم من فرنسا وإنجلترا حوالى ٣٠٠ شخص وكلهم تحديدا من المقاطعات الجنوبية لفرنسا التى كانت تحت الحكم الإنجليزى. ورست إحدى هذه المجموعات فى مصر وقابلت رابى أبراهام بن الميمون. واستقر بعضهم فى عكا تحت سيطرة الفرنجة وتم زرع نواة جالية يهودية نشيطة.

وقد أعطت المصادرة وحرق التلمود فى عام ١٢٤٢ فى باريس دافعا نفسيا جديدا للمهاجرين الفرنسيين. فحضر رابى يحيل – الذى أقسم على الدفاع عن التلمود بنفسه أمام بلانش دى كاستيل – إلى الأراضى المقدسة فى عام ١٢٥٨ ويرفقته ابنه رابى

جوزيف الذى يطلق عليه " اللذيذ ". وفى عام ١٢٦٣ وصل إلى القدس رابى مواس بن ناهمان - ناهمانيد - الذى أعلن أن الإقامة فى الأراضى المقدسة حكمة دينية إيجابية حيث الرجال من جيله كانوا مكرهين. ومنذ " كتاب الحكمة " لميمون، وناهمانيد - مثل رابى يحيل فى باريس- كان عليه خوض معركة شهيرة فى برشلونة ضد اليهودى بابليو الذى اعتنق المسيحية فى حضور الملك الإسبانى لارجون.

وكان الملك جاييم الأول قد خضع لضغوط البابا كلارمون الرابع وصمم على نفى ناهمانيد.

ومن ألمانيا كذلك، تجمعت مجموعات من اليهود للهروب من الاضطهاد وهاجروا إلى الأراضى المقدسة. وكان أكثرهم شهرة هو الحاخام مائير دى روتنبورج تلميذ رابى يحيل.

هذه التحركات للهجرة لم تهم عددا كبيرا من اليهود، ولم تعن أحدا، بالرغم من قسوة الاضطهاد التى دفعت إلى هذه الهجرة الجماعية. فالذى سافر إلى فلسطين كان فى الغالب مدفوعا بأحاسيس دينية، إلى جانب صعوبة العيش فى البلد الأصلى الذى كان يقيم فيه.

وعلى كل حال فإن هذه الهجرة حتى ولو كانت محدودة فى عددها، لم تحدث منذ زمن طويل فى فلسطين. واليهود الأصليون من هذه البلاد بعد قرن ونصف من الحروب بين المسلمين والمسيحيين، تحدثوا عن غزوات مختلفة من البربر ، وعندما نكل بهم وتشتتوا فإن عددا كبيرا من الناجين هم الذين هاجروا إلى مصر أو الشام حيث كانت الجاليات اليهودية تعيش فى رخاء. أما المهاجرون من أوروبا فكانوا مختلفين. وبسبب اختلاف اللغة والتقاليد كانوا يفضلون الاستقرار فى عكا المدينة المسيحية والأوروبية أكثر من أورشليم القدس المدينة العربية المسلمة بالرغم من نشاط إحساسهم الدينى. فى عكا كان يمكنهم كسب معيشتهم بسهولة، فالتجارة كانت مزدهرة ولم يكن ينظر إلى اليهود نظرة سيئة. بل حصلت الجالية اليهودية فى عكا فى هذا العصر على تعاون أوروبى من جديد. ولم يكن العرب على دراية بما يجرى. مما أثر على المعركة التى

مزقت الجالية اليهودية حول الأفكار المعلنة من الميمون. وقد دافع اليهود الشرقيون بقوة عن الأفكار التى وضعها أستاذهم الميمون بينما كانت لليهود القادمين من أوروبا ميول لمعارضتها.

ويبدو أن لويس التاسع وهو فى سجنه فى المنصورة بينما كان يتأمل أسباب هزيمته كان يتساءل بورع لماذا تخلى الله عنه. وفى خطاب موجه منه إلى باريس كتب يقول:

" وصول السلطان الجديد زاد من جرأة الجنود المسلمين، ومنذ ذلك الوقت، طبقا لأوامر الله التى لا نعرف سببها، كل شىء بدأ ينقلب ضدنا... "

كان هذا مرة أخرى تأكيدا للتحليلات الخاطئة التى بنيت عليها معركة المنصورة. ولم يكن مفهوما أن كل شىء قد تحول للأسوأ فى هذا اليوم وأن اليوم الذى وصل فيه السلطان إلى المنصورة لم يكن انتصارا كما كتب جوانفيل ولكن كان فشل خطة غزو مصر.

ولم يجد خطأً يمكنه التعلل به ، إلا أنه ترك الجالية اليهودية فى مملكته تستحوذ على مزايا من المسيحيين. وطبقا للمؤرخ الإنجليزى مايو بارى فإن المفاوضين المسلمين أشاروا بأنهم يعرفون من قتل المسيح. وكان يبدو أن ذلك عنصر حساس فى المناقشات. وقد كتب المؤرخ اليهودى ابن فرجة " شفيت يهودا " يقول:

" فى العام الذى أخذ ملك فرنسا الإسماعيليين وبعد أن هزم ورجع إلى بلاده (عكا) نفى كل اليهود من مملكته "

وفور رسوه فى فرنسا، فى هيراس، استقبله حفل كبير، وقال هيو دى بارجول أن الملك " مجنون الإله " لم يحارب الفساد فى مملكته ولذلك منع من الرحمة الإلهية وفشل فى حملته. لذا قرر تطبيق الإجراءات نفسها التى اتخذها فى عكا وأمر بنفى اليهود من المقاطعة الملكية الملوثة بنقودهم. ورافقهم لو مبارد وكاهورسان.

وكان لويس السادس قد حرق التلمود في باريس وفي المقاطعات. ثم بدأ يسب اليهود لأنهم يتبعون السحرة. وتم تجميع اليتامى اليهود في المستشفيات وإيداعهم تحت رعاية رجال الدين الكاثوليك وتعميدهم واعتناقهم المسيحية. وخصص جزءا من ريع الدخل الملكي لهذا التعميد. وبدأ إبعادهم من المقاطعة الملكية وكأنه إبعاد لمن يعملون بأيديهم، ولكن لم يكونوا يمنعون استخدام الأيدي العاملة المسيحية. ولم يظهر مرة واحدة أن الإبعاد طبق بصورة عامة ودقيقة لأنه لم يلاحظ حركة كبيرة لخروج اليهود من المقاطعة. ولوحظ في ذلك الوقت وصول المبعدين إلى الألزاس وإلى اللورين وخاصة في ستراسبورج، وفي ميتز وفيما بعد في مول هاوس. في حين اتجهت الأغلبية إلى دولفينيه حيث فتحت البنوك الجديدة. وظل البروفونس وبالاجيدوك ملجأً للمهاجرين وأرض الشمس والسلام والتسامح.

بعد سبع سنوات (١٢٥٧)

مرت سبع سنوات على جلاء الفرنسيين عن دمياط وتتويج " شجرة الدر " ثم زواجها الجديد من " أيبك " سلطان مصر.

وبعد انتصاره الصعب على الأمراء الأيوبيين فى الشام، ترك " أيبك " مماليكه يحصلون جباية غير قانونية ضد السكان فى القاهرة، وينهبون المحلات، وتجار السوق، والنافرون منهم كانوا يقولون إذا كان الفرنجة قد استولوا على المدينة فلن يرتكبوا مثل أعمال السلب هذه!...

أما الأمراء المصريون، الذين كان المماليك يتصرفون باسمهم، فقد ثاروا وكونوا جيشا محليا. وواجهوا جيش المماليك فى الغرب من ديروط. ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك حيث قام فرسان المماليك بتدمير جيشهم بالكامل وفر القليلون الذين استطاعوا النجاة.

وقد اختار " أيبك " وزيرا من الموالين له وكان قد التقى به فى دمشق ويدعى " الأسد الفيظى ". وكان من أصل قبطى من صعيد مصر واعتنق الإسلام. وبالاتفاق مع سيده وضع نظاما تعسفيا للضرائب يضر الغنى والفقير معا. فقد فرض ضريبة على الدواب والعبيد ومبالغ كبيرة على التجارة فى السلع المحرمة فى الدين مثل: النبيذ والبيرة وبيوت الدعارة وحتى الحشيش الذى كان قد وصل إلى مصر مؤخرا من إيران. وأسلوبه فيه وقاحة لم يسبقه إليها أحد من موظفى الدولة واغتنى كما لم يغتن مثله أحد من قبل.

وبمرور الوقت، بدأ السلطان " أيبك " فى استخدام سلطاته بجدية، كما بدأ فى تقليص الممتلكات التى كانت مصدر دخل لزوجته شيئا فشيئا. وبالتدريج أبعد عنها كل

المقربين إليها، وعين مماليكه، وزاد من عملائه. ثم بدأ في وضع حد لسلطاتها التي كانت تسبب له إزعاجا. ألم يتنبأ أحد العرافين أن إحدى السيدات ستكون السبب في موته؟ ومن هي السيدة التي تجرؤ على ذلك سوى " شجرة الدر "؟.

كان يعرف أنه قبل أن يتخلص من زوجته يجب عليه أن يتخلص من المماليك البحرية. فشجع " بيبرس " على الهجرة إلى الشام. واستدرج "أقطاى" إلى كمين وقطع رأسه وألقى بها للمماليك البحرية لإرعابهم. وأخيرا اعتقل المماليك الذين لم يهربوا وأمر بإلقائهم في زنزانات القلعة في القاهرة. ومن بينهم كان يوجد أحد المقربين من السلطانة " أيدكين الصالحي ". وعند مرور المساجين من تحت نافذة الحريم في القلعة شاهد منديلا يرفرف من المشربية وأدرك أن " شجرة الدر " قد رأتهم. أما " أيداكين "، حامل حذاء السلطان فقال للملكة: " والله يا أميرة! لم نفعل شيئا يبرر اعتقالنا. ونحن أبناؤك لأنك أنت التي ربيتنا. ونحن أبناء المغفور له السلطان " الصالح أيوب ". عندما علمنا أن " أيبك " يريد الزواج من ابنة سلطان الموصل، عاتبناه. ولذلك انقلب علينا وعاملنا بقسوة كما تشاهدين ".

رفرفت " شجرة الدر " مرة أخرى بالمنديل لتقول له إنها سمعت وفهمت رسالته. وقال " أيداكين " لرفاقه: والله! إذا سجننا فسنقتله.

وفي الواقع فإن " أيبك " كان يحاول إقامة علاقات مع الخارج بجانب معارضته " لشجرة الدر " في الداخل. وقد كتب إلى سلطان حماة في الشام وكذلك إلى سلطان الموصل في العراق يطلب من كل منهما الزواج من ابنته. وعندما علمت " شجرة الدر " بخططه التي تعني نهايتها هي، أرسلت بدورها إلى سلطان دمشق سرا وأبلغته أنها قررت التخلص من زوجها " أيبك " بسبب إساءته لها. وعرضت عليه التحالف: أن يتزوجها وسوف تمنحه عرش مصر. وأعطت هذه الرسالة إلى خادمها الوفي " نصر العزيزي " الذي سلمها ليد سلطان دمشق. ولكن هذا الأخير تردد خوفا من خدعة تورطه مع سلطان مصر وفضل عدم الرد.

أما سلطان الموصل فقد أرسل إلى " أيبك " ليبلغه بالمؤامرة التى تحيكها له زوجته. وأبلغه بأنها أرسلت مبعوثا سريا إلى سلطان دمشق. وهنا قرر " أيبك " إبعاد "شجرة الدر" من القلعة، رمز القوة، وعزلها فى داخل قصر فى القاهرة.

وعندما حانت ساعة التنفيذ. كان على " شجرة الدر " التصرف بدون تأخير، فقد رفضت أن تستبعد نهائيا من السلطة أو تنتظر حتى تقتل. فاستدعت خمسة من خدمها الأوفياء من بينهم " نصر العزيزى " الذى كان قد عاد من دمشق. وكعادته بعد ظهر كل يوم كان السلطان يذهب لممارسة رياضته المفضلة، وعندما يعود إلى القلعة فى نهاية اليوم يأخذ حمامه. وهنا تقدم الخدم الذين اختارتهم " شجرة الدر " لخدمته. وعندما دخل الحمام وخلع ملابسه استسلم لهم كما هو معتاد. فأغلق الخدم عليه الحمام وارتموا عليه وقلبوه فى الماء حتى غرق بالرغم من ندائه طالبا النجدة. ويبدوا أن " شجرة الدر " طلبت فقط الإمساك به وليس قتله. وعندما صاحت لتذكرهم بأوامرها صاح أحدهم ويدعى " محسن الجوجرى ": إذا لم نقتله الآن، فلن يترك أحداً منا أو أنت حيا.

وهكذا مات أيبك فى الحمام. وفى القصر علم الخدم أن السلطان قد اغتيل عندما رأوا المياه المنصرفة ملوثة بالدماء.

فى الليلة نفسها أدركت " شجرة الدر " أنه يجب عليها مواجهة الموالين لزوجها والكثير منهم فى القصر، فأرسلت رسالة تحمل ختم السلطان المتوفى لسلطان حلب فى الشام تطلب منه الحضور على وجه السرعة إلى القاهرة ليتقاسم معها عرش مصر. ولكن سيد حلب لم يكن أقل من سيد دمشق فلم يجرؤ على الذهاب إلى القاهرة فى هذه الظروف.

وعندما رأى خدم القصر المياه الملوثة بالدماء تخرج من الحمام، أعلنوا فى القلعة وهم يصيحون أن سيدهم قد اغتيل. فاقتحم المماليك الأوفياء للسلطان أبواب الحريم وقبضوا على " شجرة الدر " وخدمها. واستطاع " نصر العزيزى " فقط الهرب واللجوء إلى الشام. وكان مماليك " أيبك " يريدون قتل " شجرة الدر " بدون تأخير ولكن المماليك

البحرية الموجودين فى القلعة أثنوهم عن ذلك، قائلين إنه يجب ترك هذا القرار للسلطان الجديد، لذلك تم حبسها فى البرج الأحمر أحد أبراج القلعة.

وكان الوريث الوحيد للعرش والعدو اللدود لها هو ابن " أيبك " من زوجته الأولى الذى أبعدته " شجرة الدر ". لذلك تم إعلانه سلطانا فى عجلة. وترك والدته حرة لتقرر مصير غريمتها. وهنا أدركت " شجرة الدر " أن هذه هى نهايتها. وكان الرجل الوحيد الذى يمكنه إنقاذها هو " بيبرس " ولكنه كان فى الشام أو فى العراق. والرسالة التى كانت قد بعثت بها إليه لم تصله. وكان " أقطاى " قد اعتقله " أيبك " وكتيبته تشتتت. فجمعت " شجرة الدر " كنوزها من المجوهرات والأحجار الكريمة ونبذت فكرة تركها لغريمتها. ووضعتها فى كيس وأخفته فى الرمال.

وقبل أن تأتى أم السلطان لرؤية غريمتها السجينة، قام جوارى الحريم بإلقاء أنفسهن على سيدتهن وأوسعنها ضربا بالقباقيب وقتلوها وألقوا بجسدها من النافذة فى حوش القلعة. وظل جسدها عدة أيام دون أن يجرؤ أحد على الاقتراب منه ودفنها بكرامة أما الخادم الذى قتل السلطان فقد تم صلبه على باب القلعة مع أربعين من الأوفياء " لشجرة الدر " الذين يعتبرون شركاء لها تم تقطيعهم إلى نصفين من أعلى إلى أسفل وعرض جثثهم على صلبان على طول الطريق بين القلعة وباب زويلة. أما الوزير " بهاء الدين بن حنا " الذى يعتبر من الأوفياء للسلطانة فقد حكم عليه بالإعدام. ونجح فى الحصول على عفو بعد أن دفع للسلطان فدية قدرها ٦٠,٠٠٠ دينار ذهبًا. وهكذا فى يوم ١١ أبريل يوم ماتت المرأة الوحيدة فى مصر الإسلامية التى عينت "أميرة للمسلمين" و"سلطانة ".

وصل " بيبرس " إلى القاهرة متأخرا لنجدتها. وقام بدفنها باحترام وبنى لها ضريحا بالقرب من جامع السيدة نفيسة، حامية القاهرة. وبدأ مستقبل " بيبرس " منذ هذه اللحظة، فقد قاد جيش مصر الذى أوقف المغول فى ٣ سبتمبر ١٢٦٠ فى عين جالوت فى فلسطين ومنعهم من الوصول إلى نهر النيل ثم طردهم من الشام وأنقذ الإسلام من أكثر الأخطار التى واجهته. وبعد وقت قصير تخلص من سلطان مصر " قطز " بالسيف وكان قد تخلص من ابن " أيبك ". وأخيرا اعتلى " بيبرس " عرش مصر.

وأصبح من أعظم القادة العسكريين فى العالم وجعل من الجيش المملوكى أكبر قوة عسكرية ضاربة فى العصور الوسطى. وتمكن خلال عشرة أعوام، وبصبر، من الاستيلاء على الأماكن الحصينة فى فلسطين والشام الواحد تلو الآخر من الفرنجة بما فيها حصن الفرسان الذى كان يعرف بأنه لا يقهر. وتوفى " بيبرس " فى ٣٠ يونيو ١٢٧٧ لتناوله طعاما مسموما كان معدا للتخلص من أحد الأمراء الذين دعاهم إلى مائدته.(١)

أما الضريح الذى بناه " بيبرس لشجرة الدر " على الطراز المملوكى فيوجد فى القاهرة بجانب مسجد السيدة نفيسة، هذا المكان كان فى الماضى مقبرة كبيرة فى الصحراء بين القلعة والفسطاط القديمة. أما اليوم فقد امتد العمران إليه واحتوى هذه المقابر.

ويقع مسجد السيدة نفيسة فى ميدان كبير وهو مزين بنافورة جميلة من المرمر الأبيض. وتحيط به مبان حديثة. وتملأ الجماهير الحاشدة دائما المكان. خاصة يوم

(١) يتولى المماليك البحرية السلطة ، ساد العنف فى مصر . هذا العنف لم يمارس فقط على سكان وادى النل حيث غرق الثوار فى دمائهم ولكن بين المماليك أنفسهم .

من عام ١٢٥٠ حتى عام ١٣٨٢ توارث ٢٥ سلطانا من المماليك البحرية تاج القاهرة ، وكان متوسط فترة حكم كل منها خمسة أعوام ، فقط خمسة منهم حكموا لمدة أطول من خمسة أعوام ، وهم :

- أيبك ، زوج شجرة الدر (١٢٥٠ - ١٢٥٧)
- بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧)
- قلاوون (١٢٧٩ - ١٢٩٠)
- الناصر محمد الذى حكم من ١٣١٠ وحتى ١٣٤١ (رقم قياسى) ولكن على ثلاث مراحل : من ١٢٩٣ حتى ١٢٩٤ ثم من ١٢٩٨ وحتى ١٣٠٨ وأخيراً من ١٣١٠ حتى ١٣٤١ . ومنذ وفاته عام ١٣٤١ وحتى ١٣٨٢ توارث ثلاثة عشر سلطاناً خلال ٤١ عاما وهذا يعنى ثلاث سنوات لكل منهم ! لم يموتوا عادة فى اسرتهم ..

لم يكن الوضع مشرقًا فى أوروبا ، فالذين تولوا تاج البابوية فى كنيسة القديس بطرس كانت مدتهم أقل من سلاطين القاهرة من عام ١٢٦٤ وحتى عام ١٣٠٥ نحصى على الأقل ثلاثة عشر ملكًا .

الجمعة للقيام بزيارة السيدة نفيسة حيث يجيء إليها عدد كبير من الزوار من كل الطبقات للتبرك بحامية القاهرة والشكوى إليها وطلب علاج أبنائهم. ويوجد شارع يسمح بالخروج من المكان لتكملة زيارة المقابر ، ويعتبر الآن من الأماكن الحضرية حيث تكثر منازل ومحلات وورش الحرفيين، وبرج تليفزيون وكل شيء يشير إلى أن الحياة تطارد الموت. وعلى بعد مائة أو مائتى متر من الميدان يوجد ضريح " شجرة الدر " محاطا بجامع صغير. الضريح المبنى من الطوب أهمل لعدة قرون. إذ لا يوجد به الآن سوى نقوش بسيطة لا تحمل أى كتابات خارجية.، والداخل خراب. فالأثر لا يعتنى به إلا رسميا حيث إن هذا مكلف. وفى الأبواب الحالية هناك بعض ألواح من الخشب غير مستوية وقد حلت محل الأبواب الأصلية التى اختفت. حطام من كل الأنواع يسد المدخل. حتى الجامع المبنى من الحجر المصقول ما زال جميلا ولكنه تهالك من الداخل فلا أحد يزوره أو يصلى فيه. فالأموات لم يعد لهم مكان فى المدينة الجديدة للأحياء.

وفى الزمالك هذا الحى الراقى فى القاهرة شارع يحمل اسم " شجرة الدر ". ومن الواضح أن مصر اليوم ليس لها ذوق جان دارك الشرق ولا يوجد أحد يتعبد فى " شجرة الدر ". ومن وقت لآخر يتذكر أحد أنها أنقذت مصر فى مواجهة لويس التاسع ملك فرنسا. وآخر يجد فى قصتها موضوعا لرواية أو مسرحية. وشاعر ينظم فيها قصيدة. فالقاهرة الرسمية لم تغفر لها كونها امرأة بينما الرجال هم الذين اختاروها "كأفضل امرأة".

مات لويس التاسع فى تونس فى ٢٥ أغسطس ١٢٧٠ عن ٥٥ عاما، وقرر البارونات أن يؤخذ جثمانه إلى فرنسا. كتب مرشد الملكة مارجريت " الله أراد أن يحتفل العالم بقدسيته ". وجعل بلاط كنيسة فرنسا من الجنازة نصرا لذكرى الملك المتوفى، وتردد أن جثمان لويس التاسع " قد شفى المحدبين والمصابين بالنقرس والمصابين بالقرح والمصابين بالشلل، والفاقدين للذاكرة والمصابين بالحمى " المرضى يذهبون للمس الضريح بالآلاف. العميان أبصروا، والصم سمعوا، والعاجزون استطاعوا السير والموتى أعيدوا إلى الحياة، وسجلت ٦٥ معجزة رسميا، وطلب الملك فيليب (الجميل) من روما تقديس جده.

ولقد تم تقديس لويس التاسع فى عام ١٢٩٧م فى عهد البابا بونيفاس الثامن، وذلك بالرغم من الإهانة التى كان الملك فيليب (الجميل) قد ألحقها بالبابا فى عقر داره فى بلدة آنجنى Anegni ، ورغم إنذار فيليب بإنزال قرار الحرمان الكنسى عليه(*). وفى فرنسا يتم تبديل الأعلام بعلم القديس لويس، الذى سوف يصبح بطلا أسطوريا فى الأناشيد. وسوف يصمت الجميع عن طرح الأسئلة حول سياسته فى شئون الدولة ومسلكه مع جيشه فى أثناء الحرب، وكذلك ينسى سكان الجنوب الفرنسى قضايا الحرمان الكنسى ومشاكل اليهود والتلمود، وما وقع من أحداث للفرنسيين فى مصر.

وفيما بعد، كانت الأكاديمية الفرنسية تحتفل عادة يوم ٢٥ أغسطس من كل عام، بيوم القديس لويس وتخصص خطبة لمدح الملك المقدس. ولكن هذا التقليد نسى بعد الثورة. إلا أن لويس التاسع ظل حتى اليوم أحد الأساطير الخالدة فى التاريخ الفرنسى.[٢]

(*) كان الملك فيليب الرابع (الجميل) قد بعث بنفر من رجاله بقيادة وزيره جيوم دى لوجاريه إلى موطن البابا بونيفاس الثامن فى بلدة أنجنى واقتحم المهاجمون حجرة البابا الخاصة ، فوجدوه يعد قرارا بالحرمان ضد فيليب وصرخ البابا مستنجداً بأتباعه فهرب الفرنسيون عائدين إلى بلادهم . وبعدها قام آل أويسينى باصطحاب البابا المذعور إلى مقره فى روما . ولكنه توفى فى الطريق فى ١١ أكتوبر سنة ١٣٠٣ م . (المراجع)

(٢) الصدفة جعلت الاحتفال بالقديس لويس (٢٥ أغسطس) يحتفل به فى اليوم التالى للقديس بارتلميوس .

Bibliographie

La bibliographie des croisades est immense. En se limitant aux ouvrages écrits en langue arabe, française, anglaise et à quelques ouvrages italiens ou allemands, il y aurait largement de quoi écrire un livre!...

Il m'a semblé utile de diviser cette bibliographie très partielle en plusieurs sections:

— Les sources arabes: livres d'historiens arabes du Moyen Age.

— Les sources latines et françaises, du Moyen Age.

— Les traductions françaises des livres arabes ou plutôt d'extraits de ces livres.

— Les sources anglaises: chroniques ou livres d'histoire du Moyen Age.

— Les ouvrages modernes de référence.

— Les ouvrages traitant des croisades en général ou des rapports Orient/Occident de cette période.

— Les ouvrages traitant plus particulièrement de la période étudiée, soit:

— La 5e croisade dite croisade des Poulains

— La croisade de Frédéric II

— La croisade de saint Louis en Egypte et l'ascension des mamelouks au Caire.

1. Sources arabes

ABU SHAMA: Al Rawdatein Fi Akhbar Al Dawlatein (Le Caire, 1287H/1870)
nouvelle édition préparée par Hilmy Ahmed Le Caire,1962.

AL MAKRIZI: Al Khittat... partiellement traduit en 1902 par E. Blochet sous le titre: Histoire de l'Egypte – G. Wiet en a entrepris une édition partielle critique, 4 Vol. publiés par l'Institut français du Caire «Mémoires»

G. Wiet et A. Raymond ont publié une traduction d'extraits de ce livre sous le titre: Les marchés du Caire – IFAO – Le Caire 1979

Kitab al Suluk Li Marifet Duwal Al Muluk

édition annotée par M. M. Ziyada, Le Caire – en partie traduite par Quatremère sous le titre: Histoire des sultans mamelouks d'Egypte en 2 vol. 1837/1845

IBN WASIL: Muffarij Al Kulub Fi Akhbar Bani Ayyub

édition annotée par le Dr El Shayyal, nouvelle édition par Dar El Kalam, Le Caire

IBN AL ATHIR: Al Kamil fil Tarikh...

(9 vol. Beyrouth 1983/1403 H)

chef-d'œuvre de l'historiographie arabe.

IBN IYAS: Tarikh Misr (Le Caire, 1311 H.)

G. Wiet a publié: Journal d'un bourgeois du Caire – Histoire des Mamelouks, en 2 Vol. 1955/60

IBN AL QALANISI: Zail Tarih Dimask

traduit par Roger Le Tourneau 1952: «Damas de 1075 à 1155»

IBN SHADDAD: Al Nawadir Al Sultaniya ... Le Caire, 1964, édition annotée parle Dr El Shayyal

IBN TAGHRIBIRDI: AL Nujum Al Zahira... Le Caire, 1938

IBN KHALDUN: Traduction française: Le voyage d'Occident et d'Orient, Sindbad, Paris, 1980

IBN IMAD AL HANBALI: Shazarat Al Zahab fi Akhbar man Zahab (Beyrouth)

ABUL FIDA: Kitab Al Mukhtasar fi Akhbar El Bachar

USAMA IBN MUNQUIDH: Kitab Al Itibar – traduit et annoté par le Prof. André Miquel sous le titre: Des enseignements de la Vie – Collection Orientale de l'Imprimerie Nationale, Paris, 1983

IBN AL FURAT: Tarikh al-Duwal wal Nuluk.

Texte et Traduction par U. et N.C. Lyons – 2 vol. Heffer Cambridge 1971 sous le titre «Ayyubids, mamlukes and Crusaders».

II. Sources latines et françaises

— La Bibliothèque des Croisades de Michaud et Reinaud (4 Vol. 1829, Paris) regroupe les principales chroniques latines et françaises de l'époque et notamment:

Foucher de Chartres
Guillaume de Tyr (Manuscrit dit de Rothelin)
L'anonyme de Gesta Francorum...
Jacques de Vitry
Guillaume de Nangis, moine de St Denis
Guillaume de Tripoli, dominicain
Nicolas de Trèves, etc...

– Louis IX a fait lui-même un court récit de sa croisade dans une lettre adressée à Paris (publiée entre autres dans Historiae Francorum Scriptores, Paris 1649, V, pages 428/432).

– Le Recueil des Historiens des Croisades regroupe, d'une part en 5 vol. parus de 1844 à 1895 les principaux historiens occidentaux. Pour la période étudiée soit 1200/1250, les principaux sont:

– Matthieu Paris, chroniqueur anglais auteur de:

– Chronica majora

– Historia minora

– De Joinville: Histoire de saint Louis (Edit. La Pléiade: Historiens et chroniqueurs du Moyen Age)

– Jean Sarrasin: Lettre à Nicolas Arrode... (Edité dans Saint Louis, roi de France, A. Michel, Paris, 1970)

d'autre part: la traduction d'extraits d'auteurs arabes du Moyen Age, en 5 vol. (1872/1906), notamment: Ibn Al Athir, Ibn Shaddad, Ibn Khalaquan, Ibn Djobeir, Ibn Muyassir, Ibn Taghribirdi, Abu Hafez (Kamal el Dine), Abu Shama, etc...

Une première traduction partielle avait déjà paru sous le titre: Chroniques Arabes, traduites et mises en ordre par M. Reinaud, comprenant des textes d'Ibn Al Athir, Abu Shama, Abul Fida, Al Makrizi, etc... ainsi que des extraits de l'Histoire des Patriarches Coptes d'Alexandrie

Récemment: des textes choisis ont été réunis par Fr. Gabrieli, traduits de l'italien (Sindbad, 1977) sous le titre: Chroniques arabes

des Croisades, et par Amin Maalouf: Les croisades vues par les Arabes, Edit. J. C. Lattès, 1984.

III. Sources anglaises

Toutes les chroniques anglaises du Moyen Age ont été réunies dans la célèbre ROLLS SERIES: Chronicles and Memorials of Great Britain and Ireland during the Middle Age. (99 vols. London 1858/1896)

IV. Ouvrages de référence

R. Grousset: Histoire des Croisades (8 Vols) Paris, Tallandier 1981
S. Runciman: A History of the Crusades, Cambridge 1955
K.M. Setton: A History of the Crusades, Philadelphia 1955 (6 Vol.)
Joshua Prawer: Histoire du Royaume Latin de Jérusalem (2 Vol. traduits de l'hébreu CNRS Paris 1975)

V. Ouvrages d'intérêt général

M. Reinaud: Invasion des sarrasins en France, Paris 1836
F. Braudel: La Méditerranée (2 Vol. A. Colin Paris 1986)
G. Duby: L'Europe au Moyen Age (Flammarion 1984)
Cl. Cahen: La Syrie du Nord à l'époque des croisades, Paris 1940
Introduction à l'histoire du monde musulman médiéval, Paris 1982
Orient et Occident au temps des croisades (Aubier Paris 1983)
Cecile Morrisson: Les croisades (PUF 1984)
J. P. Charnay: L'Islam et la guerre (Fayard 1986)
Em. Sivan: L'Islam et la croisade (Maisonneuve 1968)
Réactions musulmanes aux croisades (12e/13e s.) 1967
Aziz S. Atiya: The Crusades in the late Middle Ages (London 1938)
Crusade, commerce and culture (Indiana Press University 1962)
à signaler sa bibliographie des croisades: The Crusade: Historiography and Bibliography (Bloomington, USA, 1962)
S. Lane Pool: A History of Egypt in the Middle Ages (new edition, London, 1952)
The story of Cairo, London 1924
Bernard Lewis: The origin of Ismailism (Cambridge 1940) The Arabs in History (London, 1958), Comment l'Islam a découvert l'Europe (La Découverte, 1984)
Les Assassins (Edit. Complexes Bruxelles 1984)
Maxime Rodinson: Fascination de l'Islam, Introduction Paris 1980

Sigrid Hunke: Le soleil d'Allah brille sur l'Occident (Albin Michel, 1984)
J. Richard: L'esprit de la croisade (Cerf 1969)
G. Wiet: L'Egypte de la conquête arabe à la conquête ottomane (642/1517)
J. Cuoq: Islamisation de la Nubie chrétienne (Guethner Paris 1986)
L. Caetani: Annali dell'Islam, Milano, 1905/1918 en 10 vol. Egalement collection photographique des manuscrits historiques de la Fondation Caetani pour les Etudes Musulmanes, Rome.
James M. Powell: Muslims under Latin rule (1100-1300) (Princeton University Press – 1990).

VI. Ouvrages sur la 5e Croisade

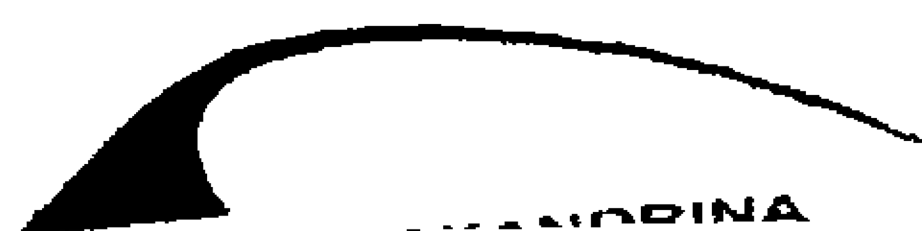
J. P. Donovan: Pelagius and the 5th Crusade, Philadelphia 1950
H. Gottschalk: El Malik El Kamel von Egypten, Wiesbaden 1954
P. Meyer: La prise de Damiette en 1219 (relation en provençal (E. de C. 1877/496/571)
Rohricht: Studien Zur Geschichte des funften Kreuzzuges, Innsbruck, 1891
Chronique d'Ernoul et de Bernard le Trésorier (Edit. L. de Mas Latrie, Paris 1871)
Historia Hierosolymitana, Ed. J. Bongars
Oliver Scholasticus: Historia Damiatina (Ed. H. Hoogeweg)

VII. Sur Frédéric II de Hohenstauffen

Benoît Mechin: Frédéric II de Hohenstauffen, Lib. Perrin, Paris, 1983
Giulio Vismara: Impium Foedus, Milano 1950
P. Wiegler: The infidel Emperor and his struggle against the Pope, London 1930
Cl. Cahen et Chabbouh: Etude sur la lettre de Frédéric II à El Malek El Saleh (Bull. Et. Or. Damas 1978)
P. Boulle: L'étrange croisade de l'Empereur Frédéric II (Paris 1968)
M. Brion: Frédéric II de Hohenstauffen, Paris 1948

VIII. Sur St-François d'Assise et les Missions d'Orient:

M. Roncaglia: San Francesco d'Assisi in Oriente (Studi Francescani L. 1953 - 97/106)



Ecole française de Rome: La Papauté et les Missions d'Orient au Moyen Age
Acta Sanctorum (Paris (1863/1883)
G. Golubovich: San Francesco e i Francescani in Damiate (5. 11. 1219/2. 2. 1220)

IX. Sur la Croisade de Louis IX en Egypte

H. Wallon: Louis IX et son temps, 2 vol. Paris 1895
E. J. Davis: The invasion of Egypt in 1249 by Louis IX of France, London 1898
Ouvrage collectif: Le siècle de St Louis, Hachette 1970
Les propos de St Louis présentés par D. O'Donnell (Archives Julliard/Gallimard 1974) J
Cl. Cahen: St Louis et l'Islam, Journal Asiatique Paris 1970
J. Richard: St Louis, Fayard 1983
G. Bordonove: Les rois qui ont fait la France, St Louis Paris, 1984
M. Pernoud: La reine Blanche, A. Michel, 1982
M. Clevenot: Au coeur du Moyen Age, Nathan 1986
G. Jehel: Aigues Mortes, Ed. Horvath, Roanne 1985
P. Labal: Le siècle de St Louis, PUF 1979
G. Sivery: St Louis et son siècle, Tallandier 1983
L. T. Belgrano: Documenti inediti riguardanti le due Crociate di San Louis IX (1859)
R. Rohricht: Der Kreuzzug Louis IX gegen Damiette (Berlin 1890)

X) Sur SAGAR AL DURR

Hubert de Villez: Les Mémoires de Shadjar (Edit. Maine La Bergerie)
P. Quilicci Bey: Un roi de France prisonnier d'une reine d'Egypte (Cannes 1937)
Gotz Schregle: Die Sultanin Von Egypten Sagaret Ad Durr (Wiesbaden 1961)
Mounira Chapoutot Remadi: Chajar Ad Durr (Tunis)
Ahmed Abdel Razzik: La femme au temps des mamelouks en Egypte (IFAO 1973)
A. de Merionee: Chaqarett El Durr – Bulletin de l'Institut d'Egypte 1888.

En langue arabe:
Mohamed Said Ariane: Shagaret El Durr, Le Caire 1981
Hassan Ali Ibrahim: Dirasat fi tarikh Al Mamalik Al Bahriya, Le Caire 1948

à signaler: la traduction en arabe (il semble que cela soit la première fois) de documents et chroniques européennes relatifs à la première croisade (1095/1099) par le Dr Kassen Abdo Kassem, Le Caire 1985.

Les auteurs arabes du Moyen Age n'ont pas consacré de biographie complète à Sagar Al Durr. Son nom est mentionné dans la plupart des chroniques à l'occasion des événements qui ont marqué son existence, notamment par Al Makrizi, Ibn Khaldun, Al Ayni, Ibn el Imad, Ibn Taghribirdi et d'autres.

XI Documents d'archives

R. Rohricht: Regesta Regni Hierosolymitani (1097-1291)
S. D. Goiten: A Mediterranean Society
Documents of the Cairo Geniza, 5 Vols
Los Angeles, 1967/1988

XII Sur les rapports entre juifs et musulmans à l'époque

S. D. Gotein: Jews and Arabs (Schocken Books N. Y. 1974)
B. Lewis: Juifs en terre d'Islam (Calmann-Lévy 1986)
E. Strauss: A History of the Jews in Egypt under the rule of the Mamelouks, Jerusalem 1944/51 (2 Vols)
S. Baron: History of the Jews (à signaler pour la place réservée aux juifs d'Orient)
Encyclopédie de l'Islam.

المؤلف فـى سـطـور :

ريموند إستامبولى

ولد فى دمشق (سوريا) سنة ١٩٢٣ ، ونشأ وتربى فى القاهرة ، حيث حصل على « الدبلوم » فى اللغة العربية ، وتخرج فى كلية الحقوق ، والاقتصاد والعلوم السياسية – جامعة القاهرة . كما درس فى كلية العلوم الاقتصادية والسياسية فى باريس ، حيث عاش منذ سنة ١٩٥٢ .

المترجمة فـى سـطـور :

عايدة محمد الباجورى

درست فى الكلية الأمريكية بالقاهرة ، وحصلت على ليسانس الآداب فى اللغة الإنجليزية من جامعة الإسكندرية ، وعلى الدكتوراه فى الفلسفة الإسلامية من جامعة السوربون باريس(١) حيث أقامت فى فرنسا لمدة ١٥ عاماً .

لها عدة ترجمات أشهرها :

– إعجاز آيات القرآن فى بيان خلق الإنسان ، للدكتور محمد فياض (إلى اللغة الإنجليزية) .

– الإسكندرية عبر العصور ، الهيئة العامة للتنشيط السياحى (إلى اللغة الإنجليزية) .

المراجع فى سطور :

د . إسحاق عبيد

- أستاذ التاريخ والحضارة ، كلية الآداب جامعة عين شمس .

- دكتواه فى التاريخ الوسيط ، جامعة نوتنجهام ، إنجلترا .

- له العديد من المؤلفات أهمها محاكم التتفيش ، وأوروبا فى بحر الظلمات ، ومعرفة الماضى ، ومصر منارة حوض البحر المتوسط ، وعصر النهضة فى أوروبا ، ومصر بين الهلينية والرومانية .

- شارك فى المؤتمرات الدولية حول حوار الحضارات وأخلاقيات البيئة ، وفضل العرب على العقلية الأوروبية فى العصور الوسطى (صقلية ، وقبرص ، ولندن ، وأكسفورد ، وفيلادلفيا ، وبواتيه فى فرنسا) ، والرباط ، والكويت ، وصنعاء ، وأسوان ، والقاهرة .

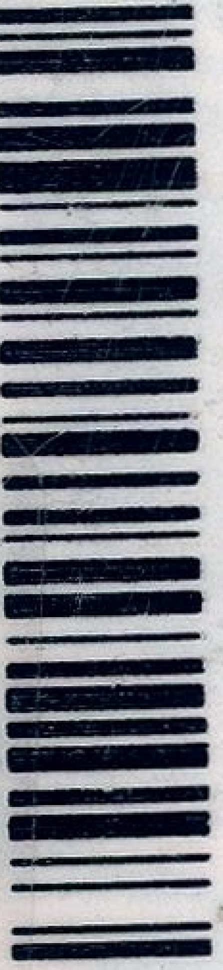
الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز

الإشراف الفنــــى: حســــن كامــــــل



هذا الكتاب قصة تاريخية فرنسية - عربية تروى البداية العاصفة للعلاقات المباشرة بين فرنسا ومصر فى نهاية القرن الثانى عشر والثالث عشر حين شعر الفرنجة بأهمية مصر إبان الحروب الصليبية، وبعد فشل الملوك فيليب أغسطس وريتشارد قلب الأسد وفردريك بربروسا الأول فى القيام بالحملة الصليبية الثالثة؛ حيث لم تستطع الاستيلاء على القدس وتحريرها من قبضة صلاح الدين الأيوبى. وبدا من الواضح أن صلاح الدين لم يسحب قواته من القدس التى كانت بمثابة قلب إمبراطوريته فى مصر؛ فشعر الصليبيون أنه من أجل إعادة الاستيلاء على فلسطين التى كانت المملكة اللاتينية للقدس، لابد من ضرب قوة الأيوبيين فى قلبها أى فى مصر ذاتها، وعلى ذلك فإن مفاتيح أورشليم القدس كانت دومًا فى القاهرة.

ويهدف هذا الكتاب إلى محاولة توضيح كيف أن المصريين خاصة والعرب فى منطقة الشرق الأوسط عامة أدركوا المعنى الحقيقى لتوجه جموع من الفرنجة نحوهم متخذة من الصليب شعارًا. وإذا كانت قوة جوانفيل وج. ساراسين اللذين رافقا لويس التاسع إلى مصر ساعدت فى تعزيز وشرح وجهة نظر الفرنجة، فإنه فى الوقت نفسه لم يكن لدى المؤرخين العرب الحساسية نفسها تجاه قصص الورع التى أحاطت "بملك ملوك فرنسا" كما يسمونه، والذى أ فيما بعد يعرف فى فرنسا بالقديس لويس.



تصميم الغلاف: عبد العزيز السماحى